

حملة لؤي التاسع عشر على مصر
وهزيمته في المنصورة

تأليف
محمد مصطفى زيادة

المجلس الأعلى للبحوث والاداب والعلوم والآثار

جملۃ لويس التاسع على مصر
وهزيمته في المصوّرة

جملہ لويس التاسع على مصر وہزيمتہ في المنصورة

تأليف

محمد مصطفى زيادة

(سابقاً)

استاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة والآداب والعلوم الإسلامية

قام بتأليف هذا الكتاب ، بناء على تكليف خاص من المجلس
الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة
أستاذ تاريخ المعمور الوسطى ، ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً ، وعضو لجنة التاريخ
والآثار بالمجلس .

تَصْدِيرُ

نقطة البداية في هذا البحث قيام الحروب الصليبية ، وما تولّد عن تلك الحروب من تفكير صليبي ، للاستيلاء على مصر ، دون تحديدٍ بحادثة بذاتها ، أو بسنة هجرية أو ميلادية مختارة . والحروب الصليبية نفسها حركة أوربية اعتدائية – توسعية – استمدّت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب ، ومن توغّل الفتوح العربية الإسلامية الأولى في أطراف الإمبراطورية البيزنطية ، وفي أجواف الممالك المسيحية الغربية ، في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، وجزر البحر المتوسط . وتضاف إلى هذه العوامل العالمية الكبرى ، عوامل أوربية محلية ، وهذه ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، وإلى صميم التاريخ الأوربى فى ذلك القرن .

بعبارة أخرى ، ليست فاتحة هذا البحث مشروعاً للملك الفرنسى لويس التاسع ، فى سبيل استيلاءٍ صليبيٍّ على مصر ، بل تفكير زعماء الصليبيين السابقين جميعاً فى ذلك المشروع ، فى صورةٍ أو أخرى ، منذ أخذت أرجال الحملة الصليبية المعروفة بالأولى تصل كَتَرَى إلى الشام ، أى قبل وصول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطئ المصرية ، بنحو مائة وخمسين سنة .

ولذا سوف يبدأ هذا البحث من البداية ، أى منذ الحلول الصليبي الأول بالشام ، وتأسيس دولة بيت المقدس الصليبية بفلسطين ، سنة ١٠٩٩ م ، مع التنبيه هنا بأن طول المسافة الزمنية ، بين الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، وحملة الملك لويس التاسع على مصر ، لا يمحو شيئاً من الواقع التاريخى ، وهو أن الملك لويس التاسع ينتهى نسبه الصليبي إلى

(و)

جودفرى دى بويون ، أول حكام دولة بيت المقدس الصليبية ، وأول المفكرين من أولئك الحكام فى الاستيلاء على مصر . وكلا الرجلين فرنسى ، وما بينهما من شخصيات وحوادث صليبية كثيرة ، لا يعدو أن يكون سلسلة نبتت بعضها من بعض ، فى حلقات زمنية متصلة متحمسة ، ومزاجها إلحاح عنيد ، للاستيلاء على البلاد المصرية .

وبالقياس إلى الملك لويس التاسع ونسبته الصليبية ، تبدو شخصية السلطان الصالح نجم الدين أيوب كذلك واضحة جلية ، فهو الذى تلقى مطالع الزحف الصليبي على مصر بقيادة الملك لويس التاسع ، وهو السليل الحقيقى لعمّه الأعلى ، أى للسلطان صلاح الدين الأيوبي نفسه ، فى الجهاد العام ضدّ الصليبيين ، فى مصر والشام . على أن هذا القياس يكشف عن فارق كبير بين الأيوبيين والصليبيين ، وهو أنه على حين جنح سلاطين الأسرة الأيوبية عموماً إلى سياسة المهادنة نحو الصليبيين بالشام ، مع اليقظة للجهاد الدفاعى فى أى وقت من الأوقات ، لم يأل ملوك أوربا والبابوية جهداً فى تكرار الاعتداء على مصر ، مرة بعد أخرى ، منذ قيام الحروب الصليبية بالشام ، وهو ما سوف يتضح للقارىء فى الصفحات التمهيدية لهذا البحث .

ومن البديهي أن تجرى الكتابة - فى هذه الصفحات التمهيدية - على وتيرة إجمالية متدرّجة نحو التوسع النسبي ، ليكون الدخول بعد ذلك فى صلب الموضوع ، على مستوى واحدٍ من التفصيل والتحليل ، وهو ما تمليه قواعد التناسب التاريخي ، والتوزيع والتركيز . غير أن هذا البحث ، كغيره من البحوث التاريخية الكبرى ، يستطيع أن يطلّ عليه مختلف المؤرخين من زوايا مختلفة ، ومن منظور تاريخي محدود لكل واحدٍ منهم بجغرافيته ، وقوميته وحضارته . وليس معنى هذا أن اختلاف الزوايا يغيّر الحقائق التاريخية ، أو يؤثر فى ترتيبها الزمني ، بل معناه أنه يغيّر النظرة إلى تلك الحقائق التاريخية

(ز)

تغيراً كفيلاً بعرضها في أبعاد وأشكال مختلفة ، وتقويمها قيماً متنوعةً تصل أحياناً إلى درجة العكسية والتضاد ، ولا سيما عند تعارض المصالح القومية الطبيعية :

وهكذا لا يستطيع المؤرخ الفرنسي الحديث ، على سبيل المثال ، أن يرى في حملة الملك لويس التاسع وهزيمته في المنصورة ، ما يراه المؤرخ العربي المصري ، إذ الأول معتدٍ والثاني معتدًى عليه ، والاثنان لا يتفقان ، مع العلم بأن الجانب العربي المصري هنا هو الجدير بالتقدير والاعتبار ؛ لكن كلاً من هذين الطرفين المختلفين ، لا يستطيع أن يغير شيئاً من الحوادث التاريخية التي حدثت ، مع العلم بأن هذه الحوادث التي حوّلت معسكر المنصورة من منزلة حرية من منازل السلاطين الأيوبيين ، على فرع دمياط ، إلى مقبرة لأطماع فرنسية صليبية ، هي بذاتها الحوادث التي جعلت مدينة المنصورة الحالية موضع مجدٍ من أمجاد التاريخ المصري ، في مرحلة من أشدّ مراحل حرجاً في التاريخ كله .

ومنذ سنوات مضت ، أعددتُ نفسي لكتابة هذا الموضوع ، فجمعتُ ما استطعت من مادة تاريخية معاصرة ومتأخرة ، وغربلتها واختزنتها في مودع الآمال ، ولم يبق إلا أن أجد الوقت المتصل لكي أنصرف إلى الكتابة . ثم تعاقتُ السنون ، واندفتُ أوراق هذه المادة التاريخية تحت أوراق أخرى ، ولم أستخرج منها إلا بمقدار ما احتجتُ إليه في أعمال التدريس والمحاضرة ، بقسم للتاريخ بكلية الآداب ، بجامعة القاهرة . ثم كلفني المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بتأليف كتاب في هذا العنوان وموضوعه ، ولولا ما أعددتُ واختزنتُ سابقاً من مادة ما استطعت الإمام بمراجعته الكثيرة ، أصلية وثانوية ، عربية وغير عربية ، لالتهاء من هذا البحث في الوقت المحدد له .

(ح)

ومن المعروف أن الجزء الأكبر من مادة هذا البحث يأتي من مراجع أجنبية ، وهذه مكتوبة طبعاً في نغمة صليبية ، ومن زاويتها ، على عكس المراجع العربية التي يتكوّن منها الجزء الآخر من مادة هذا البحث . ولذا ينبغي للكاتب العربي المصري أن يكون على حذرٍ دائمٍ من مادة المراجع الأجنبية ، وأن يفرّق بين مفهوم لفظ " أعداء " ، كما تستعمله هذه المراجع ، ومفهومه عنده ، وأن يذكر دائماً زاويته التي ينظر ويرى منها ، ليكتب كتابة تاريخية خالصة ، لخدمة القارئ العربي الجديد .

ومن باب التدليل والبرهان على سلامة هذا التنبيه جعلتُ في آخر هذا البحث ملحقين ، من مرجعين متعاصرين متضادين ؛ وأولهما القاضي جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموى ، وهو أهمّ المراجع العربية وأوفاهما في حوادث حملة الملك لويس التاسع في مصر ، وثانيهما جوفانفيل ، وهو مؤرخ فرنسي شاهد عيان ، لا يدانيه غيره في بعض النواحي الوصفية لحوادث تلك الحملة الصليبية الفرنسية ، ولا سيما وقعة جديلة الكبرى ، وهي التي اشترك فيها جوفانفيل بكتيبته وشخصه . وبفضل هذين الملحقين استطعتُ كذلك أن أوفّر على القارئ متابعة الكثير من الحواشي ، في صفحات هذا البحث ، مع العلم بأنّي أوردتُ هذين الملحقين بعد استئذان زميليّ وصديقيّ ، وهما الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد الشيال الذي يقوم على نشر تاريخ ابن واصل ، والدكتور حسن حبشي الذي يشتغل بترجمة تاريخ جوفانفيل إلى اللغة العربية ، منذ سنين .

ويوجد هنا ، عدا هذين الملحقين ، خمس لوحات توضيحية ، منقولاً من الكتب الأجنبية المعروفة في تاريخ الملك لويس التاسع وحملته على مصر ، وهي لوحات تصف بعض حوادث هذه الحملة ، ومعظمها مرسوم بعد مائتين وسبعين سنة من تلك الحوادث ؛ والفضل في حصولي على ثلاثٍ من هذه اللوحات يرجع إلى زميلي وصديقي الدكتور جوزيف نسيم يوسف :

(ط)

وبالإضافة إلى هذه اللوحات ، يوجد عدد من الخرائط التخطيطية ، في ثنايا هذا البحث ، ليستعين بها القارئ على ضبط مواضع البلاد والقري المتعلقة بحملة الملك لويس التاسع ، وما سبقها من الحملات الصليبية على مصر .

وفي سبيل خدمة القارئ العربي ، رأيتُ كذلك أن أحقق بنفسى مواضع البلاد والأماكن التي تتعلق بهذه الحملة وحدها ، لا من الخرائط التفصيلية الدقيقة التي تصدرها مصلحة المساحة المصرية ، بل عن طريق الزيارة الخاصة ، والبحث التؤدة ، والرؤية العينية غير المستعجلة . ولذا سافرتُ إلى دمياط ، أواخر شهر سبتمبر سنة ١٩٦٠ م ، صحبة صديقي العالم الأثري حسن عبد الوهاب ، ووقفتُ أولَ ما وقفتُ عند اللسان الحاجز بين النيل والبحر المتوسط ، وهو الموضع الذي أُرست بقربه السفن الصليبية ، غداة وصولها إلى الشواطئ المصرية . ثم مشيتُ في طول مصيف رأس البرّ الحالى ، بعد أن غدا خالياً من زحمة المصيّفين ، ووصلتُ إلى جنوبيّ هذا المصيف ، عند قرية الجربي وجزيرة الرملة الصفراء ؛ وكان هذا الموضع معروفاً في العصور الوسطى باسم جزيرة دمياط ، وهو الذي اجتازت عليه حملة لويس التاسع نهر النيل وقتذاك إلى برج السلسلة . ولذا عبرتُ النيل من هناك إلى برج السلسلة ، وهو البرج الذي زحف منه الصليبيون إلى دمياط القديمة ، ولا يزال اسمه مقروناً باسم عزبة البرج الحالية . وهذه الأماكن والمواضع كلها لا يوجد من بقاياها ، فيما رأيتُ وشهدتُ ، سوى أسمائها ، ما عدا جامع أبي المعاطي القديم ، وقبة فاتح الأسمر ، والمنشية ، حيث توجد مقابر دمياط الحالية . ثم ذهبتُ من دمياط إلى فارسكور جنوباً ، في محاذاة الشاطئ الشرقي للنيل ، كما فعل الصليبيون من قبل ، ووقفتُ عند منية الحولى عبد الله ، وشرمساح ، والبرمون ، كما وقفتُ حملة لويس التاسع ؛ واخترقتُ هذه البلاد كلها ، من مداخلها على الطريق الزراعى العام إلى سواحلها على النيل . ثم

(ى)

وصلتُ أخيراً إلى المنصورة ، حيثُ أقمتُ بضعة أيام ، ذهبتُ في أثنائها إلى جديلة ، وموضع مخاضة سلمون ، كما زرتُ موضع دار ابن لقمان ، حيثُ أمضى الملك لويس معظم أيام أسره بالبلاد المصرية .

ولكلّ من هذه المواضع والأماكن قصة في أخبار لويس التاسع وحملته على مصر ، برغم خلوّ معظمها من أية بقية أثرية دالة على علاقتها بهذه الحملة . على أنى استطعتُ بهذه الزيارة أن أشهد مواضع حملة لويس التاسع وهزيمته ، وأن أعيش لحظات حيّة نادرة ، مع بعض رجال الجيش المصرى الأيوبي ، وهم الذين أبلوا أحسن البلاء في تلك الأيام . وأرجو أن تظهر للقارئ ثمرة هذه الزيارة القصيرة ، كما أرجو أن يقوم من هو أكثر منى بصيرةً وقدرةً على التنقيب الأثرى ، بعملية مساحية تفصيلية لهذه المنطقة كلها ، لتصوير ملامحها الطبيعية ، وكتابة جغرافيتها التاريخية ، مع ملاحظة ما طرأ عليها من تغيرات وتعديلات ، بسبب أعمال مياه النيل ، وليونة التربة الطينية ، وانعدام الصخور والأرض الصخرية .

وأودّ هنا أن أحيي نهضتنا العربية الكبرى بهذا البحث الصغير ، وأن أتقدّم به مشفوعاً بملء صفحاته شكراً دائماً إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، لسهره فيما يسهر على توجيه هذه النهضة الواعية الناشطة ، وحرصه فيما يحرص على تنشئة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فضلاً عن غيره من المجالس العلمية العليا ، التابعة لرياسة الجمهورية ، لتكون هذه المجالس مشاعل منيرةً ، هاديةً للطرق والمسالك المؤدية إلى المعرفة ، والفضيلة ، والمواطنة الطيبة ، والحيو العام .

ثم أقدم الشكر إلى السيد كمال الدين حسين ، نائب رئيس الجمهورية للإدارة المحلية ، ورئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لتكليفى بتأليف هذا الكتاب ، والسماح لى بمهلة إضافية استثنائية ، للتمكن من إنجازهِ على وجه جدير بالقارئ العربى الجديد . وأقدم الشكر

(ك)

كذلك إلى لجنة التاريخ والآثار بالمجلس ، وإلى مقرّها الأستاذ عبد الرحمن الرافعي ، لاقتراحها قيامي بزيارة منطقة دمياط والمنصورة ، على النحو الذي شرحتُ .

ثم أقدم بعد ذلك كلماتٍ شكرٍ إلى جميع الذين عاونوني في إخراج هذا الكتاب ، وهم زملائي وأصدقائي الذين أمدوني بكثيرٍ من الاقتراح الطيب ، والنصيحة العلمية السديدة ، ومنهم الدكتور مصطفى مسعد ، والدكتور إبراهيم أحمد العدوي ، لمساعدة كلٍّ منهما لي بدوره ، في إعداد الخرائط التخطيطية ، وقراءة تجارب المطبعة قبل اعتمادى إياها للطبع ، وهذا فضلاً عن الاشتراك في عمل الفهرس الأيجدي . وأشكر كذلك السيد حسن عادل ، بقسم التحرير والنشر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لحرصه على تسهيل النواحي الإدارية في هذا العمل ، كما أشكر لعمال المطبعة بلجنة التأليف والترجمة والنشر صبرهم معي ، من أجل إخراج هذا الكتاب ، في المستوى اللائق بالمكتبة العربية الجديدة .

محمد مصطفى زبارة

مصر الجديدة } ٢ ذوالقعدة ١٣٨٠ هـ
١٨ أبريل ١٩٦١ م

محتوى هذا الكتاب

صفحة	
تصدير	(٥ - ك)
قائمة اللوحات	(م)
قائمة الخرائط	(ن)
قائمة الفصول	(س) ١ - ٢٦٢
ملاحق	٢٦٣ - ٣٣٧
مراجع عربية وأجنبية	٣٣٩ - ٣٤٣
فهرس أبجدى	٣٤٤ - ٣٥٤

قائمة اللوحات

- لوحة رقم ١ ، بين صفحتي ١١٢ ، ١١٣ .
رسول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطئ المصرية ونزولها إلى البر قبالة
دمياط القديمة .
- لوحة رقم ٢ ، بين صفحتي ١٦٠ - ١٦١ .
معركة المنصورة .
- لوحة رقم ٣ ، بين صفحتي ٢٠٩ ، ٢١٠ .
صورة لملندوبى الأسرى الصليبيين ، وهم يستمعون إلى أحد مندوبى السلطان تورانشاه .
- لوحة رقم ٤ ، بين صفحتي ٢٦٠ - ٢٦١ .
صورة تبين الملك لويس التاسع فى الأسر ، وبجانبه أحد أخويه اللذين وقعا فى الأسر
معه ، بمدينة المنصورة .
- لوحة رقم ٥ ، بين صفحتي ٢٦٦ - ٢٥٧ .
صورة تمثال من الخشب للملك لويس التاسع بعد رجوعه إلى فرنسا .

قائمة الخرائط

صفحة	
١٥	خريطة رقم ١ حملة أموري الأولى على مصر ، سنة ١١٦٤ م
١٩	خريطة رقم ٢ حملة أموري الثانية على مصر ، سنة ١١٦٧ م
٢١	خريطة رقم ٣ حملة أموري الثالثة على مصر ، سنة ١١٦٨ م
٢٥	خريطة رقم ٤ حملة أموري الرابعة على مصر ، سنة ١١٦٩ م
٤٧	خريطة رقم ٥ حملة حنابرين على مصر ، سنة ١٢١٨ - ١٢٢١ م
١٠٥	خريطة رقم ٦ حملة الملك لويس التاسع على مصر ، سنة ١٢٤٩ م
١٥١	خريطة رقم ٧ وصول فرقة الطليعة الصليبية بقيادة روبرت كونت أرتوا إلى المنصورة
١٨١	خريطة رقم ٨ معركة مسجد النصر النهرية
١٩٥	خريطة رقم ٩ الانسحاب الصليبي العام

قائمة الفصول

صفحة

الفصل الأول

مصر ومملكة بيت المقدس ١ - ٢٦
١٠٩٧ - ١١٩٣ م = ٤٩٢ - ٥٩١ هـ

الفصل الثاني

نشأة مدينة المنصورة ٣٠٧ - ٥٩
١٢١٩ م = ٦٦١ هـ

الفصل الثالث

الهدنة بين المسلمين والصليبيين ٦٠ - ٨٦
١٢٢١ - ١٢٤٨ م = ٦١٨ - ٦٤٦ هـ

الفصل الرابع

لويس التاسع واستيلاؤه على دمياط ٨٧ - ١١٥
١٢٤٥ - ١٢٥٠ م = ٦٤٣ - ٦٤٨ هـ

الفصل الخامس

معركة المنصورة ١١٦ - ١٦٤
الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م = ٤ ذو القعدة سنة ٦٤٧ هـ

الفصل السادس

هزيمة لويس التاسع وأسره ١٦٥ - ٢١١
الأربعاء ٦ أبريل سنة ١٢٥٠ م = ٢ المحرم سنة ٦٤٨ هـ

الفصل السابع

جلاء الصليبيين عن دمياط ٢١٢ - ٢٦٢
الأحد ٨ مايو سنة ١٢٥٠ م - ٤ صفر سنة ٦٤٨ هـ

الفصل الأول

مصر ومملكة بيت المقدس

١٠٩٧ - ١١٩٣ م = ٤٩٢ - ٥٩١ هـ

الإقليم المصرى من الجمهورية العربية المتحدة مركز جغرافى عظيم الجاذبية ، وسط مجتمع بناؤه السياسى عربى إسلامى بالشرق الأوسط ، منذ ألف وثلاثمائة وعشرين سنة ، على وجه التدقيق . واحتوى هذا المركز فيما احتوى حتى ظهور الإسلام على دفائن فرعونية ، وعناصر قبطية ، وبقايا يونانية رومانية بيزنطية على التعاقب ، وهى بقايا من حضارات بادت بعضها تحت بعض درجات مختلفة ، من حيث المزايا والبقايا والآثار . وظلّ هذا المركز الجغرافى الجذاب أعظم إغراء سياسيا للمجتمع الأوروبى المسيحى من سائر المراكز العربية الإسلامية الأخرى ، بالشرق الأوسط ، وغدا لذلك أكثر تعرضا لما يتحرك أو يرتكض بين أحشاء المجتمع المسيحى الأوروبى من حركات توسعية سياسية ، أو اقتصادية ، أو دينية ، أو هذه كلها مجتمعة فى حركة طامة واحدة ، كما حدث عند قيام الحروب الصليبية ، ووصول جيوشها من مختلف بلاد غرب أوربا إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، فى طريقها إلى الشرق الأوسط^(١) ، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

(١) الجديد فى هذا الفصل وما يليه من الفصول هو الزاوية التى يكتب منها المؤلف ، لأن هذه الزاوية بوضعها الجغرافى والثقافى الحاضر تكشف ولا ريب عن منظور تاريخى معين ، دون أى تغيير فى الحقائق المتواترة فى مؤلفات الحروب الصليبية . أما هذه المؤلفات فأحدثها فى اللغة الفرنسية (R. Grousset : Histoire des Croisades, 3 Vo's. Plon, Paris, 1934-1936) ، وفى اللغة الإنجليزية (S. Runciman : A Hist. of the Crusades. 3 Vols, Cambridge, 1951-1954) ؛ وليس يوجد فى اللغة العربية حتى العصر الحاضر ما يمكن أن يوازى هذين =

وتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية وقتذاك ألكسيوس الأول كومنين ، وهو رجل واسع الحيلة خبير بأحوال الدول المجاورة جميعها . أما في الشرق الأوسط فكانت شئون الحكم في مصر في أيدي الخلافة الفاطمية الشيعية ووزيرها القدير الأفضل شاهنشاه ، وشئون الحكم في سائر البلاد الشرقية في أيدي أبناء البيت السلجوقي السني وفروعه وأتابكته ، فضلا عن عدد كبير من الأمراء الأتراك والتركمان والعرب المستقلين ، بمدينة أو أخرى من المدن الكبرى بآسيا الصغرى وأعلى الفرات والشام ، مع وجود الخلافة العباسية في بغداد . واشتدت روح العداوة المذهبية والبغضاء السياسي المتبادل بين الفاطميين والسلاجقة ، كما اشتد التناحر بين أرباب المدن الإسلامية المستقلة ، مما مهد للزحف الصليبي بالشرق الأوسط أعظم تمهيد ، وذلك قبل أن تعبر الجيوش الصليبية من القسطنطينية إلى آسيا الصغرى والشام .

وبينما تجرى مفاوضات بين الإمبراطور ألكسيوس كومنين وقادة الجيوش الصليبية حول مستقبل العلاقات والولاءات بين الطرفين ، أشار الإمبراطور بوجوب استغلال ما بين السلاجقة والفاطميين من عداوة ، بالاتفاق مع الخلافة الفاطمية على اقتسام الممتلكات السلجوقية في الشام . ويبدو أن الإمبراطور ألكسيوس أرسل إلى القاهرة بتفاصيل ما أشار به على قادة الجيوش الصليبية ، بدليل وصول سفارة فاطمية إلى معسكر

= المرجعين الكبيرين ، من حيث التعمق في البحث ، مع العلم بحاجة المكتبة العربية إلى مؤلف عام مشابه .

أما المراجع الأصلية التي كتبها شهود العيان والمعاصرون في أخبار المسلمين والصليبيين ، فهي كثيرة متفاوتة القيم ، في اللاتينية والعربية وغيرهما من اللغات ، ويجب الرجوع إلى أسماء مجموعاتها الشهيرة ، في قوائم المراجع الواردة بكل جزء من أجزاء المرجع الثاني الإنجليزي المذكور هنا ، وأعظم هذه المجموعات ما هو معروف باسم : 14 (Recueil des Historiens des Croisades, 14

. Vols., Paris 1841—1906)

الصلبيين في ربيع سنة ١٠٩٨ م ، وهم وقتذاك على حصار أنطاكية بشمال الشام . وتقدمت هذه السفارة بمشروع تقسيمى خلاصته أن يقنع الصليبيون بما سوف يفتحونه من بلاد الشام الشمالى ، وأن يتركوا البلاد الجنوبية — أى فلسطين الحالية — لتستولى عليها الجيوش الفاطمية من السلاجقة . ودارت حول ذلك المشروع مفاوضات ظلت عدة أسابيع ، ورجع المفوضون الفاطميون إلى القاهرة باتفاقات وإشارات عامة تقترح انتظار الحوادث ، قبل الوصول إلى تفاهم نهائى ؛ ووصل إلى القاهرة مع أولئك المفوضين وفد صليبي صغير ، وعدد كبير من الهدايا الفخمة .

ثم سقطت مدينة أنطاكية في أيدي الصليبيين في يونيه ١٠٩٨ م ، ودلت خيبة المحاولات التى قام بها حلف من الأمراء الأتراك المسلمين لإنقاذ أنطاكية من أيدي سادتها الجدد ، على أن المقاومة السلجوقية التركية ضد الصليبيين انهارت تماما . ثم أخذت الجيوش الصليبية تستعد للزحف جنوباً ، على حين ظل الوفد الصليبي الصغير بالقاهرة لا يحرك ساكناً . وعند ذاك تراءى واضحاً للوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه أن الصليبيين لا يريدون اتفاقاً مع الدولة الفاطمية ، وأن الوفد الصليبي الصغير لا يملك شيئاً نهائياً أو مؤقتاً على أية حال ، وأن البصيرة السياسية تشير بجنى ثمرات انهيار المقاومة التركية ضد الصليبيين قبل فوات الأوان . لذا زحفت الجيوش الفاطمية المصرية على فلسطين ، وانتزعت مدينة بيت المقدس من أيدي حاميتها السلجوقية في أغسطس سنة ١٠٩٨ م ، ولم تلبث الجيوش الفاطمية المصرية أن استولت على فلسطين كلها ، وصارت الحد الفاصل بينها وبين الصليبيين خطاً ممتداً من الساحل شمال بيروت ، على طول مجرى نهر العاصى .

غير أنه لم يمض عام حتى جاء الصليبيون إلى بيت المقدس ، وحاصروها حتى سقطت في أيديهم في يونيه ١٠٩٩ م ، وسلمت حاميتها الفاطمية المصرية

وقائدها افتخار الدولة بأمان لم يطبقه الصليبيون على السكان ، من المسلمين واليهود ، بل كللوا دخولهم المظفر بمذبحة كان لها أسوأ الأثر في تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ، طول العصور الوسطى .

الواضح من هذه الإشارات العابرة ، بصدد الحوادث الصليبية الأولى في الشرق الأوسط . أن مصر قامت بدور غير ضئيل منذ بداية هذه الحوادث . وظلت مصر على هذه الحال إيجاباً وسلباً متناسباً مع أحوال الدولة الفاطمية ، حتى أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ، فاحتجت لدى أول حاكم في دولة بيت المقدس الصليبية ، وهو جودفري دي بويون ، على نقض روح الاتفاقات التي جرت والصليبيون على حصار أنطاكية ، وهددت بإخراجهم من فلسطين . ولذا قامت الجنود والسفن الفاطمية المصرية بالهجوم على القوات الصليبية عند عسقلان وأرسوف وحيفا ، وأواخر سنة ١٠٩٩ م ؛ وإذا كانت هذه المحاولات المتعددة لم تأت بأية نتيجة انتصارية ، بل أدت إلى هزيمة فاطمية في عسقلان ، فإنها دفعت جودفري دي بويون أخيراً إلى فكرة الاستيلاء على مصر . وأعلن جودفري استعداداه للتنازل عن مركزه في الدولة الصليبية في بيت المقدس ، بعد تنفيذ هذه الفكرة ، لكنه مات في يولييه سنة ١١٠٠ م ، قبل أن يشرع في تنفيذ فكرته .

بينما تجرى هذه الحوادث مجراها ، انحرف فرع من الجيوش الصليبية الرئيسية ، وهي لا تزال في آسيا الصغرى ، واتخذ طريقاً جانبياً شرقياً ، بقيادة بلدوين أخى جودفري دي بويون ، على حين كان التيار الصليبي الرئيسي يسير جنوباً نحو أطراف الشام . واستقر هذا الفرع الجانبي أخيراً في مدينة الرها ، في أعلى الفرات الأرمني ، حيث أسس بلدوين لنفسه إمارة شهيرة بقصة تأسيسها على حين غفلة من أهلها الأرمن المسيحيين . على أن موضع الأهمية في إقامة هذه الإمارة الصليبية في أعلى الفرات ، قبل أن تصل الجيوش الصليبية الرئيسية إلى بيت المقدس ، هو أولاً أن الحركة الصليبية

دلت على اتجاهات توسيعية نائية جغرافياً عن فلسطين ، وثانياً أن زعماء الصليبيين حتى الأولين منهم لم يكن غرضهم جميعاً خدمة الدين فحسب ، وثالثاً أن أحد أولئك الزعماء - وهو بلدوين أمير الرها - ورث أخاه جودفرى فى الدولة الصليبية بيت المقدس ، بعد أن انتقل إليها وأعلنها ملكية سافرة ، وأعلن نفسه ملكاً متوجاً على طريقة الملوك السياسيين ؛ وتم ذلك ليلة عيد الميلاد - أى ٢٥ ديسمبر - سنة ١١٠٠ م .

وأدرك الملك بلدوين أن الدولة الفاطمية هى منبع الخطر الناشط على مملكته الجديدة ، وأن أحسن وسائل الدفاع عن هذه المملكة هو البداية بهجمات خاطفة جريئة على المراكز الفاطمية . على أن هذه الهجمات لم تكن كفيلة بالنجاح الصليبي المطلوب ، بل إن سوء خطط القادة الفاطميين ، وقلة تنسيقها فى البر والبحر ، هى التى رجحت كفة بلدوين سنة بعد أخرى ، كما جعلت أطراف مملكة بيت المقدس تقترب رويداً رويداً من الأطراف المصرية . وهكذا غدت هذه المملكة ، منذ سنة ١١١٥ م ، مسيطرة على جميع فلسطين والساحل من بيروت إلى قرب العريش ، ما عدا مينائى صور فى الشمال وعسقلان فى الجنوب ، وما عدا كذلك طريق جبلى ممتد من الطرف الجنوبى للبحر الميت إلى ميناء أيلة على خليج العقبة ، وهو الطريق المشرف على صحراء النقب الحالية .

وانطلق بلدوين نحو هذه الجهات فى تلك السنة ، وراح يستكشف أجزاءها ، وبنى قلعة الكرك ، ووصل أخيراً إلى خليج العقبة وميناء أيلة سنة ١١١٦ م . ومن ثم سار بلدوين نحو جبل موسى فى شبه جزيرة سينا ، ووصل إلى قرب دير سان كاترين ، وأرسل كتيبة صغيرة من الفرسان عدتها أربعون فارساً - على ما قيل - لمفاوضة رهبان الدير ، لإمداده بالمعلومات اللازمة والمؤونة الضرورية للزحف إلى أطراف الدلتا . غير أن الرهبان امتنعوا عن القيام بأية مساعدة ، خشية أن يصل الخبر بذلك إلى السلطات الفاطمية التى أحسنت مثواهم ومعاملتهم ، منذ سنين . لذا رجع

الفرسان الصليبيون أدراجهم ، وتصدى لهم بعض عربان الصحراء ، وأبادوهم ، ولم يبق منهم سوى اسمهم العددي - أى الأربعين - وهو اسم لمكان يعرفه أهل شبه جزيرة سينا ورهبانها حتى العصر الحاضر ، وينسبونه إلى فرسان بلدوين ، أو بردويل كما تقول المراجع العربية .

ثم رأى بلدوين أن يعيد الكرة على الأراضى المصرية من طريق آخر سنة ١١١٨ م ، فحاول كشف الطريق الشمالى إليها من ناحية العريش ورفع ، وأعدّ لذلك فرقة صليبية مكونة من ستائة من الفرسان والرجالة . ويتضح من عدد هذه الفرقة ، كما يتضح من أنواع أسلحتها الخفيفة ، أن بلدوين لم يقصد بمشروع إغارته هذه سوى الاستكشاف فى الأراضى المصرية ، والتمهيد بذلك لحملة صليبية ثقيلة فى المستقبل القريب . وزحف بلدوين بفرقته ، وأوغل بها إيغالا جريئاً ، معتمداً على سرعته وخفة حركته ، فوصل إلى رفح ليلاً ، وبغتها بالإغارة عليها فى الظلام ، وهو لا يدرى أنه على موعد مع القدر ، فى بضعة أسابيع . ذلك أنه أعقب إغارته على رفح بالتقدم فى اليوم التالى على طول الأراضى الساحلية السبخة حتى الفرما (بلوزيوم) ، شرقى بورفؤاد الحالية ، فذعرت حاميتها لاقترابه منها ، ولاذت بالفرار . وأشعل بلدوين النار فى قلعة الفرما ، كما أشعلها فى قلعة جزيرة تنيس ، وموضعها على مسافة قصيرة من مصب الفرع البلوزى للنيل فى الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة . وأمعن بلدوين فى التمهّل بجزيرة تنيس حتى بدت فرقته الصليبية كأنها فى نزهة ، وأعجبته أنواع الأسماك فى طعامه ، فأكثر من أكلها مرة بعد مرة حتى أصيب بتخمة أدت إلى مرضه . وخشى بلدوين من ازدياد هذا المرض به ، وهو بعيد عن مملكته ، فأمر فرقته الصليبية بالاستعداد للعودة ، وعاد هو معها محمولا فى محفة ، لعجزه عن السير أو الركوب . واستطاع بلدوين أن يصل فى صعوبة إلى العريش ، ومات

هناك في أبريل سنة ١١١٨ م ، وخلف بها اسما يطلقه السكان حتى العصر الحاضر على كثير من المعالم الجغرافية المجاورة ، وهي سبخة البردويل ، وشبه جزيرة البردويل ، ومحطة البردويل ، وكلها نسبة إلى الملك الذي أغار على الأطراف المصرية مرتين ، والدولة الصليبية لم تبلغ من العمر عشرين سنة . وهذا الملك هو الذي دُلت بمغامرته في تأسيس إمارة الرها أن الحركة الصليبية تنطوي على أغراض توسعية ، وهاهو يدل على هذه التوسعية مرة أخرى ، بإغارته على الأطراف المصرية ، رغبة منه - فيما يبدو - في تحقيق فكرة أخيه جودفرى دى بويون في الاستيلاء على مصر . وبعد موت بلدوين الأول بثلاثة أعوام ، توفي الأفضل شاهنشاه وزير الدولة الفاطمية ، وهو الوزير الذي سيطر على شئون تلك الدولة تمام السيطرة داخليا وخارجيا مدة ربع قرن ، وهو صاحب مشروع الاتفاق الأول مع الصليبيين ، وإليه يرجع تطور السياسة الفاطمية - بعد انهيار ذلك الاتفاق - إلى عدااء ضد مملكة بيت المقدس ، وإلى إرسال الحملات العسكرية الفاطمية في البر والبحر لدفع القوات الصليبية عن فلسطين . وهذا الوزير كذلك هو صاحب الفضل في سياسة الحلف بين الدولة الفاطمية وإمارة دمشق السنية المستقلة ، وأميرها الأتابك طغتكين التركي السلجوقي ، أملا في الهجوم على مملكة بيت المقدس من ناحيتين في وقت واحد . ونجح الوزير الأفضل في تحقيق هذه السياسة إلى حد كبير ، وتمنى طغتكين اتباعها حين صارت له مقاليد الزعامة ضد الصليبيين في فلسطين بعد وفاة الأفضل . غير أن هذه السياسة لم تغير من الأوضاع القائمة شيئا ، بسبب الاضطرابات الداخلية التي أقعدت الدولة الفاطمية عن القيام من ناحيتها بأي هجوم جدي ضد الصليبيين ، فضلا عن اضطراب طغتكين إلى الانصراف أحيانا كثيرة لمساعدة إمارة حلب ضد الصليبيين الشماليين . ثم توفي طغتكين كذلك ، أوائل سنة ١١٢٨ م ، دون أن

يخلف أحداً من عياره في دمشق أو القاهرة ، لزعامة الحرب ضد مملكة بيت المقدس الصليبية .

ولذا تحولت حركة المقاومة ضد الصليبيين نحو محور جديد بدأ من الموصل وامتد إلى حلب ، وسيطر على طرفيه منذ ١١٢٩ م أتابك تركي آخر من أتابكة السلاجقة ، وهو عماد الدين زنكي الذي لم يلبث أن أضحي أقوى شخصية إسلامية في زمنه .

وهنا يتطلب الموضوع وقفة قصيرة لتسجيل بعض الحقائق التي لا بد من معرفتها ، لفهم ما أعقب ظهور زنكي من حوادث الشرق الأوسط كله . ذلك أن الصدقة جمعت سنة ١١٣٢ م بين الأتابك عماد الدين زنكي وأخوين كرديين هما نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، وأولهما أبو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية في مصر والشام فيما بعد . ووقعت هذه الصدقة التاريخية حين وصل زنكي إلى قرب قلعة تكريت منهزماً يريد عبور نهر دجلة ، حتى لا يقع بجيشه فريسة باردة في أيدي أعدائه من جنود الخلافة العباسية والسلاجقة الناقمين عليه وقتذاك . وساعد حاكم تلك القلعة - وهو نجم الدين أيوب - الأتابك زنكي على العبور ، والوصول سالماً إلى الموصل ؛ ومن هذه المروءة نشأت صداقة متينة بين زنكي وأيوب وشيركوه .

ثم حدث سنة ١١٣٨ م ما حمل الأخوين الكرديين أيوب وشيركوه على الرحيل بأهلهم في شيء من السرعة ليلاً عن تكريت ، ويقال إن مولد صلاح الدين يوسف بن أيوب تلك الليلة لم يؤخر ذلك الرحيل ، مما ينبئ بأن سبباً خطيراً هو الذي دعا إلى انتقال الأخوين وأهلهم عن تكريت . وذهب أيوب وشيركوه إلى زنكي بالموصل ، ودخلا في خدمته ، واشتركا في حروبه ، وهدفها وقتذاك الاستيلاء على إمارة دمشق ، تمهيداً لتكوين جبهة إسلامية مثلثة العواصم والقوى ، لإخراج

الصلبيين جميعاً من فلسطين والشام . ولذا زحف زنكى للمرة الثانية نحو دمشق سنة ١١٣٩ م ، على أنه قنع من ذلك الزحف باستيلاء قائديه شيركوه وأيوب على حصص وبعليك ، دون قتال ، وكلا البلدين من أملاك دمشق . ثم لم يلبث شيركوه أن تعين حاكماً على حصص ، كما تعين أيوب حاكماً على بعليك ؛ وترتب على ذلك ارتقاء دمشق وإمارتها في أحضان الصليبيين ومملكة بيت المقدس ، لعدة سنين .

على أن زنكى استطاع أن يخطو بمشروع توحيد الجبهة الإسلامية خطوة معنوية من نوع آخر ، إذ استولى على الرها بعد حصارها ، في ديسمبر ١١٤٤ م ، وعلى سروج في يناير سنة ١١٤٥ م ، وختم بذلك على الحركة الصليبية الضاغطة على أعالي الفرات والأطراف الفراتية . ثم توفي زنكى في سبتمبر سنة ١١٤٦ م ، إذ اغتاله خادم له وهو على حصار قلعة جعبر الواقعة على الطريق الواصل من الفرات إلى دمشق .

وبدت وفاة زنكى فرصة لبعض أمراء البلاد الإسلامية والصلبية أن يستردوا بلادهم من أبناء البيت الزنكى وورثته ، ومن تلك البلاد بعليك التي استردها أمراؤها الدمشقيون . ولم يقو حاكمها نجم الدين أيوب على دفعهم عنها ، ففضل الرضوخ للأمر الواقع ، بأن ظل في بعليك والياً تابعاً لإمارة دمشق ، ولم يلبث أن أوغل في سياستها الداخلية والخارجية . أما شيركوه فانتقل إلى خدمة نور الدين محمود بن زنكى بحلب ، ولم يلبث هو الآخر أن صار القائد العام في الدولة النورية الممتدة من الرها إلى حماة وحصص ، وهي الدولة التي نشأ فيها صلاح الدين يوسف الأيوبي .

وفي تلك الأثناء وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالثانية إلى ساحل الشام ، بقيادة لويس السابع ملك فرنسا ، وغرضها الذي تحركت من أوروبا

من أجله استرداد الرها من أيدي ورثة زنكي . لكن هذه الحملة قررت في حق عجيب ، بتأثير من الصليبيين المحليين ، أن تحاول الاستيلاء على دمشق ، وهي الإمارة الصديقة عموماً للصليبيين حتى وقتذاك . ولذا حاصرت جيوش هذه الحملة دمشق حصاراً فجائياً ، ودخلت ضواحيها في غير خجل ، ثم اضطرت هذه الجيوش إلى الرجوع عن الحصار نهائياً في يولييه سنة ١١٤٨ م ، بعد أن أوضحت للعالم الإسلامي قيمة الصداقة الصليبية ، كما أوضحها سابقاً أيام الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه والحملة الصليبية المعروفة بالأولى .

وأثارت هذه الحماقة الصليبية نور الدين نحو محاولات متلاحقة للاستيلاء على دمشق ، سواء عن طريق الزحف المباشر ، أو التحريض الداخلي ، أو المفاوضات . وبينما هو يتحين الفرص لهذه المحاولات المتنوعة ، سنة بعد أخرى ، كان بلدوين الثالث ملك بيت المقدس يعمل بدوره للاستيلاء على عسقلان ، وهي آخر الممتلكات الفاطمية بفلسطين . وأرسل الوزير الفاطمي وقتذاك ، وهو علي بن السلار ، الفارس العربي الشهير أسامة بن منقذ الشيزري إلى حلب ، لطلب المساعدة الحربية من نور الدين . غير أن أسامة وجد نور الدين مشغولاً بإحدى محاولاته نحو دمشق ، فعاد من عنده بغير نتيجة^(١) . وأخيراً سقطت عسقلان في أيدي الصليبيين ، بعد حصار قصير في أغسطس سنة ١١٥٣ م ، وولى بلدوين الثالث عليها أخاه أموري كونت يافا ، وصار أموري بذلك كونت يافا وعسقلان .

وجعل نور الدين من سقوط عسقلان سبباً لتشديد محاولاته نحو دمشق ، وأمعن في تشديده عليها حتى سلمت له ودخلها بنفسه في أبريل

(١) انظر أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار - نشر فيليب حقي - ، ص ٦ - ١٤ ،

حيث شرح هذا الفارس العربي المعروف بنشاطه في الدوائر الإسلامية والصليبية تفاصيل مهمته هذه شرحاً وافياً .

سنة ١١٥٤ م ، بفضل جهود دبلوماسية ماهرة قام بها كل من الأخوين أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب ، هذا بصفته قائد الجيوش النورية ، ورسول نور الدين إلى الدماشقة ، وذاك بصفته والى بعلبك التابعة لأمرأء دمشق .

وأخذت الأوضاع والاتجاهات السياسية تتغير تغيراً كبيراً بسبب ما حدث بعسقلان ودمشق ، إذ انتهت ممتلكات الدولة الفاطمية بفلسطين بذهاب عسقلان ، وتبين أن الفاطميين لم يعودوا قادرين على الوقوف في وجه جيوش مملكة بيت المقدس ، وأنهم باتوا في حال داخلية طافحة بالفتن والمؤامرات . ثم إن مملكة بيت المقدس أضحت مسيطرة على عموم فلسطين ، وفي نية ملكها بلدوين الثالث أن يجرب حظّه جنوباً ، بالزحف نحو الأطراف المصرية . أما الدولة النورية فعدت كما أنشأها نور الدين مثلثة العواصم ، وهي بحكم توحيدها أقوى كثيراً من مملكة بيت المقدس .

وفي هذه الدولة النورية بلغ الأخوين أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب ذروة النفوذ والمجد ، إذ تعين شيركوه نائباً للسلطان في العاصمة حلب ، وصار له أقطاع كبير بجمص ، كما تعين نجم الدين أيوب حاكماً على دمشق ، وميزه نور الدين على سائر رجال دولته بإعطائه حق الجلوس في حضرته ، رعاية لسابق مودته وعلاقته بأبيه زنكي . وأما الشاب صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، وهو الذي سوف يدور حوله مستقبل الحوادث ، فليس يوجد بالمراجع الأصلية المعروفة ما يشرح تفاصيل حياته وقتذاك ، ما عدا أنه عاش في البلاط النوري بدمشق وحلب ، وأنه تقلب في بيئة عالية ، ولا بد أنه قضى معظم أيامه في دراسة علوم طبقة الاجتماعية وفنونها . ويستخلص كذلك مما هو معروف من إشارات مبعثرة في ذلك الصدد ، أن السلطان نور الدين عيّن الشاب صلاح الدين ، وهو في الحادية والعشرين من

عمره ، أى سنة ١١٦٠ م ، فى وظيفة شحنة دمشق ، وهى وظيفة رئيس الشرطة والأمن بها .

وفى تلك السنة كانت أخبار المتاعب الداخلية فى الدولة الفاطمية تملأ الآذان ، واستغل بلدوين الثالث هذه الحال بالتهديد بغزو البلاد المصرية ، ولم يرجع عن تهديده إلا بعد أن وعده الوزير ابن رزيك ، باسم الخليفة الطفل العاضد ، بجزية سنوية مقدارها ٠٠٠ ر ١٦٠ دينار . ومات بلدوين الثالث سنة ١١٦٢ م ، وتولى حكم مملكة بيت المقدس بعده أخوه أمورى الأول ، دون أن تقوم القاهرة بدفع شىء من هذه الجزية .

ثم ازدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءاً بمقتل الوزير ابن رزيك وابنه ، وحلول شاور حاكم الصعيد فى الوزارة ، وهروب شاور من القاهرة بعد عزله من الوزارة على يد حاجبه ضرغام . ولذا اتخذ أمورى الأول من مسألة الجزية ذريعة ، وأغار فجأة على الأطراف المصرية ، فعبر برزخ السويس فى سبتمبر سنة ١١٦٣ م ، ووصل إلى مصب الفرع البلوزى من النيل ، وحاصر الفرما (بلوزيوم) . وتصدى له ضرغام ، وقطع بعض جسور الفرع البلوزى ، والنيل وقتذاك فى أواسط أيام الفيضان ، فاضطر أمورى إلى التقهقر والرجوع أدراجه إلى فلسطين .

وبعد ذلك بقليل ظهر الوزير شاور فى البلاط النورى بدمشق ، وطلب من نور الدين أن ينجده بحملة يستعيد بها مركزه فى القاهرة ، مقابل أربعة شروط مغرية ، وهى أن يدفع شاور نفقات الحملة المطلوبة ، وأن ينزل عن بعض الأطراف المصرية لنور الدين ، وأن يعترف بسلطان نور الدين على مصر عامة ، وأن يؤدى جزية سنوية للبلاط النورى ، مقدارها ثلث الإيرادات المصرية . ومع هذا كله تردد نور الدين ، ثم استجاب أخيراً فى أبريل سنة ١١٦٤ م ، وأرسل مع شاور أعظم أصحاب ثقته وقتذاك ، وهو أسد الدين شيركوه ، على رأس حملة كبيرة إلى مصر .

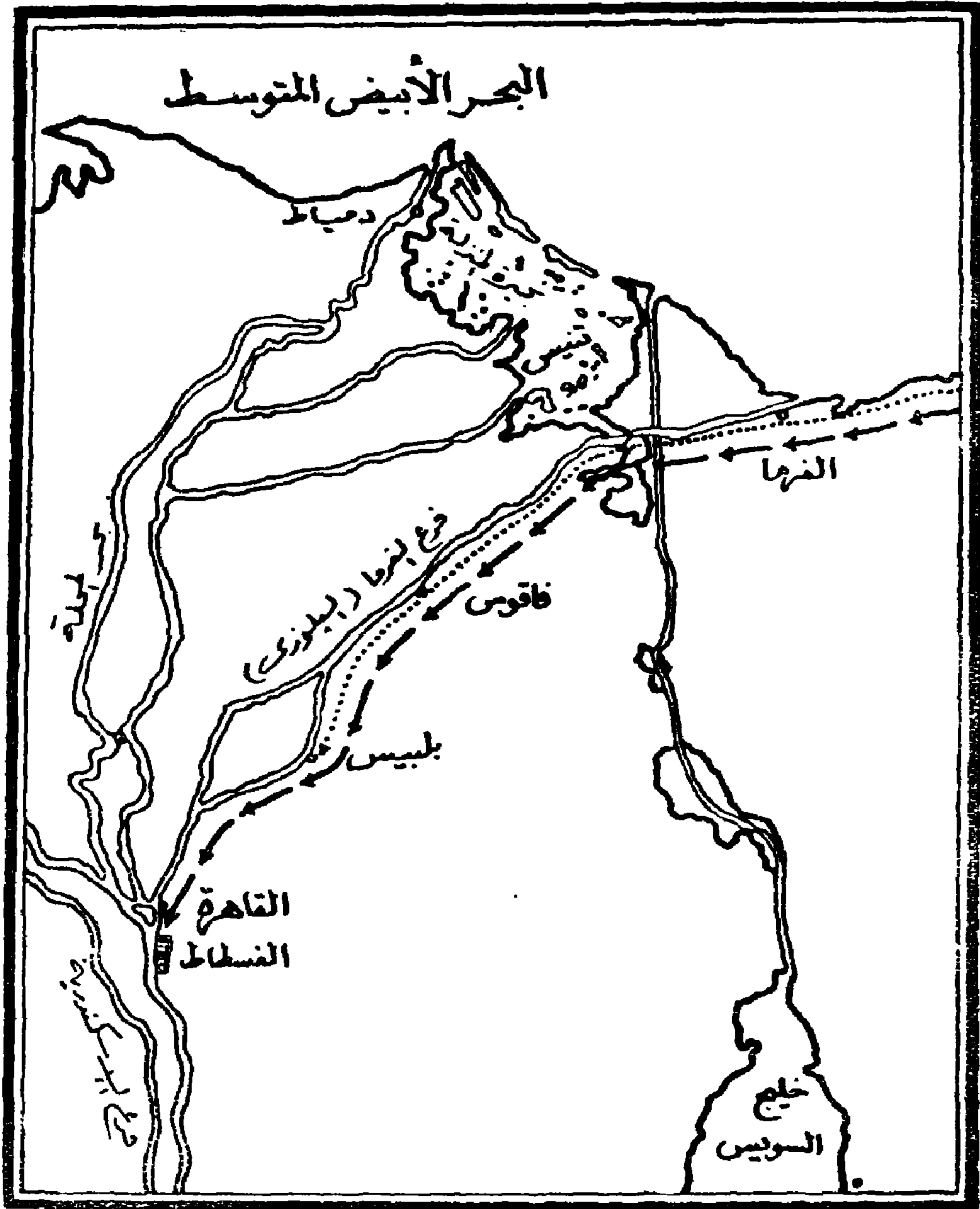
وذهب مع هذه الحملة صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعمره وقتذاك سبع وعشرون سنة . وعلم ضرغام بما استقر عليه الاتفاق بين شاور ونور الدين ، فأرسل إلى أموري يطالب كذلك منه النجدة ؛ وتحركت حملة صليبية لهذا الغرض نحو مصر . وهكذا عمداً كل من المتنافسين الاثنين على الوزارة الفاطمية إلى اللعب بالنار ، وتغالى كل منهما في اللعب بها حتى التهمت كلا منهما بدوره ، مع العلم بأن هذه النار هي التي أضاءت الطريق لصلاح الدين يوسف ابن أيوب . ومهدت لظهوره . وهكذا كذلك تطورت السياسة النورية والصليبية إلى سباق ميدانه الرئيسي شرق الدلتا ، من الفرما إلى القاهرة ، وفرسانه نور الدين وشيركوه وصلاح الدين وأموري ، وعدة من بارونات مملكة بيت المقدس . ووراء هؤلاء وأولئك شاور من ناحية ، وضرغام من ناحية أخرى ؛ وأهمهم جميعاً صلاح الدين وأموري ، وكلاهما دون الثلاثين من العمر . ومعنى هذا أن صار محتوماً على مصر أن تظل جزءاً جوهرياً لمعترك الحروب الصليبية ، لا هامشاً عرضياً من هوامشه ، وأن تغدو أخبارها جديرة بالتفصيل والتعليل ، ما بقى ذلك المعترك الصليبي مفتوحاً لحركات التسابق والتنافس بين الصليبيين والنوريين ، داخل الأراضي المصرية .

واستطاعت الحملة النورية بقيادة شيركوه أن تصل إلى الفرما ، قبل أن يتمكن أموري من الوقوف في طريقها أو اللحاق بها . وانهزم قائد الحامية الفاطمية •المرابطة بالفرما ، وزحف شيركوه نحو القاهرة ، وضرب معسكره عند أسوارها . وبذا استعاد شاور مركزه ، ولا سيما بعد مقتل ضرغام ، ورجعت إليه الوزارة ، وصار صاحب السلطان في الدولة الفاطمية مرة أخرى . غير أنه نكث بتعهداته كلها ، وأبى أن يسمح لشيركوه بالدخول إلى القاهرة ، بل طلب إليه أن يعود إلى الشام .

ورفض شركوه الرضوخ لهذه المعاملة ، فراجع قليلا إلى الوراء ، واحتل بليس ، علماً منه بأنها مفتاح الطريق إلى القاهرة . عند ذلك انقلب شاور إلى الجانب الصليبي ، واستنجد بالملك أمورى ، وبذل له وعوداً عريضة على عاداته ، ومنها نفقات الحملة الصليبية كلها . ولبى أمورى الدعوة ، ووصل إلى فاقوس الحالية في أغسطس سنة ١١٦٤ م ، حيث انضم إلى قوات شاور ، وتقدم الاثنان إلى حصار بليس^(١) . غير أن شركوه استطاع أن يقاوم الحصار ثلاثة أشهر طويلة ، واضطر أمورى أخيراً إلى رفع الحصار والاتفاق على رحيل النورين والصليبيين معاً عن الأراضي المصرية ، في وقت واحد . وكان منبغ اضطراب أمورى إلى هذا الاتفاق وصول الأخبار إليه بقيام نور الدين بهجوم على الأراضي الصليبية بشمال الشام ، أملاً في تخفيف الضغط عن شركوه بمصر ؛ وهذه المناورة هي التي ألزمتها نور الدين في كثير من حركاته في السنوات التالية ، حرصاً منه - فيما يبدو - على الاشتراك بنصيب شخصي في الاستيلاء على مصر .

لم يكن من المنتظر بعد ذلك أن يخلو الجو للوزير شاور في داخل الدولة الفاطمية أواخرها ، إذ أخذ أمورى يغرى رجال الحكم في مملكته بفوائد الاستيلاء على مصر ، ويفاوض من أجل ذلك إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين ، كما أخذ شركوه من ناحيته يغرى نور الدين بنفس المشروع . والواقع أن شركوه منذ رجوعه من بليس لم يبرح يعمل على إقناع نور الدين بضرورة العودة إلى غزو مصر ، قبل احتمال تغلب شاور على صعوباته الداخلية ، وقبل إمكان هجوم أمورى فجأة على الأراضي المصرية مرة أخرى . واستطاع شركوه أخيراً أن يحصل من نور الدين على الإذن له بتجهيز حملة جديدة للزحف على مصر أواخر سنة ١١٦٦ م ، بعد أن أقنع الخليفة العباسي ببغداد بإعلان هذا الزحف جهاداً سنياً ضد الخلافة الفاطمية الشيعية .

(١) انظر الخريطة رقم ١ ، وهي المقابلة لهذه الصفحة .



خط سير الحملات
 جيش نور الدين —————

الخريطة رقم ١

حملة أموري الأولى على مصر ، سنة ١١٦٤ م .

وخرج شيركوه من دمشق بحملته الثانية هذه على مصر في يناير سنة ١١٦٧م ، وصحبته كذلك صلاح الدين يوسف . ولم يكن لدى شاور إلا أن يستنجد بالملك أموري ، فأنجده أموري بحملة صليبية مكونة من جيش مملكة بيت المقدس بأكمله . ووصلت الحملتان النورية والصليبية إلى الأراضي المصرية في وقت واحد تقريبا ، دون أن يرى أحد الفريقين غريمه ، وذلك لأن كلا من الجيشين زحف نحو القاهرة عن طريق مخالف ، عبر مديرية الشرقية الحالية . ثم سار شيركوه جنوبا حتى نزل على إطفيح ، الواقعة على النيل قبالة العياط الحالية ، على مسافة أربعين كيلو متراً تقريباً جنوب القاهرة ، وعبر النيل عندها ، ومن هناك زحف شمالا حتى وصل إلى البحيزة ، حيث أقام معسكره . أما أموري فسار على طريق فاقوس ، وبليس ، واستقبله شاور خارج القاهرة ، وأنزله في موضع مختار على الشاطئ الشرقى للنيل ، في منتصف الطريق بين القاهرة والفسطاط . وهناك عقد شاور مع أموري اتفاقا خلاصته أن تدفع الخلافة الفاطمية لمملكة بيت المقدس مائتي ألف دينار معجلة ، ومثلها فيما بعد ، على شرط أن يقطع أموري عل نفسه ألا يرحل إلى مملكة بيت المقدس إلا بعد إجلاء شيركوه عن مصر . وأرسل أموري صحبة شاور سفيرين من رجاله العارفين باللغة العربية ، وهما هيو حاكم قيصرية وجودفري رئيس هيئة الفرسان الداوية ، لعقد معاهدة رسمية بهذه الشروط ، مع الخليفة العاضد نفسه ووصل السفيران إلى القاهرة ، ودخلا القصر الفاطمي الكبير ، واستقبلهما الخليفة الطفل ، وصادق على المعاهدة مصافحة بالأيدي ، وهو جالس على عرش كبير من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة ، وحول عمامته الصغيرة نقاب منسدل يخفي وجهه تماماً^(١) .

(١) (William of Tyre : History ed. Babcock, II, pp. 320—321) ،

حيث يوجد وصف رائع لشخص الخليفة العاضد ، وما شهدته السفيران الصليبيان بالقصر الفاطمي من ذخائر ومراسيم . انظر كذلك المرحوم زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٧١ - ٧٦ ، وما به من مراجع .

أما الجيشان النورى والصليبي فظلا متواجهين على شاطئ النيل مدة شهر تقريباً ، ثم قرر أمورى ومعه شاور أن يعبر الجيش الصليبي ، وهو الأكبر عدداً ، إلى برّ الجزيرة ، عن طريق جزيرة الطين (جزيرة الذهب الحالية) ، ولم يلبث أن هجم بغتة على فرقة من جيش شيركوه بالجزيرة . عند ذلك رأى شيركوه أن يتقهقر جنوباً حتى جنوبي المنيا الحالية ، وعبر النيل إلى مدينة الأشمونين ، وعسكر بها لمدة قليلة ، وفي حسابه أن يرجع بجيشه في سرعة إلى برزخ السويس ، ليقطع خط الرجعة تماماً على أمورى وجيشه . غير أن أمورى لحق بشيركوه قرب الأشمونين عند بلدة اسمها البابين ، وهناك دارت معركة بين الطرفين في مارس سنة ١١٦٧ م ، وكان للشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب من النصر فيها نصيب ملحوظ . ولم يشأ شيركوه بعد ذلك أن يزحف شمالاً نحو القاهرة ، بل عبر النيل مرة أخرى ، وقصد إلى الفيوم ، ومنها إلى الإسكندرية ، وهما من الأقاليم الكارمة للوزير شاور وسياسته ، والخلافة الفاطمية وميولها الصليبية^(١) .

وأعطت هذه الحركات الطويلة أمورى وشاور فرصة لتنظيم قوات صليبية فاطمية جديدة للزحف على الإسكندرية ، وحصار شيركوه وجيشه بها . واشتركت في ذلك الحصار جنود وسفن صليبية وصلت خصيصاً إلى الشواطئ المصرية ، وبذا تم حصار الإسكندرية برّاً وبحراً . ولذا لم يلبث شيركوه أن أحس بحرج موقفه ، فترك صلاح الدين لمقاومة الحصار ، وخرج خلسة من الإسكندرية في مايو سنة ١١٦٧ م ، يريد أن يجمع من الصعيد مالا ورجالا لتكوين قوة تكفل له الوقوف في وجه أمورى وشاور ، فضلاً عن رفع الحصار عن الإسكندرية . وأرسل شيركوه في نفس الوقت يعرض على أمورى فكرة جلاء الجيشين النورى والصليبي

(١) انظر الخريطة رقم ٢ ، ص ١٩ .

عن مصر في غير قيد أو شرط ، ما عدا الحصول من شاور على وعد بعدم الانتقام من أهل الإسكندرية وغيرها من البلاد التي عاونت الجيش النورى بالرجال والأموال . ووافق أمورى على ذلك ، بعد أن وصل إليه الخبر بقيام نور الدين بحركات حربية ضد بعض المواقع الصليبية بالشام ، على عادته . ثم أخذ الجيشان النورى والصليبي في الجلاء عن الأراضي المصرية في أغسطس سنة ١١٦٧ م ، فأخلى صلاح الدين الإسكندرية ولحق بعمه ، ووصل الاثنان معاً إلى دمشق أواسط الشهر التالى . أما أمورى فلم يترك مصر إلا بعد أن عقد مع شاور اتفاقية مكتوبة ، ومن شروطها دفع جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار للصليبيين ، وقبول معتمد صليبي مقيم بالقاهرة على رأس حامية صليبية صغيرة تتوزع بين أبوابها . وبذا خالف أمورى مبدأ الجلاء بلا قيد ولا شرط ، على عكس ما فعل شيركوه ، وخلق بهذه المخالفة مشروع سباق نورى صليبي ثالث ميدانه الأراضي المصرية ، كالمعتاد :

والواقع أن قصة السباق لم تتم فصولاً برحيل أمورى وشيركوه للمرة الثانية عن مصر ، لأنه فضلاً عن الاتفاقية المكتوبة ونتائجها المستقبلية ، أخذ المحيطون بالملك أمورى في الإلحاح عليه منذ أواسط سنة ١١٦٨ م بضرورة الاستيلاء على مصر ، قبل فوات الفرصة ، لأن الدولة الفاطمية توشك على الانهيار ، ولأن شاور لم يقم بدفع الجزية المقررة ، وهو على أية حال غير مأمون الجانب ، ولأن أخباراً وصلت من عند رجال الحامية الصليبية بالقاهرة تنبئ بأن ابن شاور - واسمه كامل - يفاوض شيركوه في المجيء إلى مصر ، وفي الزواج من أخت صلاح الدين . واقتنع أمورى بهذه الأسباب ، وأرسل إلى إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين يعرض عليه الاشتراك في حملة مزدوجة على مصر ، وذهب المؤرخ الصليبي الشهير وليام الصورى للمفاوضة في ذلك ، وعاد من القسطنطينية

في خريف سنة ١١٦٨ م ، بمعاهدة خلاصتها أن يقوم الملك والإمبراطور بالاستيلاء على مصر ، واقتسامها فيما بينهما^(١) .

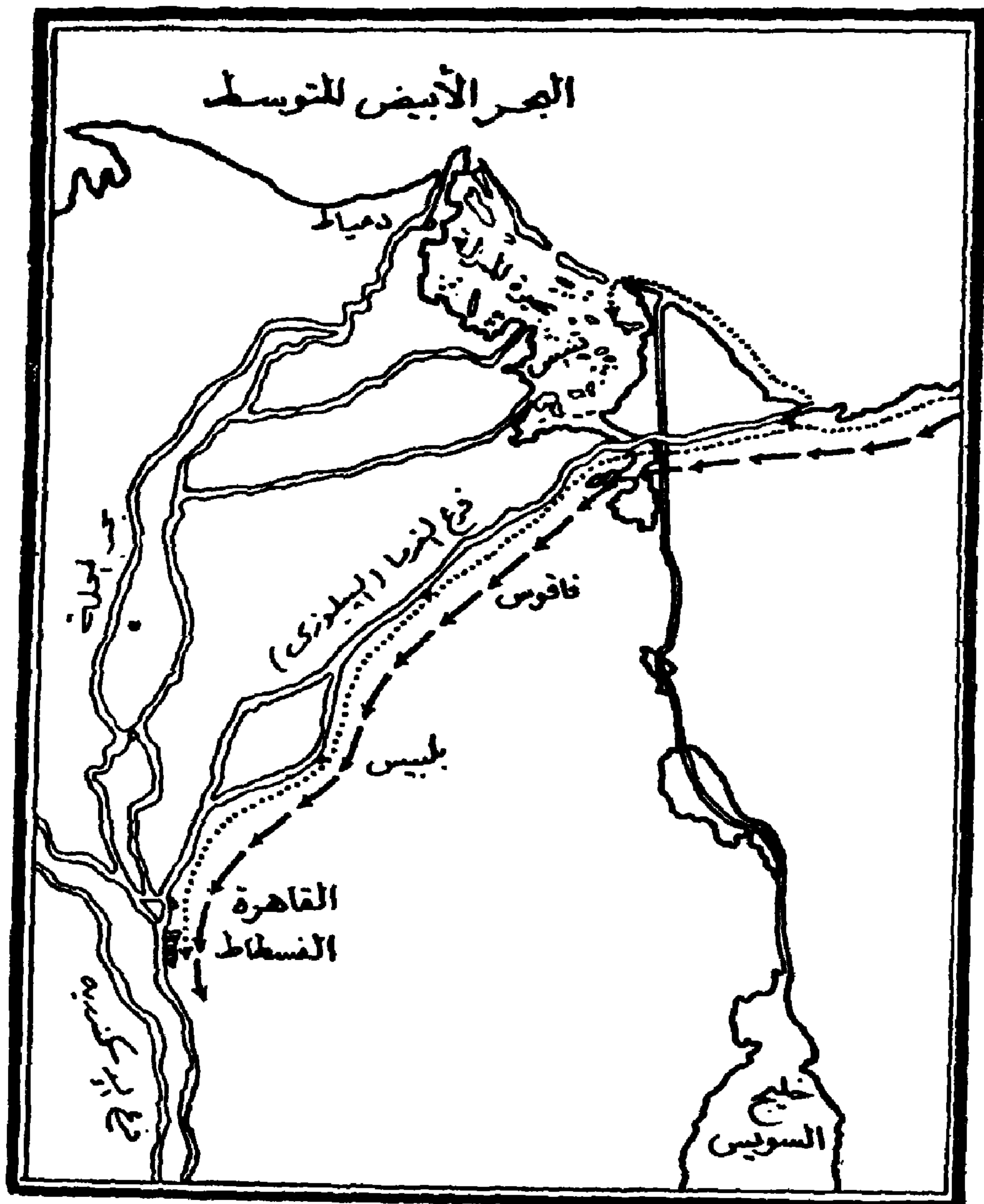
غير أن رجال مملكة بيت المقدس لم ينتظروا حتى عودة وليام الصوري من القسطنطينية ، بل حملوا أموري على المسير سريعاً بحملته الثالثة إلى مصر ، فوصل إلى بلبس في أواخر أكتوبر سنة ١١٦٨ م . وانهارت حامية بلبس بقيادة طي بن شاور أمام هجوم أموري . واستباح العساكر الصليبية بلبس نفسها ، وأحدثت السفن الصليبية بمدينة تنيس ببحيرة المنزلة مثلما أحدثت العساكر بأخها بلبس . ثم زحف أموري نحو القاهرة ، وأقام معسكره عند الفسطاط ، على حين عسكرت فرقة صليبية عند ضاحية المطرية الحالية ، قريبا من المسلة المعروفة هناك . وخشى شاور أن يعجز عن الدفاع عن الفسطاط ضد هذا الزحف الصليبي السريع ، فأشعل فيها نارا لا تزال آثارها باقية في خرائبها حتى العصر الحاضر ، وأرسل إلى أموري أنه سوف يضرم النار كذلك بالقاهرة ، إذا حاول الصليبيون الاقتراب منها . غير أن أموري أرسل إلى شاور يعلمه برغبته في وقف القتال ، بشرط الحصول على مال عاجل . ووجد شاور في هذه الرغبة وسيلة لكسب الوقت ، فأخذ في المساومة على المال الذي يستطيع تأديته فورا ، وقام بدفع مائة ألف دينار فدية لفلح ابنه طي من الأمر ، ووعد بدفع مبالغ أخرى في المستقبل القريب^(٢) .

وكما ألحَّ بارونات مملكة بيت المقدس على أموري بضرورة الزحف سريعاً على مصر ، ألحَّ شيركوه كذلك على نور الدين لذلك الغرض ، ولا سيما بعد أن أجرى معه كامل بن شاور مفاوضات سرية جذابة . ولم يكن شاور راضيا عن مفاوضات ابنه ، خوفا من شيركوه وأطماعه العلنية ، لكنه

(١) لتابعة هذه السفارة والمعاهدة التي جاء بها وليام الصوري من عند الإمبراطور ،

راجع (William of Tyre : Op. Cit. II. pp. 347—351) .

(٢) انظر الخريطة رقم ٣ ، وهي المقابلة لهذه الصفحة .



..... خط سير إصليبييه
 ← ← ← جيش نور الدين

الخريطة رقم ٣

حملة أموري الثالثة على مصر ، سنة ١١٦٨ م .

وافق عليها مكرها آخر الأمر ، وكتب إلى حلب باسم الخليفة العاضد يطلب النجدة مرة أخرى من نور الدين ، مقابل ثلث خراج مصر ، وإقطاعات ضخمة لقادة الجيش النورى . ولم يكن ثمة مجال للتردد أو الإبطاء ، فأرسل نور الدين يستدعى شيركوه من حمص ، فوجده بحلب كأنه هو على موعد معه . ثم جهز نور الدين شيركوه بجيش كبير عدته ثمانية آلاف فارس ، وأمدّه بمال مقداره مائتا ألف دينار لنفقات الحملة ، وأمر صلاح الدين بمرافقة عمه . ويقال إن صلاح الدين تمنع كثيراً في قبول الذهاب مع شيركوه تلك المرة الثالثة ، بسبب ما لقيه من مصاعب في حصار الإسكندرية ، أثناء الحملة السابقة .

ووصل شيركوه بالحملة النورية الثالثة إلى قرب بلبيس ، حيث خرج إليه أمورى وفي أمله أن يصطدم به ، ويقطع عليه طريق الزحف نحو القاهرة . غير أن شيركوه استطاع أن يفلت منه ، وأن يصل إلى قرب القاهرة في أوائل يناير سنة ١١٦٩ م ، وانضم إلى قوات شاور ، وعسكر أخيراً عند جهة باب اللوق ، على مسافة قصيرة من الأسوار القاهرية الفاطمية . وهكذا بات أمورى في مأزق ، بعد أن خدعه شاور بوعوده المالية ، وبعد أن غلبه شيركوه بمهارته الحربية ، ولم يبق لديه إلا أن يعود أدراجه إلى فلسطين . ثم دخل شيركوه القاهرة ، وغرضه الرسمي إنقاذ شاور والدولة الفاطمية ، وهدفه الحقيقي الاستيلاء على مصر ، وذهب توجاً إلى القصر الفاطمى ، حيث فرح به الخليفة الطفل وشكره ، وبالعشور في إكرامه . لكنه لم يرق في عين شاور أن تنتهى الحوادث إلى ما انتهت إليه من وجود الجيش النورى معسكراً على مسافة قصيرة من أسوار القاهرة ، واستئثار قائده بعطف الخليفة ، فعمد إلى سجيته من المراوغة والنفاق ، ريثما يحزم تدبيره للتخلص من هذه الحال . ولم يكن ذلك خافياً على شيركوه ، ولا سيما حين اقترح عليه شاور ضرورة اقتسام منصب الوزارة الفاطمية بالقاهرة ، بدلا من الوفاء بالوعود المالية والإقطاعية المتفق عليها . وأشار صلاح الدين

على عمه بوجوب التخلص من شاور في سرعة ، والحصول على الإذن بذلك أولاً من الخليفة العاضد ، واضطلع صلاح الدين ، وخال له من قادة الجيش النورى اسمه جورديك ، بتدبير وسيلة للقبض على شاور ، وتم ذلك على مقربة من قبر الإمام الشافعى ، فى أواسط شهر يناير المتقدم ، ولم تمض ساعة حتى صدر أمر الخليفة الطفل بقتل وزيره شاور الذى ملأت أخبار مرواغاته التاريخ المصرى الفاطمى ، لعدة سنين .

وبعد بضعة أيام من مقتل شاور تولى شيركوه الوزارة بدعوة من الخليفة العاضد ، دون أن يخشى خاشية من ناحية أمورى والصليبيين ، اعتماداً منه على كراهية أهل مصر للتدخل الصليبي الذى جلبته سياسة شاور إلى البلاد . ولم يجعل شيركوه من التناقض بين قيادة الجيش النورى ووزارة الخلافة الفاطمية منبعاً لحيرة ، بل سلك سلوكاً متزاناً نحو الخليفة العاضد الذى استوزره ، واقتصر على إباحة دار شاور للنهب العام ، وتوزيع إقطاعات الأسرة الشاورية الضخمة على رجال الجيش النورى ؛ وبذا لقي تعيين شيركوه فى الوزارة صمتاً راضياً فى القاهرة والأقاليم . غير أن شيركوه الوزير لم يتمتع طويلاً بجاه منصبه ، ولم يعيش ليرى ما سوف يتمخض عنه منطق الحوادث ، إذ توفى أواخر مارس سنة ١١٦٩ م ، وهو فى غير شك صاحب الفضل فى إدراك أهمية مصر ومواردها الاقتصادية والبشرية فى مشكلة إخراج الصليبيين من الشرق ، وسياسته هذه هى التى جنى ثمارها ابن أخيه وخليفته فى قيادة الجيش النورى والوزارة الفاطمية بالقاهرة .

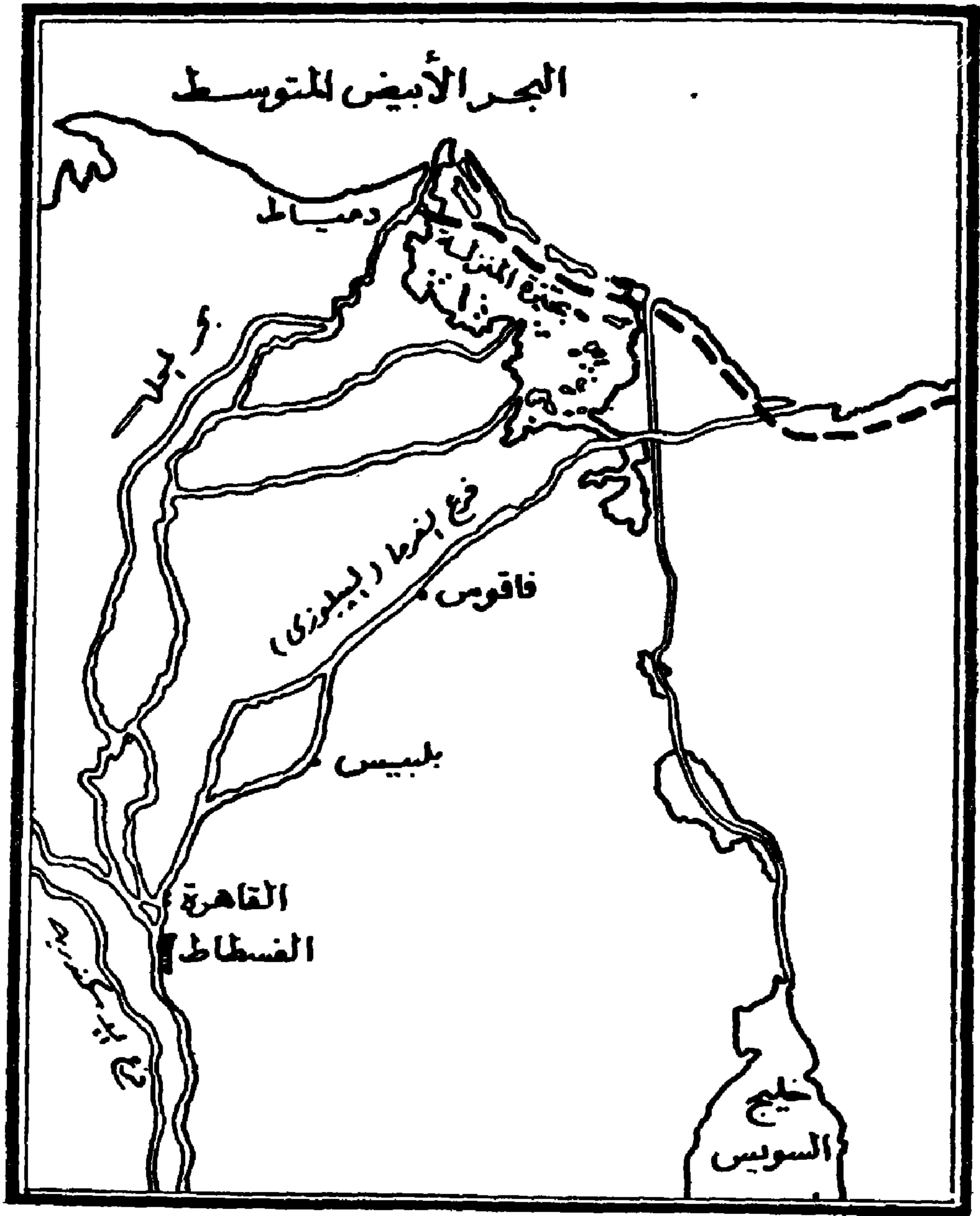
وكان من المعقول أن يحىء صلاح الدين بعد عمه شيركوه فى قيادة الجيش النورى بالقاهرة ، ولا سيما أنه دل على مهارة حربية ملحوظة فى معظم الحملات النورية الثلاث ، فضلاً عن أنه ناب عن عمه فى القيادة الفعلية أكثر من مرة ، خلال تلك الحملات . غير أنه لم يكن من المنتظر أن يقع اختيار

الحليفة العاضد على صلاح الدين لمنصب الوزارة ، وهو أقل رجال الجيش النورى سناً ، وأقصرهم خبرة بالمسائل السياسية والإدارية ، لولا أن رجال القصر الفاطمى ظنوا أن فى هاتين الصفتين السالبتين ما سوف يجعل صلاح الدين كثير الاعتماد عليهم فى شئون الحكم . ولذا صار صلاح الدين وزيراً للخلافة الفاطمية فضلاً عن وظيفة القائد العام للجيش النورى ، ولم يلبث أن خيَّب الظنون المنتظرة منه ، بإخماده حركات الفاطميين من رجال القصر والجيش فى سرعة خارقة ، كما خيَّب آمال أمورى ومحاولته الرابعة للاستيلاء على مصر (١) .

وتعد هذه المحاولة الأمورية الرابعة نقطة تحول كبرى ، لا فى تاريخ المحاولات الصليبية للاستيلاء على مصر ، بل فى تاريخ ظهور صلاح الدين الأيوبي ، وتأسيس الدولة الأيوبية فى القاهرة . والواقع أن مقدمات هذه المحاولة الرابعة وحوادثها ونتائجها تكاد تفوق فى أهميتها جميع المحاولات الأمورية السابقة ، إذ أخذ أمورى منذ عودته الفاشلة إلى بيت المقدس يدعو لحملة صليبية تأتى إليه من غرب أوربا ، لمساعدته على إعادة الكرة على البلاد المصرية ، وبذا جعل مشروع الاستيلاء على مصر هدفاً صليبيّاً أوروبياً عاماً ، لا حليماً محلياً خاصاً من أحلام مملكة بيت المقدس . ثم أدرك أمورى أن ملوك غرب أوربا فى شغل عنه بمشاكلهم الداخلية التى لاتنقطع ، فانقلب إلى تجديد مشروع القيام مع إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين بحملة مزدوجة على مصر ، ووافق الإمبراطور ، وأمدّه بقوة بحرية بيزنطية كبيرة ، وصفها أحد المؤرخين الأوربيين بأنها كانت "أرمادا" ، إشارة إلى كثرة عدد سفنها .

وعلم صلاح الدين بقرب زحف هذه الحملة المزدوجة إلى مصر ، على طريق الفرما ثم بلبيس كالمعتاد ، كما علم بمفاوضات سرية بين أمورى ورجال القصر الفاطمى ، لانضمام الحرس الخليفى من النوبيين والأرمن إلى العسكر

(١) انظر الخريطة رقم ٤ ، وهى المقابلة لهذه الصفحة .



خط سير الحملة

الخريطة رقم ٤

حملة أموري الرابعة على مصر ، سنة ١١٦٩ م .

الصلبي ، عند أول فرصة . وكان هذا هو السبب في سرعة قمع صلاح الدين لحركات رجال القصر الفاطمي والجيش بالقاهرة ، وتركيز معظم قواته النورية في بليس ، مع بقاءه بجزء منها بالقاهرة . غير أن الحملة المزدوجة اتخذت طريقاً جديداً في الأراضي المصرية ، بفضل ما توفر لها من سفن بيزنطية عديدة ، إذ زحفت من الفرما غرباً على طول الساحل حتى وصلت إلى دمياط ، أواخر أكتوبر سنة ١١٦٩ م ، وهي وقتذاك من أحصن الحصون الفاطمية المصرية ، بما لها من سلسلة حديدية مانعة عبر النيل ، وأسوار وأبراج ضخمة متينة البنيان . وفوجئ صلاح الدين بهذه المحاولة البرمائية الضخمة ، وأمد الحامية الدمياطية بالجند والمؤونة في سرعة ، وكتب بنفسه إلى نور الدين يستغيث به ، فأغاثه بفئة كبيرة من الجند وكية غير قليلة من السلاح والمال ، فضلاً عن إغارة نورية على الكرك كالمعتاد .

وشدد أموري الحصار على دمياط ، وأخذ في بناء أبراج متحركة للرمي منها على أسوارها . ومع هذا خابت هذه الحملة الأمورية الرابعة ، برغم استمرارها على حصار دمياط خمسين يوماً ، ومرجع ذلك استماتة الحامية الدمياطية في الدفاع ، واستمرار الأمداد الواردة إليها من عند صلاح الدين ، وعجز أموري عن تنسيق أعمال الحصار في البر والنهر ، لانعدام الثقة بينه وبين قائد السفن البيزنطية . وأخيراً قرر أموري رفع الحصار ، وانجلت حملته المزدوجة عن دمياط ، بعد أن أحرقت أدواتها الحربية الثقيلة ، حتى لا تقع غنيمة باردة في يد صلاح الدين ؛ وعاد أموري إلى بيت المقدس أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ م .

على أن موضع الأهمية الكبرى في فشل هذه الحملة بالذات هو ما صار لصلاح الدين الأيوبي من مكانة مرموقة وسلطان في قلوب أهل مصر ، إذ اقتنع الخاص والعام بأن في استطاعته حماية البلاد من إغارة المغيرين ، وبأن الدولة الفاطمية سوف تعتمد عليه كل الاعتماد . واطمأن صلاح الدين إلى

متانة مركزه ، سواء عند سيده نور الدين ، أو لدى الخليفة الطفل العاضد ، وأرسل إلى نور الدين في أبريل سنة ١١٧٠ م يطلب حضور والده نجم الدين أيوب وسائر أهله إلى القاهرة ، وغدا بمقدمهم وتوزيع بعض الوظائف الرئيسية عليهم صاحب السيطرة التامة في مصر . ثم دل صلاح الدين على متانة مركزه دلالة معنوية بالإغارة على أطراف مملكة بيت المقدس ومهاجمة العريش ، فضلاً عن الاستيلاء على أيلة على خليج العقبة ، وأواخر تلك السنة ، أي ١١٧٠ م ، وكلاهما وقتذاك من ممتلكات الصليبيين . وبذلك افتتح صلاح الدين سلسلة من عمليات حربية هجومية ضد مملكة بيت المقدس ، على مقياس يشبه ما كان عليه الحال أيام الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه .

ثم حدث أوائل سنة ١١٧١ م أن صارت الموصل وبلاد الجزيرة كلها في قبضة نور الدين ، وغدا اللواء النوري مرفرفاً على دولة خمسة العواصم ، وهي دمشق وحلب والرها والموصل والقاهرة ، كما غدا نور الدين أكبر ملوك المسلمين المتمتعين ببيعة الخلافة العباسية ببغداد . لذا أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يقترح عليه إلغاء اسم الخليفة الفاطمي من خطبة الجمعة بالقاهرة ، وإحلال اسم الخليفة العباسي محله ، وتم ذلك دون أي احتجاج ، في أول يوم جمعة من سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ م) ، في جامع عمرو بن العاص بالقسطنطينية ، على يد خطيب موصلی اصطحبه نجم الدين أيوب إلى الجامع العتيق لذلك الغرض . وكان الخليفة العاضد مريضاً طريح الفراش وقتذاك ، ولم يعلمه أحد من حاشيته بما حدث ، بناء على تعليمات من صلاح الدين . ومات العاضد قبل أن يحل يوم الجمعة التالي ، وزالت دولة آبائه بعد أن حكمت في مصر ما يزيد على قرنين من الزمان .

وبموت آخر الفاطميين صار صلاح الدين وجهها لوجه أمام سيده نور الدين ، وأخذ ما تداوله الناس سابقاً على سبيل الإشاعة من أخبار الوحشة بين الرجلين يتأدى واضحاً للعيان . غير أن هذه الوحشة لم تنقلب إلى عداً سافر ، برغم ما تخللها من تهديد ومباغضة ؛ ومات نور الدين في ١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ ، أي منتصف مايو سنة ١١٧٤ م . ثم مات أموري الأول صاحب المملكة الصليبية بيت المقدس في يولييه من السنة نفسها ، وغدا الميدان خالياً تماماً لزعامة صلاح الدين ، وشخصيته ومواهبه .

وشاءت المقادير أن تختبر هذه الزعامة وملحقاتها في فجأة وسرعة ، إذ عكف أموري الأول لعدة سنوات قبل وفاته على تهيئة السبل لمعاودة الكرة على مصر ، فعمل على استمرار الحلف بين الدولة البيزنطية ومملكة بيت المقدس ، وحاول الوقعة بين نور الدين وصلاح الدين في غير جدوى ، واجتذب إليه طائفة الحشيشية الناقمة على كل من نور الدين وصلاح الدين لإزالتها الدولة الفاطمية . وحصل من وليام الثاني ملك صقلية على وعد بالمساعدة البحرية للإغارة على الشواطئ المصرية . واتصل أموري ببقايا الفاطميين بالقاهرة ، وزعيمهم وقتذاك الشاعر عمارة اليمنى ، لتنسيق الجهود بحيث يعلن الفاطميون الثورة بالقاهرة ، غداة وصول أموري وأحلافه إلى الأراضي المصرية ، وبذا يقع صلاح الدين بين نارين . غير أن صلاح الدين علم بالتفاصيل الداخلية والخارجية لهذه المؤامرة المتشعبة الوسائل والغايات ، قبل تنفيذ أى ركن من أركانها ، ونور الدين وأموري وقتذاك لا يزالان على قيد الحياة . لذا قبض صلاح الدين على الفاطميين من رجال المؤامرة بالقاهرة ، وشنقهم جميعاً ، بما فيهم زعيمهم . ثم وقعت وفاة نور الدين وأموري ، ولم يعلم بذلك وليام الثاني ملك صقلية ، ووصلت مساعدته البحرية الموعودة إلى مياه الإسكندرية على غير انتظار أواخر يولييه سنة ١١٧٤ م . واعتقد قائد

الأسطول الصقلي أن جنوده سوف يدخلون الإسكندرية عنوة أو تسلياً ، رفقة جنود أمورى . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ما عدا مجيء صلاح الدين بجيش كبير إلى الإسكندرية ، كذلك على غير انتظار ، وكان مجيؤه إليها كافياً لجلاء السفن الصقلية عنها ، بعد سبعة أيام فقط من وصولها إلى السواحل المصرية ؛ وهذه هى خاتمة المحاولات الصليبية للاستيلاء على مصر فى القرن الثانى عشر الميلادى .

أما صلاح الدين فازدادت قامته السياسية طولاً ، وعظمت شخصيته الحربية هبة ، فى مختلف الدوائر المعاصرة فى مصر والشام وفلسطين ، ولم يبق لديه لإثبات زعامته سوى أن يعالج فى حزم وورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين من مشاكل متنوعة ، ليصبح الوريث الفعلى للدولة النورية الشاملة روحياً وسياسياً لمعظم الشرق الأوسط ، وليستطيع أن ينصرف لحرب عامة ضد مملكة بيت المقدس . واستقام ذلك الدور الكبير لصلاح الدين باحتلاله دمشق أواخر سنة ١١٧٤ م ، وإعلان نفسه ملكاً على مصر والشام ، بموافقة الخليفة العباسى فى مايو سنة ١١٧٥ م ، ووفاء الوريث الشرعى للدولة النورية ، وهو إسماعيل بن نور الدين ، بعد ذلك بست سنين ، أى فى ديسمبر سنة ١١٨١ م . ثم دخلت الرها فى طاعة صلاح الدين فى سبتمبر سنة ١١٨٢ م ، وأعقبها حلب فى يونيو ١١٨٣ م ، ثم الموصل فى فبراير سنة ١١٨٦ م ؛ وأصبحت إمبراطوريته ممتدة من الإسكندرية إلى الموصل ، أو من النيل إلى دجلة ، مضافاً إليها برقة والنوبة واليمن .

وبدئى أن صلاح الدين جعل من مصر والشام ومواردهما الاقتصادية الوفيرة قاعدة ومصدراً لعملياته الحربية والديبلوماسية التى تطلبها هدفه الكبير ، سواء ضد مملكة بيت المقدس ، أو ضد الأمراء المسلمين المعادين له بالشام والجزيرة ، فضلاً عن العمليات الداخلية ذات الطابع الحربى فى مصر

نفسها ، وهى إعادة تحصين القاهرة ، وتكميل تسويرها مع القسطنطينية ، وبناء القلعة ، وتحصين الإسكندرية ودمياط وتنيس ، وهذه بالإضافة إلى العمليات السلمية الثقافية ، ومنها بناء المدارس المشهورة ، ولاسيما مدرسة الإمام الشافعى .

وفى خلال إحدى تلك السنوات المزدهمة ، وصالح الدين مشغول بعملياته التى انتهت باستيلائه على الرها ، أى فى خريف سنة ١١٨٢ م ، وقع حادث صليبي اهتز لجراته العالم الإسلامى عامة . وتفصيل ذلك الحادث أن أميراً صليبياً اسمه رينالد شاتيون (أرناط فى المراجع العربية) ، وهو وقتذاك صاحب حصن الكرك الواقع فى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، أعد سفناً نقلها أجزاء على ظهور الجمال إلى خليج العقبة ، وقام بحملة بحرية جريئة غرضها الهجوم على مكة والمدينة . واستولى أرناط أولاً على ميناء أيلة ، وهى التى صارت حديثاً من ممتلكات صلاح الدين ، ثم حاصر قلعتها بنفسه ، على حين أبحرت معظم سفنه جنوباً على طول الساحل الإفريقى للبحر الأحمر ، وأخذت تغير على الموانئ المصرية الصغيرة حتى وصلت إلى ميناء عيذاب . وخربت السفن الصليبية هذا الميناء ، ونهبت ما به من متاجر وقوافل ، وهو وقتذاك الميناء الرئيسى للتجارة المصرية الدولية بين الشرق والغرب . ثم عبرت هذه السفن إلى ساحل بلاد العرب ، واستولت على مراكز راسية بميناء الحوراء شمالى ينبع والمدينة المنورة ، وأبحرت منها إلى رابغ ، وهى إحدى موانئ مكة ، ثم عادت أدراجها محملة بما اجتمع لها من أنهاب وأسلاب .

وأرسل العادل محمد أخى صلاح الدين - وهو نائبه وقتذاك بمصر - حملة بحرية مصرية أيوبية بقيادة أمير اسمه حسام الدين لؤلؤ ، لتعقب حركات هذه السفن الصليبية ، فهجمت على أرناط عند أيلة ، وأجلائته إلى الفرار بعد رفع الحصار عن قلعتها . ثم أبحر حسام الدين جنوباً حتى بغت الحملة الصليبية على مقربة من ميناء الحوراء ، فأحرق معظم سفنها . وهناك أسرع

الصلبيون إلى الساحل ، وورائهم الجند المصرى الأيوبي والبدو يقتلون ويأسرون . وحملت السفن المصرية الأيوبية من أولئك الأسرى عدداً إلى القاهرة ، وشهدهم الرحالة المغربي ابن جبير يطاف بهم في شوارع الإسكندرية ، ووصف موكبهم وأخبار حملتهم كلها ووصف شاهد عيان ، ونصه فيما عدا ما بين الأقواس التوضيحية : ” وذلك أنا لما حللنا الإسكندرية . . . عاينا مجتمعاً من الناس عظيماً ، برزوا لمعاينة أسرى من الروم (كذا) ، أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنانها ، وحولهم الطبول والأبواق . فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأكباد إشفاقاً وجزعاً ، وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر القلزم ، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم ، بكراءٍ اتفقوا معهم عليه . فلما حصلوا ساحل البحر سمّروا مراكبهم ، وأكملوا إنشاءها وتأليفها ، ودفعوها في البحر وركبوها ، قاطعين بالحجاج . وانتهوا إلى بحر اليمن ، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركباً ، وانتهوا إلى عيذاب ، فأخذوا فيها مركباً كان يأتي بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضاً في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عيذاب ؛ وقتلوا الجميع ، ولم ينجوا أحداً . وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لمكة والمدينة ، أعزهما الله . وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام ، ولا انتهى روى (كذا) إلى ذلك الموضع قطّ ، ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإخراجه من الضريح المقدس . [و] أشاعوا ذلك ، وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه ، وتعاطيهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه . ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم ، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية ،

وصل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ ، مع أنجاد من المغاربة البحرين ، فلهحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه . فأخذوا عن آخرهم ، وكانت آية من آيات العناية الجبارية ، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان نيفت (في الأصل نيف) على شهر ونصف أو حوله . وقتلوا وأسروا ، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ، ووُجه منهم إلى مكة والمدينة . وكفى الله بحمیل صنعه الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً ، والحمد لله رب العالمين^(١) .

على أن مصائر هؤلاء الأسرى لم يكن كل ما هنالك من ذبول تلك الحملة الجريئة الهوجاء ، إذ المعروف أن صلاح الدين أقسم وقتذاك يمينا مغلظة لينتقم من أرناط على إساءته المهينة واعتدائه ، ولا سيما أنه اعتدى سابقا على بلاد العرب من ناحية البرّ حتى تيماء . والواقع أن الاقتصاص من أرناط وتخريب حصنه بالكرك صار غاية من أهم غايات صلاح الدين ، واتجه هو بنفسه أكثر من مرة لتحقيق هذه الغاية .

غير أن أرناط ازداد عتوا واستهتارا ، برغم ما بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وسائر الإمارات الصليبية من هدنة أملتها عليه بعض مشاغله ببقايا المقاومة الموصلية ضده وقتذاك . واختار أرناط لإظهار عتوه واستهتاره قافلة تجارية من القاهرة ، وهي مارة قرب حصنه بالكرك في طريقها إلى دمشق ، سنة ١١٨٦ م ، فاعترضها واستولى على جميع متاعها . وبذلك نقض أرناط الهدنة العامة ، وجعل الحرب قاب قوسين بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس ، وهي أدنى من ذلك بكثير ، جهند تغلب صلاح الدين على آخر مشاغله بخضوع الموصل نهائياً لسلطانه ، أوائل تلك السنة .

(١) ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، وهو الكتاب المعروف باسم رحلة

ابن جبير (Ed. Wright) ، ص ٥٨ - ٦٠ .

تم ترتب على هذا النقض للهدنة العامة سلسلة حوادث أدت ، يوم ٢٥ ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ ، أى ٤ يوليه سنة ١١٨٧ م ، إلى وقعة حطين غربى طبرية ، وهى الوقعة التى جمع لها صلاح الدين معظم جنود إمبراطوريته الواسعة ، وحشدت لها مملكة بيت المقدس أكبر عدد من الجنود الصليبية بفلسطين والشام . وانتهت هذه الوقعة بتطويق الجيش الصليبي ، وإبادة معظمه ، ووقوع قاداته أسرى فى قبضة صلاح الدين ، ومنهم جاي لوزنيان صاحب مملكة بيت المقدس ، وأرناط شاتيون صاحب حصن الكرك ، ومرتكب الإساءات السابقة ، وهمفري تورون ، ومقدم طائفة الفرسان الداوية ، وغيرهم .

و يجمع المؤرخون على أن وقعة حطين كانت ناقوس الفناء لكيان المملكة الصليبية ببيت المقدس ، وللصليبيين جميعاً بالشرق . والواقع أن هزيمة حطين كانت بداية النهاية لجميع الأحلام الصليبية المحلية والأوربية ، ويكفى للبرهان على ذلك تسجيل خطوات صلاح الدين مباشرة بعد هذه الهزيمة . ففي اليوم التالى لهذه الواقعة الحاسمة عاد صلاح الدين إلى طبرية ، فسلمت إليه قلعتها دون مقاومة ، وهى التى استعصت عليه حين استولى على مدينة طبرية نفسها قبيل حطين . ثم وجه صلاح الدين هجمات خاطفة نحو مدن الساحل ، ليقطع بالاستيلاء عليها ما عساه يرد من نجدة أوربية لمملكة بيت المقدس ، فضلا عن أنه يصل بذلك بين مصر وفلسطين . وكان أقرب هذه المدن الساحلية من مواقع صلاح الدين وقتذاك مدينة عكا ، فسلمت له على شروط منها أن يقيم الصليبيون حيث هم ، مع دفع جزية معينة ، أو أن يرحلوا عن البلد ، فمن اختار الرحيل ضاعت عليه أملاكه الثابتة ، ومن شاء الإقامة بقيت أملاكه فى يده . وأسرع إلى التسليم بهذه الشروط معظم مدن الساحل شمالى عكا وجنوبها ، فضلا عن المدن الداخلية ، وكل ذلك فى مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر . ثم سلمت مدينة بيت المقدس نفسها ، ودخلها صلاح الدين يوم

٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ ، وهو يوم المعراج ، الموافق ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م .
ولم يحدث صلاح الدين بها شيئاً يشبه - من قريب أو من بعيد - ما أحدثه قادة
الحملة الصليبية المعروفة بالأولى من مذابح ، بين أهلها من المسلمين واليهود ،
رغم تأمينهم على أرواحهم حينذاك ، أى سنة ١٠٩٩ م .

والخلاصة أنه لم تأت سنة ١١٨٩ م حتى أصبحت مدن مملكة بيت المقدس
كلها في يد صلاح الدين ، ما عدا مدينة صور التي نجحت في مقاومة الحصار
الصلاحى مرتين ، بسبب ما اجتمع بها من جاليات المدن الصليبية التي سلمت
سابقا ، وبسبب وصول حملة صليبية أوروبية غير صغيرة إلى صور وقتذاك ،
على غير انتظار .

ومن مدينة صور بدأت المقاومة الصليبية ضد صلاح الدين ، إذ سارت منها
سفارة إلى أوروبا تستنض ملوكها لتجهيز الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ،
ومنها كذلك تحركت القوات الصليبية نحو عكا . ولذا غدت عكا منذ
أواسط سنة ١١٨٩ م ميدانا لعمليات حربية على ثلاثة خطوط نصف دائرية
متوازية تقريبا ، أولها حامية أيوبية داخل عكا نفسها ، وثانيها قوات
صليبية محاصرة لهذه الحامية ، وثالثها قوات أيوبية بقيادة صلاح الدين ،
وغرضها هدم الحصار الصليبي للحامية الأيوبية .

ثم لم تلبث الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة أن وصلت كذلك إلى
عكا من ناحية البحر ، بقيادة ريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنجلترا ،
وفيليب أغسطس ملك فرنسا . واتصلت السفن والجنود الإنجليزية
والفرنسية بالقوات الصليبية المحاصرة لمدينة عكا ، وصارت الحامية الأيوبية
داخل عكا بين عدوين كبيرين ، واشتد عليها الحصار حتى سلمت في يولييه
سنة ١١٩١ م ، أى بعد سنتين مريرتين تخللتها حوادث بطولة حقيقية
وقصصية ، وكثير منها يدور حول صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد .

ثم رحل فيليب أغسطس ملك فرنسا عن الشرق إلى بلاده ، على حين بقي به ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا سنة كاملة . وفي خلال هذه السنة لم يستطع ريتشارد أن يتغلب على قوات صلاح الدين سوى مرة واحدة عند أرسوف ، وأن يستولى بعد ذلك على يافا . غير أن ريتشارد أخفق في جميع محاولاته للزحف الصليبي على مدينة بيت المقدس ، ولم تغير أعماله الحربية شيئاً من مجرى الحوادث ، لأن ما أحدثه صلاح الدين بالصليبيين احتاج إلى مجهود لا تستطيع حملة واحدة أن تنهض به في بضعة أشهر ، مهما بلغت شخصية قائدها من عبقرية في فن الحرب . ومن الدليل على ذلك أن ريتشارد قلب الأسد عمد بعد الاستيلاء على يافا إلى فكرة المفاوضة والمصالحة ، لعلها تكفل بقاء دولة صليبية بفلسطين إلى جانب دولة صلاح الدين الشاملة للشرق الأوسط كله . وتخلل هذه المفاوضات مساومات وعروض ظاهرها سلام وهدايا ومشروع زواج بين الملك العادل محمد أخى صلاح ، والملكة جوانا الصقلية أخت ريتشارد قلب الأسد . غير أن مشروع هذا الزواج لم يتم ، وربما كان المقصود بإذاعته خلق جو من الصداقة العامة ، كما قال صلاح الدين ، ثم انتهت المفاوضات بصلح الرملة في سبتمبر سنة ١١٩٢ م ، وهو الصلح الذي اتفق فيه الطرفان على أن تظل المدن الساحلية بين عكا ويافا بيد الصليبيين ، وأن يؤذن لفئات الحجيج المسيحي بزيارة بيت المقدس ، على شرط قدومها من عكا من ناحية البحر ، وأن تغلو مدينة عسقلان منطقة حراماً ، منزوعة الحصون والسلاح .

ثم أبحر ريتشارد قلب الأسد من عكا إلى بلاده ، في الشهر التالي لعقد الصلح ، أي أكتوبر سنة ١١٩٢ م ، وفي رأسه أن الطريق لاسترداد مملكة بيت المقدس المفقودة يبدأ أولاً بالاستيلاء على مصر ، وقال بضرورة تنفيذ هذه الفكرة أكثر من واحد من رجاله ، قبل رحيلهم عن الشرق .

وكيفما كان الأمر يتضح من صلح الرملة أن صلاح الدين حقق في عهده أقصى ما تطلعت الزعامات الإسلامية بالشرق الأوسط إلى تحقيقه ، منذ حلول الصليبيين بفلسطين . وأحس صلاح الدين وهو في أوج مجده أن مهمته تحققت فعلا ، غير أن الحروب والجهود التي تبذلها من أجل ذلك أنهكت صحته ، فأصابه المرض ، وتوفي بدمشق في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ ، الموافق ٤ مارس سنة ١١٩٣ م ، ولما يبلغ من العمر سوى خمس وخمسين سنة ؛ وقبره على مسافة يسيرة من قبر نور الدين والجامع الأموي بدمشق .

وبوفاة صلاح الدين توارت عن الأنظار شخصية ظلت ملء العين والقلب ، وموضع الإعجاب والهيبة ، في الأوساط الشرقية الإسلامية والغربية المسيحية ، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحاضر . ولمؤرخ أوربي في تقدير أعماله ومواهبه عبارة تغني عن الإسهاب والتفصيل ، ونصها مترجمة عن الإنجليزية : ” لم يحظ قائد من قادة الحرب والسياسة بتقدير خصومه وإعجابهم – باستثناء نابليون بونابرت – مثلما حظى صلاح الدين الأيوبي بتقدير خصومه من الصليبيين (١) “ .

الفصل الثاني

نشأة مدينة المنصورة

١٢١٩ م = ٦٦١ هـ

ظل التفكير في الاستيلاء على مصر مشروعا يراود الصليبيين ، ويتناوبه المدّ والجزر في مجالسهم ، طواعية لعوامل مختلفة ؛ وهي أولا مختلف الحاجات المادية اللازمة للدول الصليبية الباقية بالشرق بعد فتوح صلاح الدين ، سواء مملكة بيت المقدس التي غدا اسمها مملكة عكا ، أو إمارة أنطاكية ، أو إمارة طرابلس ، أو مملكة لوزنيان في قبرص ؛ وثانيا مدى استجابة الدول الأوربية الغربية لسدّ هذه الحاجات المادية المختلفة ، بحملات حربية كبيرة أو صغيرة ؛ وثالثا أحوال الإمبراطورية الأيوبية ، بعد صلاح الدين . والعامل الثالث هو المفتاح للموضوع كله ، بل هو الباب الذي دخلت منه مشروعات الصليبيين أدوار التحدى والمحاولة والتنفيذ في جوف الأراضى المصرية ، كما حدث سابقاً أيام دولة الفاطميين ، وهو كذلك الباب الذي صدرت منه أنواع المقاومة الأيوبية ضد هذه المشروعات ؛ وفي أثناء هذا وذاك كانت نشأة مدينة المنصورة الحالية .

وبالبحث لا يستطيع إلا أن يشعر بالفراغ الكبير الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، وثما يزيد في هذا الشعور أن الإمبراطورية الأيوبية المتحدة سرى عليها بعد صلاح الدين ما سرى على أمثالها من إمبراطوريات شرقية أو غربية في العصور الوسطى عامة ، إذ قسم صلاح الدين إمبراطوريته بين أولاده وأخوته وبنى عمومته وأولادهم في وصيته ، وامتألت بسبب ذلك مصر والشام بعدة مشاحنات وحروب داخلية . غير أنه لم تمض سبع سنوات على وفاة صلاح الدين حتى طوى هذه الوصية أخوه الأكبر العادل محمد نهائياً ، وملاً هو الفراغ الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، وذلك بعد أن

أخضع لسلطانه جميع أبناء البيت الأيوبي بمصر والشام ، ووحيد معظم ممتلكاتهم وإقطاعاتهم تحت يده . وأعلن العادل محمد موقفه هذا سنة ١٢٠٠ م ، حين خطا الخطوة النهائية في سبيل توحيد الدولة الأيوبية وإعادة سيرتها الأولى ، بخلع حفيد صبي من أحفاد صلاح الدين من منصب السلطنة الأيوبية العظمى بالقاهرة ، وقوله في مجلس من أمراء الدولة تبريرا لذلك ، ما نصه : ” إنه قبيح في أن أكون أتابك صبي ، مع الشيخوخة والتقدم ؛ والملك ليس هو بالإرث وإنما . هو لمن غلب . وإنه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين ، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى . ورعاية لحقه . فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم ، خفت أن يخرج الأمر عن يدي ، ويد أولاد أخى . فسست الأمر إلى آخره . فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه . فلما ملكت هذه البلاد ، وطنت نفسى على أتابكية هذا الصبي ، حتى يبلغ أشده . فرأيت العصبيات باقية ، والفتن غير زائلة . . . ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة سلطان آخر ، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك . والرأى أن يمضى هذا الصبي إلى الكتاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه . فإذا تأهل وبلغ أشده نظرت في أمره ، وقت بمصالحه^(١) . ” وأقام العادل محمد بعد ذلك نفسه سلطانا على الإمبراطورية الأيوبية كلها ، وامتد حكمه ثمانى عشرة سنة (١٢٠٠ - ١٢١٨ م) ، وظلت السلطنة في سلالته دون غيره من أبناء البيت الأيوبي . ولذا كان تاريخ الإمبراطورية الأيوبية بعد العادل محمد ، كما كان بعد صلاح الدين ، سلسلة من المنازعات الداخلية حتى نهاية الأيوبيين في مصر سنة ١٢٥٠ م .

وفي السنة التى تولى فيها العادل محمد منصب السلطنة الأيوبية العظمى بالقاهرة - أى سنة ١٢٠٠ م - كانت فكرة استرداد مملكة

(١) المقرئى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر زيادة ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

بيت المقدس من الأيوبيين آخذة في التطور في غرب أوربا . غير أنه وضح للزعماء الصليبيين أصحاب التجارب السابقة في الحروب الصليبية بالشرق ، أن اجتماع القوى الأيوبية في يد السلطان العادل محمد سوف يعود بهم إلى أيام السلطان صلاح الدين ، وأن مصر سوف تغدو مركز التموين المادى والروحى ، كما كانت في الأيام الصلاحية . ولذا أضحى الاستيلاء على مصر قضية منطقية ، وضرورة حربية ، لضمان استرداد مملكة بيت المقدس . ونهض البابا أنوسنت الثالث للدعوة لحملة صليبية يكون هدفها البلاد المصرية ، واتفق زعماء تلك الحملة مع جمهورية البندقية على نقل جنودهم وعتادهم على سفن بندقية ، مقابل إيجار مالى معين ، فضلا عن نصف الأراضى التى سوف تستولى عليها الحملة . وخرجت التعليمات الحربية النهائية في يونيه سنة ١٢٠٢ م ، بوجوب اجتماع الفئات الصليبية بمدينة البندقية ، استعداداً للإبحار إلى مصر . غير أن البندقية لم تكن راغبة جداً في الاشتراك في هجوم على السواحل المصرية ، ولم تكن مستعدة لمعاداة السلطان العادل ، بل كان سفراؤها بالقاهرة يفاوضونه في عقد معاهدة تجارية رابحة ، في الوقت الذى كان زعماء الصليبيين يفاوضونها في شروط نقل حملتهم إلى السواحل المصرية .

ثم تبين عجز الزعماء الصليبيين عن الوفاء بالشروط المالية المتفق عليها ، على حين اجتمعت الفئات الصليبية بمدينة البندقية للسفر . واستغل دوج داندولو الشهير هذا المأزق استغلالاً ماهراً ، إذ أعلن استعداد الجمهورية لتأجيل دفع المبالغ المطلوبة لها حسب الاتفاق ، مع القيام بنقل الصليبيين في البحر فوراً إلى حيث يريدون ، على شرط أن تؤدى حملتهم للبندقية خدمات حربية خاصة . وقبل الصليبيون هذا الشرط ، وأبحرت بهم السفن البندقية أواخر سنة ١٢٠٢ م إلى ميناء زارا التابع للمجر ، فاحتلوه للبداقة ، وأقاموا به شتاء تلك السنة . ثم توجه الصليبيون بعد ذلك

إلى القسطنطينية ، حيث كان للبندقية مصالح مرتبطة بمشكلة الخلاف على العرش البيزنطي وقتذاك ، ولم يلبثوا أن انصرفوا عن مشروع حملتهم إلى محاربة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية ، وإخراجها طريدة شريفة من عاصمتها ، فضلا عن تقسيم أقاليمها بينهم وبين البندقية . ووقعت هذه الحوادث خلال سنتي ١٢٠٢ - ١٢٠٤ م ، وهي المعروفة في مجموعها عند المؤرخين باسم الحملة الصليبية الرابعة ، وما هي بالحملة التي احترمت اسمها ، وما هي بالصليبية التي حفظت وعدّها ، بل هي إحدى الأدلة الدامغة على أن الحروب الصليبية شابتها منذ أيامها الأولى أغراض اعتدائية توسعية ، وحوافز سياسية اقتصادية^(١) .

لم يكن عجباً بعد هذه الحوادث أن ينكمش مشروع الاستيلاء الصليبي على مصر إلى هجوم محلي ضئيل من ناحية البحر على ثغر رشيد ومدينة فوه^(٢) ، أوائل سنة ١٢٠٤ م ، وأن يسعى صاحب مملكة عكا ، وهو وقتذاك أموري الثاني ، إلى عقد هدنة مع السلطان العادل في سبتمبر من تلك السنة ، لمدة ست سنوات . وكان جنوح الطرفين للسلم واضحاً ، لأن أموري الثاني لم يأمل من غرب أوروبا أية معونة حربية يشد بها أزر مملكة عكا لعدة سنين ، بعد أن غدت أقاليم الإمبراطورية البيزنطية مرتعاً لكل مطمع صليبي عارم ، ولأن السلطان العادل آثر ما سوف يعود على دولته من ثمار السلم عن طريق التجارة والعلاقات الاقتصادية الراجعة ، وذلك فضلاً عن مشاغله الداخلية التي لا بد له من مواجهتها آجلاً أو عاجلاً ، من ناحية أنباء البيت الأيوبي الخاضعين له . ولذا ظلت الهدنة موضع مراعاة الجانبين ،

(١) اقرأ فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة زيادة والعريني ، ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٥٠ ، حيث يوجد فصل شامل لأخبار هذه الحملة ومغزاها في التاريخ الأوروبي .

(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٥٠ .

بل أرسل السلطان العادل في طلب تجديدها ، في يولييه سنة ١٢١٠ م ،
أى قبل شهرين من تاريخ انتهاءها .

وحوالى ذلك الوقت أهلت شخصية صليبية جديدة على مسرح
الحوادث ، إذ حكمت في مملكة عكا وقتذاك ملكة شابة هى ماريا ابنة
أمورى الثانى ، ثم تزوجت هذه الملكة من نبيل فرنسى ناهز الستين اسمه
حنا برين ، فى أكتوبر من تلك السنة ، وهذا هو الشخصيه الجديدة . وظنت
الأوساط الصليبية فى فلسطين أن الملك الزوج سوف يتخذ سياسة هجومية ،
على غرار السالفين من الملوك الأولين ، ولا سيما بعد أن سمح لبعض
أتباعه بالقيام صيف سنة ١٢١١ م بحملة بحرية هجمت على دمياط وبورة
هجوماً سريع العودة قليل الجدوى^(١) . غير أن حنا برين لم يلبث أن قبل
تجديد الهدنة مع السلطان العادل ، لمدة خمس سنوات تبدأ من يولييه ١٢١٢ م ،
على حين أرسل إلى غرب أوروبا يرجو إعداد حملة صليبية يكون وصولها
إلى فلسطين بعد انتهاء الهدنة المجددة ، ليستطيع استرداد مملكة بيت
المقدس فى الوقت المناسب ، والطريقة المناسبة . ولذا لم يحدث خلال هذه
السنوات الخمس ما يعكس صفو الهدنة العامة بين السلطان العادل والدول
الصليبية ، أى مملكة عكا ومملكة قبرص ، وإمارة أنطاكية ، وإمارة
طرابلس .

غير أن أوائل هذه السنوات الهدنية الخمس شهدت ما هو معروف فى
مصطلح المؤرخين باسم حملة الأطفال الصليبية ، وهى حركة منبعها موجة
دينية وعظية ، تدل القرائن الزمنية على أنها انتشرت فى غرب أوروبا فى
أعقاب الفشل الأوروبى فى إرسال حملة صليبية ، لاسترداد مملكة بيت المقدس من
الأيوبيين . وأنجبت هذه الموجة الدينية فى فرنسا صبيلاً داعياً فى الثانية عشرة

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٧٧ .

من العمر اسمه ستيفن ، فأخذ يعظ في باريس ، ويؤكد بأن العناية الإلهية اختارته لقيادة حملة من الفتيان الأبرياء الأطهار ، لاسترداد مملكة بيت المقدس التي عجز الجند عن الذهاب لاستردادها . واجتذب ستيفن حوله فئات بلغت بضعة آلاف من الصبية وصغار رجال الدين ، من أنحاء فرنسا ، وسار الجميع إلى مرسيليا ، وأبحروا منها إلى الشرق في يونيه سنة ١٢١٢ م . وبينما هذه الحملة في طريقها المجهول ، قام صبي ثانٍ اسمه نيقولا في مدينة كولونيا بوادي الرين ، ودعا إلى جمع حملة مشابهة من صبية ألمانيا ، وسارت فئات هذه الحملة الأخرى إلى إيطاليا عن طريق سويسرا ، بعد أن انقسمت قسمين ، فوصلت الفئة الأولى منهما إلى بيزا ، بقيادة نيقولا نفسه ، وأبحرت منها إلى فلسطين في أغسطس من تلك السنة ، على حين وصلت الفئة الثانية إلى برنديزي ، وأبحرت منها في السنة التالية . وكان من الطبيعي أن يتخلف من فئات الصبية الفرنسيين والألمانيين أعداد أنهكها المسير في الأراضي الأوربية ، أو أخافها البحر عند رؤيته لأول مرة ، وأن تعود بعض هذه الأعداد إلى أهلها في فرنسا وألمانيا ، حيث امتلأت البلاد بأخبار الصبيان الصليبيين وحملاتهم .

أما أخبار هذه الحملات بعد إبحارها من الموانئ المتقدمة ، فليس يعرف عنها شيء كثير ، ما عدا أن قسيسا جاء إلى فرنسا من الشرق بعد ثمانى عشرة سنة من إبحار حملة ستيفن من مرسيليا ، وأخبر بأنه كان أحد صبية هذه الحملة ، وأن السفن التي أقلت الصبية وقعت في أيدي قراصنة من المغاربة جنوبي جزيرة سردينيا ، فأخذتهم جميعاً أسرى ، وباعت منهم عدداً في ثغر بجاية بالجزائر الحالية ، وعدداً آخر بمدينة الإسكندرية . وقال القسيس إن عدداً من أولئك الأسرى بيع أخيراً في بغداد ، وأن الملك الكامل محمد نائب السلطنة الأيوبية في القاهرة وقتذاك اشترى منهم كذلك ، واستخدمهم في وظائف الترجمة والدواوين ، دون أن يطلب إلى أحد

منهم أن يعتنق الإسلام ؛ وكان مجيء ذلك القسيس إلى فرنسا سنة ١٢٣٠ م^(١) .

غير أن هذه الأخبار تستطرد بالموضوع بعيداً عن عنوانه ، وهو نشأة مدينة المنصورة . كما تذهب به من الناحية التاريخية إلى ما بعد الحوادث التي نشأت من أجلها هذه المدينة ، ولا بد إذن من الرجوع إلى بضع السنوات السابقة مباشرة على انتهاء الهدنة المعقودة بين السلطان العادل والملك أموري الثاني ؛ وهي السنوات التي تمنى الملك حنا برين زوج ماريّا أن تصل حملة صليبية في ختامها من غرب أوروبا إلى فلسطين ، حتى لا تتعرض مملكة عكا لما عساه يتجدد من هجوم أيوبي مفاجئ .

وكان البابا إنوسنت الثالث يعمل — منذ تحولت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن أهدافها الأصلية — على تهيئة الفرصة لحملة صليبية كبرى يحقق بها ما تقدم وما تأخر من برامج البابوية الفحلة ، فأرسل مندوبيه إلى أنحاء غرب أوروبا ، من سنة ١٢١٣ م فصاعداً ، للدعاية لمشروع هذه الحملة المرجوة ، وجمع مجلس اللاتيران الكنسي العام سنة ١٢١٥ م ، لشرح حال مملكة عكا ، وترتيب بعض الوسائل المالية اللازمة للنفقات المطلوبة لها . وفي أثناء المناقشات حول أهداف هذه الحملة ، جرى ذكر مشروع الاستيلاء على مصر ، ضمن المشاريع المعروضة لاستعادة مملكة بيت المقدس .

ثم أرسل البابا إنوسنت الثالث سنة ١٢١٦ م إلى السلطان العادل محمد إنذاراً إنجيلياً يهدّد بقرب وصول الحملة التي تم إعدادها ، للاستيلاء على مصر ، إذا هولم يدرك نفسه بتسليم بيت المقدس تسليماً هادئاً بارداً ، بغير قتال . غير

(١) انظر (Runciman : Op. Cit. III. pp. 139—144) ، حيث توجد تفاصيل كثيرة

بصد حملة الأطفال الصليبيين . وفي الأدب الإنجليزى أكثر من قصة تاريخية حول هذا الموضوع ،

ومنها (George Moore : Peter Abelard) ، وكذلك (Daphne Muir : The Lost

Crusade) .

أن البابا مات في يولييه من تلك السنة ، وخشى الملك حنا برين أن يؤدي ذلك الحادث إلى تأجيل سير الحملة إلى الشرق ، فكتب إليه البابا الجديد هونوريوس الثالث يؤكد له أنها واصله إليه قريباً لا ريب فيه . وتحققت تأكيدات البابا هونوريوس بوصول فئات صغيرة متنوعة من هذه الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة أرسالا متقطعة إلى عكا ، خلال سنة ١٢١٧ م . لكن هذه الفئات لم تكن من قومية واحدة ، ولم تكن طبعاً تحت قيادة موحدة ، ولم ينتظر الملك حنا برين من قيادته الاسمية لها شيئاً مجدياً ، بل قام ببعض عملياته الحربية الوقائية بعد انتهاء أجل الهدنة بينه وبين السلطان العادل محمد ، دون أن يستعين بفئة من هذه الفئات . ثم وصل إلى عكا في أبريل ١٢١٨ م عدد كبير من سفن فريزيا (هولندا الحالية) بفئة أخرى من الجند والعتاد الحربي ، ووصلت أنباء مع هذه السفن تخبر بأن الجزء الأكبر من هذه الحملة ، وهو ما أعده البابا هونوريوس نفسه ، وشيك الوصول كذلك إلى عكا ، غداة تدبير السفن اللازمة للنقل من إيطاليا ؛ وكان معظم ذلك الجزء الكبير مؤلفاً من الفرنسيين والإنجليز . وبذا تغير الموقف تماماً ، وأشار المشيرون على الملك حنا برين بالتحويل إلى مشروع الاستيلاء على مصر من ناحية البحر ، وأغروه بالانتفاع بالسفن الفريزية العديدة التي وصلت إليه بخيلها ورجلها من حيث لا يحتسب ، وبما سوف ينضم إليه من الفرق البابوية الفرنسية والإنجليزية ، وهذا وذاك فضلاً عما لدى مملكة عكا من خبرة قريبة العهد بطرق الهجوم على الإسكندرية ، أو رشيد وقوة ، أو دمياط وبورة .

وسمع السلطان العادل محمد بكل هذه الأخبار وهو بدمشق ، فلم يصدق أولاً أن الصليبيين — وخاصة الملك حنا برين — سوف ينقلبون إلى الحرب بعد الهدنة ، بل اعتقد كما اعتقد ابنه ونائبه في مصر ، وهو الكامل محمد ، أن الزعامات الصليبية في غرب أوروبا والشرق سوف تنجح إلى السلم جنوباً طويلاً ، بعد أن وضحت ثمرات العلاقات السلمية في ميادين

التجارة الدولية ، وبعد أن انصرفت المغامرات الصليبية إلى أقاليم الدولة البيزنطية . واستند السلطان العادل محمد ، كما استند ابنه الكامل كذلك ، على ما أظهرته جمهورية البندقية سنة ١٢١٧ م من اهتمام بعقد معاهدة تجارية جديدة مع مصر ، لضمان استمرار الحال على ما هو عليه منذ أوائل القرن الثاني عشر ، وهذا فضلاً عن وجود جالية تجارية أوروبية ناجحة بالموانئ المصرية ، ويناhez عددها ثلاثة آلاف من مختلف الجمهوريات الإيطالية . ولذا فوجئ السلطان العادل محمد وابنه الكامل بوصول قوات صليبية كبيرة من عكا ببحراً ، بقيادة الملك حنا برين ، إلى الشواطئ المصرية ، ونزول هذه القوات عند قرية بورة ، ثم زحفها على شاطئ البحر حتى الشمال الغربي قبالة دمياط القديمة^(١) . وأسرع العادل إلى إعداد جيش بالشام ، على حين زحف الكامل محمد من القاهرة شمالاً بما لديه من القوات المصرية الأيوبية ، فمرّ على فارسكور في يونيه سنة ١٢١٨ م ، وعسكر أخيراً عند بلدة العادلية على فرع دمياط ، حيث أخذ يعدّ العدة للقتال .

ثم بدأ الصليبيون عملهم بأن حفروا حول معسكرهم^(٢) خندقاً ، وشرعوا في الرمي فجأة في شهر أغسطس على برج دمياط ، وهو برج منيع فيه سلاسل من حديد ممدودة عبر النيل ، لتمنع المراكب التي في البحر من الدخول إلى الأراضي المصرية ، ومن بقاياها قرية الجربي وعزبة البرج الحاليتين . غير أن المفاجأة الهجومية مكنت للصليبيين الاستيلاء على ذلك البرج ، ولم يلبثوا أن قطعوا السلاسل المتصلة به ، لكي تسير مراكبهم في النيل وتتقدم بهم إلى أسوار دمياط .

(١) تقع دمياط القديمة شمال دمياط الحالية ، وموضعها حول جامع أبي المعاطي القديم وقبة فاتح الأسر وقرافة دمياط ، في العصر الحاضر .

(٢) انظر الخريطة رقم ٥ ، وهي في صفحة ٤٧ .

ووصلت أخبار هذه الكارثة إلى السلطان العادل محمد وهو مريض بدمشق ، وخشى أن تكون هذه الأخبار مقدمة إلى ما هو أسوأ وأفدح ، ولم يحتمل الصدمة ، وتوفى بسببها أواخر أغسطس ١٢١٨ م ، وكان عمره وقتذاك خمسا وسبعين سنة .

وخلف السلطان العادل في مصر ابنه الكامل محمد ، وفي الشام ابنه المعظم عيسى . ولم يكن شيئاً قليلاً أن ينشأ السلطان الكامل محمد ابناً للسلطان العادل ، وأن يرى هذا الابن أباه يعمل دأباً بمختلف الوسائل الدبلوماسية الطويلة والقصيرة ، فضلاً عن الاستعداد العسكري ، لتجنيب بلاده ويلات الحروب . وكان الكامل متولياً منذ سنين نيابة السلطنة في القاهرة ، متمرساً بأساليب الحكم والسياسة والدبلوماسية ، والمهارة في الحرب . ولذا نهض الكامل نهوضاً حميداً ، لتعويض ما نجم عن استيلاء الصليبيين على برج دمياط ، فجعل بدل السلاسل الحديدية جسراً من السفن في عرض النيل ، لمنع السفن الصليبية من التقدم نحو أسوار دمياط . غير أن فرقة صليبية برية استطاعت أن تحرق هذا الجسر ، تمهيداً لمحاولة الوصول إلى أسوار دمياط برآ ، فأجاب السلطان الكامل على هذه الحركة بإغراق عدد من مراكبه في النيل ، واستحال بذلك تقدم الصليبيين بجرأ أو برآ ، من هذه الناحية .

وحوالى ذلك الوقت وصلت الفرق الفرنسية الإنجليزية المنتظرة إلى المعسكر الصليبي ، بقيادة نائب بابوى اسباني الأصل اسمه بيلاجيوس . وكان مجيء هذا الرجل كفيلاً ببذر عوامل الشقاق والبغضاء في صفوف الصليبيين ، إذ أنكر ما للملك حنا برين من قيادة عامة للحملة ، وأعلن أن حنا ملك فقط بحق الزواج من ماريا بنت أمورى الثانى ، ثم بعد وفاتها بحق أبوته لابنتها منه ، وهى يولاندا التى سوف يرتبط مستقبل مملكة عكا بمستقبلها الزواجى كائنا ما يكون . وأضاف بيلاجيوس أنه هو الجدير وحده بالقيادة العامة ، وأنه سوف يحمل هذه المسئولية نيابة عن البابوية التى بذلت ما بذلت في سبيل إعداد هذه الحملة الصليبية الكبيرة . وبناء على تعليمات هذه القيادة -

الجديده تحول الصليبيون في أكتوبر إلى تسيير مراكزهم في فرع قديم من فروع النيل مصبه قرب بورة ، واسمه الخليج الأزرق ، فحفروه حفرا عميقا ، وجرت المراكب الصليبية فيه إلى بلدة صغيرة اسمها بستان بورة ، على الشاطئ الغربي للنيل ، قبالة العادلية التي كان فيها معسكر السلطان الكامل . وبذا صارت القوات الصليبية البحرية على مقربة من دمياط القديمة ، وصار الجيشان الأيوبي والصليبي وجهها لوجه ، يفصل بينهما ماء النيل ؛ وتقاتل الطرفان قتالا بحريا غير حاسم دون نتيجة منظورة حتى دخل الشتاء .

ثم جرت المقادير في مصلحة الصليبيين مؤقتاً ، وذلك حين اضطر السلطان الكامل محمد إلى الرحيل ذات ليلة من أوائل فبراير سنة ١٢١٩ م عن معسكره في العادلية ، اجتناباً لمؤامرة ضده . وأصبح العسكر المصري الأيوبي ، فوجدوا أنفسهم بغير سلطان ، فتركوا أثقالهم وخيامهم وأسلحتهم ، ورحلوا هم أيضاً عن العادلية ، على مرأى من الصليبيين على الضفة الغربية للنيل . عند ذلك بادر بلاجيوس وجنوده إلى عبور النيل إلى الضفة الشرقية ، وهي الضفة التي تقع عليها دمياط ، واحتل العادلية بغير قتال ، واستولى على ما كان بالمعسكر المصري الأيوبي من سلاح ومؤونة . وبذا تم تطويق الصليبيين لبناء دمياط القديمة ؛ فأحاطوا بأسوارها من البر والبحر ، وضيقوا عليها ، ومنعوا الأقوات أن تصل إلى حاميتها أو أهلها . واستغرق ذلك شهر فبراير كله من تلك السنة ، أي أن الصليبيين لم يستطيعوا أن يلقوا الحصار التام على دمياط إلا بعد مضي تسعة أشهر من حلولهم بالشواطئ المصرية .

أما السلطان الكامل فانتقل إلى بلدة أشموم طنّاح ، قبالة دكرنس الحالية تقريباً ، ثم استقر أخيراً في فارسكور ، حيث لحق به جيشه ، وانضمت إليه عساكر أخيه المعظم عيسى القادم لمساعدته من دمشق . غير أن الكامل يرغم نجاحه في هدم المؤامرة السابقة ضده ، وبرغم انضمام عساكر أخيه المعظم

عيسى لجيشه ، لم تتوفر لديه القوات الكافية لرفع الحصار الصليبي عن دمياط ، أو الهجوم على المعسكرات الصليبية في بورة وبستان بورة والعادلية . لذا اضطر إلى التنوع بمناوشات حربية خفيفة على مختلف المراكز الصليبية ، وبمحاولات متكررة لإيصال المؤونة إلى دمياط ، ريثما تصل إليه نجيدات إضافية من الملوك الأيوبيين لإخوته وأقاربه بالشام والجزيرة ، ومن الخلافة العباسية ببغداد .

ولم يكن الصليبيون في الواقع أحسن حالا ، لاشتداد الخلاف بين الملك حنا برين والنائب البابوي بلاجيوس حول خطة القتال ، وانتشار أخبار ذلك الخلاف بين عامة الجنود الصليبية .

ثم حدث وقتذاك ما لم يكن في الحسبان ، وهو أن السلطان الكامل أخذ يتشكك في قرب وصول ما يحتمل أن يسعفه من نجدة خارجية ، وتحول في سرعة ملحوظة إلى فكرة فريدة لم تكن من مألوف العصور الوسطى أو مقبولة أو معقولة ، بين المسلمين أو الصليبيين . ومحور هذه الفكرة أن الصلح خير من الحرب ، وأن السلام الدائم سيد العلاقات بين أي طرفين متحاربين ، إذا توفرت بينهما حسن النية والرغبة في التوفيق . ولذا عمد الكامل في سبتمبر سنة ١٢١٩م ، بموافقة أخيه المعظم عيسى ، إلى محاولة حل المسألة الصليبية الغربية الجاثمة بجيشها حول دمياط ، عن طريق المفاوضة والمصالحة ، مع المحافظة على كرامة الطرفين .

وبخلاصة ما عرض السلطان الكامل على الصليبيين أن تجلو الحملة الصليبية عن الشواطئ المصرية جلاء تاماً ، فتعود دمياط وغيرها من البلاد المحيطة بها إلى أهلها ، وأن تبحر السفن الصليبية عن المياه المصرية . وفي مقابل ذلك يقدم السلطان الكامل للصليبيين صليب الصليب الذي استولى عليه صلاح الدين عند فتح مدينة بيت المقدس ، وأن يرد عليهم مدينة بيت المقدس نفسها ، ومعظم البلاد الفلسطينية التي استردها منهم صلاح الدين ، ما عدا

بلدتين صغيرتين واقعيتين في منطقة الأطراف المصرية بفلسطين ، وهما الكرك والشوبك ، إذ رأى السلطان الكامل وجوب بقائهما في يده ، تأميناً لهذه الأطراف البرية من عادية المعتدين .

غير أن الصليبيين لم يقبلوا هذه العروض السخية ، ولو كان غرضهم دينياً فقط لما ترددوا في قبولها ، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتعلقة بأصول الديانة المسيحية ، وهي المدن التي قامت الحروب الصليبية من أجلها ، على قول أهلها . أما السبب الذي دعا إلى رفض عروض السلطان الكامل ، فهو أن المندوب البابوي بلاجيوس رأى أن مفاوضة المسلمين لا تكون إلا بعد هزيمتهم ، لإملاء شروط خضوعهم ، وأن مهادنتهم لا تكون إلا بعد دفع مبلغ كبير من المال ، بمثابة فدية يتسلمها الصليبيون قبل أن يتحولوا عن دمياط . وهناك سبب آخر بعيد كل البعد عن الأغراض الصليبية الدينية ، وهو أن المدن الإيطالية التي اشتركت في هذه الحملة الصليبية ، يحنوها وأموالها وأطباعها ، عزّ عليها أن تقبل شروطاً معناها عدم البقاء في دمياط ، وهي الثغر التجاري الهام الذي تستطيع المصالح الإيطالية خاصة ، والأوربية عامة ، أن تنفذ منه إلى جوف البلاد المصرية . ومن الحق هنا أن يقال إن الملك حنا برين اقترح قبول شروط السلطان الكامل ، لسبب واضح ، وهو أن تصبح مملكة بيت المقدس الصليبية حقيقة جغرافية مرة أخرى ، لا رمزاً فقط ، وليس له من هذه المملكة سوى عكا . ومن هنا يتبين من جديد أن الأغراض السياسية والاقتصادية . لا الدينية فحسب ، هي التي حركت الحروب الصليبية جيلاً بعد جيل .

وبينما تجرى المفاوضات بين السلطان الكامل والقيادة الصليبية مجراها الفاشل ، جاء إلى المعسكر الصليبي في دمياط رجل مشرف على الأربعين من العمر ، بالي الثياب ، وليس في مظهره إلا ما يثير سخرية الجاهل . كان هذا الرجل هو القديس فرنسيس الذي يرجع إليه تأسيس جماعة الرهبان

الفرنسيسكان ، وهم الذين أطلق عليهم اسم الإخوان الفقراء ، أو الفقراء الرمادين ، إشارة إلى لون ملابسهم الرهبانية . ووصل القديس فرنسيس إلى المعسكر الصليبي ، حيث وجد الزعامات الصليبية مختلفة حول قبول عروض السلطان الكامل ، للجلاء الناجز الشامل عن دمياط والسواحل المصرية . واشترك القديس في النقاش المضطرب ، ونصح بقبول عروض السلطان ، حقنا للدماء . غير أن نصيحته لم تلق مجيباً ، فرحل عن المعسكر الصليبي إلى أطراف معسكر المسلمين في فارسكور ، حيث قبض عليه الحرسية المصريون دون أن يبدى أية مقاومة ، وهو يتكلم كلاماً لم يفهم أحد منه شيئاً سوى لفظ ” صلدان “ ، يريد بذلك أنه يرغب في المثل بين يدي السلطان الكامل . وأخيراً وجد القديس نفسه في حضرة السلطان الكامل ، تحيط به حاشية قليلة من قاداته وتراجته ، وربما كان بعض أولئك التراجمة ممن اشتراهم الكامل أيام نيابته عن أبيه بالقاهرة من أفراد حملة الأطفال . وشرح القديس للسلطان الكامل سبب قدومه إليه ، واستأذن أن يعظه ويصف له المسيحية ، ويدعوه إليها . وأذن السلطان للقديس في الكلام ، واستمع له في دمائه المتمكن من عقيدته ، المحترم لعقيدة غيره .

ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن الكامل لم يجادل القديس فرنسيس فيما قال ، ولم يستدع أحداً من علمائه لمجادلته ، بل اكتفى بالمبالغة في إكرامه . واكتفى القديس بدوره بالإمعان في إطراء السلطان ، بعد أن أوصاه بحسن معاملة الأسرى من الصليبيين ، وبعد أن طلب إليه إعطاء الإخوان الفرنسيسكان سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس . ثم استأذن القديس فرنسيس السلطان في الاتصال بالجنود الأيوبيين المسلمين ، والحديث إليهم ، فأذن له . وظل القديس المسيحي يتقلب في معسكر المسلمين بضعة أيام حتى قرر الرحيل ، فردّه السلطان الكامل محروساً إلى أطراف معسكر الصليبيين . ورجع القديس فرنسيس إلى أصحابه ، ليخبرهم بما شهد وسمع من أحوال

المسلمين وسلطانهم ، ولينذرهم بما عساه يتطور إليه مشروع الهجوم على دمياط . وليكرر عليهم فوائد عروض السلطان . لكنه وجد النية معقودة على الحرب ، وهى عكس ما أراد أن يسهم به فى خدمة المسيحية ، فاقنع بأن لا مصلحة فى مقامه ، ونفض تراب المعسكر الصليبي عن قدميه ، ويم نحو الشام وفلسطين بإذن من السلطان الكامل ، حيث أقام بضع سنوات ليؤسس للإخوان الفرنسيسكان نواة أعمالهم فى سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس ، حتى العصر الحاضر^(١) .

أما دمياط فاشتد حولها حصار الصليبيين ، وتمعن^١ المراجع العربية والأوربية فى وصف ما حدث لحاميتها وسائر أهلها منذ أوائل الحصار الصليبي ، فتقول إن الحامية الدمياطية صامدت الحصار ، وقاومت مقاومة مجيدة ، وأن الدمياطيين أنفسهم صبروا على ويلات الحرب . وندرة الأقوات ، وغلاء الأسعار ، وقتك الأمراض الوبائية . ومما خفف عنهم قليلا أن السلطان الكامل دأب ، منذ استقرار معسكره فى فارسكور ، على إرسال قوارب تموينية لمساعدة جند الحامية والسكان فى محتهم ، واستعان فى ذلك برجال شجعان ذوى معرفة بنظام الحراسة بين السفن والعساكر الصليبية المحاصرة . وكان من أولئك الشجعان رجل اسمه شمايل الشامى ، وهو من أبناء قرية من قرى حماة ، ووظيفته فى المعسكر السلطاني ترتيب البريد السرى الوارد للسلطان الكامل من دواوين القاهرة . واختار السلطان الكامل هذا البريدى ليكون رسوله إلى أهل دمياط ، لشجاعته الفائقة . وخاطر شمايل بنفسه ليلة يعد ليلة ، فسبح بين السفن الصليبية المحيطة بميناء دمياط فى الظلام ، وحمل إلى الحامية الدمياطية رسائل السلطان بوجوب استمرار المقاومة ، وأمدهم بأخبار القوارب التموينية الصغيرة وأماكن وصولها فى ساعات الفجر ، محملة بالأطعمة

(١) انظر (Roncaglia : St. Francis and the Middle East. pp. 25-30) .

من دقيق وسكر ، وجبن وعسل . واتسعت أعمال هذا البريدى الباسل ، فاستخدم معاونين والمساعدين في البر والنهر ، وخصص لكل منهم عملا ينهض به ، فاختص بعضهم بالمحافظة على استمرار وسائل المواصلات البريدية مفتوحة بين السلطان وأهل دمياط ، وقام بعض ثان بإحضار المؤن إلى شاطئ النيل ، ليحملها إلى الدمياطيين في القوارب الصغيرة ، وعمل بعض ثالث في إرشاد هذه القوارب وتوجيهها في غسق الليل إلى مواضع خافية آمنة ، لتفريغ حمولاتها وتسليمها إلى المكلفين بتوزيعها على أهل دمياط . وهكذا تشعبت أعمال هذا الرجل حتى بات اسمه أحدى مآثر مقرونة بالنجدة والإغاثة ، فضلا عن الشجاعة والجسارة .

غير أن طول الحصار ، وانتشار الأمراض ، وقلة الأقوات عموما ، هدم المقاومة الدمياطية ، واستطاع الصليبيون أن يدخلوا دمياط بعد حصار ظل عدة أشهر ؛ وكان دخولهم إليها في نوفمبر ١٢١٩ م . وأعقب ذلك احتلال فرقة صليبية لمدينة تانيس الواقعة على مصب الفرع الثانيسى من النيل ، جنوبى بحيرة المنزلة . ووجد السلطان الكامل نفسه مهددا من ناحيتين ، كما يتضح من الخريطة^(١) ، فرحل بجيشه عن فارسكور جنوباً ، وأواخر تلك السنة ، إلى موضع اختاره سابقا فيما يبدو ، وأودعه في حساب خططه الدفاعية المستقبلية ، لنقل معسكره إليه إذا هو اضطر مؤقتا للانسحاب من فارسكور . ولم يكن لهذا الموضع اسم معروف وقتذاك ، كما لم تكن له أية صفة طبوغرافية تميزه عن سائر ما حوله من أراضي الدلتا الرخوة ، ماعدا أنه موضع "فضاء فسيح ، معتدل الهواء ، مثلث الشكل تقريبا ، بين بحر أشموم طنّاح (البحر الصغير الحالى) والشاطئ الشرقى للنيل ، قبالة قرية اسمها جوجر ، وهى الآن من قرى طلخا الحالية^(٢) .

(١) انظر ص ٤٧ .

(٢) انظر الملحق رقم ١ ، فيمايل ، حيث ذكر المؤرخ المعاصر جمال الدين بن واصل أن السلطان الكامل أنشأ معسكره قبالة قرية اسمها جوجر . انظر كذلك المقرئى : المواعظ والاعتبار - بولاق - ج ٢ ، ص ٤٦٤ ، ٤٧٠ ، وأيضا على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٧٠ - ٧١ .

وكان طبيعياً أن يختار السلطان الكامل هذا الموضع الفضاء الفسيح لمعسكره الجديد ، لا اعتباطاً أو خبط عشواء ، بل بناءً على اعتبارات استراتيجية واضحة الأهمية لأغراض السلطان الحربية ، ضد الحملة الصليبية التي باتت ميطرة على دمياط ، وسوف تزحف منها عاجلاً أو آجلاً للاستيلاء على القاهرة ، لتحقيق ما عجزت عنه المحاولات الصليبية السابقة جميعاً . ومن هذه الاعتبارات الاستراتيجية كذلك - رغم صمت المراجع عن أية إشارة قصيرة أو طويلة بصدد هذا - أن هذا الموضع المثلث الشكل حصين بضلعين مائتين هما البحر الصغير والنيل ، فلا تستطيع الحملة الصليبية أن تصل إليه براً إلا بعد عبور البحر الصغير المعروف بشدة انحدار جانبيه وسرعة تياره ، كما لا تستطيع أن تصل إليه عن طريق النيل إلا بأسطول نهري طويل بعيد عن قواعده . ثم إن هذا الموضع تنتهى عنده أقصر مسافة لوصول النجيدات الأيوبية المنتظر قدومها من الشام ، عبر شبه جزيرة طور سيناء والأطراف الشرقية المصرية . وأنه كذلك قريب من طريق البريد والمواصلات الرئيسية من القاهرة ، فضلاً عن قربها من ميناء سمندود ذات انصراري والسفن النيلية التجارية الكثيرة ، والمحاصيل الزراعية الوفيرة ، والمركز الجغرافي الواصل بين مختلف بلاد الدلتا . ومن هذا وذلك وذاك ، مما يسهل استنتاجه وإدراكه ، يتضح أنه لم يكن في الإمكان أحسن مما كان من اختيار السلطان الكامل لهذا الموضع لنقل معسكره إليه ، للوقوف في طريق الزحف الصليبي جنوباً . وليس أدلّ على حسن هذا الاختيار من مجموعة الحوادث التي جرت في مسالكها ، ودونت حركات الحملة الصليبية غداة زحفها من دمياط ، وسجلت أوصاف النشأة الأولى لمدينة المنصورة الحالية .

أما الحملة الصليبية فاختلفت قيادتها حول موعد الخطوة التالية ، بعد دخول دمياط وتنظيم حكومتها ، وقرر بلاجيوس الانتظار لحين وصول حملة إضافية .

منتظرة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني هوهنشتاوفن ، قبل الشروع في حركة عامة نحو الجنوب . وازداد اختلاف القيادة شدة بسبب ذلك الانتظار ، ورحل الملك حنا برين مغضباً إلى عكا ، في فبراير سنة ١٢٢٠ م ، وخلا الجو للنائب البابوي وسياسته الانتظارية في دمياط . ولذا لم يقيم الصليبيون بعمل ما حتى أواسط ١٢٢١ م ، ما خلا ترميم الأسوار الدمياطية ، وتحويل جامع دمياط الكبير (جامع أبي المعاطي القديم) إلى كنيسة كاتدرائية للعدراء ، ومهاجمة بلدة البرلس هجوماً أدى إلى وقوع فئة صليبية في كمين ، ولذا عادت هذه الفرقة إلى قواعدها غير سالمة .

وفي تلك الأثناء انتظر السلطان الكامل كذلك قدوم الإمداد إليه من مختلف البلاد الإسلامية ، غير أنه لم يكن عارفاً بأسباب جمود الصليبيين عن الحركة ، بل خشى أن يكون جمودهم هذا مقدمة لهجوم كبير . ولذا عكف الكامل في هذه المدة البالغة ثمانية عشر شهراً على تحصين معسكره بالحديد ، وبناء الدور والأسواق اللازمة لاستقبال النجيدات التي وصلت إليه أولاً بقيادة أخيه المعظم عيسى ، وأخيه الأشرف موسى بعده . هكذا نشأت واتسعت المدينة العسكرية التي عرفها التاريخ فيما بعد باسم المنصورة ، والتي لا يوجد من أخبار ازدياد نموها الحربي الأول ، حتى سنة ١٢٢١ م ، سوى ما أورده المقرئزي ، ونصه : ” المنصورة ، هذه البلدة على رأس بحر أشموم ، تجاه ناحية طلخا . بناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في [أواخر] سنة ست عشرة وستائة ، عندما ملك الفرنج مدينة دمياط ، فنزل في موضع هذه البلدة ، وخيّم به ، وبني قصرًا لسكناه ، وأمر من معه من الأمراء بالبناء ، فبنى هناك عدة دور ، ونصبت الأسواق . وأدار [الكامل] عليها سوراً مما يلي البحر ، وستره بالآلات الحربية والستائر (١) “

(١) المقرئزي : المواعظ والاعتبار - بولاق - ج ١ ، ص ٢١٧ ، ٢٣١ .

وبدئى أن بناء هذه المدينة العسكرية فى ثمانية عشر شهراً ، فى بقعة من أرض طينية خالية من أحجار البناء والصخور الطبيعية ، لم يتسع لثانة معمارية أو زخرفة هندسية ، من طراز أيوبى أو غيره من الطرز المعمارية ، بل غلب على عملية البناء كلها طابع السرعة والبساطة ، والمنفعة العسكرية وحدها . وكيفما كان الأمر ، فمن هذه المدينة العسكرية التى اعتبرها المؤرخون منزلة من منازل دلتا النيل ، وسموها لذلك أولاً باسم المنزلة فحسب ، أنفذ السلطان الكامل عيونه فى يوليه سنة ١٢٢١ م ، لتحقيق مدى ما ترمى إليه من وصول الحملة الإضافية المنتظرة إلى دمياط ، ولكشف شىء مما رتبته بلاجيوس من خطة حربية ، بعد جموده الطويل . ثم لم تلبث الأخبار أن جاءت إلى السلطان مصدقة بوصول الحملة الإضافية ، لا بقيادة الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، كما كان متفقاً عليه ، بل بقيادة لويس دوق بافاريا ، وهذا فضلاً عن عودة الملك حنا برين من عكا إلى دمياط ، للمشاركة بجيشه فيما انعقدت النيات الصليبية البليدة على القيام به ، بعد هذه الشهور الطويلة ، وبعد أن أوشك نهر النيل على موسم الفيضان .

وأخيراً زحف الصليبيون جنوباً فى قوات برية بحرية كبيرة نحو فارسكور ، واستولوا عليها فى منتصف يوليه سنة ١٢٢١ م ، ورتبوا صفوفهم عندها استعداداً لقتال قريب . وزحف السلطان الكامل بدوره شمالاً ، فعبر بحر أشموم ، وتقدم نحو شارمساح ، غير أنه رجع عنها إلى معسكره الحصين ، واختار أن يجعل منه محور الارتكاز لجميع خططه المستقبلية . ولذا زحف الصليبيون جنوباً مرة أخرى حتى وصلوا إلى شارمساح واحتلوها ، ومدّوا كتائبهم على طول مجرى بحر أشموم إلى قرب أضحال بحيرة المنزلة ، ولم يفصل بينهم وبين القوات المصرية الأيوبية سوى هذا المجرى المائى ؛ وكان ذلك فى أواخر يوليه سنة ١٢٢١ م .

ويتضح من دراسة الأوضاع الحربية للفريقين ، ومن الأحوال

الداخلية في المعسكرين ، أن القوات المصرية الأيوبية كانت أحسن مكاناً
وجمعاً وروحاً معنوية ، فالمعسكر الكامل يسيطر على ضفتي النيل الرئيسى ،
بما فى ذلك جوجر وطلخا ، متحصن بمواقعه وراء بحر أشموم طناح ،
والأمداد الإسلامية المطلوبة واصله إليه تبعاً من بلاد الشام والجزيرة ،
والأرض التى سوف يشتبك عليها الجيشان ذات قنوات وترع كثيرة ، تعرفها
القوات المصرية الأيوبية ، ولا يعرفها الصليبيون ، وخاصة بعد أن وضحت
تباشير الفيضان . ثم إن الجيش المصرى الأيوبى صار خلواً من المؤامرات
والدسائس التى أقلقّت السلطان الكامل قبلاً ، كما أن أبناء البيت الأيوبى من
إخوة السلطان وأقاربه جاءوا إليه على رأس أمدادهم فى حماسة ظاهرة .
وهنا كانت المعرفة بأحوال النيل ، وقنواته ومياه فيضانه ، ذات أثر عظيم
فى تطور الحوادث ، إذ غفل الصليبيون فى حركتهم الانتشارية - جنوبى
شارمساح على طول بحر أشموم - عن قناة تجرى وقت الفيضان بين النيل
وفرع قديم من فروعها ، وسوف تمتلئ هذه القناة وشيكاً بماء الفيضان ، وتصبح
حائلاً بينهم وبين خط الرجعة إلى دمياط ، كما غفلوا عن زحف قنات من
جيش السلطان الكامل شرقاً ، وعبروها بحر أشموم قرب أضحال المنزلة .
ثم حلّ الفيضان فى أغسطس ، وامتلاً هذا وذاك بالماء ، وصار من المتعذر
على الصليبيين أن يعبروا بحر أشموم ، على حين قطعت عليهم القنات
المصرية الأيوبية خط الرجعة إلى دمياط ، ووقفت السفن المصرية الأيوبية
لسفهم بالمرصاد فى عرض النيل .

والواقع أن البحرية المصرية الأيوبية اضطلعت وقتذاك بدور حاسم ،
إذ استولت على بضع سفن صليبية كبيرة ، محملة بالموثونة وأدوات القتال ،
وأسرت معظم رجالها . ثم أبحر عدد من السفن المصرية الأيوبية فى بحر
المحلة ، وهو فرع هامّ كان يخرج وقتذاك من النيل قرب بنها الحالية ، ويلتقى
به جنوبى فارسكور . فعالت هذه السفن بين الصليبيين وما سوف يهبط
إلهم من النجديات عن طريق النيل من دمياط ، كما قطعت خط الرجعة

كذلك على السفن الصليبية . ثم أمر السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمالى طلخا ، فضلاً عن قطع الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ، ففاض الماء ، وركب مساحة شاسعة من الأرض شمالى مواضع الصليبيين ، وصارت هذه المساحة الغارقة على جانبي النيل حائلاً بينهم وبين دمياط ، ما عدا طريق ضيق عند أشموم طنّاح سدّه السلطان الكامل كذلك بعدد من عساكره .

هكذا انحصر الصليبيون ، وتبددت آمالهم فى الزحف جنوباً نحو القاهرة ، ولم يبق لهم محيص ، إلا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً شمالياً نحو قاعدتهم فى دمياط . ولذا أحرقوا خيامهم ومجانيقهم ، وسائر أثقالهم ، واهتبلوا فرصة المستميت للانسحاب فى جنح الظلام ، ليلة السادس والعشرين من أغسطس ، فحال الماء والعسكر بينهم وبين مقصدهم ، ولم يلبثوا أن أدركوا بأس موقفهم . عند ذلك - وليس قبله - انقلب النائب البابوى بلاجيوس إلى مشروع مفاوضة السلطان الكامل ، وطلب منه السماح للصليبيين بالعودة إلى دمياط ، للجلاء عنها فى غير قيد أو شرط أو مساومة جديدة ، إلا ما رضى به السلطان ، وذلك بعد طلب الأمان .

وعقد السلطان الكامل مشوراً ، لتقليب الرأى فيما ينبغى الإجابة به على الصليبيين ، فأشار عليه بعض قاداته وأهله من البيت الأيوبى أن يخلّى بين الصليبيين ومأزقهم حتى تنفذ أقواتهم وقواتهم ، فتنتشر بينهم المجاعة ، ويأكل بعضهم بعضاً ، أو يأكلهم الطاعون . وأشار بعض آخر بإعطاء الصليبيين الأمان ، من باب العفو عند المقدرة ، وإن كان هذا من غير المألوف فى أبواب السلوك عند قادة الحروب فى كل العصور . وبرهن السلطان الكامل على أنه منطقي مع نفسه - وتلك صفة من الصفات التى لم تذكرها له كتب التراجم ، إذ مال كل الميل إلى الرأى الثانى ، وهو على أية حال رأيه الأصلى ، منذ مجيء الصليبيين إلى الشواطئ المصرية . ولذا بعث السلطان الكامل إلى الصليبيين ليحيطهم بأمانه ، وباستعداده لقبول جلائهم الناجز عن دمياط . ثم انتهى الطرفان إلى هدنة مدتها ثمانية أعوام ، بشرط

موافقة الإمبراطور فردريك الثاني عليها ، كما انتهوا إلى إطلاق كل من الطرفين طوائف الأسرى عنده .

وفي اليوم الثامن من سبتمبر سنة ١٢٢١ م جلا الصليبيون عن دمياط ، ودخلتها القوات المصرية الأيوبية عصر ذلك اليوم نفسه . وقبل ذلك بيضعة أيام كوفئت مدينة المعسكر الكاملى - وهى التى بدأت منها هذه النتائج - باحتفال عظيم شهده السلطان الكامل وإخوته وأبنائه ، وزعماء الصليبيين ، وعلى رأسهم الملك حنا برين ، والنائب البابوى بلاجيوس ، ودوق بافاريا . وتبادل المهنتون التهاني ، وتبارى الشعراء بقصائد المديح ، وهكذا انتهت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، وحققت لمدينة المعسكر الكاملى أن تسمى "المدينة المنصورة" ، على قول المقرئى ، كما حققت لها أن تنمو نمواً ملحوظاً ، وأن تصبح "مدينة كبيرة بها الحمامات والفنادق والأسواق" ، مع بقاء مبانيها وملاحقها العسكرية على حالها ، مدة جيل أو جيلين على أقل تقدير^(١) . وتسامع الشرق والغرب بأخبار الحملة الصليبية التى هدفت إلى الاستيلاء على مصر . وهال المعاصرين أن استولت هذه الحملة فعلاً على ثغر دمياط لمدة غير قصيرة ، كما هالهم أن رفض الصليبيون مرتين عروض السلطان الكامل ، للجلاء عن مدينة واحدة ، بالغة ما تبلغ فى الأهمية ، مقابل تسليمهم معظم مملكة بيت المقدس . ثم تسامع الشرق والغرب بما رضيت به هذه الحملة من تسليم دمياط ، ومن جلاء سريع عن الشواطئ المصرية ، دون قيد أو شرط . وعلم القديس فرنسيس ، وهو لا يزال بالشام . بتلك النتيجة الخائبة التى أراد هو أن ينقذ الصليبيين منها ؛ وتندر المتندرون ، ومنهم فيليب أغسطس ملك فرنسا ، بغفلة زعماء الحملة ؛ وعكف الدعاة للفكرة الصليبية على إثارة أوربا لحملة أخرى على مصر ، فى المستقبل القريب .

أما أهداف السلطان الكامل ، وسياسته القائمة على قاعدة الهدنة بين الصليبيين والمسلمين ، فلم يحاول فهمها سوى رجل واحد ، هو فردريك الثاني هوهنشتاوفن ، إمبراطور الدولة الألمانية الغربية .

(١) انظر مايل ، وكذلك المقرئى : المواعظ والاعتبار - بولاق - ج ١ ، ص ٢٣١ .

الفصل الثالث

الهدنة بين المسلمين والصليبيين

١٢٢١ - ١٢٤٨ م = ٦١٨ - ٦٤٦ هـ .

ربما يبدو هذا الفصل الثالث غير ذي موضوع ، ولا محل له ، في كتاب عنوانه " حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة " . والحقيقة أن هذا هو ما تبادر إلى عقل المؤلف ، ولزم تفكيره خلال عمله كله ، حتى إذا انتهى منه إلى آخره ، وضحت الحاجة عنده للعودة إلى إدراج هذا الفصل هنا ، بعد استبعاده لاشتماله على مرحلة الهدنة التي أعقبت جلاء الصليبيين عن دمياط سنة ١٢٢١ م ، والتي تطورت إلى سلام حتى سنة ١٢٣٩ م ، ثم انقلبت إلى محاولة صليبية جديدة متشعبة المرامي . وهذه الحوادث في مجموعها العام هي المقدمات المباشرة التي أنتجت حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٩ م ، وهي لذلك جديرة لا بإدراجها في فصل بذاته فحسب ، بل بإيرادها في تفصيل مناسب لوضعها الزمني . والمدة الزمنية التي استغرقتها حوادث هذا الفصل ثمان وعشرون سنة ، وبديهي أن أهمية هذه المدة ليست لسبقها الزمني على تاريخ حملة لويس التاسع ، بل لأنها تكشف عن دلالات وإشارات ضرورية لفهم أطوار هذه الحملة الأخيرة من نوعها على مصر ، في العصور الوسطى .

أما سنوات هذه الهدنة التي أعقبت جلاء الصليبيين عن دمياط ، فلم يحدث خلالها ما يعكر صفو العلاقات الطيبة بين الطرفين ؛ ولذا يدور موضوع هذا الفصل أولاً حول عقد معاهدة سلام بين المسلمين والصليبيين . والفضل

في هذه المعاهدة يرجع إلى شخصيتين تحتل كل منهما مقاما ممتازاً في تاريخ العصور الوسطى ، في الشرق والغرب ، وأولهما السلطان الكامل محمد الذي وقف لأزمة استيلاء الصليبيين على دمياط وقفات مثابرة ، وبرهن على أن اكتساب معركة دبلوماسية تؤدي إلى هدنة أجدى في نظره من وقعة حربية تنتهى إلى نصر محتمل ، أو هزيمة . أما ثانيهما ، فهو فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، إمبراطور الدولة الألمانية الغربية ، وهو الذى اقترن اسمه بالحملة الصليبية الإضافية التى انتظر النائب البابوى بلاجيوس وصوله على رأسها إلى دمياط ، لكن فردريك أرسل بديلا عنه دوق بافاريا . على أن نصيب الإمبراطور من معاهدة السلام بين المسلمين والصليبيين يتطلب الرجوع قليلا إلى سنة ١٢١٤ م ، حين صار فردريك إمبراطورا ، بمساعدة وصية البابا إنوسنت الثالث ، صاحب الدعوات المشهورة للحملة الصليبية الرابعة والخامسة .

وافتح فردريك الثانى عهده الإمبراطورى سنة ١٢١٥ م ، وفى عتقه نذر للذهاب فى حملة صليبية ألمانية إلى الشرق ، وأقسم فى حماسة الشباب أن يقوم على رأس حملته المرجوة دون إبطاء ، إرضاء للبابوية التى ساعدته . على الوصول إلى العرش الإمبراطورى . غير أن فردريك استطاع تأجيل الوفاء بنذره ، مرة بعد مرة ، بسبب مشاغله الداخلية فى إمبراطوريته ثم تغير موقفه تماما ، بعد أن تزوج سنة ١٢٢٥ م من يولاندا ابنة الملك حنا برين ، والوريثة الشرعية لمملكة عكا ، والإمبراطور فردريك وقتذاك فى الحادية والثلاثين من العمر ، والأميرة يولاندا فى سن الرابعة عشرة . وأصبح الإمبراطور بحق ذلك الزواج صاحب مملكة عكا ، كما أصبح نذره القديم واجبا مزدوجا ، وعليه توفيته واستغلاله فى آن واحد ، وذلك بالذهاب إلى الشرق ، للنظر فى شئون مملكته الجديدة .

وبينما عكفت البابوية على إلحاحها ومطالبها فردريك بضرورة الإسراع

إلى الذهاب للشرق ، بدأ السلطان الكامل محمد مبادلة الإمبراطور فردريك رسائل ودية ، منذ سنة ١٢٢٦ م ، تمهيداً لتفاهم إسلامي صليبي عام . وكان السلطان الكامل هو الساعى إلى هذا التفاهم ، على يد سفيره فخر الدين يوسف بن حمويه ، بسبب ما خشيه السلطان دائماً من سوء العلاقات المستقبلية بينه وبين إخوته من ملوك البيت الأيوبي بالشام والجزيرة . ولذا أعد فردريك سفناً صليبية صغيرة أبحر هو على رأسها ، من ثغر برنديزى بإيطاليا ، سنة ١٢٢٧ م ، لتحقيق مشروع التفاهم الكاملى الفردريكى المأمول ، وللنظر فى شئون مملكته الجديدة بفلسطين . غير أنه لم تمض بضعة أيام حتى عاد فردريك بسفنه إلى الشواطئ الإيطالية ، بسبب إصابته بالحمى . لكن البابوية اعتبرت المرض تمارضاً ، وأعلنت سخطها على الإمبراطور فردريك ، بأن قطعت من رحمة الكنيسة .

ثم توفيت الإمبراطورة يولاندا زوجة فردريك ، سنة ١٢٢٨ م ، بعد أن ولدت له ابناً هو كونراد هوهنشتاوفن ، فأخذ فردريك فى المطالبة بمملكة عكا ، بحق زوجته المتوفاة ، فضلاً عن حق الوصاية على ابنه منها ، وكل ذلك والملك العجوز حنا برين لا يزال على قيد الحياة . ويبدو أن المراسلات الكاملة الفردريكية وصلت وقتذاك إلى مرحلة الاتفاق على هدنة رضى الطرفان عنها مبدئياً ، ولم يبق إلا أن يذهب الإمبراطور فردريك إلى الشرق ، لتوقيع هذه الهدنة ، وتنفيذ ما يمكن تنفيذه من شروطها فوراً . لذا غادر فردريك إيطاليا فى أسطول صغير ، وفرقة عسكرية صغيرة ، عدتها ستمائة فارس ، فى أواخر يولييه ١٢٢٨ م . عند ذلك أصدرت البابوية قراراً ثانياً بقطع الإمبراطور فردريك مرة أخرى من رحمة الكنيسة ، لأنه قرّر الذهاب إلى الشرق ، قبل أن ترفع البابوية غضبها وقرار حرمانها عنه ، ودون أن يحصل على إذن خاص منها للقيام بحملته ، ووصفته أشنع الأوصاف الهرطقة المعهودة فى العصور الوسطى ، بل دعت إلى حملة صليبية لمحاربهته فى إمبراطوريته ، وهو غائب عنها فى فلسطين .

وفي فلسطين أرسى الإمبراطور فردريك سفنه الصغيرة عند مدينة عكا، في أوائل سبتمبر سنة ١٢٢٨ م ، حيث استقبل رسل السلطان الكامل ، وهم الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه ، وأخوه كمال الدين ، والشريف شمس الدين الأرموى قاضى نابلس ؛ وأول أولئك الثلاثة هو الذى شهد أدوار المفاوضات الكاملة الفردريكية منذ بدايتها . وتم توقيع الهدنة على شروط مماثلة لما عرضه السلطان الكامل سابقاً على زعماء الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، وهى أن يتسلم فردريك مدينة بيت المقدس وبيت لحم، وأن يكون للصليبيين ممر من الأرض يصل بين عكا وبيت المقدس ، بما فى ذلك اللد ويافا والناصره والجليل ، على أن يبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وقرى بيت المقدس فى أيدي المسلمين . واتفق الطرفان أن تظل هذه الهدنة لمدة عشر سنوات ، وأن يمنع فردريك فى أثناءها أية حملة صليبية أوربية عن السواحل المصرية والشامية .

وأعقب الإمبراطور فردريك هذه الهدنة زيارة المسجد الأقصى . بإذن من السلطان الكامل ، صحبة شمس الدين قاضى نابلس . وطاف فردريك بمزارات المسجد الأقصى ، مستفسراً عنها فى لسان عربى واضح . ولم يكن ذلك غريباً على إمبراطور أجاد الكتابة والكلام فى ست لغات أخرى غير اللغة العربية ، كما لم يكن غريباً على الحاضرين من المسلمين أن يسمعه وهو يتكلم فى غير لكنه ظاهرة ، فإن كثيراً من الصليبيين الأوربيين المقيمين بالشام كانوا يتكلمون العربية ، منذ استقر مقامهم بالشرق . وبات الإمبراطور فردريك ليلتين بدار القاضى شمس الدين ببيت المقدس ، ثم رحل إلى عكا ، بعد أن توج نفسه بكنيسة القيامة ملكاً على مملكة بيت المقدس .

ولأحد المؤرخين المسلمين المعاصرين فى وصف شخص الإمبراطور فردريك ، وحوادث إقامته بفلسطين ، فقرات شهيرة مبنية على المشاهدة ، ونصها : ” وفيها دخل الأنبرور إلى القدس . . . وجرى (كذا) له عجائب ،

منها أنه لما دخل [قبة] الصخرة ، رأى قسيساً قاعداً عند القدم ، يأخذ من الفرنج القراطيس ، فجاء إليه [الأنبرور] كأنه يطلب منه الدعاء ، ولكمه فرماه إلى الأرض وقال له يا خنزير !! السلطان قد تصدق علينا بزيارة هذا المكان ، وأنتم تفعلون فيه هذه الأفاعيل . لئن عاد واحد منكم دخل (كذا) على هذا الوجه لأقتلنه . وحكى صورة الحال قوام الصخرة ، قالوا : ونظر [الأنبرور] إلى الكتابة التي في القبة ، و [قرأ نصها ، وهو] قد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين ، فقال ومن هم المشركون ؟ وقال للقوام : هذه الشباك التي على أبواب الصخرة من أجل إيش ؟ قالوا [له] لئلا تدخلها العصافير . فقال قد أتى الله إليكم بالخنازير قالوا وكان الأنبرور أشقر ، في عينيه ضعف ، لو كان عبداً ما ساوى مائتي دينار . قالوا والظاهر من كلامه أنه كان هدياً^(١) ، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية . قالوا وكان [السلطان] الكامل قد تقدم إلى القاضي شمس الدين قاضي نابلس أن يأمر المؤذنين — ما دام الأنبرور في القدس — لا تصعدوا المنائر ، ولا تؤذنوا في الحرم . فأنسى القاضي أن يعلم المؤذنين ، وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر : والأنبرور نازل في دار القاضي ، فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى . . . فلما طلع الفجر استدعى [شمس الدين قاضي نابلس] القاضي عبد الكريم ، وقال له إيش عملت ؟ السلطان رسم كذا وكذا ، قال فما عرفتني والتوبة . فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة ، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضي ، وكان

(١) كذا في الأصل ، وهو وارد بصيغة ” دهر يا “ ، في المقرئزي (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣١ ، حاشية ٣) ، وغيره من المراجع المتأخرة . وهذه الصيغة المثبتة بالمتن هنا مأخوذة ، فيما يبدو ، من لفظ ألماني الأصل استخدمه فردريك أثناء أحاديثه باللغة العربية المختلطة أحياناً بالألمانية ، أي لفظ (Heiden) ، ومعناه غير مؤمن بدين من الأديان ، ومنطوقه الألمان عطايق تقريباً لمنطوقه بالحروف العربية .

قد دخل القدس في خدمته ، وهو الذي سلم إليه القدس ، فقال له : يا قاضي ! أين ذاك الرجل الذي طلع البارحة المنارة ؟ . . فعرفه أن السلطان أوصاه . فقال الأنبرور : أخطأتم يا قاضي ، تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجل ، فلو كنتم عندي في بلادى هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم ؟ الله ! الله ! لا تفعلوا ، [هذا] أول ما تنقصون عندنا ، ثم فرق [الأنبرور] في القوَّام والمؤذنين والمجاورين جملة ، أعطى كل واحد منهم عشرة دنانير ؛ ولم يبق بالقدس سوى ليلتين ، وعاد إلى يافا ، [خوفاً] من الداوية ، فإنهم طلبوا قتله ^(١) .

وعاد الإمبراطور فردريك الثاني إلى أوروبا في يونيه ١٢٢٩ م ، دون قتال أو جرحى أو خسائر في الأرواح ، بل بمكاسب لم تستطع الحملات الصليبية الضخمة أن تعود بها . منذ أيام صلاح الدين . غير أن الإمبراطور وجد البابوية حائرة على جميع ما حدث أشد الحق ، لأن الصليبيين لا ينبغي لهم مصالحة المسلمين ، بل يجب عليهم مقاتلتهم حتى النهاية . ثم اقتنعت البابوية أخيراً بفضل فردريك على العالم المسيحي ، وأدركت أن حملته الصليبية السلمية أحرزت من النجاح قدر ما أحرزته الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة من فشل ، على قول مؤرخ أوربي فاحص مشهور ^(٢) . وبذا رضيت البابوية عن الهدنة الكاملة الفردريكية ، كما أعلنت عودة الإمبراطور إلى رحمة الكنيسة ، سنة ١٢٣٠ م .

أما السلطان الكامل محمد ، فلم يقتنع أحد بأنه أدى بهذه الهدنة خدمة ما للإسلام ، أو للمسلمين . وامتلات مساجد القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها ، بالشائين الناقين على السلطان الذي ضحى بالمصلحة الإسلامية العامة ،

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان - طبعة حيدر آباد ، ج ٨ ، ص ٦٥٥ . وما بعدها .

(٢) انظر (Barker : The Crusades. P.77) .

من أجل مصلحته الخاصة . بالتهاون مع الإمبراطور فردريك الثاني ، في سبيل المحافظة على دولته من عادية إخوته وأقاربه من الأيوبيين . ولم يشفع للسلطان الكامل أنه أرسل البعوث إلى مختلف العواصم الإسلامية ، لشرح فوائد الهدنة للطرفين الإسلامي والمسيحي سواء ، ولا سيما تجنب مصر والشام ويلات الحروب مدة عشر سنين ، قابلة للتجديد . ولعل في عبارة الفقيه المعاصر ابن الأهدل . ما يدل دلالة واضحة على مبلغ ما أحس به المسلمون وقتذاك نحو السلطان الكامل . رغم الدعاية الواسعة التي نهضت بها هذه البعوث ، لشرح سياسته ، ونصر هذه العبارة : ” وللكمال هفوة جرت منه عفا الله عنه ، وذلك أنه سلم مرة بيت المقدس إلى الفرنج اختياراً . نعوذ بالله من سخط الله . وموالة أعداء الله “ .

غير أنه لا سبيل إلى إنكار أن الهدنة الكاملة التي دريكية أنتجت سلاماً عاماً بين المسلمين والصليبيين . منذ سنة ١٢٢٩ م . لمدة عشر سنوات . وأن هذا السلام مكّن للسلطان الكامل أن ينصرف انصرفاً ناجحاً إلى شئون توحيد الدولة الأيوبية . كما مكّن له الوقوف في وجه اعتداءات الدولة الخوارزمية الممتدة على طول الأطراف الأيوبية عند الرها ، فضلاً عن الدولة السلجوقية بالروم ، وهي الدولة المطلقة من الأناضول وآسيا الصغرى على حلب والبلاد الفراتية .

ثم توفي السلطان الكامل محمد بدمشق ، في مارس ١٢٣٩ م ، وهو في سن الستين ، وانقرط بذلك عقد الدولة الأيوبية المتحدة للمرة الثالثة ، إذ تولى السلطنة بالقاهرة العادل الثاني بن الكامل ، على حين قام أخوه الأكبر - وهو الصالح أيوب - أميراً في دمشق ، بعد أن أخرج الصالح منها قريباً له اسمه الجواد . واستعان الصالح أيوب في هذه العملية الدمشقية بشرازم من الخوارزمية الذين دخلوا في خدمته ، منذ انهيار دولة خوارزمشاه نهائياً على أيدي المغول .

غير أن الصالح أيوب عزم على الحلول محل أبيه في السلطنة الأيوبية المتحدة ، بالقاهرة ، لكنه بينما هو يعد العدة الحربية للزحف على مصر ، طرده عمه الصالح إسماعيل من إمارة دمشق ، وأقام نفسه بها . وبذا تشرّد الصالح أيوب مدة غير قصيرة ، وقبض عليه قريب آخر له اسمه الناصر داود أمير الكرك ، وتبددت بذلك أحلامه في الوصول إلى القاهرة . ثم اتفق الصالح أيوب الشريد ، والناصر داود أمير الكرك ، على حملة مزدوجة للهجوم على مصر . ولم يكن الموقف السياسى بالقاهرة بحاجة في الواقع إلى مثل هذه الخطوة الإيجابية ، إذ استطاعت مؤامرة داخلية بالقاهرة أن تخلع العادل الثاني في غير جلبة ، وأن تدعو الصالح أيوب لاعتلاء السلطنة بدله ؛ وكان ذلك في يونيه سنة ١٢٤٠ م .

وكافأ السلطان الصالح أيوب قريبه الناصر داود على موقفه الودى منه ، بأن جعله حاكماً على الكرك وعموم فلسطين ، على حين ظل الصالح إسماعيل متربعاً في إمارة دمشق . وبذا غدت الدولة الأيوبية منقسمة على نفسها . من غير حرب سافرة بين أبناء البيت الأيوبي . وتعدى ذلك الانقسام إلى سائر أجزاء الدولة الأيوبية ، إذ استغلت تلك الحال شراذم الخوارزمية العاملة رسمياً في خدمة السلطان الصالح أيوب ، فجعلت الملك الأيوبي المظفر صاحب ميافارقين معدوم السلطة في إمارته . وبسببهم كذلك غدا الملك المظفر تورانشاه بن السلطان الصالح أيوب عاجزاً عن المحافظة على حصن كيفا ، ضد اعتداءات جيوش السلاجقة من أطراف الروم (آسيا الصغرى) ، كما غدا الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، فضلاً عن أقاربه في حمص وحماة ، يتمنون زوال السلطان الصالح أيوب ، لأنه ظهر الخوارزمية .

وفي أثناء هذا الاضطراب الداخلى في الدولة الأيوبية دنا أجل الهدنة الكاملة الفردريكية ، وكانت البابوية ترقب ذلك الميعاد ، وتستعد له ، فأرسلت إلى ملوك إنجلترا وفرنسا والإمبراطور فردريك الثاني تطلب

اشتركهم في حملة صليبية جديدة ، وأنفذت دعائها إلى مختلف الأقاليم الأوربية لذلك الغرض . غير أن النداء البابوي لم يلق مجيباً في البلاطين الإنجليزى والفرنسى ، على حين أعلن فردريك الثانى أنه يأمل الحصول بالديبلوماسية على شروط سلمية أحسن من شروط الهدنة الوشيكة الانتهاء ، وذلك بالتدخل بين ملوك البيت الأيوبي المنقسمين على أنفسهم . ومع هذا اجتمعت حملة صليبية ضخمة معظمها فرنسى ، بقيادة تيبالد الشمبانى ملك نافار ، وانضمت إليها فئات فرنسية أخرى ، من برجنديا ونيفر وبريتانى وغيرها . ثم أبحرت هذه الحملة الصليبية من ميناءى أيجمور ومرسيليا بجنوب فرنسا ، فى أغسطس سنة ١٢٣٩ م ، وأرست سفنها فى اليوم الأول من الشهر التالى عند عكا ، وهو يوم انتهاء أجل الهدنة الكاملة الفردريكية ، حيث أنزلت جيشاً عديداً بضعه آلاف من الفرسان والرجالة . وكان الخلاف بين ملوك البيت الأيوبي وقتذاك على أشده ، والعادل الثانى لا يزال سلطاناً فى مصر ، فرأى فريق من الشخصيات الصليبية المحلية . ورأى معهم جماعة من زعماء الحملة الجديدة ، أن تتجه الجهود مرة أخرى نحو غزو مصر ، لما فى ذلك من ضمان لحيدة سائر ملوك البيت الأيوبي ، لأنهم مجمعون تقريباً على كراهة العادل الثانى والمحيطين به . ورأى فريق آخر من الزعماء الصليبيين المحليين والأوربيين أن الخطر المباشر على الأراضى الصليبية دائماً هو دمشق ، وأن المصلحة الحقيقية توجب الهجوم عليها ، وملوك الأيوبيين بما لديهم من خلاف مشغولون .

ولم يشأ الملك تيبالد أن يرجع رأياً على رأى ، بل قرر القيام على تنفيذ هذا وذاك ، بالهجوم أولاً على الأطراف المصرية عند عسقلان وغزة ، حتى إذا اطمأن بذلك إلى تأمين الأراضى الصليبية من ناحية الجنوب ، تحول فى سرعة إلى مهاجمة دمشق . وبناء على هذا القرار العظيم التفاوض زحفت حملة الملك تيبالد من عكا ، فى أوائل نوفمبر سنة ١٢٣٩ م ، صوب

الأطراف المصرية ، وهاجت فرقة منها قافلة إسلامية كبيرة جنوبى يافا ، واستولت على متاعها غنيمة باردة . وأثارت هذه القفلة غضب الملك الناصر داود أمير الكرك وعموم فلسطين ، وجعلت منه عدواً للحملة التى بنت أعمالها على قاعدة التظاهر بالودّ نحو ملوك البيت الأيوبي بالشام .

وبينا الملك تيبالد فى طريقه قرب غزة ، جاءت إليه أنباء بوصول جيش مصرى أيوبى إلى الأطراف المصرية ، بقيادة أمير مملوكى اسمه ركن الدين بيبرس ، وهو غير بيبرس الذى صار فيما بعد سلطاناً مشهوراً . وأخطأت المعلومات الصليبية فى تقدير قوة هذا الجيش ، واستهانت به وبقائده . ثم اقتربت الفرقة الصليبية من غزة ذات يوم فى الفجر ، تريد اقتحامها فجأة ، والمدينة نائمة ، فلم تلبث هذه الفرقة أن وجدت نفسها محوطة بالجيش المصرى الأيوبي إحاطة تكاد تكون تامة ، ووقع معظم رجالها أسرى فى أيدي الأمير ركن الدين ، وفرّ الباقيون إلى عسقلان . عند ذلك أمر الملك تيبالد بالزحف العام نحو غزة ، غير أنه لم يجد استجابة ، إذ خشى الفرسان الباقيون وجنودهم سوء المصير ، بعد أن ذاعت بينهم أخبار الكثرة العددية فى الجيش المصرى الأيوبي ، ولذا انقلب أمر الزحف الصليبي جنوباً نحو غزة إلى تقهقر شمالاً إلى عكا . وتشجع الملك الناصر داود ، فهبّ للانتقام من الهجوم السابق على القافلة الإسلامية داخل جغرافيته ، وزحف على بيت المقدس بغته ، واحتلها بعد تسليم حاميتها له ، فى السابع من ديسمبر تلك السنة ، وهدم الملك الناصر تحصينات بيت المقدس الجديدة ، ثم رجع عنها إلى عاصمته بالكرك .

ونتيجة لهذه الحادثة التى انتهى إليها الشطر الأول من أهداف هذه الحملة ، تحول الملك تيبالد شمالاً نحو إمارة طرابلس الصليبية ، استعداداً لتلبية نداء وصل إليه من الملك الأيوبي المظفر أمير حماة ، لمساعدته ضد تهديدات الملوك الأيوبيين أعمامه وأقاربه ، أصحاب حلب وحمص ودمشق

والكرك . غير أن هذه التهديدات المتبادلة بين أبناء البيت الأيوبي لم تتطور إلى حرب حامية ، وبالتالي لم تتطلب من الملك تيبالد وحملته الصليبية حركة لمساعدة المظفر أمير حماة . ولذا بقيت هذه الحملة حائرة في طرابلس ، ووقعت في أثناء إقامتها بتلك المدينة حوادث خلعت العادل الثاني بالقاهرة ، وحلول الصالح أيوب محله في سلطنتها .

غير أن قيام الصالح أيوب في السلطنة بالقاهرة . أدى إلى تدهور العلاقات بينه وبين الملك الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق . وهنا لاحت فرصة جديدة للملك تيبالد ، فأسرع بحملته جنوباً ، وعسكر عند صفورية ، وهي البلدة التي اجتمعت عندها الجيوش الصليبية يوماً ، قبيل وقعة حطين . ثم لم يلبث أن جاء إلى الملك تيبالد في معسكره ، في يولييه سنة ١٢٤٩ م ، رسول من عند الصالح إسماعيل ، يطلب مدداً صليبياً ، لحماية دمشق من هجوم يحتمل صدوره من ناحية مصر والكرك . بقيادة الحليفين الأيوبيين الجديدين ضدها ، وهما السلطان الصالح أيوب والملك الناصر داود أمير الكرك . وفي مقابل هذه المساعدة الصليبية ، وعد الملك الصالح إسماعيل بتسليم صفد وما حولها من الحصون للصليبيين ؛ وتم الاتفاق على ذلك ، كما تم تنفيذ شروطه في أغسطس سنة ١٢٤٠ م . ولذا انتقل الملك تيبالد بحملته الحائرة إلى المنطقة الساحلية بين يافا وعسقلان ، للانضمام إلى جيش الصالح إسماعيل .

غير أن السلطان الصالح أيوب استطاع - بالدعاية الدينية - أن يؤولب أهل دمشق ضد حلف الصالح إسماعيل مع الصليبيين . كما استطاع بالدبلوماسية أن يغري إلى جانبه الملك تيبالد ، وذلك بوعده بإطلاق سراح أصحابه من أسرى وقعة غزة . ولذا انتهى هذا الحلف إلى لا شيء ، وغضب الصليبيون المحلبون من نكث الملك تيبالد لاتفاقه مع دمشق وملكها الصالح إسماعيل ، حتى أنه لم يبق له سوى أن يغادر بحملته مدينة عكا إلى أوروبا ، في أواخر سبتمبر سنة ١٢٤٠ م .

وهكذا انتهت هذه الحملة الصليبية التي ظنت أن في مقدورها هدم المقاومة الإسلامية ، بالقاهرة ودمشق على التعاقب ، ولم تستطع تحقيق شيء من هذا الحلم المزدوج العريض . بل فشلت في كل خطوة من خطواتها ، ما عدا الاستيلاء على عسقلان وصفد . وربما يرجع إلى هذا الفشل عدم تسمية هذه الحملة باسم عددي في كتب الحروب الصليبية ، ولو أنها استطاعت أن تستولى على دمشق . أو أن تنفذ بجيوشها من غزة إلى الأراضي المصرية . لأضفى عليها المؤرخون الأوربيون اسم الحملة الصليبية السابعة مثلاً ، نظراً لما انعقد عليها من الآمال ، بعد سنوات طويلة من الهدنة الكاملية الفردريكية . لكن المقادير شاءت أن تدخر هذه التسمية لحملة لويس التاسع على مصر . وذلك بعد تسع سنين من رحيل الملك تيبالد وحملته الصليبية عن الشرق .

وفي هذه السنوات التسع وقعت حوادث كبيرة وصغيرة ، وهي المسئولة في مجموعها عن حملة لويس التاسع على مصر ، وهي لذلك جديرة بتحليل على مقياس واسع . وأول هذه الحوادث وصول أمير إنجليزى اسمه ريتشارد كورنول ، على رأس حملة سلمية إلى عكا ، في أكتوبر سنة ١٢٤٠ م ، وهو أخو هنرى الثالث ملك إنجلترا ، وأخته زوجة ثانية للإمبراطور فردريك الثانى ، وجاء ريتشارد كورنول إلى الشرق بتعليمات من عند الإمبراطور فردريك الثانى ، لترتيب أحوال مملكة عكا ، وتهئية ما بين أحزابها من اختلافات ومنافسات طاحنة ، مع تنظيم علاقاتها بالسلطنة الأيوبية بالقاهرة ، على قاعدة تجديد الهدنة ، بشرط احتفاظ الصليبيين بما كسبوا من عسقلان وصفد ، أيام حملة تيبالد الشمبانى . واستقبل ريتشارد من أجل ذلك سفراء السلطان الصالح أيوب في عسقلان ، وفاوضهم بها ، كما استقبل السلطان الصالح أيوب سفراء من عند ريتشارد بالقاهرة ، ومعهم رسالة من عند الإمبراطور فردريك الثانى ،

لتهنته بالسلطنة . لذا لم يكن عجباً أن تنتهى هذه الحركات الودية بالنجاح ، وأن تغدو الدولة الصليبية في فلسطين كأنما عادت إلى مساحتها القديمة ، بعد أن عادت إليها جميع أراضيها غربى نهر الأردن ، على طول الساحل الفلسطيني حتى ضواحي مدينة غزة ، فضلاً عن طبرية وبضع مدن داخلية أخرى .

ثم أبحر ريتشارد كورنول من عكا ، في مايو سنة ١٢٤١ م ، عائداً إلى بلاده ، بناء على طلب من أخيه هنرى الثالث ملك إنجلترا ، بعد أن دلّ هذا الأمير على صلاحية فريدة ، ليكون نائباً عن الإمبراطور فردريك الثانى فى مملكة عكا . ولذا كان رحيله مؤذناً بعودة الفتنة الداخلية إلى مملكة عكا مرة أخرى ، وانقسام الرأى السياسى فيها إلى رأيين متعاكسين ، أحدهما جانح إلى السلام مع سلطان مصر وسائر الملوك الأيوبيين ، وثانيهما مقيمٌ على فكرة استمرار العداوة والبغضاء بين المسلمين والصليبيين ، إشباعاً لروح التقوى العسكرية .

وتزعم الرأى الثانى من هذين الرأيين طائفة الفرسان الداوية ، أصحاب النفوذ والممتلكات الواسعة وقتذاك بفلسطين ، وأغار جنودها فى ربيع سنة ١٢٤٢ م على مدينة حبرون ، وهى تابعة للملك الناصر دواود صاحب الكرك ، وحليف السلطان الصالح أيوب . فأجاب الناصر داود على هذه الحركة الاعتدائية التى لا مبرر لها ، بأن أرسل فرقة من جيشه لقطع طريق الحاج المسيحى من الساحل الفلسطينى إلى بيت المقدس ، وفرض رسوم ومقررات مالية على الحجاج والتجار الواردين على ذلك الطريق . غير أن الفرسان الداوية لم يزدادوا إلا عتواً ، إذ أنفذوا فرقة منهم إلى نابلس فى أكتوبر سنة ١٢٤٢ م ، فخربتها وأحرقت مسجدها ، وأنزلت بأهلها من المسلمين والمسيحيين مذبحه كبيرة .

وهنا تدخل السلطان الصالح أيوب ، لإيقاف اعتداءات الداوية عند حد ، فبعث جيشاً حاصر قاعدتهم فى يافا حصاراً قصيراً ، كما بعث جيشاً آخر لمهاجمة غزة مرتين ، واكتفى بذلك مؤقتاً ، ريثما يسوى حسابه مع

عمه الملك الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق . وكان الداوية وحزب الحرب من الصليبيين المحليين يعملون على بناء حلف بينهم وبين الملك الصالح إسماعيل ، بل إنهم اجتذبوا إلى ذلك الحلف عدوهم القديم الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وكذلك الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص . وفي مقابل ذلك الحلف الغريب ، وما به من الوعد الصريح بالمساعدة الحربية ضد السلطان الصالح أيوب ، نزل الصالح إسماعيل للصليبيين عن منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وهي المنصوص في الهدنة الكاملة الفردريكية على بقائها في أيدي المسلمين . وهلت الدوائر الصليبية لذلك الحلف الذي أنتجته العداوات بين ملوك البيت الأيوبي ، وكتب رئيس طائفة الفرسان الداوية إلى أوروبا ، أواخر سنة ١٢٤٣ م ، يعلن أخبار الاحتلال الصليبي لمنطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة كلها . ثم جاء الملك المنصور إبراهيم صاحب حماة إلى عكا ، في ربيع السنة التالية (١٢٤٤ م) ، للمصادقة النهائية على ذلك الحلف الشائن ، ووعد الصليبيين بجزء من مصر ، بعد هزيمة السلطان الصالح أيوب ، وأقام المنصور هذا بعكاً مدة ، تمتع خلالها بحفاوة بالغة رتبها له طائفة الفرسان الداوية .

غير أن جيوش ذلك الحلف الأيوبي الصليبي لم تكن شيئاً ، بالقياس إلى ما لدى السلطان الصالح أيوب من قوة حربية كبيرة ، تساندها موارد مصر من المال والأسلحة ، فضلاً عن شخصية السلطان نفسه . ذلك أن فئات الخوارزمية التي أدخلها السلطان الصالح أيوب في خدمته منذ سنة ١٢٤٠ م ، وألقى الرعب بها في قلوب ملوك البيت الأيوبي بالشام ، كانت في الواقع جزءاً صغيراً من جموع خوارزمية هائلة في الأراضي الواسعة الممتدة بين الرها وحران ، مستعدة لتأجير خدماتها الحربية لأية جهة راغبة في تأجيرها . فلما تقرّر هذا الحلف الأيوبي الصليبي العجيب أرسل السلطان الصالح أيوب إلى قادة هذه الجموع الخوارزمية ، وأدخلهم وجموعهم

في خدمته ، وأغدق عليهم من موارده الوفيرة ، وكلفهم بالاستيلاء على دمشق وبيت المقدس .

وبناء على ذلك التكليف عبرت الجموع الخوارزمية نهر الفرات إلى الشام ، في يونه سنة ١٢٤٤ م ، وعدتها عشرة آلاف من الحياالة ، وعلى رأسهم قادتهم حسام الدين بركة خان ، وخان بردى ، وصاروخان ، وكشلوخان . وهبطت هذه الجموع على البلاد الشامية تريد الاستيلاء في سرعة على دمشق ، غير أنهم لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم بحاجة إلى حصارها ، وليس لديهم شيء من المعدات الثقيلة اللازمة لأعمال الحصار . ولذا تحولوا عن دمشق جنوباً إلى منطقة الجليل ، حيث استولوا على طبرية ، واحتلوا نابلس ، وزحفوا منها نحو بيت المقدس . ولم تستطع حامية بيت المقدس الصليبية أن تقاومهم طويلاً ، لضعف حصونها الجديدة . وقلة ما لديها من أسلحة ، فدخلتها جموع الخوارزمية في الحادى عشر من شهر يوليه من تلك السنة ، بعد أن أعطت الأمان لحاميتها . وأعلن الخوارزمية موافقتهم على جلاء المسيحيين من أهل بيت المقدس بأموالهم إلى حيث يريدون ، فخرجوا منها إلى يافا وأواخر أغسطس . وهكذا فقد الصليبيون مدينة بيت المقدس . وضاع منهم في بضعة أشهر ما اجتهدت الهدنة الكاملة الفردريكية في المحافظة عليه لعدة سنين . وباتوا في حال شبيهة بحالهم بعد الفتوح الصلاحية العظمى .

ثم رحل الخوارزمية عن بيت المقدس جنوباً مرة أخرى نحو غزة ، للانضمام إلى الجيش المصرى الأيوبي الرابض على مقربة منها . بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس . صاحب الانتصار السابق هناك على الصليبيين .

وفي تلك الأثناء تجمعت حول عكا قوات من عند الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ، والملك الناصر داود صاحب الكرك . تنفيذاً لاتفاقية الحلف الأيوبي الصليبي ، وبلغت هذه القوات الأيوبية بضعة آلاف بين راجل وراجل . وهناك تجمعت

كذلك قوات مملكة عكا ، وسائر المراكز الصليبية حتى صور وأنطاكية وطرابلس ؛ وقدّر أحد المؤرخين الأوربيين الحديثين ، بأن هذه القوات الصليبية المحلية كانت في مجموعها أعظم ما جمع الصليبيون المحليون من جند ، منذ وقعة حطين^(١) .

ثم زحفت هذه القوات المتحالفة أوائل أكتوبر سنة ١٢٤٤ م ، من عكا جنوباً على طول الساحل . وما زالت في زحفها حتى عسقلان ، حيث دقت أوتادها وحصّنت مواقعها ، استعداداً للحرب عنيدة ، حسب خطة حربية رسمها الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ، وهو الذي صار له شيء من القيادة العامة بين جنود الحلف جميعاً . وقامت هذه الخطة الحربية على قاعدة أن الحياة الحوآرزية التي تكوّن منها العمود الفقري للجيش المصري الأيوبي وقتذاك ، لا تميل بطبيعتها إلى مهاجمة المواقع الحصينة ، وأن الجيش المصري الأيوبي وحده لن يزحف شمالاً أو بشنّ هجوماً كبيراً ، وأن تحصين عسقلان والوقوف خارجها بالجيش الصليبي الأيوبي المتحالفة كلها سوف يؤدي لذلك — عاجلاً أو آجلاً — إلى رحيل الحوآرزية ، ورجوع الجيش المصري الأيوبي إلى قواعده وراء غزة ، دون قتال .

غير أن الحوادث كذبت هذا الحساب ، إذ تقدم الجيش المصري الأيوبي والحياة الحوآرزية شمالاً ، واصطدمت الحوآرزية بالجيش المتحالفة اصطداماً عنيفاً غير متظر ، عند قرية حبريا الحالية (وهي قرية لافوربي زمن الصليبيين) ، في منتصف الطريق تقريباً بين غزة وعسقلان ، وذلك في السابع عشر من أكتوبر سنة ١٢٤٤ م . وهكذا انقلبت الخطة الحربية المرسومة رأساً على عقب ، وانهار الركن الأول من أركانها . ومع هذا ظنت القيادة المتحالفة أن الكثرة العددية في جيوشها ، فضلاً عن استناد

(١) انظر (Runciman : Op. Cit. III pp. 226) .

هذه الجيوش إلى مواقع حصينة في مؤخرتها عند عسقلان ، سوف تأتي لها بنصر
نهائي على الجيش المصري الأيوبي والخيالة الخوارزمية . ثم لم تكن سوى بضع
ساعات من ذلك اليوم حتى انجلى الاصطدام عن تدمير الجيوش المتحالفة ،
ولاسيما الجيوش الصليبية التي أفردتها الخيالة الخوارزمية بأشد هجماتها
عنفاً . وبلغ عدد القتلى من الصليبيين وخدمهم في تلك الواقعة خمسة آلاف ،
على أقل تقدير ، كما بلغ عدد الأسرى منهم ثمانمائة ، أي أنه لم ينج
منهم سوى فئة قليلة استطاعت الفرار إلى يافا ، والإبحار منها في سرعة
إلى عسقلان .

والخلاصة أن واقعة حيربيا^(١) أحدثت بالصفوف الصليبية مثلما أحدثت
حطين قبلاً ، على وجه التقريب . وهذه الواقعة معروفة في كتب الحروب
الصليبية باسم واقعة غزة ، لسبب غير مفهوم^(٢) ، مع العلم بأن غزة
شهدت انتصاراً إسلامياً سابقاً يكفل لها شهرتها وفضلها في تلك الأزمنة .
على أن موضع الأهمية هنا هو أن فقدان مدينة بيت المقدس في يولييه
سنة ١٢٤٤ م . وخسران واقعة حيربيا في أكتوبر من السنة نفسها ،
جعل الصليبيين المحليين في يأس من جدوى أي عمل إيجابى من جانبهم
في فلسطين ، كما جعل مصيرهم بها موضع تفكير عميق في بعض الدوائر
الصليبية ، في غرب أوروبا .

أما الخيالة الخوارزمية المنتصرة ، فأسرعت رাকضة ومعها الجيش
المصري الأيوبي . بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس والأمير حسام الدين أبو على
الهدباني إلى عسقلان . أملأ في الاستيلاء عليها سريعاً ، في أعقاب واقعة حيربيا ،
غير أن عسقلان امتنعت على المهاجمين بفضل حصانتها ، ولم تستطع الخيالة الخوارزمية

(١) انظر وصفاً مباشراً لهذه الواقعة في سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان - طبعة
حيدرآباد ، ج ٢ ، ص ٧٤٥ - ٧٤٧ .

(٢) حدد أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ١٧٤ ، مكان هذه الواقعة بأنه " بين
عسقلان وغزة " ، أي حيربيا المذكورة بصيغتها الفرنسية (La Forbie) في المراجع الأجنبية .

حصراً على حصارها ، فتركزت هذه المهمة للجيش المصرى الأيوبي ،
والسفن المصرية الأيوبية التى جىء بها خصيصاً لتطويق هذا الميناء الهام فى البر
والبحر . ثم زحف الحيلة الخوارزمية إلى يافا ، فلقبت من حصانها مثلما لقيت
من حصانة عسقلان ، فتحولت عنها إلى غزة ، وطلبت من السلطان الصالح أيوب
أن يأذن لها فى دخول الأراضى المصرية . غير أن السلطان لم يشأ أن يأذن بذلك ،
لأنه قصد باستخدام الخوارزمية أن تساعد جموعهم على أخذ بيت المقدس
ودمشق . لا الحجبى بأعدادهم الكبيرة الخطيرة إلى مصر . ولذا اكتفت الحيلة
الخوارزمية بالعيش بين البلاد الصائبية حتى عكا لمدة أشهر ، ريثما يتم
إعداد الجيش المصرى الأيوبي الذى عزم السلطان الصالح أيوب على إنفاذه ،
للاستيلاء على دمشق .

ثم وصل هذا الجيش المصرى الأيوبي أخيراً إلى غزة . بقيادة الأمير معين الدين
حسن بن شيخ الشيوخ ، حيث انضافت إليه الحيلة الخوارزمية . وسار الجميع
نحو ممتلكات الملك الناصر صاحب الكرك ، فاستولوا على البلاد التابعة له
غربى نهر الأردن ، وهى حبرون وبيسان و نابلس . ثم زحفوا نحو دمشق .
وحاصروها فى أبريل سنة ١٢٤٥ م ، وبها صاحبها الملك الصالح إسماعيل ،
ومعه الملك المنصور صاحب حصص . وامتد هذا الحصار ستة أشهر ،
وعاثت الحيلة الخوارزمية فى أثنائه بضواحي دمشق ، وقطعت الطرقات على
الناس ، كما فتح الملك الصالح إسماعيل سدود نهر بردى ، وأغرق
الأراضى حول الأسوار الدمشقية حتى غدت هذه الأراضى مستنقعات وأوحالا .
وفى أثناء هذا الحصار بعث الملك الصالح إسماعيل إلى القائد الأمير
معين الدين سجادة وإبريقاً وعكازاً ، ومعها رسالة يقول له فيها :
” اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك “ ، فبعث القائد معين
الدين إلى الملك الصالح إسماعيل أدوات موسيقية وملابس حريرية حمراء

وصفراء ، ومعها ردّ تهكّمى من نوع رسالته^(١) ، ويقترح فيه أن يلهو الصالح إسماعيل بهذه الأدوات والملابس هو الحاملين من الملوك . وأخيراً أدت شدة الحصار المصرى الأيوبي إلى تسليم دمشق ، وخرج الملك الصالح إسماعيل فى النهاية منها بعد تسليمها ، مقابل تعويضه عنها بعلبك وحمص ، مع ضمان عودة المنصور إبراهيم إلى إمارته فى حمص .

غير أنه مما يدعو إلى الالتفات هنا أن القائد معين الدين منع الحيلة الخوارزمية من دخول دمشق ألبتة . وأن الزعماء الخوارزميين لم ينالوا شيئاً من التقدير ، مكافأة لهم على اشتراكهم فى حصار دمشق . ولذا لم يلبث الخوارزمية أن انقلبوا على السلطان الصالح أيوب . وأعلنوا انضمامهم إلى الملك الصالح إسماعيل ، ودخولهم فى خدمته ببلبك . وسرعان ما زحف الملك الصالح إسماعيل بالحيلة الخوارزمية صوب دمشق . واستعان بهم على حصارها أوائل سنة ١٢٤٦ م . وظن الملك الصالح إسماعيل أن سوف يلحق به إلى هناك حلفاؤه الصليبيون القدماء ، فضلا عن سائر ملوك البيت الأيوبي الكارهين لامتداد سيطرة السلطان الصالح أيوب إلى الشام . غير أن الكراهية العامة ضد الحيلة الخوارزمية كانت هى الأقوى ، ولا سيما بعد أن بذلت دبلوماسية السلطان الصالح أيوب من الوعود المغرية . والعطايا المالية الكبيرة . ما ألحج ألسنة الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص والناصر صاحب حلب وغيرهما من الملوك الأيوبيين بالثناء ، فضلا عن الموافقة على حرب الملك الصالح إسماعيل والحيلة الخوارزمية . وخرج السلطان الصالح أيوب من القاهرة فى مارس سنة ١٢٤٦ م ، لقيادة ذلك الحلف الأيوبي الجديد ضد عمه الصالح إسماعيل ، وفى عزمه إجلاؤه وأحلافه الخوارزمية عن حصار دمشق ، بأى ثمن . على أن الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وقر عليه القيام بهذا العمل ، إذ زحف بعسكر كبير من

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان - طبعة حيدرآباد ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ .

حمص وحلب ، واتجه نحو دمشق راغباً في الحصول على فضل السبق في إنهاء حصارها بنفسه ، من باب التدليل على إخلاصه لسلطان مصر . وخشى الملك الصالح إسماعيل أن يكون ذلك انزحف بداية خركة تطويقية متفق عليها بين المنصور إبراهيم والسلطان الصالح أيوب ، للإحاطة به من الشمال والجنوب . أو للاجتماع عليه في قوة مزدوجة تكفل إبادة وأحلافه من الحيلة الخوارزمية . ولذا بادر الصالح إسماعيل إلى رفع الحصار عن دمشق . ورحل عنها شمالاً للوقوف في طريق زحف الملك المنصور إبراهيم . على حين وصل السلطان الصالح أيوب إلى دمشق ، ودخلها دون قتال .

ثم التقى الملك الصالح إسماعيل والحيلة الخوارزمية بالعسكر الحمصي الحلبي ، في مايو سنة ١٢٤٦ م ، عند بعلبك . حيث وقعت بين الصالح إسماعيل وبين الملك المنصور إبراهيم وقعة حاسمة ، انهزمت فيها الحيلة الخوارزمية هزيمة قبيحة ، تبدد فيها شملهم . ولم تقم لهم بعدها قائمة ، على قول المقرئزي^(١) . والحقيقة أن هزيمة بعلبك كانت أحسن وقعاً عند السلطان الصالح أيوب من أخذه دمشق ، لأنها أسدلت ستار التاريخ على الخوارزمية ، ولأنه لم يبق منهم بعدها سوى شراذم قليلة ، سحب بعضها الملك الصالح إسماعيل في هروبه إلى شمال الشام . ودخل بعضها خدمة الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وهامت بقيتها شرقاً حتى التحقت بالجيوش المغولية المبعثرة في ميادين غرب آسيا .

وهكذا شاعت الصدقة الحميدة أن تذهب جميع مشاكل السلطان الصالح أيوب الداخلية بدءاً في سنة واحدة ، وهي سنة ١٢٤٦ م . وأن تغدو الدولة الأيوبية مرة أخرى كتلة متحدة شاملة لمصر والشام والبلاد الفراتية . ما عدا إمارات حمص وحلب وحماة . وهي على أية حال إمارات أيوبية معترفة بالصدارة عليها للسلطان الصالح أيوب . ولذا كان من الطبيعي أن ينصرف السلطان الصالح أيوب إلى ما تخلف لديه من مشاكل خارجية من

(١) المقرئزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر في ~~الطبعة~~ ج ١ ص ٣٢٤ .

تأحية الصليبيين ، فاستطاع جيش مصرى أبوبى بقيادة الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ استرداد مدينة طبرية ، فى يونيه سنة ١٢٤٧ م ، فضلاً عن حصنى جبل الطور وكوكب الهواء ، بعد ذلك بقليل . ثم زحف ذلك الجيش المصرى الأبوبى نحو عسقلان التى توقف حصارها منذ مدة ، بسبب انضمام الأمير ركن الدين بيرس إلى الخوارزمية ؛ ففرض الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ عليها الحصار ، كما أحاط ميناءها بسفن مصرية أيوبية عدتها واحد وعشرون غليوناً . وبذلت حامية عسقلان الصليبية مقاومة مستميتة من وراء حصونها المانعة ، وجاءت إليها من عكا وجزيرة قبرص نجدة برية بحرية كبيرة فى خمسة عشر غليوناً ، وخمسين سفينة صغيرة . واشتبكت هذه النجدة الصليبية الضخمة بالسفن المصرية الأيوبية فى عرض البحر . وتغلبت عليها لكثرتها العددية ، وبذا استطاعت أن تصل إلى ميناء عسقلان ، وأن تمد حاميتها الصليبية بالخند والمؤونة . غير أن استمرار سوء الأحوال الجوية أدى بهذه النجدة إلى الرحيل إلى عكا وقبرص ، فعادت السفن المصرية الأيوبية إلى تطويق الميناء ، وأمست عسقلان بذلك محوطة من البر والبحر . ولهذا انهارت المقاومة الصليبية تماماً ، ودخل الجيش المصرى الأبوبى عسقلان فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٢٤٧ م ، وهدم الأمير فخر الدين يوسف حصونها القوية التى طالما استعصت على كل المحاولات السابقة للاستيلاء عليها ، منذ أيام صلاح الدين .

هكذا كانت كارثة عسقلان هى الكارثة الثالثة على الصليبيين ، فى مدة لا تزيد على ثلاث أو أربع سنين ، واكتفى السلطان الصالح أيوب بهذه التوفيقات المتوالية التى نالها ضد الصليبيين والملوك الأيوبيين المعارضين له ، فلم يستغل الحال الصليبية الكثيرة الناجمة عن طردهم من عسقلان ، بالزحف مثلاً على عكا أو طرابلس أو أنطاكية ، بل اكتفى بالذهاب زائراً إلى مدينة بيت المقدس ، حيث أمر بتجديد سورها وتجديداً تاماً . وكان سبب انصراف السلطان الصالح أيوب عن استغلال هذه الحال السيكولوجية التى خيّمَت على الدوائر الصليبية

المحلية وقتذاك ، انشغاله بحركات عدائية جديدة من ناحية ملوك البيت الأيوبي ، في حلب والكرك وحماة ، فضلاً عن بداية ظهور مرضه بالسل المزمن ، ووصول أخبار إليه من عند الإمبراطور فردريك الثاني بقرب وصول حملة صليبية كبيرة إلى الشرق ، على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا ، واسم هذا الملك في المراجع الأوربية القديس لويس ، وفي المراجع العربية لُؤيُس بن لُؤيُس ، ويقال له الفرنسيس ، وكذلك ريدافرتنس^(١) ، بهذا الضبط على الحروف .

ولذا ركّز السلطان الصالح أيوب جهوده في مراقبة حركات الملوك الأيوبيين الكارهين له ، وترميم ما يحتاج إلى الترميم من حصون البلاد المصرية والشامية التي ربما تتعرض لهجوم هذه الحملة الصليبية المنتظرة . وتنقل السلطان من أجل هذا وذاك بين مصر والشام ، برغم مرضه العضال ، ومضاعفاته المتزايدة ؛ فمرّ مثلاً في صيف سنة ١٢٤٨ م على المنصورة التي أنشأها أبوه السلطان الكامل محمد سابقاً ، في المساحة المثلثة بين النيل والبحر الصغير ، وجمال بها - فيما يبدو - لمعينة مبانها العسكرية وأسوارها وقصرها الكامل . غير أن السلطان الصالح لم يمكث طويلاً بالمنصورة ، بل تحول عنها إلى أشموم طنّاح ، حيث أقام مدةً بقصره الخاص هناك ، للاستشفاء . وفي أثناء إقامته بأشموم طنّاح أمر السلطان ببناء محلة عسكرية حصينة ، في أطراف مديرية الشرقية الحالية ، وسماها الصالحية نسبة إليه ، وجعل لها سوقاً كبيراً تتجهز منه العساكر المقيمة بها ، أو المارة عليها ؛ ولم تلبث هذه المحلة العسكرية أن تطوّرت إلى مدينة كبيرة^(٢) . لكنه ليس من المعقول - أو الميسور زمنياً - أن السلطان الصالح أيوب أنشأ

(١) انظر مثلاً المقرئى : كتاب السلوك - نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ، وكذلك ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢٩ ، وابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٢ ، وغير ذلك من المراجع .

(٢) المقرئى : كتاب السلوك - نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

بمحلة الصالحية العسكرية الجديدة أبنية من طراز ما أنشأ بالقاهرة ، أو في متانتها ، أو من مادتها الحجرية ، بدليل عدم وجود أى أثر من آثار هذه المباني ، على نحو ما هو باقٍ من مباني هذا السلطان بالقاهرة ، في العصر الحاضر . وينطبق هذا على قصر السلطان الصالح في أشموم طنّاح كذلك ، كما ينطبق على جميع أبنية السلطان الكامل محمد بمدينة المنصورة ، بالقياس إلى نظائرها بالقاهرة^(١) .

ودلّ السلطان الصالح ، بإنشائه محلة الصالحية العسكرية ، على أن رأيه واعتقاده بأن أية حملة صليبية مستقبلية هدفها مصر ، سوف ترحف على الأراضي المصرية من ناحية الأطراف الشرقية ، كما فعلت الحملات الأمورية التي استطاعت أن تصل فعلاً إلى القاهرة ، أكثر من مرة ، زمن شيركوه وصلاح الدين . وبنى السلطان الصالح هذا التفكير على استنتاجه العسكري السليم بأن قيادة الحملة الصليبية المنتظرة لن تسمح لجيوشها بالهبوط على دميّاط ، والسير منها جنوباً نحو القاهرة ، لتشتبك بمياه النيل وقنواته ومعاثره الطينية ، وبالجنود المصرية الأيوبية ، في آن واحد ، كما حدث لحملة حنا برين ، قبل ذلك بثلاثين سنة فقط . ويبدو أن هذا التفكير الحربي المعقول هو الذي سيطر على توزيع الجيوش والحاميات المصرية الأيوبية بأطراف مصر والشام ، منذ انتهاء السنوات الهدنية الكاملة الفردريكية ، وبداية المحاولات التي قام بها تيبالد الشمباني للوصول إلى مصر ، عن طريق غزة . وهذا التفكير هو الذي أثر تأثيراً واضحاً في تعيين مواضع استعدادات السلطان الصالح ، لمقاومة الحملة الصليبية المنتظرة ، إذا هي هبطت على مصر ، ببناء محلة الصالحية العسكرية . وثمة برهان تطبيقي دالّ على سيطرة هذا التفكير على الاستراتيجية المصرية الأيوبية وقتذاك ، أن المنصورة بقيت على حالها الأصلي ،

(١) يوجد من بقايا مباني السلطان الصالح أيوب بالقاهرة في العصر الحاضر المدرسة الصالحية . وكذلك الضريح الخاص به بالنحاسين ، كما يوجد من بقايا مباني السلطان الكامل محمد ، بالقاهرة كذلك ، بضعة آثار من المدرسة الكاملة بالنحاسين أيضاً ، فضلاً عن برج الحداد وبرج الإمام ، بالقلمة الحالية .

ونُحِيتَ عليها سَكِينَةُ الرِّيفِ ، وَقَلَّتْ مَوَاصِلَاتُهَا الْخَارِجِيَّةُ وَحَرَكَاتُهَا الْعِمْرَانِيَّةُ الْإِسْتِثْنَائِيَّةُ ، مِنْذُ غَادَرَهَا السُّلْطَانُ الْكَامِلُ وَجِيشُهُ إِلَى الْقَاهِرَةِ . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَنْصُورَةَ احْتَفَظَتْ بِمَعْظَمِ مَلَاحِمِ نَشْأَتِهَا الْأُولَى ، مِنْ حَيْثُ الطَّابِعُ الْعَسْكَرِيُّ الْبَسِيطُ الْبِنَاءِ ، وَالطَّرِيقُ الضَّيْقَةُ الْكَثِيرَةُ الْمُنْعَطَفَاتُ بَيْنَ الْمَسَاكِنِ الْعَسْكَرِيَّةِ ، وَالْمَسَاحَةِ الْفَضَاءِ الْحَيْطَةُ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ . وَلَيْسَ يَوْجَدُ بِالْمَرَاджِ الْمَتَدَاوِلَةَ هُنَا مَا يَنْقُضُ هَذَا التَّرْجِيحَ ، بَلْ يَدُلُّ خُلُوقُ هَذِهِ الْمَرَاجعِ مِنْ أَيْةٍ إِنْشَارَةٍ إِلَى نَتِيجَةِ الزِّيَارَةِ السُّلْطَانِيَّةِ أَنَّ السُّلْطَانَ الصَّالِحَ لَمْ يَرَّ مِنْ حَالِهَا ، عِنْدَ مَرُورِهِ بِهَا سَنَةَ ١٢٤٨ م . مَا يَنْبِئُ عَنْ حَاجَةِ مَبَانِيهَا أَوْ أُسْوَارِهَا أَوْ قِصَرِهَا الْكَامِلِ إِلَى تَرْمِيمٍ ، أَوْ تَجْدِيدٍ أَوْ تَحْصِينٍ ، وَلَوْ كَانَتِ الْمَنْصُورَةُ بِحَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، مَا تَرَدَّدَ السُّلْطَانُ الصَّالِحُ أَيُّوبُ فِي إِصْدَارِ الْأَمْرِ بِالْقِيَامِ بِهِ ، عَلَى طَرِيقَتِهِ التَّنْفِيزِيَّةِ السَّرِيعَةِ الصَّامِتَةِ .

ثُمَّ انْتَقَلَ السُّلْطَانُ الصَّالِحُ أَوَاخِرَ تِلْكَ السَّنَةِ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى دِمَشْقَ ، وَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً فِي انْتِظَارِ تَسْوِيَةِ عَاجِلَةِ لِبَعْضِ الشُّؤْنِ الْأَيُّوبِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِإِعَادَةِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى إِمَارَتِهِ فِي حِمَصَ . وَأَرْسَلَ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ فِرْقَةَ حَرْبِيَّةَ بِقِيَادَةِ الْوَزِيرِ الْأَدِيبِ جَمَالِ الدِّينِ يَحْيَى بْنِ مَطْرُوحَ ، لِلْإِسْتِيلَاءِ عَلَى حِمَصَ مِنْ مَغْتَصِبِهَا ، وَإِرْجَاعِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ إِبْرَاهِيمَ إِلَيْهَا . وَبِذَا خَلَا بِالسُّلْطَانَ لَشُّونُ الْإِسْتِعْدَادِ النَّهَائِيِّ لِلْحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْقَادِمَةِ .

عَلَى أَنَّ الْمَلِكَ الْفَرَنْسِيَّ لُؤْيِسَ التَّاسِعَ وَحَمَلْتَهُ ، وَالْبَابَا إِنْوَسَنْتَ الرَّابِعَ وَدَعَايْتَهُ إِلَى هَذِهِ الْحَمْلَةِ ، مِنْذُ سَنَةِ ١٢٤٥ م . أَيْ مِنْذُ سَقُوطِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ فِي أَيْدِي الْخِلَالَةِ الْخَوَارِزْمِيَّةِ ، أَوَاخِرَ السَّنَةِ السَّابِقَةِ عَلَى هَذَا التَّارِيخِ . لَمْ تَقْتَصِرْ أَهْدَافُهُمَا عَلَى خِدْمَةِ الْمَصْلَحَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ ، بِمَحَاوِلَةِ اسْتِرْجَاعِ مَدِينَةِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ فَحَسَبَ ، بَلْ انْطَوَتْ كَذَلِكَ عَلَى فِكْرَةِ اجْتِنَابِ الْقُوَّةِ الْمَغُولِيَّةِ الْوُثْنِيَّةِ الَّتِي هَدَمَتْ دَوْلَةَ خَوَارِزْمِشَاهِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، نَحْوَ مَشْرُوعِ حَلْفِ صَلِيبِيِّ مَغُولِيٍّ ، لِهَدْمِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ فِي مِصْرَ وَالشَّامَ ، وَجَعَلَ الشَّرْقَ الْأَوْسَطَ الْإِسْلَامِيَّ كُلَّهُ بَيْنَ شَقَى رَحَى طَاحِنَةٍ ، وَفَتْحِ أَبْوَابِ آسِيَا لِلتَّبَشِيرِ بِالْمَسِيحِيَّةِ

الرومانية الكاثوليكية بين المغول والتتار الوثنيين ، فضلاً عن الأتراك والفرس المسلمين فيما بعد ، في الوقت المناسب ، على غرار ما تمناه ودعا إليه القديس فرنسيس الأسيسى ، زمن السلطان الكامل محمد .

والواقع أن فكرة مشروع حملة الملك لويس التاسع ، وفكرة الحلف الصليبي المغولي ، نشأتا ونضجتا في وقت واحد تقريباً ، في رأس البابا إنوسنت الرابع ، إذ جاء إليه النذير بسقوط مدينة بيت المقدس والمجلس الدينى منعقد برأسته في مدينة ليون بفرنسا ، في يونيه سنة ١٢٤٥ م ، لمناقشة الوسائل الضرورية لكبح حركات الإمبراطور فردريك الثانى ضد البابوية . وأثارت أخبار بيت المقدس وحيريا وعسقلان مخاوف الحاضرين ، فتحولت المناقشة من مشكلة الإمبراطور فردريك الثانى والبابوية إلى دعوة إلى حملة صليبية ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ؛ واختار البابا إنوسنت الرابع ملك فرنسا لويس التاسع لقيادة هذه الحملة . وتراءى للبابا إنوسنت الرابع وقتذاك أن القوة المغولية تستطيع أن تهجم على الشرق الأوسط الإسلامى كله من الناحية الشرقية ، على حين تقوم الحملة الصليبية المنتظرة بهجوم على فلسطين والشام ، من ناحية البحر الأبيض المتوسط ، إذا اتفق الجانبان على خطط حربية متناسقة . وبذا تزول ملامح الشرق الأوسط الإسلامى من مسارح التاريخ إلى كته ، ويعود الصليبيون إلى ما فقدوا من البلاد منذ أيام صلاح الدين ، ويخلو الجو للبابوية وأحلامها ، لإيصال المسيحية الرومانية الكاثوليكية إلى آسيا ، بالإضافة إلى توحيد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تحت رآسة بابوية واحدة .

وتحقيقاً للركن الأساسى من هذه الأحلام المثيرة أرسل البابا إنوسنت الرابع بعثتين إلى بلاد المغول ، وخرجت أولاهما من مدينة ليون ، في أواسط سنة ١ٲ٤٥ م ، وعلى رأسها الراهب الفرنسيسكانى يوحنا بيان دلكارينيو . وسافرت هذه البعثة على الطريق البرى عبر ألمانيا والمجر ، وبولندا ، وروسيا الجنوبية ، وآسيا السهوية الوسطى ، مدة خمسة عشر شهراً . ووصلت البعثة أخيراً في أغسطس

سنة ١٢٤٦م إلى الخيام المغولية الإمبراطورية المضروبة عند مدينة سيرا أوردا ، قرب مدينة قراقوم ، حيث شهدت البعثة اختتام جلسات القوريتلاي المغولى الذى اجتمع لانتخاب الخان الأعظم الجديد ، أى جويوك خان . وعلمت البعثة أن حاشية الخان الأعظم الجديد تحتوى على كثير من المسيحيين النساطرة ، وإلى هؤلاء يرجع الفضل فى حسن استقبال المبعوثين البابويين فى البلاط المغولى . غير أنه عندما قرأ دلكارينو خطاب البابا إنوسنت الرابع ، فى حضرة جويوك خان ، وتبين أن هذا الخطاب يدعو المغول إلى المسيحية ، كاد الخان الأعظم يَتميز من الغيظ ، وأمر بكتابة ردّ يذكر فيه أن المغول لا يرضون عن وثنيهم بديلاً ، وأنهم يطلبون من البابا أن يعترف لهم بالسيادة على بلاد البابوية ، وغيرها من البلاد القريبة والبعيدة ، وأنهم يرحبون بقدوم ملوك أوربا المسيحية إلى حضرة الخان الأعظم ، ليقدموا له فروض الطاعة والتبعية ، على أن يكون مفهوماً أن الخان الأعظم ينتظر ، فضلاً عن تقديم فروض الطاعة والتبعية ، أن تأتى إليه الجزيات والأموال سنوياً من عند أولئك الملوك .

وعاد دلكارينو إلى أوربا ، فى أواخر سنة ١٢٤٧ م ، وسلم البابا إنوسنت الرابع فى روما خطاب الخان الأعظم جويوك ، مرفقاً بتقرير شخصى طويل ، وخلاصته – على قول دلكارينو – أن المغول قوم لا يريدون من الحياة سوى الحرب والفتح والنصر ، مع التخريب والنهب والهدم ، وهذا ما جعلهم يوصفون فى كتب التاريخ بأنهم أساتذة الدمار .

غير أن البابا إنوسنت الرابع لم يرض أن ينزل عن فكرة الحلف الصليبي المغولى ، وكأنه لم يصدق ما حمله إليه وقصّه عليه دلكارينو ، أو أنه أراد أن يجرب الفرع المغولى القريبة جغرافيته من الشرق الأوسط الإسلامى ، لعله يجد فى دوائره إحساساً كفيلاً بعداء إيجابى ناشط ضد المسلمين . لذلك أرسل البابا بعثته البابوية الثانية ، وعلى رأسها راهب دومنيكانى اسمه أسكلين اللباردى . وسافرت هذه البعثة الثانية من إيطاليا عبر البحر الأبيض

المتوسط إلى الشام ، ومنها برّاً إلى فارس ، حيث قابلت القائد المغولى بيغو^(١) فى تبريز ، فى مايو سنة ١٢٤٧ م . ووجد الراهب آسكلين من القائد المغولى بيغو استعداداً شخصياً لبحث مشروع حلف صليبي مغولى محدود الهدف ، أى ضد الملوك الأيوبيين فحسب ، لأنه كان يعمل من ناحيته الخاصة للجهوم على بغداد ، وبهمته أن ينسق هجومه مع حركة صليبية ضد البلاد الأيوبية الفرانية .

ورجع آسكلين بهذا المشروع الصليبي المغولى إلى روما ، وصحبته مبعوثان من عند بيغو ، واسم أحدهما أيلك والراجح أنه تركمانى الأصل ، وثانيهما سركيس . وهو فيما يبدو مسيحي نسطورى . غير أن هذين المبعوثين لم يكن لديهما سلطة للمفاوضة فى شىء معين ، بل اقتصر الغرض من إرسالهما إلى روما على أن يتصلا بالدوائر البابوية ، وأن يقيما فى روما ، حتى تأتى إليهما شروط القائد المغولى لعقد الحلف المطلوب . لكن شروطاً لم تصل إلى روما ألبتة ، ورغم إقامة المبعوثين بها مدة سنة طويلة ، فى ضيافة البابا . ولذا تقرر أخيراً إعادة أيلك وسركيس إلى تبريز ، فرحلا من روما فى نوفمبر سنة ١٢٤٨ م ، ومعهما شكوى من البابا إنوسنت الرابع إلى القائد المغولى بيغو من عقم المشروع الذى بنت عليه البابوية أحلامها الكثيرة .

(١) نقل المؤلف جميع الاسماء المغولية الواردة هنا ، وفى سائر هذا الكتاب ، من منطوق صيغتها الواردة فى (Grousset : Histoire des Croisades, etc.) ، وهو من كبار الأخصائيين الأوربيين فى تاريخ المغول ، والقارة الآسيوية عموماً .

الفصل الرابع

لويس التاسع واستيلائه على دمياط

١٢٤٥ - ١٢٥٠ م = ٦٤٣ - ٦٤٨ هـ .

من هنا فصاعداً يتطلب الموضوع شرحاً على مقياس تفصيلي واسع ، بقدر ما تسمح به مراجعه العربية والأجنبية من تفصيل وتوسعة ، في حدود الواقع التاريخي ، والتصوير الموضوعي المستمد من حقائقه . والمراجع العربية المعاصرة لحوادث حملة لويس التاسع على مصر خمسة . وهي بحسب ترتيب أهميتها : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي ، ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزي ، والذيل على الروضتين لأبي شامة ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري . ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان . وهذه المراجع على أهميتها ومعاصرتها ، واستخدام مؤلفيها ضمير المتكلم في الكتابة في حوادث هذه السنين ، لا تحتوي فيما بينها على أكثر من خمسين صفحة ، متشابهة الحقائق والحوادث والعبارات ، في أخبار حملة الملك الفرنسي ، وحوادث الدفاع والمقاومة المصرية الأيوبية ضد هذه الحملة . ولم يشترك أحد من أصحاب هذه المراجع العربية بشخصه . في هذه الحوادث المصرية الأيوبية . سوى ابن واصل الذي كثرت تنقلاته بين القاهرة والمنصورة ، صحبة صديقه الوزير الأيوبي حسام الدين أبي علي الهذباني ؛ ولذا كان ابن واصل هو المؤرخ الوحيد الذي سجل في تاريخه ما رأى وما سمع من حوادث وأخبار جرت حوله ، ونحت سمعه وبصره . غير أن النقص الكمي في المراجع العربية المعاصرة ، يعوّضه ما تشتمل عليه المؤلفات العربية الموسوعية المتأخرة ، من صفحات ضافية بمعلومات منقولة

بجذافيرها من أصول مفقودة ، أو مجهولة ، ومن وثائق ومراسلات استطاعت أن تجد طريقها إلى الضوء والمعرفة العامة ، بعد أيامها بمدة طويلة . ومن هذه المؤلفات المتأخرة : نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى ، وكنز الدرر وجامع الغرر لابن أبيك ، والعبر وديوان المبتدا والخبر لابن خلدون ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقرئى ، والمواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقرئى كذلك ، ثم عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعينى ، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى .

أما المراجع الأجنبية المعاصرة ، فتختلف عن قريناتها العربية بكثرة أخبارها وتفصيلها اليومية ، في كثير من المناسبات والأحيان ، لاشارك مؤلفها في حملة الملك لويس التاسع اشتراكاً فعلياً ، منذ مطالع مشروعاتها إلى خواتيم حوادثها النهائية ، فضلاً عن حضور بعض أولئك المؤلفين مجالس الملك الفرنسى ، بصفتهم موظفين في حاشيته ، موكلين بتنفيذ توجيهاته وأغراضه . وهذه المؤلفات مكتوبة باللغة اللاتينية ، أو الفرنسية القديمة ، وأهمها جميعاً تاريخ القديس لويس الذى كتبه جوانفيل ، وهو صديق الملك ورفيقه في جميع مراحل الحملة على مصر . وهذا الكتاب مترجم إلى الإنجليزية في عدة طبعات ، فضلاً عن طبعته الفرنسية المتعددة ، وميزته العظمى صراحة مؤلفه ، واستقلاله في الرأى ، ودقته في التفريق بين ما يرويه عن طريق المشاهدة العينية ، وما يرويه عن طريق السماع أو النقل . ويلى هذا الكتاب ، ويكمل بعض الناقص من حقائقه ، كتاب تاريخ روتلان ، المعروف باسم المخطوطة الروتلانية ، وكتاب معجزات القديس لويس تأليف وليام سانت باتوس ، وكتاب فضائل القديس لويس وأعماله تأليف وليام نانجى ، وكتاب الأخبار الكبرى تأليف ماثيو الباريسى^(١) . وهذه المؤلفات الأجنبية المعاصرة وأشباهاها من المراجع الأصلية العربية ، وارد معظمها في مجموعة

(١) انظر جوزيف نيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ١ - ٢٣ ،

وكنك حسن حبشى : الشرق الأوسط بين شرق الرضى ، ص ١٩ ، حاشية ١ .

مؤرخى الحروب الصليبية التى تقدمت الإشارة إليها ، أو فى نظائرها من المجموعات التاريخية ، أو فى كتاب مستقل^(١) .

وبديهى أن المراجع الأجنبية هى المصدر لجميع المعلومات الخاصة ببدايات مشروع حملة لويس التاسع ، واستجابات الدول والقوى الأوروبية المهمة بالإسهام فى ذلك المشروع ، إيجاباً أو سلباً ، وإمكانات هذه الدول فى الاشتراك فى تكوين الجيش اللازم لذلك المشروع ، وعتاده وسفنه اللازمة لنقله عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الشرق . أما بدايات المشروع ، فيقول فيها جوفانفيل إن الملك لويس التاسع أصيب بحمى ملارية شديدة أواخر سنة ١٢٤٤ م ، ونذر أن يخرج على رأس حملة صليبية من فرنسا ، إذا هو شفى من مرضه ، ثم لم يلبث أن أعلن عزمه على الوفاء بنذره ، وهو فى دور النقاهة . وكان الملك لويس التاسع وقتذاك فى الثلاثين من عمره ، وبه من صفات التقوى العسكرية المحاربة ، وحرمان النفس ، وصلابة الرأى ، والتعصب اليابس لكل ما هو مسيحى ، والصرامة ضد الهرطقة ، والكراهية الشديدة لكل ما هو غير مسيحى ، ما جعله من أشهر الأسماء فى سجل القديسين الرسميين فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، فى العصور الوسطى .

ورحب البابا إنوسنت الرابع بأخبار نذر الملك لويس التاسع ، واستعداده للقيام على رأس حملة صليبية ، وأعلن فى مجلس ليون الكنسى ، المنعقد فى أواسط سنة ١٢٤٥ م ، إختيار البابوية له لقيادة هذه الحملة . وبعد قليل أرسل البابا أحد كرادلته ، واسمه أودو فراسكاتى ، لدعوة نبلاء فرنسا للانضمام إلى راية ملكهم ، كما أرسل آخرين من الدعاة البابويين إلى سائر البلاد الأوروبية ، لشحذ هم ملوكها وأمرائها إلى الدخول فى سلك

(١) انظر ماسبق هنا ص ١ ، حاشية ١ ، وكذلك المجموعة التى عنوانها (Michaud : Bibl. des

هذه الحملة ، وزودهم جميعاً بالإعفاءات والغفرانات التي دأبت البابوية على إصدارها إبان جميع الحملات الصليبية السابقة واللاحقة ، تشجيعاً لحركة الاندماج في جيوش الصليبيين . غير أنه لم يكن من المنتظر مثلاً أن يشترك الإمبراطور فردريك الثاني في هذه الحملة ، لأنه كان في حالة حرب مريرة ضد البابوية الداعية إليها ، ولأن ماضيه في الشؤون الصليبية بالشرق لم يشجع على بناء أية آمال حربية على اشتراكه . ويقال مثل ذلك تقريباً بشأن هنري الثالث ملك إنجلترا ، فإنه كان قريب عهد بحرب ضد الملك لويس التاسع ، وعنده من المشاكل الإنجليزية الداخلية ما ملأ يديه إلى أواخر عهده ، وهو على أية حال لم يكن من عيار سلفه ريتشارد قلب الأسد ، لا في الحماسة الصليبية ، ولا في الشجاعة الشخصية .

واستغرقت استعدادات الملك لويس التاسع ثلاث سنوات بدأت بعقد مجلس عام في باريس ، في خريف سنة ١٢٤٥ م ، لأخذ العهود والمواثيق على الراغبين في الاشتراك في الحملة ، من أمراء فرنسا ونبلائها وفرسانها . ثم أخذ الملك لويس في فرض العونات والعشور الإقطاعية الاستثنائية ، من العلمانيين ورجال الدين سواء بسواء ، للحصول على الأموال اللازمة لنفقات الحملة ، كما أعلن النفي الملكي الإقطاعي الخاص ، لتكون الجهود الملكية نموذجاً لغيرها من البيوت الإقطاعية الأخرى . ثم عين الملك لويس الملكة الوالدة بلانش القشتالية ، لتحل محله في شؤون الحكم في فرنسا أثناء غيابه بالشرق ، وحصل من الملك هنري الثالث على وعد بعدم قيام حرب بين فرنسا وإنجلترا في تلك الأثناء ، وأحاط الإمبراطور فردريك الثاني هو هنشتاوفن بما هو عازم على القيام به ، واستأذنه في الذهاب إلى فلسطين ، نظراً لأن فردريك ملك سابق لمملكة عكا ، ووالد للملكها الشرعي كونراد الذي أنجبه فردريك من الإمبراطورة المتوفاة يولاندا ، ابنة حنا برين .

وهكذا كان الإمبراطور فردريك الثانى على علم تام بكثير من تفاصيل مشروع الحملة ، ومواعيد رحيلها إلى الشرق ، وهو كما هو معروف عنه من القائلين بحل المسألة الصليبية عن طريق المفاوضة والهدنة والحسنى ، لا الحرب الباغية والاعتداء الدامى . ولذا كان فردريك الثانى صاحب فضل فى إيصال أوائل أخبار حملة الملك لويس التاسع إلى السلطان الصالح أيوب ، وهذه الأخبار هى التى حملت السلطان الصالح على القيام بجولته التفتيشية فى المعسكر الكامل بالمنصورة ، ثم النزول على أشموم طناح للاستشفاء ، وبناء محلة انصالحية عسكرية ، فى أطراف مديرية الشرقية الحالية ، اعتقاداً منه أن حملة الملك لويس التاسع سوف تتجنب طريق الحملة الصليبية المعروفة بالسادسة إلى دمياط ، وأنها سوف تختار طريقاً مشابهاً لحملات الملك أمورى ، أيام شيركوه وصالح الدين (١) .

ولم يكن هدف حملة الملك لويس التاسع مقررأ نهائياً حتى وقتذاك ، بل الذى غدا فى حكم المقرر أن تكون قبرص هى القاعدة التى تلتقى عندها الجيوش الصليبية الذاهبة إلى الشرق . ومن أجل ذلك أرسل الملك لويس وكلاءه إلى قبرص ، لشراء ما سوف تحتاجه إقامة الحملة بها من الأطعمة والمؤونة ، لمدة ثلاثة أشهر ، وهى المدة التى اعتقدها كافية لاجتماع الفئات الصليبية المنتظرة ، وتنظيمها وتوحيد قيادتها ، وتقرير اتجاهها النهائى . غير أن البحرية الملكية الفرنسية لم تملك من السفن ما يكفى لنقل حملة حربية عبر البحر الأبيض المتوسط ، ولذا طلب الملك لويس التاسع من جمهورية جنوا ومدينة مرسيليا تأجير سفنهما لذلك الغرض ، بعد أن رفضت جمهورية البندقية أن تأخذ على عاتقها هذه المهمة ، كلياً أو جزئياً . أو أن توافق على مشروع الحملة ألبتة ، بسبب ما سوف يترتب عليها من اضطراب المصالح التجارية البندقية مع مصر والشام .

(١) انظر ما سبق ، ص ٨٢ .

وأخيراً رحل الملك لويس التاسع من باريس في الثاني عشر من شهر أغسطس سنة ١٢٤٨ م ، وأبحر على رأس الفوج الأول من الحملة من ميناء إيجمور في الخامس والعشرين من ذلك الشهر ، قاصدا قبرص . وكان مع الملك في ذلك الفوج الأول زوجته الملكة مرجريت البروفنسالية ، واثنان من إخوته ، وهما روبرت كونت أرتوا ، وشارل كونت آنجو ؛ ولم يكن لهُذين الأخوين أية خبرة سابقة بالحروب الصليبية ، أو بالشرق عامة .

ثم أبحر الفوج الثاني من ميناء مرسيليا ، وضمَّ هذا الفوج اثنين من أبناء عمومة الملك لويس التاسع ، وهما هيو دوق برجنديا ، وبطرس كونت بريتاني ، وكلاهما اشترك في حملة تيبالد الشمباني ملك نافار ، سنة ١٢٣٩ م ، وقام كل منهما فيها بنصيب كبير . وضمَّ هذا الفوج الثاني كذلك هيو لوزنيان كونت لامارش ، وهو ممن أسهموا في حملة حنا برين ، سنة ١٢١٨ م ، ووليام دامبيير كونت فلاندرز ، وجاى سانت بول الذى اشترك أبوه في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، سنة ١١٨٩ م ، كما اشترك كذلك في الحملة المعروفة بالرابعة سنة ١٢٠٤ م .

ويأتى بعد أولئك جميعاً جوانفيل ، صنجيل شامبانيا ، وهو أقدم صلة بالحروب الصليبية من هذه الشخصيات كلها ، إذ اشترك آباؤه وأقاربه في حملاتها العددية وغير العددية ، جيلاً بعد جيل ، منذ سنة ١١٤٨ م ، أى منذ أيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، وكتابه الذى تقدمت الإشارة إليه لاريب أهم المراجع في تاريخ حملة الملك لويس التاسع .

وفي أعقاب هذا الفوج الثاني لحقت فرقة إنجليزية بقيادة وليام سالسبرى الإنجليزى ، وكان في نية جماعة من نبلاء إنجلترا أن يذهبوا إلى الشرق مع هذه الفرقة ، لولا إعلان الملك هنرى الثالث أنه بحاجة إلى خدماتهم داخل المملكة ، وحصوله من البابا على قرار بإعفائهم من يمين الوعد بالذهاب في هذه الحملة ، ومن أولئك سيمون دى مونتفرت ، صاحب الأخبار الطوال في أصول الحركة البرلمانية في إنجلترا ، في النصف الثاني من القرن الثالث

عشر الميلادى . وكان من المأمول كذلك أن يشترك هاكون الثانى ملك النرويج بفرقة نرويجية فى هذه الحملة ، لكن اشتراكه ظل حلمًا غير قريب التحقيق ، كما أبحر باتريك دانبار من اسكتلندا بفرقة اسكتلندية كبيرة للانضمام إلى جيوش الحملة ، لكنه مات قبل أن يصل إلى مارسيليا ، فعادت فرقته إلى بلادها .

ومن هذا كله يتضح أن الصفة الغالبة على هذه الحملة بدأت وظلت فرنسية جسماً وروحاً ، وأن قيام الملك الفرنسى لويس التاسع وحده على قيادة جيوشها جعلها بنجوة من تعدد القيادات التى أفست على الصليبيين معظم الحملات الصليبية السابقة . ولا بد أنه تراءى للملك لويس التاسع ، وهو يتأمل إرادة المقادير فى سرعة تكوين هذه الحملة ، وغلبة الصفة الفرنسية على جنودها وفرسانها وزعمائها ، وكثرة المشتركين فيها من سلاسل نبلاء الحملات الصليبية السابقة على مصر ، وغيرها من الحملات الصليبية المشابهة . فضلاً عن توحيد القيادة العليا فى هذه الحملة فى شخصه ، أنه سوف يكون له نعيم المكافأة وحسن العقبى ، حين يمسح بيده عار الحملات الصليبية السابقة على مصر ، ولا سيما حملة حنا برين ، وحين يرد اعتبار القادة والفرسان الصليبيين الذين قتلوا أو أسروا فى حملة تيبالد الشمبانى :

ثم وصلت السفن التى حملت الفوج الملكى الأول إلى قبرص فى السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٢٤٨ م ، وأرست عند نغريماسول ، حيث نزل الملك لويس والملكة مرجريت فى ضيافة ملك قبرص . وهناك وفد على الملك لويس التاسع من عكا نائب مقدم طائفة الفرسان الاسبتارية ، ومقدم طائفة الفرسان الداوية ، وكثير من الشخصيات الصليبية المحلية .

وذاث يوم عقد الملك لويس التاسع مجلساً لتقليب الرأى فيما ينبغى أن يكون اتجاه الحملة ، لتحقيق الغرض الذى جاءت إلى الشرق من أجله ، وهو على الأقل استعادة مدينة بيت المقدس من المسلمين ، وإرجاع الحال إلى

ما كانت عليه قبل انتهاء الهدنة الكاملة الفردريكية . وأجمع الحاضرون على أن مصر هي الجديرة بالهجوم ، وأن الاستيلاء عليها هو الكفيل بحل المسألة الصليبية على خير ما يشتهى العالم الصليبي الأوربي الغربي ، والصليبيون المحليون ، لأن البلاد المصرية هي المركز الاستراتيجي الحامي لظهر الحركات الحربية الإسلامية ، ضد الصليبيين بفلسطين والشام ، وهي كذلك المورد الوفير لتغذية هذه الحركات الحربية الإسلامية بالمال والرجال . وأضاف بعض الحاضرين إلى هذه الملحوظات العسكرية الدقيقة ، أن الهجوم على مصر ، والاستيلاء على دمياط بالذات ، فيه محور للعار الذي لحق الصليبيين بالجللاء عنها سابقاً ، زمن الملك حنا برين . ثم إن لدمياط في أيدي الصليبيين قيمة يستطيع الملك لويس التاسع استخدامها للمساومة ، إذا عرض السلطان الصالح شروطاً للهدنة والمبادلة بمدينة بيت المقدس ، على غرار ما حدث وتكرر أيام أبيه السلطان الكامل . وفضلاً عن ذلك فإن الاستيلاء على دمياط ، وإكناياتها البحرية والتجارية ، سوف يضمن مكافأة الجمهوريات الإيطالية التي أسهمت بسفنها في نقل جنود الحملة وعتادها ، من جنوب فرنسا إلى قبرص ، وسوف يغري جمهورية البندقية ، وهي التي لم تزل حتى وقتذاك مبتعدة عن هذه الحملة ، بأن تشترك بسفنها في العمليات الصليبية المقبلة ، نظير ما عسى يصبح لها من مصالح في دمياط ، بعد الاستيلاء عليها .

ولهذه الاعتبارات المتنوعة رأى الملك لويس التاسع أن تبدأ الاستعدادات لعمليات الهجوم على مصر في سرعة ، لكن رؤساء الاستبثارية والداوية والصليبيين المحليين أقنعوه بوجوب التأجيل إلى ما بعد انتهاء فصل الشتاء ، وعواصفه وأمطاره ، لصعوبة الرسو في ذلك الفصل عند الشواطئ المصرية القليلة العمق ، فضلاً عن قلة المياه في النيل وقنواته ، مما يجعل دخول السفن النرويجية في المياه الضحلة عملية قريبة من المستحيل . ثم إن الصليبيين المحليين كانوا يرغبون ، قبل الشروع في الاستعداد لأي هجوم على الشواطئ المصرية ، أن يستغل

الملك لويس التاسع ما بين ملوك الأيوبيين من اختلافات ومنافسات ، حادة ومزمنة . ذلك أنه كان من المعروف وقتذاك أن الملك الناصر يوسف صاحب حلب أخرج قريبه الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور إبراهيم من إمارته في حمص ، وأن هذا الملك الشاب الطريد استغاث بالسلطان الصالح أيوب ، وأن السلطان الصالح أيوب سافر من القاهرة إلى دمشق ، خصيصا لتلبية هذه الاستغاثة برغم مرضه . وأنه أرسل لذلك فرقة من عسكره سبقته إلى الشام ، لاسترجاع حمص وإعادةها إلى صاحبها الشرعى .

غير أن الملك لويس التاسع الذى اقتنع بضرورة تأجيل عملياته الحربية إلى ما بعد الشتاء ، لم يقبل التدخل بين الملوك الأيوبيين المسلمين ، أو النزول إلى مستويات الدبلوماسية والمفاوضة معهم ، لاعتقاده — على عكس الإمبراطور فردريك الثانى ، وكان فردريك لا يزال على قيد الحياة — أن المسألة الصليبية لا تحسمها المفاوضة والاتفاق الودى والهدنة ، بل السيف والنار والحديد والدمار . وعلم الملك لويس التاسع وقتذاك أن مقدم الداوية يمهّد لرغبة سامية محلية طارئة ، بفتح باب مفاوضات ابتدائية مع السلطان الصالح أيوب ، من باب التدخل غير المباشر بين الملوك الأيوبيين ، فأمر الملك لويس بإغلاق هذا الباب الذى لا ينبغى للملك فرنسى قديس أن يقترب منه ، مهما كانت الفائدة من ورائه .

على أن الملك لويس التاسع لم يتردد فى الاقتراب من باب غير مسيحي آخر ، وهو باب المفاوضة مع المغول الوثنيين ، برغم ذبوع أخبار الفشل الذى حاق بالسفارتين البابويتين السابقتين^(١) . ذلك أنه حدث فى ديسمبر سنة ١٢٤٨ م ، والملك لويس التاسع مقيم فى قبرص ، فى انتظار انتهاء الشتاء ،

(١) انظر ما سبق ص ٨٤ وما بعدها .

أن وصل إلى حضرته في نيقوسيا ، وهي عاصمة مملكة قبرص ، اثنان من نساطرة أهل الموصل ، واسم أحدهما مرقص ، و ثانيهما داود . وقال هذان المبعوثان إنهما يحملان رسالة من عند القائد المغولي ألبيجيداي ، وهو نائب عن الخان المغولي الأعظم جويوك بإقليم الموصل . ووصفت هذه الرسالة المغولية تعاليم الديانة المسيحية أحسن وصف ، وأكد كاتبها ميل المغول الوثنيين إلى مبادئ الإنسانية الكريمة .

وامتلاً الملك لويس غبطة بما جاء في هذه الرسالة ، وأمر من فوره بقيام بعثة من الرهبان الدومنيكان إلى بلاد المغول ، وعيّن على رأسها أندراوس لونجيمو وأخاه ويليام ، لمعرفتهما باللغة العربية ، وخبرتهما السابقة ببلاد آسيا . وسافرت هذه البعثة من قبرص في يناير سنة ١٢٤٩ م ، ومعها خيمة قرمزية اللون ، قماشها مطرز بآيات إنجيلية وصور دينية ، فضلاً عما احتوت عليه من أدوات ومخلفات دينية مسيحية ، بحيث تصلح بما فيها من أدوات ومخلفات لتكون كنيسة صغيرة متنقلة بين بلاد المغول ، وذلك بالإضافة إلى هدايا متنوعة ثمينة . ومن أنطاكية بدأت هذه البعثة طريقها البرى الطويل إلى معسكر القائد ألبيجيداي بالموصل ، ثم رحلت من الموصل في حراسة ثلة من الجند المغول إلى جوف آسيا ، ووصلت أخيراً إلى مدينة قراقوم ، حيث مقر الخان الأعظم .

وهنا يروى جوفانفيل أن البعثة قدمت هداياها المتنوعة الثمينة إلى الخان المغولي الأعظم ، وأن الخيمة القرمزية وكنيستها الصغيرة نُصبت في حضرته ، وأن كثيراً من الملوك والأمراء المغول المشكوك في إخلاصهم للدولة المغولية جاءوا ببركتها طائعين للخان المغولي الأعظم . وكان ذلك كله من نسج التمني وأحلام اليقظة ، في خيال الناقل لهذه القصة إلى جوفانفيل ، إذ المعروف أن البعثة عرفت - غداة وصولها إلى قراقوم - أن الخان المغولي الأعظم جويوك مات ،

في أوائل سنة ١٢٤٨ م ، وأن أرملة الأميرة أوغول قايميش قامت وصية على شئون الحكم ، ريثما ينتهى القوريتلاى من انتخاب الخان الأعظم الجديد . والمعروف كذلك أن الأميرة الوصية أوغول قايميش استقبلت الأخوين لونجيمو استقبالا طيباً ، وتسلمت الهدايا التى كانت معهما كأنها جزية من الملك لويس التاسع ، بصفته تابعاً للخان المغولى الأعظم : ولم تستطع هى بطبيعة مركزها المؤقت أن تخرج فى حديثها عن نطاق المجاملة ، مع الوعد بعرض مشروع الحلف المغولى الصليبي المقترح على صاحب العرش الجديد ، فى الوقت المناسب . ولذا عادت بعثة الأخوين أندراوس وويليام لونجيمو أدراجها إلى قبرص ، بغير نتيجة ، ما عدا خطاب مغولى شاكر للملك الفرنسى هداياه الدالة على حسن تبعيته ، وتماخى خضوعه ؛ وذلك بعد أن لبثت هذه البعثة فى سفرها ذهاباً وإياباً ثلاث سنوات : ومعنى ذلك أن البعثة وصلت إلى قبرص أوائل سنة ١٢٥٢ م ، أى بعد سنتين من إبحار حملة الملك لويس التاسع من قبرص إلى السواحل المصرية .

أما الملك لويس التاسع ، فبينما هو فى انتظار انتهاء الشتاء القبرصى الجميل ، وفى أمله أن تصله أخبار مشجعة على يد بعثة لونجيمو ، إذا بحرب سافرة تنشب بين بعض الجاليات الإيطالية المقيمة فى المدن الصليبية بساحل فلسطين ، وهى الجاليات التى سوف يعتمد عليها الملك لويس ، لنقل حملته من قبرص إلى الشواطئ المصرية . وتفصيل ذلك أن الملك لويس أرسل إلى هذه الجاليات أوائل سنة ١٢٤٩ م ، يطلب منها تعيين مدى استعداد كل منها لمساعدته بسفنها ، فى عملياته الحربية المقبلة . فكرر البنادقة رفض جمهوريتهم السابق لمشروع الحملة كله ؛ وأما الجنوية أصدقاء الملك منذ قيامهم بنقل معظم جنده من الموانئ الفرنسية إلى قبرص ، فعملوا على إقناع البيازنة طوعاً أو كرهاً ، بضرورة اشتراك سفنهم مع السفن الجنوية ، فى خدمة أغراض الحملة . وغضب البيازنة من هذه الزعامة البحرية

الحديدة ، وهاجموا الجنوئين فى بعض الموانى الفلسطينية ، ولم تهدأ الحرب بين الطرفين إلا بعد أن تدخل بينهما أمير أرسوف ، واستطاع أن يحملهما على عقد هدنة لمدة ثلاث سنوات . وبذا صار فى استطاعة الملك لويس التاسع أن يحصل على السفن اللازمة لنقل حملته ، من كل من الجنوية والبيازنة ، ولم يبق لديه من عائق مانع للرحيل صوب السواحل المصرية ، سوى ما نجم عن طول الإقامة فى دفء الشتاء القبرصى ، من نفاد الأطعمة والأشربة والأقوات ، وضآلة المخزون الباقى منها للتموين اللازم ، فضلاً عما طرأ على بعض الشخصيات الصليبية من نعومة وتدهور فى الروح المعنوية .

وجاءت إلى حضرة الملك لويس التاسع فى نيقوسيا ، فى تلك الأثناء ، وفود صليبية ذات أغراض متنوعة ، ورحب الملك لويس طبعاً بما كان من هذه الوفود مصدراً طيباً لإمداد الحملة بما هى فى حاجة إليه ، من أموال وموئن ، وأسلحة كذلك . ووصل أول هذه الوفود من عند هيتوم ملك أرمينية الصغرى ، بهدايا فاخرة من هذا وذاك ، على حين وصلت سفارة من عند بوهمند أمير أنطاكية تطلب فرقة حربية صغيرة من الرماة الفرنسيين ، ليستعين بها بوهمند على تقوية جيشه ضد الإغارات التركمانية الدائمة على تهديد إمارته . ولم يتردد الملك لويس فى الاستجابة لهذا الطلب ، وربما تخلص به من بعض جماعات الجند الذين أفسدتهم حياة الركود والعافية ، فى جزيرة قبرص . لكنه رفض أن يمدّ الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية بأية مساعدة ، آنية أو مستقبلية ، برغم مجئ الإمبراطورة ماريا - وهى الابنة الثانية للملك حنا برين - إلى قبرص لذلك الغرض ؛ وعادت الإمبراطورة من عند الملك لويس التاسع خالية اليدين . ثم حدث ما هو أهم من ذلك كله ، إذ وصل إلى السواحل القبرصية ويليام فيلهاردوين ، صاحب إمارة أنخايا اللاتينية ، بشبه جزيرة المورة ببلاد اليونان ، ومعه أسطول مكون من أربع وعشرين سفينة ، وفرقة حربية كاملة العدة والسلاح والمؤونة . وكان وصول

هذه الأمداد الكبيرة في أوائل مايو سنة ١٢٤٩ م ، ويرجع الفضل في إقناع الأمير فيلهاردوين بالحجىء بها إلى قبرص إلى دوق هيو البرجندى ، قائد الفرقة البرجندية في حملة الملك لويس التاسع .

و ذات يوم من أيام النصف الثانى من ذلك الشهر ، وهو يوم الخميس ٢١ مايو سنة ١٢٤٩ م على وجه التحديد ، تحركت حملة لويس التاسع من ميناء ليماسول نحو السواحل المصرية ، وعدتها حسب تقدير جوانفيل ٢٨٠٠ من الفرسان ، عدا المشاة والبحارة ، والتابعين والملحقين بالجيش من غير الجند ، مما يحتمل أن يكون في مجموعه الكلى على أقصى تقدير ثمانية وعشرين ألفاً شاملة ، لاخمين ألفاً أو أكثر ، كما تتمرح معظم المراجع العربية^(١) . وبلغ عدد السفن التى أقبلت بالحملة من قبرص ، كذلك حسب تقدير جوانفيل ، ١٨٠٠ سفينة ، ما بين كبيرة وصغيرة ومتوسطة ، وهو عدد يبدو كبيراً مبالغاً فيه على أية حال ، ولا سيما أن المؤرخين الأوربيين أنفسهم اختلفوا حول تقدير هذا العدد .

غير أن رياحاً عاصفة شديدة ، وصفها جوانفيل بأنها جاءت من ناحية مصر ، لم تلبث أن هبت على السفن الصليبية ، وهى فى أول يوم لها فى عرض البحر ، فبعثرتها فى كل ناحية شذّر مذرّ . ولذا جنح معظم هذه السفن نحو عكا والسواحل الفلسطينية المجاورة ، ولم يبق منها مع السفينة الملكية مونتجوا سوى بضع قليل من السفن المتوسطة الحجم ، وهى تحمل حوالى تسعمائة فقط من الفرسان ، أى ربع عدد جنود الحملة تقريباً .

(١) اتخذ المؤلف تقدير جوانفيل (Histoire de Saint Louis, edit. De Wailly, p. 82) وضاعفه بعشرة أمثاله ، وجعل حاصل هذه العملية عدداً تقريبياً لحملة لويس التاسع ، على اعتبار أن الفارس الصليبي الواحد يحتاج فى هذه الحملة ، أو غيرها من حملات الحروب فى العصور الوسطى ، إلى عشرة من غير الفرسان ، أى المشاة والبحارة والخدم ، وغيرهم . انظر من المراجع العربية مثلاً ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ ب ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٩ ، لمقارنة تقديرات هذا المراجع للمجموع الكلى لهذه الحملة .

ولم تستطع السفن الجانحة أن تعود إلى ليماسول ، أو أن تتجمع في ميناء قبرصى آخر ، لتبحر إلى مصر مع السفن الملكية وأسطول الأمير فيلهاردوين من قبرص ، في ٣٠ مايو سنة ١٢٤٩ م ؛ بل لم تستطع هذه السفن أن تصل إلى الشواطئ المصرية ، إلا بعد مدة طويلة .

وقبل ذلك بشهرين تقريباً تأكدت الأخبار لدى السلطان الصالح أيوب بقرب وصول الحملة من قبرص إلى السواحل المصرية ، من غير تعيين لميناء دمياط أو غيرها من الموانئ التي سوف تحاول الحملة أن ترسو عندها ، أو على مقربة منها . وكان السلطان الصالح مريضاً برّح به مرض السل المزمن ، فضلاً عن عوارض ناصور ظهرت في ورم في مابضه ، وقرحة في صدره . ومع هذا نهض السلطان الصالح لمعالجة الموقف الحربى بنفسه ، فأمر برحيل الوزير ابن مطروح وفرقة الحربية عن حصص ، والسير فوراً إلى مصر ، ورحل هو من دمشق إلى الأراضى المصرية ، محملاً على الأكتاف في محفة ؛ ومرّ في الغالب على الصالحية مدينته العسكرية الجديدة ، ليتفقد أحوالها من محفته ، ويستريح قليلاً من متاعب الطريق . ثم نزل السلطان الصالح أول ما نزل بعد ذلك (أبريل سنة ١٢٤٩ م) على أشموم طناح ، حيث كان قصره الذى استشفى به سابقاً ، فجعل من هذه البلدة الصغيرة معسكره الرئيسى ، ومركز عملياته المستقبلية .

وهناك اجتمع قادة السياسة والحرب ، ورجال الحاشية السلطانية ، حول سرير السلطان المريض ، لفحص الموقف وتقليب الرأى ، وأول أولئك وأجدرهم بالانتباه في ضوء الحوادث التالية ، السلطانة شجر الدرّ ، زوجة السلطان وجاريتة السابقة ، وأم ولده ، وهى تركية أو أرمينية الأصل . وكانت شجر الدرّ في مقتبل حياتها من جوارى الخليفة المستعصم العباسى ببغداد ، وجاءت إلى السلطان الصالح أيام إمارته بدمشق ، هدية من عند الخليفة . ثم لم تلبث شجر الدرّ أن صارت أحبّ زوجات السلطان إليه ،

كما صارت صاحبة نصيحته ومشورته ، مع ما هو معروف عنه من قلة الكلام في مسائله المتعددة ، حتى مع أخصائه ورجال دولته .

أما رجال دولة السلطان الصالح أيوب ، فكان أكبرهم مقاماً وشخصية الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه الجويني ، وهو المعروف كذلك بابن شيخ الشيوخ ، وبهذا اللقب عُرف إخوته معين الدين ومجير الدين وكمال الدين ، وهم ممن تولوا الوظائف العسكرية والسياسية المسئولة في خدمة السلطان الصالح ، بل إن الأسرة الكبيرة التي ينتمون إليها ، وهي أسرة شيخ الشيوخ ، صاحبة فضل في تأسيس الدولة الأيوبية في قلوب الناس ، وفي توجيه سياستها وديبلوماسيتها ، وحروبها ومعاهداتها السلمية ، منذ أيام السلطان صلاح الدين^(١) .

واشتهر الأمير فخر الدين يوسف بأنه هو الذي وضع قواعد الهدنة الكاملة الفردريكية ، في زيارته للإمبراطور فردريك الثاني بصقلية ، وأنه اجتذب بمواهبه انتباه الإمبراطور فردريك ، فأنعم عليه الإمبراطور بمرتبة الفروسية الأوربية ، وأنه ترقى في خدمة السلطان الصالح أيوب حتى صار القائد العام للجيش المصري الأيوبي ، وبهذه الصفة كان في مقدمة الحاضرين حول سرير السلطان المريض ، في أشموم طنّاح .

ومن أولئك الحاضرين كذلك بحكم وظائفهم الطواشي جمال الدين محسن ، وهو المختص بشئون القصر والحاشية ، وثلاثة من أمراء فرقة المماليك البحرية الصالحية الذين أنشأهم السلطان واستكثر منهم ، وجعلهم جيشه الخاص في إقاماته وأسفاره ، ونسبهم إلى لقبه ، تمييزاً لهم من الفئات البحرية المملوكية المنسوبة إلى أسلافه ، من السلاطين الأيوبيين . وهؤلاء الثلاثة الذين سوف تردّد

(١) انظر المقرئزي : المواعظ والاعتبار - بولاق - ج ١ ، ص ٤٠٤ ؛ ج ٢ ، ص ٢٢ ،

٤١٥ ، حيث توجد تفصيلات هامة تشرح مقام هذه الأسرة العظيمة في تاريخ الدولة الأيوبية .

اسماؤهم في مراحل حرب الدفاع والمقاومة ضد حملة الملك لويس التاسع ، هم أيبك التركمانى ، وأقطاي الجمدار ، وبيرس البندقدارى ، وهو غير بيرس الذى تقدمت الإشارة إليه فيما سبق ، فى وقعتى غزة وحيربيا^(١) . على أن المراجع لا تنبئ بكثير عن هذه الفرقة من المماليك البحرية الصالحية ، لأنها لم تظهر فى حرب أوقنال حتى وقتذاك ، كما أن هذه المراجع لا تنبئ بكثير عن هؤلاء ، الأمراء المماليك الثلاثة ، قبل أيام حملة الملك لويس التاسع ، وأولهم هو أول سلاطين الدولة المملوكية فى مصر والشام ، فيما بعد أيام هذه الحملة ، وثالثهم هو السلطان العظيم الذى اشتهر باسم الظاهر بيرس .

وينبغى أن يضاف إلى أسماء هذه الشخصيات الكبيرة اسم تورانشاه بن السلطان الصالح أيوب ، وولى عهده ، وهو وقتذاك مقيم فى حصن كيفا عاصمة ولايته بالجزيرة وديار بكر ، كما ينبغى أن يضاف كذلك اسم الأمير حسام الدين ابن أبى على الهذبانى الكردى ، وهو نائب السلطان الصالح أيوب ووزيره الأكبر بالقاهرة ، وييده مقاليد الإدارة والمالية والحكم الداخلى فى البلاد المصرية ، فضلا عن تنظيم القوات البرية والبحرية فى مصر ، وهى التى عنى السلطان الصالح بشئونها أكبر عناية ، منذ أوائل حكمه . وكان من أقرب المقربين إلى هذا الوزير الأكبر قاضى القضاة بدر يوسف السنجارى ، وهو كذلك صاحب مقام كبير وثقة لدى السلطان المريض .

ويبدو أن السلطان الصالح عرف بعض أركان الخطة الصليبية النهائية ، وهو فى أشموم طناح ، أو أن آراء مجلس شورته اتفقت على أن الصليبيين سوف يبدأون على الأقل بالرسو على الشاطئ الغربى للنيل ، قبالة دمياط ، كما فعلت حملة حنا برين ، قبل ذلك بثلاثين سنة ؛ وهذا على عكس ما اعتقد السلطان ورأى سابقاً . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن الخطة السلطانية

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٦٩ .

استقرت ، قبيل وصول حملة الملك لويس انتاسع فعلاً إلى الشواطئ المصرية ، على أن يسير الأمير فخر الدين يوسف ، بجزء كبير من الجيش المصرى الأيوبي ، شمالاً إلى دمياط ، فيعبر من عند البرج المشهور حالياً باسم عزبة البرج ، على جسر عائم من السفن ، إلى موضع كان معروفاً وقتذاك باسم جزيرة دمياط ، وهو - فيما يبدو - اللسان من الأرض الممتدة قبالة دمياط القديمة ، على طول الشاطئ الغربى للنيل من ناحية ، وساحل البحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى ، أى رأس البر الحالية . وكانت دمياط القديمة حصينة بهذا البرج وسلاسله الحديدية الممتدة عبر النيل إلى برج منبع مقابل ، وموضعه هو المعروف باسم الجربى فى العصر الحاضر ، وذلك فضلاً عن أسوار وأبراج أخرى ، وكلها مشحونة بحاميات معظمها من جند العرب الكنانية ، أصحاب النفوذ والإقطاعات فى الأعمال الغربية بشمال الدلتا ، من البرلس إلى دمياط ، منذ أواخر أيام الخلافة الفاطمية ، وإليهم يرجع معظم الفضل فى مقاومة الحصار الصليبي لدمياط ، زمن حملة الملك حنا برين^(١) .

ثم أرسل السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذباني نائبه بالقاهرة ، أن يجهز السفن الحربية ، من الشوانى والأغربة والطرائد والحراريق الراسية بدور الصناعة ، وأن يبعثها وحدة بعد أخرى رفقة السفن التموينية إلى دمياط ، لتكون حاجزاً مانعاً ضد أية حركة صليبية نهريّة فى النيل . وهكذا استطاع السلطان أن يجعل قواته الحربية على أهبة تامة فى البر والنهر ، وأن يملأ دمياط وأبراجها وأسوارها بالعساكر والأسلحة والأقوات ، استعداداً لما عسى أن يقع عليها من هجوم أو حصار يتطلب مقاومة طويلة ، كما حدث أيام حملة حنا برين^(٢) .

(١) انظر المقرئزى : المواعظ والاعتبار - بولاق - ج ١ ، ص ٢١٥ ، وما بعدها ، وكذلك المقرئزى : كتاب السلوك - نشر زيادة - ج ١ ، ١٩٨ ، حيث ورد أن الأمير جمال الدين الكنانى هو الذى تزعم المقاومة المصرية الأيوبية ضد الحصار الصليبي الطويل ، زمن حملة حنا برين .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٦ ، لمراجعة بعض أخبار ذلك الحصار .

ويتضح من تركيز هذه الاستعدادات الحربية والتموينية الضخمة حول دمياط وأبراجها وأسوارها ، سواء في البر أو النهر ، أن الأخبار تأكدت أخيراً لدى السلطان الصالح أيوب بأن الملك لويس التاسع سوف يحاول الرسوبستن حملته عند ميناء دمياط ، أو على مقربة من تلك الميناء ، وأنه سوف يعتمد إلى الزحف من دمياط جنوباً إلى القاهرة ، كما عمدت حملة الملك حنابرين من قبل . وهنا يحقّ للباحث أن يندهش لهذا الاختيار الذي اختاره الملك لويس التاسع لحملة ، وهو يعلم تمام العلم بأن الاستراتيجية التي تجاهلت صعوبات هذا الطريق أدت - فيما أدت - إلى غلطات حربية وبيلة على حملة الملك حنابرين^(١) . ولذا يستطيع الباحث أن يستشف ، على الرغم من عدم وجود ميناء صالح للرسوب شمال الدلتا بين فرعى النيل غير ميناء دمياط ، أن الملك لويس التاسع خضع في اختياره هذا لرغبات الجمهوريات الإيطالية التي اشتركت بسفنها في هذه الحملة ، كما تعود هذه الجمهوريات إلى بيوتها التجارية التي أنشأتها في دمياط سابقاً ، أي زمن حملة الملك حنابرين . وهكذا غدت الحملات الصليبية أداة لتنفيذ رغبات الجمهوريات الإيطالية التجارية ، لا العكس ، ولو كان وراء الحملة من هذه الحملات أعظم بابوات العصور الوسطى شموخاً ، وهو إنوسنت الثالث ، كما حدث للحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، أو نائب بابوى شديد الحماسة للفكرة الصليبية ، وهو بلاجيوس الإسباني ، كما حدث أيام الحملة الصليبية المعروفة بال خامسة ، أو ملك فرنسي قديس ، وهو الملك لويس التاسع المعروفة حملته باسم الحملة الصليبية السابعة .

غير أن الجهود التي بذلها السلطان الصالح أيوب في شحن دمياط وأبراجها وأسوارها ، بالعساكر والأسلحة والأقوات ، أدت إلى تدهور حاله

(١) انظر (Oman : A History of the Art of War in the Middle Ages, pp. 340 et seq. ، حيث يوجد نقد تفصيلي لخطة الملك لويس التاسع ، من أولها إلى آخرها .



خط سير حملة لويس على مصر

الخريطة رقم ٦

حملة الملك لويس التاسع على مصر ، سنة ١٢٤٩ م .

الصحية ، وهى البالغة أقصى درجات التدهور قبلاً ، على قول المؤرخ ابن العبرى ، وخصوصاً بعد أن عرض للسلطان فى فخذه مرض إضافى يسميه الأطباء فى تلك العصور ، ” غانغرانا ، ثم استحكم الفساد فيها حتى آل أمرها إلى سفاقلس ، وهو موت العضو أصلاً ، فقطعوها وهو حى ” (١) ؛

وبينما يكابد السلطان الصالح أيوب شديد آلام المرض العضال ، والجراحة اليائسة القليلة الأمل من الشفاء ، جاءت الأخبار إليه بأن السفن الصليبية وصلت إلى الشواطئ المصرية صبيحة يوم الجمعة العشرين من شهر صفر سنة ٦٤٧ هـ (٢) ، الموافق ٤ من يونيه سنة ١٢٤٩ م ، وأنها ألفت مراسيها ونزلت إلى البر ، وعلى رأسها الملك لويس التاسع ، وهو يخوض فى الماء رافعاً ترسه وسيفه فوق رأسه ، وذلك فى فجر اليوم التالى ، وهو يوم السبت الواحد والعشرين من صفر ، الموافق ٥ يونيه ، عند طرف جزيرة دمياط على الشاطئ الغربى للنيل ، شاملى المعسكر المصرى الأيوبي ، حيث وقف الأمير

(١) انظر ابن العبرى (تاريخ مختصر الدول - طبعة بيروت ، ص ٤٥٢) ، وهو كما تقدمت الإشارة إليه فى العبارات الافتتاحية بهذا الفصل ، ص ٨٧ ، من أهم المراجع المعاصرة لهذه السنوات ، وينفرد عنها جميعاً بدقة طبية ملحوظة فى شرح حال السلطان الصالح أيوب ، فى تلك الأيام الأخيرة من حياته . ولعل مرجع تلك الدقة الطبية صداقة ابن العبرى لبعض أطباء السلطان الصالح أيوب ، ومنهم ابن أبي الخوافر اليهودى . وهذه الدقة الطبية فى الشرح هى التى تجعل من المستطاع تفسير بعض نواحي سلوك السلطان نحو فرقة العرب الكنانية مثلاً ، بعد سماعه بسقوط دمياط غنيمة باردة فى أيدي الصليبيين ، كما سئل .

(٢) سوف يدأب المؤلف من هنا فصاعداً على إيراد تواريخ الحوادث بصيغتها الهجرية والميلادية معاً ، من غير التزام لقاعدة واحدة فى تقديم أحدهما على الأخرى . وتوجد بالملحق رقم ٣ فى آخر الكتاب قوائم بهذه الحوادث وتواريخها ، لا ليكون لدى القارئ جداول تاريخية مقارنة فحسب ، بل ليستطيع أن يرى بنفسه مختلف المسافات الزمنية التى ازدحم بعضها ازدحاماً شديداً بالحوادث ، على حين خلا بعضها الآخر من أية حادثة من حوادث هذه الحملة ، أو خطوات المقاومة المصرية الأيوبية ضدها .

فخر الدين يوسف في الانتظار ، أى عند الطرف الجنوبي من لسان رأس البر^(١) ، وذلك برغم المناوشات العنيفة التى بذلها القائد فخر الدين لمنع الرسو والنزول إلى الساحل .

ثم لم تلبث الأخبار أن جاءت إلى السلطان الصالح ، بانسحاب القائد فخر الدين بجيشه من جزيرة دمياط ، مساء ذلك اليوم ، وعبوره النيل على الجسر العام من السفن إلى دمياط نفسها . ثم جلا فخر الدين كذلك عن دمياط ، وانسحب وراءه جنود حاميتها من الكنانية ، جافلين مذعورين يطلبون النجاة . وشهد الدمياطيون رحيل العساكر وقائدهم فخر الدين ، وخروج الحامية الدمياطية وزعمائها من الكنانيين ، وأحسوا ذهاب وسائل الطمأنينة والسلامة من المدينة ، فقررُوا كذلك الرحيل عن دمياط أفواجا من المسلمين والأقباط ، بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم .

ثم أصبح صباح يوم الأحد الثانى والعشرين من صفر ، الموافق ٦ يونيه ، فإذا جنود الحملة الصليبية تعبر النيل إلى دمياط ، على جسر السفن المهجور ، والملك لويس التاسع فى طليعتهم ، وذلك بعد أن تأكد له انسحاب عسكر الأمير فخر الدين والحامية الدمياطية . لكن الصليبيين لم يعلموا أن أهل دمياط خرجوا كذلك عن مدينتهم راحلين جنوباً ، وأنهم تركوا بيوتهم ومخازنهم

(١) من المعروف عند الجغرافيين أن الأراضى المصرية الشمالية عموماً تزداد مساحتها ، سنة بعد أخرى ، على حساب البحر الأبيض المتوسط ، وذلك على طول ساحل الدلتا ، من العريش وسبخة البردويل ، إلى الإسكندرية والعلمين تقريبا . والفضل فى تلك الظاهرة الجغرافية يرجع للكميات الرملية الطينية السوداء ، التى يرسبها فيضان النيل سنوياً فى هذه الجهات الساحلية ، فى انتظام . ومعنى ذلك أن أرض اللسان عند رأس البر الحالية كانت أقرب إلى عزبة البرج والبحري ودمياط القديمة فى العصور الوسطى ، عما هى فى العصر الحاضر . ولذا ينبغى للقارئ أن يلاحظ هذا التغير فى المسافات بين الموانع الساحلية التى أرسى عليها حملة الملك لويس التاسع ، وبين مواضع عزبة البرج والبحري ودمياط القديمة ، فى العصور الوسطى . انظر الخريطة رقم ٦ ، وهى الخاصة بحملة الملك لويس التاسع على مصر ، ص ١٠٥ .

وحققو لهم مشحونة بالآقوات والأزواد والمحاصيل والماشية ، فضلا عما تركته الحامية الدمياطية من الأسلحة والأموال والمعدات الحربية الثقيلة . لذا دهش الصليبيون حين رأوا أبواب مدينة دمياط مفتوحة ، وحراراتها خالية من الناس ؛ ونخشوا أن يكون في الأمر مكيدة ، فتمهلوا حتى أيقنوا أن ليس في المدينة أية مقاومة ، ثم لم تكن سوى ساعة قصيرة حتى دخلوها بغير قتال ، أو هجوم أو حصار^(١) .

هكذا تتابعت حوادث هذه الكارثة الخمسة المراحل ، في سرعة مذهلة تنعكس صورها الراكضة في أسلوب المؤرخين المعاصرين ، ولا سيما المؤرخ ابن واصل ، وهو الذي كان شاهداً قريباً من مسرح الحوادث وأخبارها ، كما هو واضح من روايته^(٢) .

وفي أثناء تلك الحوادث المزعجة ، أو قبلها بقليل ، تبودلت بين السلطان المريض والملك لويس التاسع رسالتان ، لم يذكرهما أحد من المؤرخين المعاصرين ، لكنهما واردان في كثير من المراجع المتأخرة ، ومنها ابن أبيك الذي عاش بالقاهرة بعد زمن الحملة بأربعين سنة ، ثم ابن دقاق ، ثم المقریزی ، ثم الإسحاق ، وكل منهم مؤرخ موثوق به ، ولا سيما المقریزی الذي يذكر من باب القرينة المؤيدة لصحة هاتين الرسالتين ، أن رد السلطان الصالح على رسالة الملك لويس التاسع كان من إنشاء الكاتب الشاعر بهاء الدين زهير^(٣) . ولذا فليس من المستبعد أن تكون الرسالة التي كتبها بعض العارفين باللغة العربية في بلاط الملك

(١) انظر لوحة رقم ١ ، أمام ص ١١٢ .

(٢) انظر الملحق رقم ١ ، في آخر الكتاب ، وهو متن ابن واصل في أخبار حملة الملك لويس التاسع ، وحوادث المقاومة المصرية الأيوبية ضدها . وسوف يدأب المؤلف على الإشارة إلى هذا الملحق برقمه فقط ، في المناسبات التالية ، دون حاجة إلى ذكر ابن واصل نفسه . ويلاحظ أن ابن واصل ، وكذلك (Joinville : Op. cit) ، هما المرجعان المعاصران الرئيسيان اللذان اعتمد المؤلف عليهما كل الاعتماد في شرح هذه الحوادث ، مع العلم بأنهما كانا يكتبان من زاويتين مختلفتين تمام الاختلاف .

(٣) المقریزی : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر زيادة - ص ٣٣٤ ، وما بعدها .

لويس ، والرد الذي كتبه بهاء الدين زهير عليها بأمر السلطان الصالح ،
 مما بقي مجهولا مدفونا مدة في محفوظات ديوان الإنشاء الأيوبي بالقاهرة ،
 حتى أيام الحركة الموسوعية المملوكية في مصر والشام ، حين عثر ابن أبيك
 مثلاً على هاتين الوثيقتين ، وأدمجهما في تأليفه الضخم ، وهذا هو نصهما من
 مخطوطته : ” بسم الله النصيح ، صاحب الدين الصحيح ، عيسى بن مريم
 المسيح . أما بعد ، فإنه لم يخف عليك ، ولا على كل ذي عقل ثاقب ،
 وذهن لازب ، أنك أمين هذه الملة الحنيفة ، وأنا أمين هذه الملة النصرانية .
 وليس خفي عنك ما فتحنا من بلاد الأندلس والشابانا (كذا) ، وأخذنا
 النساء والعداري ، وفرقناهم على ملة النصاري ، وجعلنا أرجالهم (كذا)
 أسارى ، ونساءهم عليهم حيارى . وقد علمت ما نحن فيه من حق الرعية ،
 لما فتحنا بلاد المهدية ، وعفونا (كذا) على ثغر الإسكندرية . فلا تلجىء العالم
 إلى العسف ، ولا تسيهم (كذا) سيما الخسف . نقتل العباد ، وندوس
 البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد . فإن قابلتنا بالقتال ، فقد أوجبت على
 نفسك ورعتك النكال ، وأرميتهم (كذا) في أشر الوبال ، يكثر فيهم
 العويل ، ولا نرحم عزيز ولا ذليل (كذا) ، ولا تجدد إلى نصرتهم من سبيل .
 ونحن نشرح لك مافيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصيحة والهداية ، أن تنقل
 إلى عندنا من عندك من الرهبان ، وتحلف لنا بعظام الإيمان ، أن يكون لنا
 نائبا (كذا) على ممر الأزمان ، وتعجل لنا بما عندك من مراكب وطرايد
 وشوانى ، ولا يكون فيك فترة ولا تواني ، لتكون قلوبنا راضية عليك ،
 ولا تسوق البلاء بيدك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود
 تقول ياليت ، وتضع الحرب أوزارها ، وتشعل (كذا) نارها ، ويتعالى
 شرارها ، ويغتم قتادها ، وتأخذ منكم بنارها (كذا) : فسيوفنا حداد ، ورماحنا
 مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد ، فإن كانت لك فيديه
 (كذا) ألقت بين يديك ، وإن كانت لنا فيدنا العليا عليك ، إذا استحق

بالإضافة إمارة الملتين ، وحكم الشريعتين ، وبإيد الله تعالى السعادة ، وهو
الموفق للإرادة ، ثم كتب في آخره يقول :

ستسلم إن سلمت غير محارب ، فإنك لا ترجو أموراً ترومها . أتيناك
في خلق كرام ، وعصبة مسيحية لم يخف عنك علومها (كذا) ، وها أنا قد
أنشدت بيتاً مهدداً ، مخافة أن لا تلتقى النفس ضيمها :

ستعلم ليلي أي دين قد أتيت وأي غريم للتقاضى غرامها

ولما وصلت هذه المكاتبة للسلطان الملك الصالح كان في أشد ما يكون من
المرض ، فكتب الجواب وأنفذه ، وهو ما هذا نسخته : ” بسم الله الرحمن الرحيم ،
وصلّى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب
العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

من عند الدارئ عن حرم المسلمين ، والقارئ كتاب رب العالمين ،
المنزل على خير المرسلين ، محمد صلى الله عليه ، وعلى آله الطاهرين ،
وأصحابه الأنصار والمهاجرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وها أنا قد أتيتك
بالحليل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود
والأغلال . فإن كانت لك فأت الساعي ، وقد أمنت الناعي ، وإن كانت
عليك فأت الباغي لحتفك ، والجادع أنفك بظلفك . فإن رأيت أن لا تقيم بين
الفتين (كذا) ضغنا ، فلذلك من الله علينا وعليكم منّا ، وإن غير ذلك
فقد قال الله تعالى : ” أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ” .

ولما وصل إلينا كتابك أعطيناك جوابك ، ومن يهد الله فهو المهتد ،
ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً . وفي كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك ،
وخيلك ورجالك . أو ما تعلم أن نحن أرباب الخوف ، وفضلات (كذا)
السيوف ، ما ترانا على حصن إلا هدمناه ، ولا عدم منا فارساً (كذا)
إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه . فلو نظرت أيها المغرور حد

قلوبنا ، وجدّ حروبنا ، لرأيت فرسانا أسنتهم لا تملّ ، وسيوفهم لا تكلّ ،
 وقلوبهم لا تذللّ ، ولعضضت على يدك بسن الندم ، ولا ضرك تحريك قدم
 عن قدم . فلا تعجبك العساكر التي بين يديك ، فهو يوم أوله لنا وآخره
 عليك إن أذاك كتابي هذا فلتكن منه بالمرصاد ، على أول سورة النحل
 وآخر سورة ص ، أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، ولتعلمنّ نبأه بعد حين .
 هنالك تطاول نحوك الأعناق ، وتشخص صوبك العيون ، ويسوء بك
 الويل ، ويسوء (كذا) بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب
 ينقلبون “ (١) .

وهنا تتطلب الموضوعية التاريخية شيئاً من الأناة في الاستنتاج والحكم على
 ما حدث للدمياط ، وأهلها وحاميتها ، فضلاً عما حدث للجيش المصري الأيوبي ،
 بقيادة الأمير فخر الدين يوسف . أما المعروف من المراجع فهو أنه حين مثلت
 فلول الجيش المصري الأيوبي في حضرة السلطان المريض ، في أشموم طناح ، قال
 السلطان مؤنباً الأمير فخر الدين ، على مسمع من الحاضرين : ” أما قدرتم تثموا
 ساعة بين يدي الإفرنج ؟ “ ، ولم يزد السلطان على ذلك شيئاً . بل
 كظم غيظه ، وكان من المجيدين كظم الغيظ ، واكتفى مؤقتاً بهذا الاستنهام

(١) ابن أبيك : كثر الدرر وجامع الفرر - مخطوط بدار الكتب المصرية - ج ٧ ،
 ص ٢٩٥ - ٢٩٨ . وهذا النص هو أطول النصوص الموجودة لهاتين الوثيقتين بالمراجع
 المعروفة ، وأبعدها عن مظنة الحذف أو الاختصار . ولذا اختار المؤلف هذا النص وفضّله على
 سائر النصوص الواردة بالمراجع الرئيسية العربية الأخرى ، بما في ذلك نص المقرئ (كتاب
 السلوك - نشر زيادة - ج ١ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥) ، وهو النص الذي اختارته إدارة متحف
 دار ابن لقمان ، بالمنصورة الحالية ، وكتبته على لوحة خاصة ، معلقة بالحائط الكائن على يمين
 الزائر لذلك المتحف . غير أنه برغم الاعتبارات التي تقدمت الإشارة إليها ، في وصف هاتين
 الوثيقتين ، تحوم بضعة شكوك حول نسبة الوثيقة الأولى إلى الملك لويس التاسع ، وكذلك حول
 وثيقة الرد عليها المنسوبة إلى السلطان الصالح أيوب . لكن المجال لا يتسع هنا لشرح هذه
 الشكوك ، وهي مدونة في مقال خاص تحت الطبع ، في المستقبل القريب .

الإنكارى التوييخى ، لأن الأمير فخر الدين أكبر شخصية فى الدولة بعد السلطان نفسه ، وليس من المصلحة الراهنة أن يوقع السلطان به أية عقوبة علنية عاجلة ، نظراً لمقام الأسرة العظيمة التى ينتمى إليها الأمير فخر الدين^(١) . ثم نودى على زعماء الكنانية ، وكانوا ستين نفرأ ، عدا الغائبين الهاربين منهم خوفاً من صهارم العقوبة . فأمر السلطان بشتق الحاضرين جميعاً ، من أولئك الكنانية التعساء ، من جزوع النخل المجاورة ، بملا بسهم العسكرية ، ولم يستمع إلى قول بعضهم لبعض ، والمشائق تميد أمام أعينهم : ” ما ذنبنا إذا كان عساكره وأمرأوه هربوا ، وأحرقوا الزردخاناه ، فأيش نعمل نحن ؟ “^(٢) ، وكان بين المنتظرين حبل المشنقة صبي وأبوه ، فتوسل الأب أن يشتق قبل ابنه ، لكن السلطان أصرّ إصراراً قاسياً عنيداً أن يشتق الابن أولاً ، مما يدلّ على مبلغ سورة غضبه وفقدانه توازنه ، بسبب مرضه المميت .

ويختلف تمام الاختلاف عن ذلك الإصرار القاسى العنيد أن السلطان لم يأمر أو ينذر بأية عقوبة لتوقيعها على الأمير فخر الدين ، ومعنى هذا — فيما يبدو — أنه لم يتولاه شك فى إخلاصه ، ولم يتسرب إليه ظن فى مخامرته مع الصليبيين ، كما تبادر إلى ذهن بعض المؤرخين المعاصرين

(١) انظر ما سبق ، ص ١٠١ .

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان — طبعة حيدرآباد — ج ٨ ، ص ٧٧٢ — ٧٧٤ . يظهر من هذه العبارات أن جنود فرقة الكنانية خشوا أن يحلّ بهم مثلاً حلّ بأبائهم قبل ذلك بثلاثين سنة ، أى زمن السلطان محمد الكامل وحملة الملك حنا برين ، حين طال الحصار الصليبي على دمياط ، ولم يجد الكنانية والدمياطيون لأنفسهم مخرجاً من ذلك الحصار سوى التسليم للصليبيين . ولا معنى بعد ذلك لإلقاء التهم جزافاً على الكنانيين ، إذ المعروف أنهم كانوا من خيرة الجند زمن السلطان صلاح الدين ، وأنهم هم الذين حفظوا دمياط مدة طويلة قبل التنايم الاضطرابى لحملة الملك حنا برين ، انظر القلقشندي : صيغ الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ، وأبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٢٧٣ ، والمقرئزى : البيان والإعراب — نشر وستفلة — ص ٢٩ ، وأحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر ، ص ٦٢ ، والسيد الباز الميرنى : مصر فى مصر الأيوبيين ، ص ١٥٣ ، ١٥٥ .

(لوحة رقم ١ ، بين صفتي ١١٢ ، ١١٣) .
وصول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطئ المصرية ونزولها إلى البر قبالة دمياط القديمة .



صورة مخفورة على الخشب ، وهي مأخوذة من كتاب (Lacroix : La Chevalerie et les Croisades, p. 185) ،
نقلا عن كتاب قديم عنوانه (Grand Voyage de Hiérusalem, Paris, 1522) ؛ أي بعد زمن حملة الملك لويس
التاسع بمائتين واثنين وسبعين سنة ، مع العلم بأن هذه الصورة أقدم الصور المعروفة بالمراجع المتداولة هنا .

والتأخرين . ولو أن قرينة قوية أمالت السلطان المريض نحو شيء من هذا أو ذاك ، ما تردّد في الحكم بإعدام فخر الدين ، أو سجنه ، وهو في هذه الحماة الغاضبة المريضة ، مع العلم بأن السلطان الصالح اشتهر بتوقيع آلاف من العقوبات أثناء حكمه ، بما في ذلك إصداره الأمر يوماً بمحرق أخيه العادل الثاني ، بقلعة الجبل . يضاف إلى ذلك كله أن السلطان الصالح أبقى الأمير فخر الدين في منصب القيادة العامة بالجيش المصرى الأيوبي ، بل إنه أسند إليه أهم أجزاء خطته الحربية المستقبلية ، وذلك بعد استيلاء الصليبيين على دمياط ، واستقرارهم بها إلى حين .

ولذا فالراجح أن السبب الأول في كارثة دمياط لم ينشأ عن انسحاب القائد فخر الدين من جزيرة دمياط ، ثم من دمياط نفسها إلى أشموم طنّاح ، بل نشأ كذلك عن غيبة السلطان عن ميدان المعركة ، بسبب مرضه وجراحته ، ثم سريان الإشاعة في صفوف الجيش الم رابط عند جزيرة دمياط ، بأن السلطان قريب من الموت ، وهذا هو ما ذكره ابن واصل مرتين صريحتين في وصفه المعاصر للحوادث . وفي جوانفيل - وهو المرجع الأجنبي المعاصر الموازي لابن واصل في الأهمية والدقة - أنه لما وصلت السفن الصليبية إلى طرف جزيرة دمياط ، أرسل الأمير فخر الدين بأنبائها في بطاقات على أجنحة حمام الزاجل ، كالمعتاد ، إلى كل من أشموم طنّاح والقاهرة^(١) . وتعدّدت بطاقات الأمير فخر الدين بهذه الأنباء ثلاث مرّات في يوم واحد ، دون أن يتلقى رداً واحداً ، فاعتقد أن السلطان مات . وانتشر هذا الاعتقاد

(١) انظر ما سبق ١٠٧ ، وفي أبي شامة (الذيل على الروضتين ، ص ١٨٣) إشارة إلى وصول إحدى البطاقات الحربية التي أرسلتها القاهرة بدورها إلى دمشق ، وهي تضبط تواريخ مراحل الكارثة الدمياطية ، وهذا هو نصها ، في أخبار سنة ٦٤٧ هـ : " ثم ورد كتاب من مصر إلى بعض أصحابنا ، تاريخه حادى عشر ربيع الأول ، قرأت فيه : وصل الفرنج في العشرين من صفر ، ونزلوا في الحادى والعشرين إلى البر ، وفي الثانى والعشرين أخليت دمياط ، ودخلها الفرنج ، وهم فيها الآن " .

فى المعسكر المصرى الأيوبى بأنحاء جزيرة دمياط ، فكان داعياً كافياً للأمير فخر الدين أن ينسحب سريعاً أمام هجوم صليبي ظنّه مناوشة افتتاحية خفيفة ، وسوف تتلوها مناوشات خفيفة مثلها لبضعة أيام ، قبل الدخول فى معركة كبيرة . ولذا اعتقد الأمير فخر الدين أن باستطاعته أن ينسحب بجيشه مؤقتاً من الميدان ، وأن يذهب إلى حيث يضطجع السلطان المريض حياً أو ميتاً ، ليشارك أولاً فى تقرير ما ينبغى تقريره من الشئون العليا فى سياسة الدولة ، والوراثة السلطانية .

والحق ، إنه بالإضافة إلى اختلاف معايير العصور الوسطى فى الشرق والغرب عن معاييرنا عموماً فى العصر الحاضر ، لم يكن من السهل ، ولا من المنطق الشخصى فى تلك العصور الوسطى ، أن يرضى القائد فخر الدين بالبقاء بعيداً عن المعترك السياسى البلاطى ، أى حول سرير المريض ، أو أن يظل مشغولاً بعمل حربى يمكن الانصراف إليه فيما بعد ، أى بعد تقرير مصير السلطنة . ثم إنه يبدو كأن القائد فخر الدين شعر بأنه مبعّد عمداً عن الميدان السياسى الداخلى ، بناء على إشارة من بعض المحيطين بشخص السلطان المريض ، وأنه ربما يخدم مصالح السلطان والدولة الأيوبية ، ومصالحه الشخصية الخاصة به كذلك ، بذهابه فى سرعة إلى أشموم طناح .

أما هذه المصالح الشخصية الخاصة بالأمير فخر الدين ، فتشير إليها بعض المراجع فى صراحة أحيانا ، وفى غموض أحيانا أخرى ، ومنها مثلاً أن الأمير فخر الدين كان عجوزاً متقدماً فى السن ، مشغولاً عن القتال باحتمال وفاة السلطان ، وضرورة وجوده هو قريباً من المعسكر السلطانى ، لخدمة مطامع شخصية له فى السلطنة نفسها : وهكذا تعيّن على الأمير فخر الدين أن يذهب إلى حيث يوجد الخيم السلطانى ، للاشتراك فى المؤامرات والمناقشات التى سوف تتلو وفاة السلطان . وتقول هذه المراجع من باب التدايل على هذا أن الأمير فخر الدين اكتفى بالمناوشة العنيفة

يوماً واحداً ضد الصليبيين ، وأنه اهتم بالانسحاب مساء ذلك اليوم ، تحت ستار الليل ، أكثر من اهتمامه بالاستمرار في المناوشة ، بل إنه استمر في الانسحاب حتى وصل إلى أشموم طناح ، حيث المخيم السلطاني . غير أن حوادث حملة الملك لويس التاسع بعد كارثة دمياط سوف تفند هذه الشكوك ، وسوف تبرهن على أن الأمير فخر الدين كان من المفترى عليهم في التاريخ ، حسب معايير العصور الوسطى^(١) .

وكيفما يكون الأمر ، فالواقع الراهن أن الموقف العام بدا مظلماً تماماً لأهل مصر في حاضرهم ومستقبلهم ، فالصليبيون مستقرون في دمياط ، والقوات المصرية الأيوبية ، وكذلك الحامية الكنانية الدمياطية ، كلها مخفية وراء ما غشيها من حزن وشعور بفداحة الكارثة ، والدمياطيون أنفسهم مبعثرون في أنحاء البلاد ، والأمير فخر الدين أمسى ظملاً - أو عدلاً - موضع شك ، والسلطان يعالج مرض الموت ، وهذا على حين أضحى الصليبيون على درجة كبيرة من القوة ، بفضل ما لديهم من سفن ومعدات حربية أوربية وقبرصية ، مضافاً إليها ما صار إليهم من أموال وأزواد وأسلحة في دمياط ، وما سوف يصير إليهم من نجدات عاجلة وآجلة ، مما يحتمل أن تجود به المقادير .

(١) شدد المقرئ (السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر زيادة - ج ١ ، ص ٢٢٦) وغيره من المؤرخين ، عبارات التكبر على سلوك الأمير فخر الدين في كارثة دمياط ، ورغم ما عرفه الجميع من أخبار هذا الأمير بعد ذلك ، كما سيلي .

الفصل الخامس

معركة المنصورة

الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م = ٤ ذو القعدة ٦٤٧ هـ .

أمسى الموقف بين مصر وحملة الملك لويس التاسع ، بعد الاستيلاء الصليبي على دمياط ، شبيهاً تمام الشبه بما كان بين الطرفين زمن الملك حنا برين والحملة الصليبية المعروفة بالخمسة ، ولا سيما بعد أن أمر السلطان الصالح أيوب بنقل معسكره ومركز قيادته من أشموم طنّاح إلى مدينة المنصورة . وانتقل السلطان الصالح إلى مدينة المنصورة في حراقة سارت به الهوينا في بحر أشموم ، ثم ألفت مراسيها قبالة قصر والده السلطان الكامل ، على شاطئ النيل ؛ وذلك في يوم الثلاثاء ٢٤ من صفر سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٨ يونيه سنة ١٢٤٩ م .

ونزل السلطان المريض بهذا القصر ، ولم تلبث المدينة التي لم تبلغ وقتذاك من العمر سوى ثلاثين سنة أن امتلأت بالحركة الدائبة الصاخبة ، فشرع الجند في ترميم دورها وأبنيتها المخصصة سابقاً لسكنى العسكر ، وعمر التجار مواضع أسواقها ، وأحضروا إليها البضائع . وقامت فرقة من عمال التحصينات الحربية بتقوية السور الكاملى المحيط بها ، ولا سيما الجزء المطل منه على ناحية النيل^(١) . ثم وفدت أنواع الكتائب النظامية وغير النظامية من جند الممالك والعربان ، وكذلك المطوعة الذين كان عملهم الوعظ

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٥٥ .

والإرشاد والحث على الجهاد ، فضلاً عن طوائف العامة الذين قاموا بعمليات البيع والتجارة ، والخدمات اليومية . وامتلات المنصورة كذلك بالأزواد والمعدات والأسلحة ، كما امتلأ النيل عندها بأنواع السفن الحربية . وهكذا صارت المدينة العسكرية ، وضواحيها حتى جديدة الحالية ، قطعة مائية بالناس وأنواع النشاط ، كأنما يشرف على شئونها قائد متحمس في شرح الشباب ، لا سلطان مريض مثقل بالمرض . غير أن القرائن لم تزل تدلّ - حتى وقتذاك - على أن مدينة المنصورة العسكرية لم تتغير ملامحها أى تغيير ، من حيث طابعها العسكرى الأول ، وانعدام الطراز المعمارى بمبانيها ، وقلة الزخرفة التى تزدان بها العماثر السلمية ، فضلاً عن قلة المتانة التى تنتج عن السرعة فى البناء . ويؤيد ذلك أن سلسلة المؤرخين ، من ابن واصل إلى المقرئى ، لم يذكر أحد منهم شيئاً يدلّ على بناء جديد بالمنصورة ، من طراز ما بنى الأيوبيون أنفسهم بمصر والشام ، من المدارس والعماثر والقلاع الشهيرة^(١) ؛ ولعل هذا هو السبب فى عدم بقاء أى أثر من آثار مباني المنصورة القديمة فى العصر الحاضر .

ومما يدل على يقظة السلطان الصالح ، وقدرته على مواجهة الموقف رغم مرضه ، أنه أرسل من المنصورة إلى قائد جيشه بدمشق يأمره بمهاجمة بعض البلاد الصليبية بفلسطين ، أو التهديد على الأقل بالقيام بحصارها ، من باب تحويل الأنظار والتخفيف قليلاً عن مصر ، كما كان يفعل نور الدين محمود ابن زنكى ، أيام شيركوه وصلاح الدين والحملات النورية فى مصر . لكن السلطان الصالح لم ينتظر مساعدة كبيرة من ملوك البيت الأيوبي ، لأنه لم يكن بينه وبينهم سوى حبّ مفقود ؛ ولذا لم يحضر منهم إلى معسكره بالمنصورة إلا من ألبأته المنفعة المادية إلى الحضور^(٢) .

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) انظر الملحق رقم ١ (ص ٣٥٧ ب) ، وكذلك المقرئى : كتاب السلوك

لمرقة دول الملوك - نشر زيادة - ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

وفي أثناء ذلك أدار السلطان عملية دبلوماسية ماهرة ، إذ أرسل إلى الملك لويس التاسع يعرض شروطاً للهدنة ، بشرط جلاء الصليبيين عن دمياط ، مقابل إرجاع مدينة بيت المقدس إلى مملكة عكا الصليبية ، على قاعدة ما عرض السلطان الكامل سابقاً . غير أن التقوى العسكرية المحاربة تغلبت على الملك القديس ، كما تغلبت على النائب البابوي بلاجيوس من قبل ، فلم يتأثر الملك لويس التاسع بشيء من العوامل التي أمالت الملك حنا برين مثلاً نحو فكرة الهدنة ، ولم يوجس خيفة مما عسى أن تختتم به الحوادث — على مقياس أشبه بما اختتمت به الحملة الصليبية المعروفة بال خامسة ، أو أسوأ منه . بعبارة أخرى رفض الملك لويس التاسع أن ينزل إلى مستوى مناورضة المسلمين ، أو مهادنتهم ؛ وكان هذا معروفاً عنه جيد المعرفة .

وفي رواية أخرى أن اقتراحات السلطان الصالح للهدنة لقيت شيئاً من القبول لدى القادة الصليبيين ، والملك لويس التاسع نفسه ، ما عدا كونت أرتوا أخى الملك ، أى أن هذا الكونت المشهور بخطأ الرأي ، مع التسرع والعناد ، كان هو الذى رأى أنه لا ينبغى للصليبيين أن يشتروا السلام بالتخلي عن واجب الحرب المقدسة ضد المسلمين ، إلا إذا عرض السلطان تعويضاً عن دمياط بالإسكندرية ، مضافاً إلى شرط استرجاع مدينة بيت المقدس ؛ ولهذا السبب فشلت المفاوضات ، فيما قيل .

ويأسف المؤرخون الغربيون — طبعاً — لعجز الملك لويس التاسع وحملته عن استغلال الحال التى نجمت عن الاستيلاء السريع على دمياط ، بالزحف السريع جنوباً نحو القاهرة ، قبل أن يفیق السلطان الصالح من اللطمة التى حاقت بجيشه فجأة ، ولا سيما أن جيش الصليبيين لم يكن بحاجة إلى أية راحة ، أو أية إعادة لتنظيم الصفوف بعد دخول دمياط دون قتال ، بل كان فى استطاعته — على الأرجح — أن يبدأ فى الزحف فوراً نحو القاهرة^(١) . غير أن الملك لويس التاسع

(١) انظر (Oman : Op. cit. I. p. 341) ، ومن الواضح كل الوضوح أن غلطات

الملك لويس التاسع ؛ فى أثناء قيادته لهذه الحملة على مصر ، ليست مما يؤسف له هنا ، بل العكس . —

انصرف ، منذ أوائل يونيه سنة ١٢٤٩ م ، إلى عدة من الشئون الداخلية الكثيرة التي ترتبت على دخول الصليبيين دمياط ، وأول هذه تحويل جامع دمياط الكبير إلى كنيسة كاتدرائية ، وتحويل قبة فاتح الأسمر المقابلة للجامع إلى مكان للمعمودية ، كما حدث أيام حملة الملك حنا برين . ثم أخذ الملك لويس التاسع في توزيع الغنائم ، حسبما جرى عليه العرف والمعتاد بين الصليبيين بالشرق ، فكافأ الجنوية والبيازنة وأهل مرسيليا على خدماتهم ، بتخصيص حتى من أحياء دمياط لكل جالية من جالياتهم الوافدة للتجارة ، كما وافق على أن يكون لجالية البنادقة مثل ذلك ، بعد أن وعدت جمهورية البندقية أخيراً بتقديم جميع المساعدات البحرية اللازمة للحملة في المستقبل^(١) .

ثم استدعى الملك لويس التاسع إليه زوجته الملكة مرجريت البروفنسالية ، وكانت أبحرت إلى عكا عند رحيل الحملة من قبرص ، فجاءت إلى دمياط في أواخر يونيه سنة ١٢٣٩ م ، وأقامت بها ؛ ولذا كانت مشاهدات قسيسها الخاص ، واسمه ويليام سانت ، باتوس ، من أهم المراجع المعاصرة لحوادث الحملة أثناء إقامة جيوشها في دمياط . واستقبل الملك لويس التاسع في ذاك الشهر كذلك بلدوين الثاني ، وهو إمبراطور الدولة الصليبية اللاتينية بالقسطنطينية ، وكان مجيؤه إلى دمياط لتكرار طلبه السابق للحصول على نجدة مالية وعسكرية ينقذ بها إمبراطوريته المتداعية^(٢) .

= وبدأت هذه الغلطات باختيار الملك لويس التاسع ميناء دمياط لتكون نقطة بداية لعمليات هذه الحملة ، وكانت الغلطة الثانية تأجيله الزحف نحو القاهرة ، وسوف تتلوها غلطات أخرى ، وكلها تدل على أن الملك لويس التاسع لم يكن على شيء كثير من المقدرة العسكرية التي ألصقها به المؤرخ الفرنسي جروسيه مثلاً انظر (Grousset : Op. Cit. III. p. 438 et seq.) .

(١) انظر ما سبق هنا ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٤ .

(٢) انظر (Camb. Med. History. IV. p. 429) ، وكذلك ما سبق هنا ، ص ٩٨ .

وربما ظنّ الإمبراطور بلدوين الثاني أن الملك لويس التاسع سوف يمدّه
بنجدة صغيرة من المال والجند ، على مقياس ما سمح به سابقاً للأمير بوهمند
صاحب أنطاكية ، وخاصة بعد أن قرّر الملك لويس أن يترىث قليلاً
بدمياط ، قبل الزحف جنوباً نحو القاهرة .

غير أن الملك لويس التاسع لم يقرّر تأجيل التحرك بجيشه من دميّاط
جنوباً ، ليجعل نفسه قريباً من المحتاجين إلى نجدة من الصليبيين المعدمين ،
أو لينقص من جيشه — وكان قليل العدد وقتذاك — لتلبية حاجات أولئك
الصليبيين ، بل بقي بدمياط ليزيد عدد جيشه ، بوسيلة أو بأخرى من
الوسائل التي كانت في معقول متناوله . والواقع أن الملك لويس التاسع
رأى وجوب الانتظار بدمياط حتى تلحق به القوات التي بعثتها الرياح ، إبان
قيام الحملة من قبرص ؛ ويبدو كذلك أنه اعتقد أن جيوشه لن تكون كافية
لهجوم جنوبي عام ، حتى بعد وصول هذه القوات إليه ، بدليل أنه أرسل إلى
فرنسا يطلب مجيء أخيه الثالث ألفونسو كونت بواتييه ، بقوات فرنسية وأسلحة
وموئنة إلى دميّاط . يضاف إلى ذلك أن الملك لويس أراد أن يجنب حملته
ويلات ما ارتطمت به حملة حنا برين من عراقيل ومعاثر مائية ، بسبب
زحف تلك الحملة أثناء موسم فيضان النيل . ولم يعلم الملك لويس أن مياه
الفيضان لا تصل إلى الدلتا قبل أواخر شهر يوليو من كل عام ، أي أنه كان
باستطاعته أن يزحف جنوباً نحو القاهرة قبل ذاك الميعاد بمدة طويلة ، كما أنه لم
يعلم بأن صعوبات النقل بين البلاد المصرية في العصور الوسطى ، تستمر إلى ما بعد
أيام الفيضان بمدة غير قصيرة . ومع هذا قرر الملك لويس نهائياً أن يبقى بحملته
في دميّاط حتى بعد نهاية هذا الموسم ، واكتفى بتكليف الجند بحراسة الأبراج
والأسوار والأبواب الدميّاطية . غير أن ركود الحملة على هذا النمط ،
وخلو جندھا من أي عمل كبير أثناء شهور صيف سنة ١٢٤٩م ، وهى شهور
لحرارة الشديدة والرطوبة في أرض الدلتا ، أفسد الروح العسكرية العامة ، بل

أدى إلى ظهور بعض الأمراض الوبائية بين الجند ، فضلاً عن نفاد الأقوات ، في جوّ من البطالة الرتيبة ، والإسراف العام ، والتدهور الخلقي .

وضاق السلطان الصالح أيوب وضائق عساكره بهذا الركود الصليبي ، وتحولت الخطة الحربية المصرية الأيوبية تدريجياً من موقف دفاعي جامد - وراء تحصينات المنصورة - إلى حركات هجومية سريعة على مواقع الصليبيين في دمياط . ونظم السلطان من أجل تلك الحركات الهجومية السريعة عدة سرايا من العربان القناصة ، والفلاحين والصناع وعامة أبناء النواحي المجاورة ، وأعدّها للعمل في البر والنهر ، وعيّن لها المكافآت المالية الكبيرة المغرية . ولذا قامت هذه السرايا بإغارات فدائية ليلية جريئة ، حول مشارف دمياط ، وعلى طول ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى قرب غزة شرقاً ، وعادت بين الفينة والأخرى إلى معسكر المنصورة ، بأعداد غير ضئيلة من الأسرى . وأرسل السلطان هذه الأعداد من الأسرى إلى القاهرة ، ولا بدّ أنه أمر بعرضها وتوكيها في الشوارع كالمعتاد ، لرفع الروح المعنوية وإبقائها عالية في أنحاء البلاد . ومن طلائع أولئك الأسرى ، حسبما ورد في ابن واصل ، ستة وأربعون أسيراً وصلوا إلى القاهرة مرة واحدة في أوائل يولييه سنة ١٢٤٩ م ، وستة وتسعون أسيراً آخرون على ثلاث مرّات بسائر ذلك الشهر ، وخمسون أسيراً مرة واحدة في أغسطس . واحتوت الفئة الأولى من هذه الفئات من الأسرى على اثنين من طبقة الفرسان الصليبيين ، كما احتوت الفئة الأخيرة منها على ثلاثة من الخيالة ، وهم دون طبقة الفرسان^(١) .

وهال جوانفيل أن تبلغ الخسائر الصليبية هذا المنسوب الكبير ، دون حرب ، وأغفل ما هو معهود فيه من اتزان الرواية والنقل والتعبير ، وراح يذكر أن أعمال القناصة من المصريين والعربان لم تكن لاختطاف الجند

(١) انظر مايل بالملحق رقم ١ ، ص (٣٥٧ ب) .

وأخذهم أسرى ، بل لقتلهم وهم نيام ، وهو عمل لم يترفع المتحاربون عنه في تلك العصور الوسطى ، بل العصور الحديثة كذلك ، ولو كان من الحقيقة في شيء لردّته المراجع العربية المعاصرة ، برغم بشاعته . وهذا هو نص جوفانفيل : ” وجاء المسلمون كل ليلة من الليالي سيراً على الأقدام إلى المعسكر ، وذبحوا من الجند كل من وجدوه نائماً منهم : ولهذا حدث أنهم ذبحوا جندي النوبة (النوبتجي) الخاص بالسيد كورتنيه ، وتركوا جثته ممدّدة على خوان ، بعد أن قطعوا رأسه ، وأخذوها معهم . وعكفوا على فعل ذلك ، لأن السلطان أعطى عن كل رأس صليبي جائزة قدرها بيزانت من الذهب . وحلّت هذه المصيبة بنا ، لأن الدوريات التي تناوبت حراسة المعسكر في الليل كانت تقوم بالحراسة وهي راكبة ظهور الخيل . وكان المسلمون عندما يعتزمون التسلل إلى المعسكر ينتظرون حتى تبتعد عنهم حركة الخيل والدوريات ، ثم يدخلون إلى المعسكر في أعقاب ذلك ، ويخرجون منه قبيل الفجر . ولهذا السبب أمر الملك جميع الدوريات التي اعتادت الحراسة ، وهي راكبة ظهور الخيل ، أن تقوم بعملها وهي راجلة . وهكذا بات المعسكر كله آمناً بجنودنا المكلفين بالحراسة ، لأنهم صاروا من الترتيب بحيث أمسى الواحد منهم على مرأى ومسمع من جاره في الحراسة “ (١) .

ولم يكتف الملك لويس التاسع بهذا التدبير الوقائي ، لمنع القناصة المصريين والعربان من التسلل إلى المعسكر الصليبي في دمياط ، فعمد إلى ترميم ما عسى أن يوجد من ثغرات في الأسوار ، مع حفر خنادق حول أجزاء المعسكر ، وتعيين عدة وافرة من الرماة والرجالة ، للحراسة الليلية عند الأبواب والأبراج وحافات الخنادق . وهكذا غدا المعسكر الصليبي محترزاً عليه من الداخل والخارج ، ولم يعد للقناصة من المصريين والعربان سبيل إلى

(١) انظر . (Joinville : Op. Cit.p.97) .

الاقتراب منه ، أو العثور صدقة على أحد من جنده ، ولا سيما بعد أن أصدر الملك لويس لجميع الوحدات أمراً بمنع التجول ليلاً أو نهاراً خارج الأسوار ، وخصوصاً من ناحية البر .

ولهذه الأسباب تحولت عمليات القناصة إلى مواضع جديدة ، وأخذ المصريون والعربان يطرحون شباكههم في الجهات التي انتشرت فيها بعض الوحدات الصليبية الاحتياطية ، بين الشاطئ الغربى للنيل وبحيرة البرلس ، وجاءوا منها في أواسط سبتمبر بسبعة وثلاثين أسيراً ، بينهم أحد عشر من طبقة الفرسان : ثم لم تمض بضعة أيام على تلك الغنيمة الكبيرة ، حتى استولى المسلمون عند بلدة نستراوة الواقعة في الطرف الشرقى من بحيرة البرلس نفسها ، على سفينة من النوع المسمى بطسة ، مشحونة بالجنود ؛ ولا بد أنهم اقتادوا هذه السفينة إلى معسكر المنصورة عن طريق فرع سمود (سبنيتوس) وبحر المحلة ، لاستحالة دخولهم النيل وقتذاك من ناحية دمياط .

وفى تلك الأثناء هبت عواصف خريفية شديدة على منطقة دمياط كلها ، مدة ثلاثة أسابيع . وظلت الأحوال الجوية بدمياط سيئة تلك المدة الطويلة . وتحطمت بسبب ذلك أعداد من السفن الصليبية الكبيرة والصغيرة ، وهذه قدرها جوائفيل بمائتين وأربعين سفينة ، فضلاً عما تلف بتلك السفن من أزواد وأسلحة . غير أن الملك لويس التاسع تعوَّض عن تلك الخسائر الثقيلة بوصول أخيه ألفونسو كونت بواتيه إلى السواحل الدمياطية ، فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٢٤٩م ، الموافق ١٥ رجب سنة ٦٤٧ هـ ، بالنجيدات التي طال انتظار الملك لويس إليها من فرنسا . واعتقد الملك لويس وقتذاك أن انتهاء موسم الفيضان والمياه العالية ، منذ أواخر شهر سبتمبر السابق ، يجعل دلتا النيل وترعها وقنواتها وجسورها صالحة للزحف الصليبي جنوباً نحو القاهرة ، أى أن جميع العوامل التي أجّلت حركة الحملة جنوباً ، لمدة خمسة أشهر ، زالت كلها تمام الزوال . غير أن المعلومات الجغرافية الناقصة لم تخبر الملك لويس بأن هذه الترع

والقنوت والجسور تظل بعد ذلك مدة طويلة ، وهى قليلة الصلاحية للأغراض الحربية ، بسبب ما يتخلف عن الفيضان بها من تربة طينية رخوة ومستنقعات وبرك ذات مياه راكدة معظم الأحيان .

وأخيراً جمع الملك لويس التاسع مجلس الحرب لتقرير خطة الزحف ، فاقترح بطرس كونت بريتانى وبضعة من البارونات الأوربيين والمحليين الذين اشتركوا فعلاً فى حملة الملك حنا برين ، أن يكون المسير ، لاجنوباً نحو القاهرة ، بل غرباً نحو الإسكندرية ، اجتناباً لطريق حملة حنا برين ، وأملأً فى الاستيلاء على مدينة المصب الرئيسى الآخر للنيل ، إذ كان الاعتقاد الجغرافى وقتذاك أن فرع رشيد الحالى ينتهى عند الثغر الإسكندرى ، أى أن الدلتا مثلث قاعدته خط واصل بين دمياط والإسكندرية ، ورأسه عند القاهرة^(١) . وأيد البارونات المحليون كونت بريتانى فى هذا الاقتراح ، اعتماداً منهم على ما لديهم من سفن صغيرة تستطيع أن تساحل الشواطئ المصرية فى سهولة إلى الثغر الإسكندرى ، فضلاً من استطاعة تلك السفن الصغيرة أن تقلع من الإسكندرية بعد ذلك إلى القاهرة ، على حين تقلع كذلك سفن أخرى إلى القاهرة من دمياط .

ودلّ هذا الاقتراح - فيما دلّ - برغم إirاده فى المراجع المتداولة هنا دون تفسير أو تعليل حربى سليم ، على اختلاف عميق فى الرأى والاستراتيجية ، بين قادة حملة الملك لويس التاسع ، حول سلامة الخطة التى بدأت بالرسو عند دمياط ، للزحف منها جنوباً نحو القاهرة . ومن الواضح أن معظم أصحاب هذا الاقتراح كانوا من الذين شهدوا حملة الملك حنا برين ، وذاقوا مرارة الهزيمة مع جنودها ، وربما أيدهم فى اقتراحهم هذا جماعات البنادقة الذين وصلوا حديثاً إلى دمياط ، لأن شفيعهم القديس مرقص مدفون أصلاً بالإسكندرية ، وسوف يعتمدون على هذه العلاقة المقدسة ليحصلوا

(١) راجع (Joinville : Op. Cit. p. 105) .

لتجارتهم ومصالحهم مكانة خاصة بالشعر الإسكندري ، دون الجنوية أو غيرهم من الحالات الإيطالية التجارية المرافقة للحملة الصليبية . على أن موضع الأهمية هنا هو أن فئة من القادة الصليبيين ، في حملة الملك لويس التاسع ، اعتقدت أن طريق الزحف الصليبي من دمياط جنوباً نحو القاهرة محفوف بكثير من المخاطر المائية ، كما اعتقد الملك لويس التاسع من ناحيته أن هذا الطريق أصبح مأموناً مضموناً ، بعد انتهاء موسم الفيضان ؛ وسوف تدلّ الحوادث التالية على مبلغ ما في هذا الاعتقاد أو ذاك من الخطأ أو الصوب .

وكان الاقتراح بالتحول إلى الاسكندرية في نظر المؤيدين له من البارونات المحليين والأوربيين كفيلاً بانقلاب وسائل المقاومة المصرية الأيوبية رأساً على عقب ، ومؤدياً - ولا ريب - إلى إسراع السلطان الصالح أيوب إلى التسليم وطلب الصلح ، في غير قيد أو شرط . لكن كونت روبرت أرتوا أخا الملك ، وهو على ما قيل سابقاً صاحب فكرة استبدال الإسكندرية بدمياط ، عن طريق المفاوضة والمهادنة ، رفض الموافقة على اقتراح بطرس كونت بريتاني وأصحابه ، للتحول عن دمياط إلى الإسكندرية ، ومحاولة الاستيلاء عليها ، والزحف منها إلى القاهرة ، بل أصرّ على أهمية الزحف المباشر من دمياط إلى القاهرة ، وانضم إليه الملك لويس التاسع ، ولا سيما بعد أن تبين للملك أن الاتجاه نحو الإسكندرية سوف يحتم على حملته عملية إرسائية جديدة ، وسوف يتطلب محاولة - أو محاولات - للاستيلاء على الإسكندرية ، قبل التفكير في مشروع نهائي للزحف نحو القاهرة^(١) .

ولذا خرجت الحملة أخيراً من دمياط في يوم السبت العشرين من نوفمبر سنة ١٢٤٩ م ، الموافق ١٢ شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، ورافقتها عدة كبيرة من السفن ؛ وزحفت هذه وتلك كلها جنوباً في البر والنهر ، على طريق حملة

(١) انظر (Oman : Op. Cit. I. p. 342.) .

حنا برين : وفى دمياط نفسها بقيت حامية قوية ، ومعها الملكة مرجريت البروفنسالية ، وكذلك البطريق جاي الخامس ، وهو بطريق مدينة بيت المقدس ، إذ أقعدته شيخوخته المتقدمة فى عداد السنين عن الزحف مع الحملة .

وربما أعجلت قراراتُ هذا الزحف وفاةَ السلطان الصالح أيوب ، إذ لفظ أنفاسه الأخيرة بالقصر الكامل بالمنصورة ، يوم الاثنين ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م ، الموافق ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، أى بعد ثلاثة أيام من زحف حملة الملك لويس التاسع من دمياط جنوباً نحو القاهرة . وكان عمر السلطان الصالح أيوب يوم وفاته أربعاً وأربعين سنة ، وهو فى تقدير المؤرخ ابن تغردى بردى أعظم السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين ، وهذا التقدير العالى خلاصة صادقة لما ردّته جميع المراجع العربية ، المعاصرة والمتأخرة ، فى تقدير هذا السلطان العظيم (٢) .

وتوفى السلطان الصالح أيوب بعد أن عهد لولده المعظم تورانشاه بالسلطنة فى مصر ، مع بقاء الأمير حسام الدين بن أبى على الهذباني على وظيفة نيابة السلطنة بالقاهرة ، والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ على القيادة العامة بالمنصورة . ويبدو أن السلطان الصالح أيوب رتب ذلك كله مع زوجته شجر الدر ، وهو على فراش الموت ، بدليل أنه عقب وفاة السلطان مباشرة استدعت شجر الدر إليها الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وألطواشى جمال الدين محسن ، وكان من أقرب الناس إلى السلطان المتوفى ، ووظيفته النظر فى شئون القصر والحاشية ، وأعلمتهما دون سواهما بالوفاة ، وأوصتهما بكتمان الخبر عن جميع رجال الدولة والناس ، حتى يحضر تورانشاه أولاً من ولايته بحصن كيفا ، لاستلام مقاليد السلطنة ، فى غير جلبة أو اضطراب : وحرصاً على بقاء خبر الوفاة مكتوماً تمام

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٧ .

الكتان ، كلفت شجر الدر جماعة الأطباء الذين يمكن الاعتماد عليهم في حفظ هذا السر ، بالقيام بأنفسهم بتغسيل جثة السلطان . ثم أرسلت شجر الدر الجثة السلطانية ، بعد تحنيطها ، في تابوت على ظهر سفينة ليلاً إلى قلعة الروضة ، حيث بقيت الجثة محنطة مدة قبل دفنها بالقاهرة ، في هدوء تام .

واستغلت شجر الدر ما استقام لها هكذا فجأة من سلطات واسعة ، فأعلنت أن السلطان مريض لا يزوره أحد سوى أطباؤه ، بالقصر الكاملى ، بالمنصورة . وأحاطت شجر الدر الأمير حسام الدين بن أبى على ، نائب السلطنة بالقاهرة ، بهذا الإعلان بمرسوم ؛ واستخدمت لهذا الغرض وغيره من شئون الحكم أوراق مراسيم بيضاء ، قبل إن السلطان كتب عليها علامته - أى إمضاءه - قبل وفاته ، كما قيل إن خادماً اسمه صواب السهيلي كان يتقن كتابة العلامة السلطانية إتقاناً جاز على كثير من الذين وصلتهم هذه المراسيم ، ومنهم الأمير أبو على نفسه^(١) .

وبموجب هذه السلطات الواسعة استحضرت شجر الدر أمراء الجيش وزعماء المماليك إلى القصر السلطاني بالمنصورة ، وأعلنت فيهم كذلك خبر مرض السلطان ، ورغبته في تحليف الأمراء له ولابنه تورانشاه بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ بالقيادة العامة على الجيش المصرى الأيوبي كله ، مع اشتراك الأمير فخر الدين كذلك في تدبير أمور الحكم ؛ فأجاب جميع الحاضرين بالسمع والطاعة ، وحلفوا على ذلك ؛ ثم بعثت شجر الدر مرسوماً إلى القاهرة لشرح ما تم من تحليف أمراء الجيش وزعماء المماليك ، وقام الأمير حسام الدين بن أبى على الهذباني ، في يوم الاثنين ٢١ شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٩ نوفمبر ١٢٤٩ م ، بتحليف أكابر الدولة وأجنادها على ما وقع التحليف عليه بالمنصورة ، وأمر الخطباء بالدعاء من المنابر للأمير تورانشاه بعد أبيه ، على أن يبدأ ذلك في يوم الجمعة التالية .

(١) انظر الملحق رقم ١ ، ص ٣٦٢ ب .

ويبدو أن شجر الدر اختارت هذه المناسبة لتعيين الأمير أيك التركماني ، وهو أكبر ممالك السلطان الصالح مرتبة في فرقة الممالك البحرية الصالحية ، وأعظمهم حظوة عند شجر الدر نفسها ، للمشاركة كذلك في تدبير أمور الحكم ، كما عينت زعيماً مملوكياً ثانياً ، وهو فارس الدين أقطاي الجمدار ، للسفر في طلب الأمير تورانشاه من حصن كيفا^(١) . وترتب على هذه التعيينات الجديدة إسناد القيادة في فرقة الممالك الصالحية إلى ثالث أمرائها في الأقدمية ، وهو الأمير ركن الدين بيرس البندقداري ، على أن تكون إقامة هذه الفرقة داخل معسكر المنصورة ، حول القصر السلطاني ، كالمعتاد لهذه الفرقة المملوكية الكبيرة منذ نشأتها الأولى . أما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وهو صاحب القيادة العامة على الجيش المصري الأيوبي كله ، فاستقر الرأي على أن يظل معسكراً بالجيش الرئيسي عند جديلة ، خارج المنصورة ، على أن يدأب على إرسال فئات من الحيلة المصرية الأيوبية لإزعاج الصليبيين ، وتعويق طريق زحفهم جنوباً ، كلما سنحت الفرصة ، حتى ينجلي الموقف الداخلي على الأقل ، بوصول السلطان الجديد .

أما حملة الملك لويس التاسع ، فلم يكن لها مناص من التوقف أحياناً كثيرة عن السير جنوباً من دمياط ، بسبب أنواع العقبات المائية والطينية التي تخلفت عن مياه الفيضان في هذه المنطقة المعروفة حقاً بإسم جزيرة دمياط^(٢) ، وذلك فضلاً عن العمليات التعويقية التي قامت بها الحيلة المصرية الأيوبية خير قيام . ويكفي للبرهان على هذا وذاك أن الحملة استغرقت في زحفها من دمياط العصور الوسطى إلى فارسكور الحالية ثلاثة عشر يوماً ، وهي مسافة لا يمكن أن تزيد عن ثمانية وأربعين كيلومتراً ، أي أن الحملة لم تستطع أن تقطع في اليوم الواحد سوى أربعة كيلومترات . أو بعبارة أخرى يتضح

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول - طبعة بيروت ، ص ٤٥٣ .

(٢) انظر الخريطة رقم ٦ ، ص ١٠٥ .

أن طريق الحملة لم يكن مأموناً أو مضموناً ، كما اعتقد الملك لويس التاسع حين قرر اتباع هذا الطريق ، بل كان مخفوفاً بما هو أسوأ من المخاطر ، كما أنذرت فئة كونت بريتاني من الصليبيين الأوربيين والمحليين (١) .

والواقع أن هذه المنطقة تخللتها في تلك العصور قنوات وترع وجداول وغدائر ليس لمعظمها وجود في العصر الحاضر ، ولا سبيل لمعرفة على وجه التحقيق إلا عن طريق الحفائر العلمية والبحث الدقيق ، ومنها مثلاً على سبيل الترجيح قناة كانت تصل قديماً بين النيل وبحيرة المنزلة جنوبي دمياط القديمة ، أى بين المنية وغيظ السيالة الحالية تقريباً ، حيث تضيق المسافة بين النيل والبحيرة في الحرائط القديمة - والحديثة كذلك - إلى درجة تدعو إلى الالتفات . وهذه القناة التى يرجح أن تكون ترعة البيضاء الحالية ، هى التى وصفها جوفانفيل بأنها ليصق دمياط ، وذكرها بعد مسير حملة الملك لويس التاسع مباشرة نحو الجنوب . ثم اجتازت الحملة هذه العقبة الأولى ، بعد أن سدت مطلع هذه الترعة من النيل بجسر من الطين ، ولا بدّ أنها توقفت من أجل ذلك بضعة أيام حتى يجفّ الجسر الطيني ، ويصبح صالحاً لعبور حملة كبيرة بنحيلها ورجلها وسلاحها وموئنتها . وبعد هذه العملية الأولى تقدمت الحملة وسفنها في محاذاة النيل حتى وصلت إلى قرب فارسكور ، لكنها لم تدخل إلى فارسكور نفسها إلا يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، مع العلم بأنها لم تلق في طريقها كله أية مقاومة عسكرية ، ما عدا صعوبات الزحف الحربى في أرض شمال الدلتا ، وهى صعوبات لا بدّ منها حتى بعد انتهاء موسم فيضان النيل بمدة طويلة .

غير أن فرقة عدتها خمسمائة من الخيالة المصرية الأيوبية كانت تكمن بالمرصاد في معسكر صغير ، على مسافة قصيرة جنوبي فارسكور ، في انتظار وصول الصليبيين ، وهم في زحفهم الوثيد إلى تلك المدينة . ولذا لم يكد الصليبيون

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٢٥ ؛ وكذلك الخريطة رقم ٦ ، ص ١٠٥ ، لمتابعة سير حملة الملك لويس التاسع جنوباً نحو القاهرة .

يدخلون فارسكور - دون مقاومة - حتى أخذ قائد هذه الفرقة في ترتيب رجاله
لما وشهم وتعويبتهم عن الزحف جنوباً قدر الإمكان ، على حين أطلق حمام
الزاجل بأخبار هذا الزحف ؛ فوصلت هذه الأخبار إلى معسكر المنصورة
في بضع ساعات . وطير الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ هذه الأخبار
بدوره في اليوم التالي (الجمعة) إلى القاهرة ، ومعها رسالة حربية من
إنشاء الكاتب الشاعر بهاء الدين زهير ، وهي متهورة بتوقيع مفروض
أنه علامة السلطان الصالح أيوب ، مما يدل على أن خبر وفاته لم يزل
مكتوماً حتى وقتذاك عن معظم الناس . لكن هذه الرسالة لم تورد لها المراجع
إلا تلخيصاً فيه حضٌ للناس جميعاً على الجهاد ، ما عدا نص آية قرآنية افتتحت
بها هذه الرسالة ، وهي تشير إشارة واضحة إلى مدى ما خشيه القائد العام
من خطر الجيوش الصليبية ، إذ يخاطب بهذه الآية خاصة الناس
وعامتهم ، ويحثهم على بذل النفس والنفس في سبيل دفع الصليبيين عن
البلاد ، وهي بعد البسملة ” انفروا خفافاً وثقالاً ” ، وجاهدوا في سبيل الله
بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون “ (١) . وقرئت هذه
الرسالة على الناس في صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وغيره من الجوامع
والمساجد بالقاهرة ، وكان لها من الأثر أن أوضحت للسامعين ضرورة
المساعدة العاجلة بالأمداد والأموال والرجال ، للقوات الدفاعية الواقعة
بالمنصورة وضاحتها جديدة ، حتى تستطيع هذه القوات أن تظل على المقاومة
والثبات في مواضعها ضد الزحف الصليبي ، لأنه إذا ” اندفع العسكر الذين
بالمنصورة إلى ورائهم مرحلة واحدة ، مُلكت ديار مصر أجمعها في أسرع
الأوقات “ ، على قول ابن واصل نفسه (٢) .

(١) انظر مايل ، ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٤ ب ؛ وكذلك المقرئ : كتاب السلوك -

نشر زيادة - ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٢) انظر مايل ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٤ ب .

ولم يكن المؤرخ ابن واصل - في هذه العبارة - مبالغاً أو مذعوراً ،
أو داعياً إلى الذعر ، بل الواقع هو أن الملك لويس التاسع كشف منذ اقترابه
من فارسكور عن نية معقودة على الوصول إلى معسكر المنصورة في سرعة ،
وبأى ثمن ، أملاً منه في الزحف في سرعة مماثلة إلى القاهرة ، لإملاء شروطه
بقلعة صلاح الدين ، على أحسن ما يشتهي الصليبيون . ومصادق ذلك أولاً
بأول أن الملك لويس أفسح لفرقة الخمسمائة من الخيالة المصرية الأيوبية أن
تقوم بهجومها المرسوم على الصليبيين ، وهم في فارسكور ، إذ أخفى فرسانه
وجنوده في أطراف المدينة ، وبدا أغوى طلائع فرقة الخمسمائة بالدخول
إليها للاستطلاع ، حتى إذا توغلت الفرقة نفسها بعد ذلك في فارسكور ،
أمر الملك لويس بالإطباق عليها من كل ناحية ؛ ولذا لم تجد هذه الفرقة
سبيلاً للنجاة سوى الفرار قبل فوات الأوان . وكانت هذه الواقعة في يوم
الأربعاء مستهل رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٨ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ؛
واستشهد فيها الأمير العلّامى أمير مجلس ، وجماعة من الأجناد . وفي رواية
جوانفيل أن فرقة الخيالة المصرية الأيوبية هذه أيدت عن آخرها ، بين
قتيل وغريق ، وذلك بعد أن ركضت وراءها فئة من فرسان الداوية على
طول شاطئ النيل إلى مسافة بعيدة ، برغم الأوامر الملكية المشددة بعدم
الذهاب بعيداً عن مواقع الجيش الصليبي ، منعاً للخسائر في الأرواح .

والراجع أن الملك لويس التاسع علم وقتذاك فقط بوفاة السلطان الصالح
أيوب ، من طريق استجواب أحد الأسرى أو الجرحى الذين لم تذكرهم
المراجع في أنباء معركة الخمسمائة . ومن الدليل على ذلك أن الملك لويس
قرّر في خطاب منه إلى القائمين بشئون الحكم في فرنسا في غيبته ، أنه تلقى
خبر الوفاة وهو في طريقه إلى المنصورة ، لا قبل رحيله من دمياط ، كما
تواتر في المراجع العربية . ثم إن خبر الوفاة في ذاته ظل مكتوماً عن الناس
في كل مكان بمصر والشام ، حتى يوم وصول الحملة إلى فارسكور ، على

الأقل ، كما يتضح من تاريخ رسالة الأمير فخر الدين إلى أهل القاهرة ، ومن توقيعها بعلامة السلطان التي جرى التوقيع بها على الأوراق الرسمية منذ وفاته^(١) . ويؤيد هذا الترجيح كذلك أن نشاطاً ملحوظاً اعترى حركة الحملة الصليبية بعد معركة الخمسمائة في فارسكور ، أو بعبارة أخرى أن خبر الوفاة أحفز الحملة إلى سير سريع ، بالقياس إلى سيرها التؤدة الحاذر السابق .

ولهذا لم يلبث الملك لويس التاسع أن وصل إلى شارمساح ، وهى على مسافة عشرين كيلو متراً تقريباً جنوبى فارسكور ، ثم سار الملك لويس من شارمساح إلى البرمون ، وهى على مسافة عشرة كيلو مترات تقريباً جنوبى شارمساح ؛ وكان نزوله على البرمون يوم الثلاثاء ١٤ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، الموافق ٧ رمضان سنة ٦٤٧ هـ .

وحدث ذلك كله دون أن تخبر المراجع العربية بشيء عن المقاومة المصرية الأيوبية التى اصطدمت بها حماة الملك لويس التاسع في فارسكور ، مما يدل على أن معركة الخمسمائة ربما كانت فى نتائجها كما وصفها جوانفيل ، وأن الأمير فخر الدين قرر الانتظار حتى يزيل آثار هذه المعركة من الأذهان ، ليستبك مع الصليبيين فيما بعد ، فى معركة كبيرة فاصلة . وكيفما كان الأمر ، فالواضح أنه باستيلاء الملك لويس التاسع على البرمون لم يبق بين الصليبيين والمعسكر المصرى الأيوبي فى المنصورة ، وفى ضاحيتها جديدة ، سوى مرحلة نهائية واحدة ، وترعة كذلك واحدة ، إلا إذا قرّر الملك لويس ومشروه أن يحاولوا الوصول بمحلتهم إلى مشارف معسكر المنصورة ، مباشرة عن طريق النيل . ولا عجب إذن أن اضطرب الناس فى أنحاء الدلتا والقاهرة ، وأنهم زلزلوا زلزالاً شديداً ، على قول المقرئى^(٢) .

(١) انظر الصفحة السابقة .

(٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار - بولاق - ج ١ ، ص ٢٢١ .

أما هذه المرحلة النهائية الواحدة ، ومسافتها عشرة كيلومترات أخرى ؛ تقريباً ، فاجتازتها حملة الملك لويس التاسع دون أن تلقى أية مقاومة ، ولم تلبث الحملة أن وصلت إلى نهاية هذه المرحلة قبالة معسكر جديدة ، أى قبالة الجانب الشرقى من مدينة المنصورة ومعسكرها ، وذلك يوم الثلاثاء ١٤ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م . وأما التربة الواحدة فهى البحر الصغير ، ولم يكن من عبوره بدت ، للوصول إلى المنصورة وجديدة ؛ واسم هذه التربة فى المراجع العربية المعاصرة للحملة بحر أشموم طنّاح ، وفى جوائيز قناة دراكسا ، نسبة إلى بلدة الدراكسة شمالى ذكرنس الحالية .

وحددت المراجع كلها مكان المعسكر الذى دقّ الصليبيون أوتادهم أخيراً فى أرضه ، بأنه قبالة المعسكر المصرى الأيوبي ، عند طرف جزيرة دميّاط ، أى شمالى المنصورة وجديدة تماماً ، على مسافة كيلومترين تقريباً من مطلع بحر أشموم طنّاح من النيل . وكان اسم جزيرة دميّاط يطلق وقتذاك على جميع الأراضى الممتدة من بحر أشموم طنّاح شمالاً إلى البحر الأبيض المتوسط ، كما كان اسم قناة دراكسا — أو قناة تانيس كذلك — يطلق عند الصليبيين على الأقل ، على بحر أشموم طنّاح . وبإزاء المعسكر الصليبي شمالى بحر أشموم طنّاح ألقت أنواع السفن الصليبية مراسيها فى النيل ، وهى أنواع كثيرة من شوانٍ وطرائد وشلنديات وبطس ، وعلى مسافة منها فى النيل كذلك ، بإزاء المنصورة نفسها ، وقفت أنواع مماثلة من السفن المصرية الأيوبية بالمرصاد . ومعنى ذلك أن قوات الجانبين تراءتا بعضهما إلى بعض فى البر والنهر ، ولم يكن يفصل بينهما سوى الماء فى الحالين^(١) .

(١) انظر الخريطة رقم ٦ ، ص ١٠٥ .

ومن الواضح أن هذا الموقف المتحدى تطلب وقعة حاسمة ، وهذه لا تستطيع أن تحدث إلا بعد عبور الصليبيين من الجانب الشمالى لبحر أشموم طناح ، حيث معسكرهم ، إلى الجانب الجنوبي الذى فيه معسكر المنصورة ، أو العكس ، ليلتحم الفريقان بعد ذلك بقواتهما البرية الرئيسية من الخيالة والمشاة ، فضلاً عن قواتهما النهرية فى عرض النيل . وأدرك الملك لويس التاسع أن هذا العبور لا يمكن أن يتم بإنشاء جسر عائم من السفن الصغيرة ، ليعبر عليها الصليبيون من جانبهم إلى الجانب الآخر من بحر أشموم ، بل يحتاج إلى سدّ بحر أشموم طناح بجسر ثابت من الطين والخشب ، تبنيه مشاة الحملة الصليبية وعمالها على غرار ما حدث أثناء الزحف الصليبي الجنوبي دمياط مباشرة ، لكن على مقياس أكبر وأضخم ، نظراً لسعة بحر أشموم طناح ، وشدة انحدار جوانبه ، وعمق مياهه ، وقرب موضع الجسر الطيني الخشبي المطلوب من تيار مجرى النيل . ثم رأى الملك لويس التاسع أن هذه العملية البنائية تحتاج إلى معدات ابتدائية مختلفة ، لحماية العمال والمهندسين والمشاة . مما سوف ينهال عليهم من القذائف الحربية من المعسكر المصرى الأيوبي بالمنصورة . ولذا أمر الملك لويس بإنشاء سقيفتين يستطيع المشاة من الجند وعمال الجسر أن يعملوا تحت حمايتهما وهم آمنون ، مع إقامة برجين خشبيين متحركين لحماية السقيفتين ، وثمانية عشر منجنيقا على جانبي البرجين الخشبيين ، للرمى منهما على المعسكر المصرى الأيوبي .

واستغرقت هذه المعدات الابتدائية مدة طويلة ، تخللها أيام من المناوشة والترشق بالسهم والحجارة ، فضلاً عن كرات النقوط التى انفردت بها فرقة النفاطين فى الجيش المصرى الأيوبي . ففى نفس اليوم الذى وصلت فيه الحملة الصليبية قبالة المنصورة وجديلة ، أى يوم الثلاثاء ١٤ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، عبرت فرقة استطلاعية صغيرة من الخيالة المصرية الأيوبية بحر أشموم طناح ، وذلك حسبما ورد فى المخطوطة

الروتلانية ، وهي إحدى المراجع الأوربية الرئيسية المعاصرة . وبغيت هذه الفرقة الاستطلاحية جنود الصليبيين في معسكرهم قبل أن يزيلوا عن أنفسهم تراب السفر ، وعادت من حيث أتت ، بعد أن فقدت من رجالها عدداً طارده الصليبيون المذعورون من أطراف المعسكر الصليبي إلى شاطئ النيل ، حيث مات أولئك الرجال غرقاً في الماء^(١) . وربما كان ذلك الحادث هو السبب الذي أدى إلى سرعة مجيء فئة من الفرسان الصليبيين عددهم ستة إلى المعسكر المصرى الأيوبي ، حيث أخبروا بسوء حال الحملة الصليبية وضائقها ، بعد رحلتها الطويلة من دمياط ، وطلبوا شيئاً من هدنة مؤقتة ، على حين كان غرضهم الحقيقي كشف أخبار وفاة السلطان الصالح أيوب ، ومعرفة بعض أحوال المعسكر المصرى الأيوبي بالمنصورة .

ثم إنه بالإضافة إلى المعدات البنائية اللازمة للشروع في بناء الجسر المطلوب ، قام الصليبيون كذلك بحفر خندق وبناء سور على طول الجانب الشمالى البرى من معسكرهم ، كأنما كانوا يستعدون لحرب شتائية طويلة . غير أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ لم يمهلهم طويلاً ، إذ أنفذ من خياله مربة كبيرة عبرت بحر أشموم طناح بعد أربعة أيام من عودة سريته الأولى ، أى يوم السبت ١٨ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٥ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، وهو يوم عيد الميلاد ، والصليبيون لاشك مشغولون بالعيد وصلواته وولائمه التقليدية . وكان المؤرخ جوائفل مدعواً ذلك اليوم مع فرسانه لتناول طعام العيد ، في خيمة أحد القادة الصليبيين المجاورين له ، واسمه بطرس فالون . وبينما كان المدعوون جالسين حول مائدة الطعام طرقت آذانهم ضربات حوافر خيل راكضة ، مختلطة باستغاثات

(١) انظر (Rothlin Ms. in R.H. OCC. II. P. 598) ، وكذلك (Grousset : Op.

cit. III. p. 453) ، حيث يوردهذا المؤلف عبارات من متن المخطوطة الروتلانية بالفرنسية

القديمة ، موضحة بمرادفات فرنسية حديثة ، تسهلاً للقارئ الحديث .

جند من الصليبيين الذين وقعوا صرعى تحت سيوف فرقة هاجمة من الخيالة المصرية الأيوبية ، وهى فى طريقها إلى داخل المعسكر الصليبي . وأسرع جوائفيل وفرسانه إلى خيامهم ، ليلبسوا ملابس الحرب ، وعادوا إلى خيمة مضيفهم ، فوجدوا أنه خرج صحبة أخيه لافال ، لدفع المهاجمين من الخيالة المصرية الأيوبية إلى خارج المعسكر ، فركبوا فى أثرهما حتى عثروا عليهما فى حال سيئة من الإغماء ، بعد أن أنزلهما الفرسان المصريون الأيوبيون عن خيلهما ، وأخرقوا بهما أشد إخراق ؛ وهكذا أنقذ جوائفيل هذين السيدين من الهلاك^(١) .

ومنعا لتكرار هذا الحادث أمر الملك لويس التاسع بالإسراع فى إتمام حفر الخندق وبناء السور اللذين بدأ العمال والجند فى العمل فيهما ، بالإضافة إلى بناء الجسر المطلوب . ولذا لم يلبث المعسكر الصليبي أن بدا ، بعد إتمام عمليات حفر الخندق وبناء السور ، كأنه جزيرة حصينة مسورة يحيط بها الماء من جميع الجهات . وتطورت الحرب بعد ذلك إلى مناوشات قام بمعظمها الجند النظاميون من الجيش المصرى الأيوبي ، فضلا عن أعداد من غير النظاميين الذين تسميهم المراجع العربية باسم الحرافشة والعامه . ودأبت هذه المناوشات على الهجوم الفجأة فى البر والنهر ، عن طريق الممرات والمخاضات السرية التى عرفتها القيادة المصرية الأيوبية تمام المعرفة ، وجهلها الصليبيون تمام الجهل . وعادت جنود المناوشة الأولى من هذه المناوشات بأحد الكونتات الفرنسيين أسيراً إلى معسكر المنصورة ، يوم الجمعة أول شوال سنة ٦٤٧ هـ ، أى يوم عيد الفطر الموافق ٧ يناير سنة ١٢٥٠ م . ووصفت المراجع العربية هذا الكونت الأسير بأنه ” كبير من

(١) هذه التفصيلات منقولة نقلاً حرفياً تقريباً من (Joinville : Op. cit p.109) ،

وذلك لبيان دقة جوائفيل فى وصف حوادث حملة الملك لويس التاسع ، كبيرها وصغيرها ، ولا سيما ما كان منها خاصاً بأعماله الشخصية ، فى مختلف مراحل هذه الحملة .

أقارب الملك ريدا فرانس^(١) ، دون أن تدلّ على شخصه بأكثر من ذلك . ولعل هذا الكونت هو الذى أخبر القابضين عليه من الجنود المصرية الأيوبية عمداً بقرابته - أو أخوته - إلى الملك لويس التاسع ، على قاعدة أن الصليبيين جميعاً إخوة ، وأن الملوك وأقرباءهم يكونون عادة موضع شيء من الرعاية ، ولا سيما فى حروب العصور الوسطى . حيث جرى العرف فى الشرق والغرب ، بأن يدفع أبناء طبقات النبلاء فدية مالية ، بدلاً من القتل .

وبعد ذلك بسبعة أيام ، أى فى يوم الخميس ٧ شوال سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١٢ يناير سنة ١٢٥٠ م ، استولت البحرية المصرية الأيوبية على سفينة من النوع المعروف باسم شينى ، وبها نحو مائتى رجل من الصليبيين ، على رأسهم كذلك كونت كبير . غير أن المراجع لم تذكر كذلك اسم هذا الكونت الكبير ، ولو كان هو أو زميله الذى سبقه إلى الأسر ممن يهتم له جوائزيل ، لجاء اسم كل منهما فى تاريخه ، فى مناسبة أو أخرى .

على أن الذى استرعى انتباه المعاصرين ، وامتلاّت به المراجع العربية من أخبار هذه المناوشات ، هو مختلف أعمال البطولة الفردية التى قام بها الحرافيش والعامة ، على قول المراجع العربية المعاصرة ، إذ كانوا يلقون بأنفسهم فى الماء زرافاتٍ ووحداً ، ويمرّون إلى الجانب الذى فيه الصليبيون ، ويتحيلون فى اختطافهم بكل حيلة ، فيقتلون ويأسرون ما استطاعوا إلى هذا أو ذاك سيلاً ، ويرجعون إلى قواعدهم سالمين غانمين ، فى معظم الأحيان ؛ ومن هذه الأعمال الفردية ما رواه ابن واصل ، نقلاً عن شاهد عيان ،

(١) انظر المقرئى : كتاب السلوك - نشر زيادة - ج ١ ، ص ٣٤٨ ، حاشية ١ ،

حيث رجح كاتب هذه السطور ، وهو يعمل فى نشر الجزء الأول من كتاب السلوك ، أن يكون كونت آنجو أخو الملك لويس هو الأسير المقصود فى تلك الحادثة ، وهو ترجيح خطأ ينتهز المؤلف تصحيحه هنا ، لأن هذا الكونت لم يقع فى الأسر إلا بعد مدة طويلة من تلك الحادثة .

وهو أن شخصاً قور بطيخة خضراء ، وأدخل فيها رأسه . ثم سبح في الماء حتى اقترب من الشاطئ الذى فيه المعسكر الصليبي ، ليوهم الواقفين من الصليبيين بأن بطيخة مليحة تسبح في الماء ، فلم يكذ أحدهم يصل إلى وسط الماء ليتناولها ، أملأ في أكلها والاستمتاع بحلاوتها المائية ، حتى اختطفه ذلك الشخص وأسره ، وسبح به بعيداً عن مرمى السهام ، واقتاده أخيراً إلى معسكر المنصورة ، ليأخذ المكافأة المالية عنه كالمعتاد . وهذه الرواية لا شك طريفة ، وهى تدلّ دلالة واضحة على وجود روح معنوية جريئة عالية وقتذاك ، بين جميع أصناف الناس ، من أهل المنصورة وغيرهم من الملحقين بالقوات المصرية الأيوبية^(١) .

ثم بعد ذلك بسبعة أيام أخرى ، أى يوم الخميس ١٤ شوال سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٠ يناير سنة ١٢٥٠ م ، هجمت فرقة كبيرة من الجيش المصرى الأيوبي على طول الناحية الشمالية البرية من المعسكر الصليبي ، وهى ناحية المؤخرة التى حصنها الملك لويس التاسع أتم تحصين بخندق وسور . وكان الملك لويس على معرفة سابقة بهذا الهجوم المصرى الأيوبي ، ومقياسه وميعاده ، إذ نقل إليه جواسيسه أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أقسم يمينا بأنه سوف يقتحم الصفوف الصليبية من حيث لا تحتسب ، وأنه سوف يولم وليمة الظفر فى خيمة الملك الفرنسى نفسه . ولذا وزع الملك لويس ، قبيل وقوع هذا الهجوم ، قواته بين نواحي المعسكر توزيعاً دقيقاً ، وهى ثلاثة نواح . وأسند القيادة فى كل منها إلى واحد من إخوته ، فجعل روبرت كونت أرتوا على ناحية بحر أشموم طنّاح ، حيث تكدست المعدات الهندسية الابتدائية لبناء الجسر ، وجعل شارل كونت آنجو على الناحية الوسطى ، حيث وقف الملك كذلك بالجيش الرئيسى ، كما جعل

(١) انظر ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٥ ب ، وغيره من المراجع العربية ، حيث تتردد

هذه القصة فى نغمة من الإعجاب .

ألفونسو كونت بواتيه ، ومعه سائر الجيش من الإنجليز والشمبانين والبرجنديين والبريتانيين ، على ناحية فرع دمياط من النيل .

ووقع الهجوم المصرى الأيوبي على الناحية الوسطى من المعسكر الصليبي ، وهى الناحية التى تركزت عندها معظم القوات الصليبية ، فاستطاع قائدها كونت آنجو أن يرد ذلك الهجوم ردًا عنيفاً ، مما أدى إلى كثير من الخسائر فى الجانبين ، مع العلم بأن كونت آنجو كاد يقع أسيراً فى أثناء ذلك الهجوم^(١) . ثم حوّل الجنود المصريون الأيوبيون هجومهم إلى ناحية فرع دمياط من المعسكر الصليبي ، حيث لقيتهم قوات ألفونسو كونت بواتيه ، وصدمتهم صدمة ثانية أسفرت عن خسائر متبادلة أخرى بين الطرفين .

وطبعي أن تختلف المراجع العربية والأجنبية هنا فى تقدير هذه الواقعة وخسائرها ، فيقول جوفانفيل مثلاً - وكان مكانه أثناء القتال فى ناحية فرع دمياط مع كونت بواتيه - إن الهجوم الأول على الناحية البرية الوسطى من المعسكر الصليبي كلف الجيش المصرى الأيوبي عدداً كبيراً من الغرقى ، فى الخندق المحيط بالمعسكر من ناحية الشمال ، وأن الهجوم الثانى عند ناحية فرع دمياط تمخض عن عدد كبير كذلك من القتلى المصريين الأيوبيين . وكل هذا وذاك معقول ، وله نصيب من الصحة فى تقدير جوفانفيل . وشبه به ، من حيث معقوليته وصحته نسبياً ، قول ابن واصل - من ناحيته المصرية الأيوبية - أن عدد قتلى الصليبيين بلغ فى هذه الواقعة أربعين فارساً ، وأن سبعة وستين من الأسرى الصليبيين ، بينهم ثلاثة من طائفة الفرسان الداوية ، وصلوا إلى القاهرة فى اليوم التالى لهذه الواقعة^(٢) ، كما جرت العادة بشأن جميع الأسرى السابقين .

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٢٧ .

(٢) انظر (Joinville : Op. Cit. pp. 109-110) ، وكذلك الملحق رقم ١ ، ص

١٣٩٦ ، فى آخر الكتاب ، لمعرفة ملاحظات ابن واصل فى هذا الصدد .

وفي تلك الأثناء تمت المعدات التمهيدية اللازمة للشروع في بناء الجسر الصليبي المطلوب ، عبر بحر أشموم طناح ، بل بدأ العمل في ذلك الجسر فعلاً منذ أوائل شهر يناير من السنة الميلادية ، أي سنة ١٢٥٠ م . وانصرفت عزمات الملك لويس التاسع إلى ذلك العمل الضخم ، واستولت حماسة شديدة على جميع القادة والفرسان الصليبيين ، حتى بدا كأن الحملة الصليبية كلها مشتركة في إنجاز ذلك العمل الهام ، في أسرع وقت . غير أن طبيعة بحر أشموم طناح تعاونت - فيما يظهر - مع القيادة المصرية الأيوبية على إفساد مراحل ذلك العمل ، مرة بعد مرة ؛ فكلما أنجز المهندسون والعمال الصليبيون سداً جزءاً من مجرى بحر أشموم ، اشتد التيار في الجزء الباقي من المجرى ، واستعصى على أية إضافة جديدة ، على حين عكف المهندسون والعمال المصريون على حفر خنادق لتوسيع مجرى الماء في ناحيتهم ، بقدر ما ضاق نتيجة لبناء الجسر في ناحية الصليبيين . وهكذا ذهبت جهود الملك لويس التاسع ومهندسوه وجنوده وعماله سدى ، وهدم المهندسون والعمال المصريون ، في يوم أو يومين ، ما بذله الصليبيون من عمل متصل مدة ثلاثة أسابيع ، على تقدير جوارفيل نفسه .

ودلّ مشروع بناء الجسر كذلك على قلة بصيرة حربية لدى الملك لويس التاسع ، إذ أدى تركيز أعداد كبيرة من الصليبيين ، في بقعة واحدة ، إلى تمكين القذائف المصرية الأيوبية من التصويب نحو هذه الأعداد المركزة تصويماً ثابتاً ، يوماً بعد يوم ، من موضع واحد ، دون حاجة الرماة المصريين الأيوبيين إلى تغييره أو تعديله . ثم إن المجانيق المصرية الأيوبيّة ، وهي التي نصبها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ في جديدة ، على الضفة الجنوبية لبحر أشموم طناح ، وعدتها ستة عشر ، كانت أمناً صنعاً وأدق رماً من مثيلاتها من المجانيق الصليبية على الضفة الأخرى ، بدليل قول جوارفيل إنه لم يَرَ ولم يسمع بأن قذائف

الصلبيين أحدثت شيئاً مذكوراً في المعسكر المصري الأيوبي بالمنصورة وجديلة ،
على حين أحدثت القذائف المصرية الأيوبية في معسكر الصليبيين ألواناً من
الخسائر ، في الأرواح البشرية والعتاد الحربي .

ويرجع بعض السرّ في هذا التفوق المصري الأيوبي إلى قذائف النار الإغريقية ،
وهي كرات النفط التي شهد جوانفيل سقوط واحدة منها ذات ليلة على الصليبيين ،
وهو قائم بدوره مع القائمين على الحراسة حول البرجين الخشبيين المتحركين .
ووصف جوانفيل هذه القذيفة النارية الإغريقية بأنها أشبهت برميلاً مشتعلًا
من حامض النبيذ ، في ذيله عود من نار طول عود المزراق العظيم الاشتعال ،
وأحدثت هذه القذيفة بالذات دويّاً هائلاً مثل دوى الرعد ، وتراءت
كأنها تنين طائر في الفضاء ، وأضاءت جوانب المعسكر الصليبي حتى غدا
الليل فيه كالنهار . وتكرّر الرمي بهذا الصنف من القذائف النارية المهلكة
ثلاث مرات تلك الليلة ، فضلاً عن أربع قذائف نارية من صنف آخر ،
واعتمد رئيس الحرسية الصليبية وقتذاك ، واسمه إيكورى ، أن لا عاصم
من هذه القذائف المصرية الأيوبية النارية سوى الصلاة ، وقال للحاضرين :
” أيها السادة ! إذا نحن أقمنا في مواضعنا ، فلا مفرّ لنا من الهلاك والموت في
النار ، وإذا نحن تحوّلنا عن مواضعنا هذه ، وهي التي تكفلنا بحراستها ، فلا
مناص لنا من العار . وعلى هذا ، فليس في استطاعة أحد أن ينتقنا من هذا
البلاء سوى الربّ ، وأنصحكم ، وأشير عليكم ، بأنه كلما صوّب العدو
إلينا هذه النار ، أن نخرّ ساجدين مبتهلين إلى الربّ ، لينقذنا من هذا البلاء “ ؛
وعمل الحرسية بهذه النصيحة ، وكان الملك لويس التاسع نفسه في خيمته
أشدّ جزعاً من أولئك الحرسية في مواضع حراستهم ، وأعظم ابتهالاً منهم
إلى الربّ من شرّ هذه القذائف الليلية ، فإذا سمع بإلقائها نهض من
فراشه ، وجثا راکعاً على ركبتيه ، رافعاً يديه إلى السماء ، وقال وعيناه
تبكيان : ” أيها الربّ ، احفظ لي رعيتي “ (١) .

(١) انظر (Joinville : Op. cit. PP. 112—113) .

على أن هذه القذائف النارية التي فتكت بالأهداف الصليبية فتكاً ذريعاً ، أحدثت فيما أحدث لا رعباً في النفوس وخسارة في الأرواح فحسب ، بل كثيراً ما أحرقت الأخشاب المستعملة في بناء أجزاء الجسر الصليبي المطلوب ، وأضافت بذلك إلى عوامل استحالة المضي في ذلك المشروع . وتشجع الرماة والنفاطون في المعسكر المصري الأيوبي بما أحرزته قذائفهم الليلية من نتائج ، وعزموا ذات يوم على القيام بالرمي في وضع النهار ، لارغبة في تعطيل العمل في بناء الجسر كالمعتاد ، بل لإحكام الرمي أملاً في إشعال النار في البرجين الخشبيين والسقيفتين الحاميتين للعمال والمهندسين في وقت واحد . وجاء الرماة والنفاطون المصريون الأيوبيون بالمنجنيق الأكبر - واسمه الغول - قبالة هذه المعدات الصليبية المتنوعة ، ورموا بقذائفهم عليها ، وألحوا في الرمي حتى اشتعلت فيها النيران اشتعالاً شديداً ، واحترقت كلها عن آخرها ، دون أن يجروا أحد من الصليبيين على الاقتراب من النار لإخماد اللهب ، أو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك المعدات الصليبية الكثيرة ، وهي تحترق واحدة بعد أخرى .

وشهد الملك لويس التاسع آثار هذه الكارثة الفادحة ، وبرفقته أخوه شارل كونت آنجو الذي كان مكلفاً بالحراسة النهارية ذلك اليوم العصيب على الصليبيين ، وقرر معه ضرورة بناء معدات جديدة ، لاستئناف العمل سريعاً في تشييد الجسر الصليبي المطلوب . ولذا دعا الملك لويس التاسع بارونات الصليبيين وقادتهم ، وحصل منهم على كميات كبيرة من أخشاب المراكب التي جاءت بهم من دمياط ، واستطاع المهندسون والعمال الصليبيون أن يستخدموا هذه الأخشاب في تجديد البرجين والسقيفتين . وبلغت قيمة ما حصل عليه الملك لويس لهذا الغرض من هذه الأخشاب خمسة آلاف قطعة ذهبية ، وفي ذلك دلالة على مدى ما احتاج الملك إلى تعويضه من خسائر الحريق السابق .

غير أنه لم يكد المهندسون والعمال الصليبيون ينتهون من إقامة المعدات الجديدة في مواضعها ، ويبدأون في استئناف العمل من جديد في تشييد الجسر ، حتى أخذ الرماة والنفاطون المصريون الأيوبيون يصوبون مجانيقهم الستة عشر على الأهداف الصليبية مرة أخرى ، كما صوبوا منجنيقهم الأكبر على المعدات الجديدة نفسها ، ولم يلبثوا أن أشعلوا النار فيها جميعاً ، كما فعلوا أول مرة . وحدث ذلك الحريق الثاني في يوم الخميس ٢١ شوال سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٧ يناير سنة ١٢٥٠ م ، وسجله ابن واصل في عبارة قصيرة واضحة المعنى والمغزى ، شأنه في ذلك شأن كثير من أخباره الدالة على أنه استمدّها من بطاقات رسمية ، وهذا هو نص هذه العبارة ، ” وفي يوم الخميس ثمان بقين من شوال أحرقت للفرنج مرمّة عظيمة في البحر ، واستظهر عليهم المسلمون استظهاراً بيناً “ (١) .

واستدعى الملك لويس التاسع إليه بارونات الجيش وقادته مرة ثانية ، وعقد مجلساً حربياً لبحث ما ينبغي اتخاذه من خطة جديدة ، بعد أن اتضحت استحالة تشييد جسر للعبور إلى معسكر المنصورة وجديلة ، ما دام الجيش المصري الأيوبي قادراً على توسيع مجرى بحر أشموم طناح من الناحية الجنوبية ، بقدر تضيقه من ناحية الصليبيين ، وما دامت القذائف المصرية الأيوبية مستعدة لأن تُصلى المعدات الصليبية ناراَ حامية فاتكة . وبينما المناقشة تجري على هذا المستوى السلبي الحائر ، أخبر الكندصطبل الملكي ، واسمه إيمير بوجيه ، أن ” بدوياً “ جاء إلى خيمته ، وعرض عليه أن يدل الصليبيين على مخاضة تستطيع خيالتهم العبور منها إلى معسكر المنصورة وجديلة ، مقابل مبلغ خمسمائة دينار ذهبية بيزنطية ، على أن يُدفع إليه هذا المبلغ فوراً . ووافق الملك لويس التاسع على دفع هذا المبلغ ، على شرط أن يدلّه الدليل أولاً

(١) انظر ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٦ بآخر الكتاب .

على موضع المخاضة ، للتحقق من صلاحيتها للعبور الحربى : ورأى الملك لويس موضع المخاضة عند قرية سلمون ، وهى على مسافة ستة كيلو مترات تقريباً من مدينة المنصورة الحالية ، ولاحظ أن المخاضة نفسها قليلة انحدار الجانبين ، كما علم أنها قليلة العمق ، بالقياس إلى ما رأى الملك بنفسه من أجزاء هذا المجرى . لكنه رأى كذلك أن المخاضة لا تصلح إلا لعبور الخيالة وهى راكبة ظهور الخيل ، وأن المشاة لن تستطيع أن تعبرها على أية حال . ومع هذا قبل الملك لويس التاسع عبور مخاضة سلمون ، واقترح دفع المبلغ المطلوب بعد عبور الصليبيين إلى الجانب الآخر من بحر أشموم طناح . غير أن الدليل أصر على استلام المبلغ أولاً وقبل كل شئ ، وتم التعاقد الحائن على هذه القاعدة^(١) . وامتلاً المعسكر الصليبي لبضعة أيام منذ أوائل شهر فبراير بحركة استعدادية غير عادية ، دون أن تستطيع قيادة الجيش المصرى الأيوبي أن

(١) تختلف المراجع المعاصرة فيما بينها بصدد الشخص الذى دل الصليبيين على مخاضة سلمون ، ففى ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣٦٦ (١) أن بعض المسلمين دل على مخاضة سلمون ، وفى العيى (عقد الجمان ، ص ٢٠٨ ، فى Rec. Hist. Or. II.) أن الفرنج خاضوا من مخاضة فى بحر أشموم ، يقال لها مخاضة سلمون ، دلم عليها قوم من سلمون ليسوا بمسلمين . وفى (Joinville : Op. Cit. p. 119) أن بدويا عرض أن يدل الفرنج على مخاضة ، فى مقابل خمسمائة قطعة ذهبية من نقودهم . ولا معنى لترجيح رواية على أخرى من هذه الروايات المختلفة ، من أجل مسألة فردية أسيفة ، وهى غير أكيدة النسبة إلى شخص معين ، وترجع على أية حال إلى العصور الوسطى . فلو كان هذا الدليل قبطياً مسيحياً ، على وجه التحقيق ، لما اكتفت المراجع العربية الإسلامية التى رجعت ذلك ، بأن تقول إنه كان من غير المسلمين فحسب ، ولما ترددت فى التفصيل والتشريح والتقرير ، شأن المؤرخين جميعاً فى النواحي الماسة بالدين فى العصور الوسطى . ثم إنه لو كان هذا الدليل بدوياً مسلماً ، لما قنعت المراجع الأجنبية التى نشرت هذا الخبر فى أوروبا بذكر صفته البدوية فقط ، ولما ترددت فى القول بأنه كان مسلماً ساعد الصليبيين على المسلمين . انظر كذلك (Oman : Op. Cit. I. 345.N.1) . والخلاصة أن هذا الدليل - كائناً من كان - لم يختلف عن أشباهه من ضعاف النفوس الذين تخلقهم المياه العكرة فى مختلف عصور التاريخ ، ثم إن التاريخ نفسه ليس من وظيفته إثارة أحقاد قديمة ، وهو لا ينبغي أن يكون كذلك ، لأنه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الفضيلة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر العنيفة ، والمناداة بقول الحق الذى لا شك فيه ، والتزام واجبات المواطنة الطيبة .

تعرف شيئاً مما وراء هذه الحركة من أهداف واسعة بعيدة المدى ، بدليل انعدام أى نشاط مشابه بين القوات المصرية الأيوبية فى معسكر المنصورة ، أو معسكر جديدة ، ما عدا توزيع المحارس عند الطرف الشرقى من معسكر جديدة ، وهو الطرف القريب من مخاضات بحر أشموم طناح ، ومنها مخاضة سلمون ، ومسافة هذه من بلدة جديدة نفسها ستة كيلو مترات تقريباً (١) .

ثم جمع الملك لويس التاسع مجلسه الحربى ، مساء يوم الاثنين السابع من فبراير سنة ١٢٥٠ م ، لشرح خطته التى رتبها على مشروع عبور مخاضة سلمون ، بالخيالة الصليبية فقط . وخلاصة هذه الخطة أن يزحف الملك لويس وإخوته الثلاثة ، ومعظم كتائب الفرسان والخيالة الصليبية ، من الفرنسيين والإنجليز ، والفلاندرين والبريتانيين والشمبانين ، فضلاً عن فرسان الطائفة الداوية ، نحو مخاضة سلمون ، على حين يظل هيو الرابع دوق برجنديا ، وبارونات قبرص والشام ، بفئات خيالتهم ، وفئات المشاة والرماة الصليبية عموماً ، فى مواضعهم من الخطوط الصليبية ، شمالى بحر أشموم طناح ، لحراسة المعسكر الصليبي ، وانتظار ما سوف يصدر إلى دوق برجنديا من تعليمات تالية .

واستقر رأى النهائى على أن يعبر الملك لويس التاسع وإخوته الثلاثة ، والفرسان والخيالة الصليبية المتفق عليها ، وطائفة الفرسان الداوية ، مخاضة سلمون ، فجر الثلاثاء الثامن من فبراير سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، فى ثلاث وحدات كبرى ، على رأس كل منها أحد إخوة الملك لويس التاسع ، على أن تسير طائفة الفرسان الداوية فى أول وحدة الطليعة ، كالمعتاد فى معظم الحروب الصليبية ، ووراءها فرقة روبرت كونت أرتوا ،

(١) انظر (Oman : Op. Cit. I .p. 346) ، حيث يرد اسم مهنار (Sahnar) ،

بدلاً من اسم بلدة جديدة .

ومعها فرقة الإنجليز والبريتانيين المرافقين للحملة ، ثم فرقة شارل كونت آنجو ، ومعها الشمبانيون ، ومن بينهم جوانفيل ، ثم فرقة ألفونسو كونت بواتيه ، ومعها دوق فلاندر ، ووراء أولئك جميعاً الملك لويس التاسع نفسه على رأس فرقة الحيلة الملكية ، لحفظ المؤخرة من أى هجوم خلفى مفاجئ .

وصدرت تعليمات مشددة ذلك اليوم ، بأن تقف كل فرقة من هذه الفرق الصليبية ، بعد عبور المخاضة فى ترتيبها المتفق عليه ، وأن ينتظر كل منها فى موضعه هناك حتى تصل إليها تعليمات جديدة من الملك لويس التاسع ، بعد عبوره المخاضة هو وفرقته من الحيلة الملكية . وأراد الملك لويس بتلك التعليمات المشددة أن يكون الزحف الصليبي العام نحو معسكر جديدة فى قوة كافية ، ليتسنى بذلك لإحداق الصليبيين بالقوات والمعدات المصرية الأيوية فى فجأة ، وإخراج هذه القوات أولاً من جديدة ، ثم تعطيل المجانيق ذوات النار الإغريقية فى سرعة ، بإتلافها أو الاستيلاء عليها ، قبل أن ينهض القائد فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ لمقاومة هذه الحركة مزدوجة .

وكان الهدف البديهي من هذه الحركة المزدوجة أن يستولى الملك لويس بالحيلة الصليبية على معسكر جديدة ، ليجعل من ذلك المعسكر قاعدة لعملياته الحربية المستقبلية . وأول تلك العمليات توجيه المهندسين والعمال الصليبيين لإتمام الجزء الباقى من الجسر المطلوب لعبور بحر أشموم طناح ، لتستطيع المشاة الصليبية أن تصل بواسطته إلى جديدة ، وليستطيع الملك لويس أن يدير خططه الحربية حسب أساليب الحروب فى العصور الوسطى ، فيزحف بالحيلة والمشاة الصليبية معاً نحو المنصورة ، وتلك هى العملية الثانية من عملياته ، ثم يزحف من المنصورة نحو القاهرة : وتلك هى الثالثة والأخيرة من العمليات المتفق عليها . وبحسب هذا الاتفاق بدأت عملية العبور صفّاً صفّاً ، على الترتيب الذى استقرّ الرأى عليه نهائياً ، فعبرت فرقة فرسان الداوية فى أول وحدة الطليعة الصليبية ،

وتبعتها فرقة روبرت كونت أرتوا، وهكذا فرقة بعد فرقة . غير أن هذه العملية لم تخلُ من صعوبات ، نظراً لكثافة الطين في قاع مجرى بحر أشموم طناح ، ولانحدار جانبي مخاضة سلمون إلى درجة لم يدركها الملك لويس حين تفقد المخاضة بنفسه سابقاً ، دون أن ينزل إليها بفرسه . ولذا وجد عدد من الحيلة الصليبية صعوبة كبيرة في إنزال خيلهم إلى حافة الماء ، وفي توجيهها وهم على ظهورها عبّر المجرى ، مما أدى إلى انزلاق بعضهم عن ظهور الخيل ، وموتهم غرقاً في الماء . وتمّ ذلك كله في ظلام الساعات الأخيرة من الليل ، دون أن ترى الحرسية المصرية الأيوبية ، أو تسمع ، شيئاً من تلك الحركة . ثم لم تلبث الحرسية المصرية الأيوبية أن كشفت أعداد الصليبيين وهم يتخذون مواضعهم المتفق عليها ، عند الجانب الجنوبي من مخاضة سلمون ، في متنفس الفجر .

غير أن هذه الحرسية ، وعدتها ثلاثمائة من الحيلة المصرية الأيوبية ، حسب تقدير جوانفيل ، لم تثبت لقتال ليس من مهمتها المكلفة بها ، أو من طاقتها ، بل أسرعت راکضة إلى جديلة ، لتعطي الأمير فخر الدين يوسف آخر أخبار الصليبيين ، ولينذر الأمير فخر الدين بدوره مدينة المنصورة ، حيث كان الأمير بيبرس البندقدارى معسكراً بفرقة الممالك البحرية الصالحية ، حول القصر السلطاني . وانطلق في أثر هذه الحرسية المصرية الأيوبية الراکضة روبرت كونت أرتوا ، بفرقة من وحدة الطليعة الصليبية ، قبل أن تبدأ الوحدات الكبرى الأخرى في العبور . وخالف الكونت بذلك تعليمات أخيه الملك لويس ، ولم يحترم الحقوق التي اختصت بها طائفة الفرسان الداوية في معظم الحروب الصليبية ، إذ تطلبت هذه الحقوق أن يكون ترتيبه وراءها على أية حال . وساء فرسان الداوية ، ورئيسهم وليام سوناق ، أن يعاملوا بهذا الاحتقار ، ولم يروا معنى أو سبباً للنزول عن حقوقهم المقررة لهم منذ بداية الحروب الصليبية ، كما خشوا أن ينسب إليهم شيء

من النكوص عن التقدم للقتال . ولذا لحق فرسان الداوية ، وفرسان الفئات الإنجليزية والبريتانية معهم ، بفرقة كونت أرتوا ، بعد أن رفض الكونت أن يستمع إلى نصيحتهم ؛ فأسرع فرسان الداوية إلى مكانهم من أول الطليعة ، كما أسرع الإنجليز والبريتانيون إلى مواضعهم وراء فرقة كونت أرتوا ، واشتركوا جميعاً في مطاردة الخيالة المصرية الأيوبية الراكضة إلى معسكر جديدة ، ولم يلبثوا أن اقتحموا أطراف هذا المعسكر ، صبيحة ذلك اليوم .

وسمع الأمير فخر الدين يوسف ضجيج هذا الاقتحام ، وهو في الحمام يصبغ لحيته - على ما قيل - ، وأنخبره جاويشيته بأن الصليبيين دهموا المعسكر المصري الأيوبي ، بعد عبورهم بحر أشموم من ناحية سلمون . ونسى الأمير فخر الدين شيخوخته وسنّه . وخرج مسرعاً إلى فرسه ، فركبه من غير اعتداد أو تحفظ ، وساق لينظر الخبر بنفسه ، وليأمر الجند المصري الأيوبي بالركوب للقتال ، وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده الأخصاء . وقابله وهو على هذه الحال جماعة من فرسان الداوية ، فعرفوه من رايته ، وكانت مشهورة برنوكها المتنوعة ، وأحاطوا به ، وحملوا عليه ، ففرّ من كان معه من مماليكه وأجناده ، وتركوه وحده يدافع عن نفسه . ثم استطاع داوى أن يطعن الأمير فخر الدين برمح في جنبه ، فسقط الأمير عن فرسه ، وضربه داوى آخر في وجهه بالسيف ضربتين عرضاً وطولاً ، واعتورته السيوف بعد ذلك من كل ناحية حتى غدا جثة هامدة .

هكذا مات الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وأثبت بهذه الخاتمة كذب الاتهامات التي لصقت بشخصه منذ انسحابه بالقوات المصرية الأيوبية من جيزة دمياط . وكأنما أدرك المؤرخون ذلك وهم يسجلون ملاسات وفاة الأمير فخر الدين ، ويعدون ما له وما عليه من حسناته وسيئاته . ولعل أبلغهم

تقديرآله ابن كثير المؤرخ ، إذ يقول فيه ما نصه : ” وكان فاضلاً ديناً مهيباً ، وقوراً بالملك ، كانت الأمراء تعظمه جداً ، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد [السلطان] الصالح [أيوب] لما اختلف عليه اثنان ، ولكنه كان لا يرى ذلك ، حماية لخائب بنى أيوب ، قتلته الداوية من الفرنج شهيداً . . . “ (١)

وبمقتل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ انهارت القوى المصرية الأيوبية في معسكر جديلة ، في طرفة عين ، وتزاحمت الكوارث كأنها على ميعاد واحد ، إذ كثر عدد القتلى والجرحى الذين بغتهم الصليبيون ذلك الصباح الباكر ، قبل مصرع القائد العام فخر الدين ، وبعده . ثم وصل روبرت كونت أرتوا إلى مكان المجانيق المصرية الأيوبية الستة عشر ، وهي التي سبق لها أن جعلت من المعدات الصليبية هدفاً أحاطها وقوداً متوهجاً ، وحريقاً عاماً . واستطاع الكونت أن يحدث بتلك المجانيق كلها عطباً كبيراً ، دون أن يستولى عليها ، لعدم وجود المشاة التي تستطيع النهوض بذلك العمل . وجفل العسكر المصرى الأيوبي والعامّة والسوقة في غير مهل ، من معسكر جديلة إلى مدينة المنصورة ، أو نحو الطريق مباشرة إلى القاهرة . ثم سقط تل جديلة (٢) ، في يد روبرت كونت أرتوا ، ولم يبق للقوى المصرية الأيوبية التي لجأت إلى المنصورة إلا أن ترضى مؤقتاً بالانسحاب ، ولا سيما بعد أن تحرك الكونت وفرقتة ، وملحقاتها من الإنجليز والبريتانيين والداوية

(١) انظر ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٣ ، ص ١٧٨ ، وكذلك ملحق رقم ١ ، ص ١٣٦٦ ، حيث سجل ابن واصل تقديره الطيب لمقام الأمير فخر الدين ، مع العلم بأن ابن واصل كان عظيم الصلة بالأمير حسام الدين بن أبي علي الهذيانى ، نائب السلطنة بالقاهرة ، وهو المنافس الأكبر للأمير فخر الدين في مختلف المواقف والمناسبات .

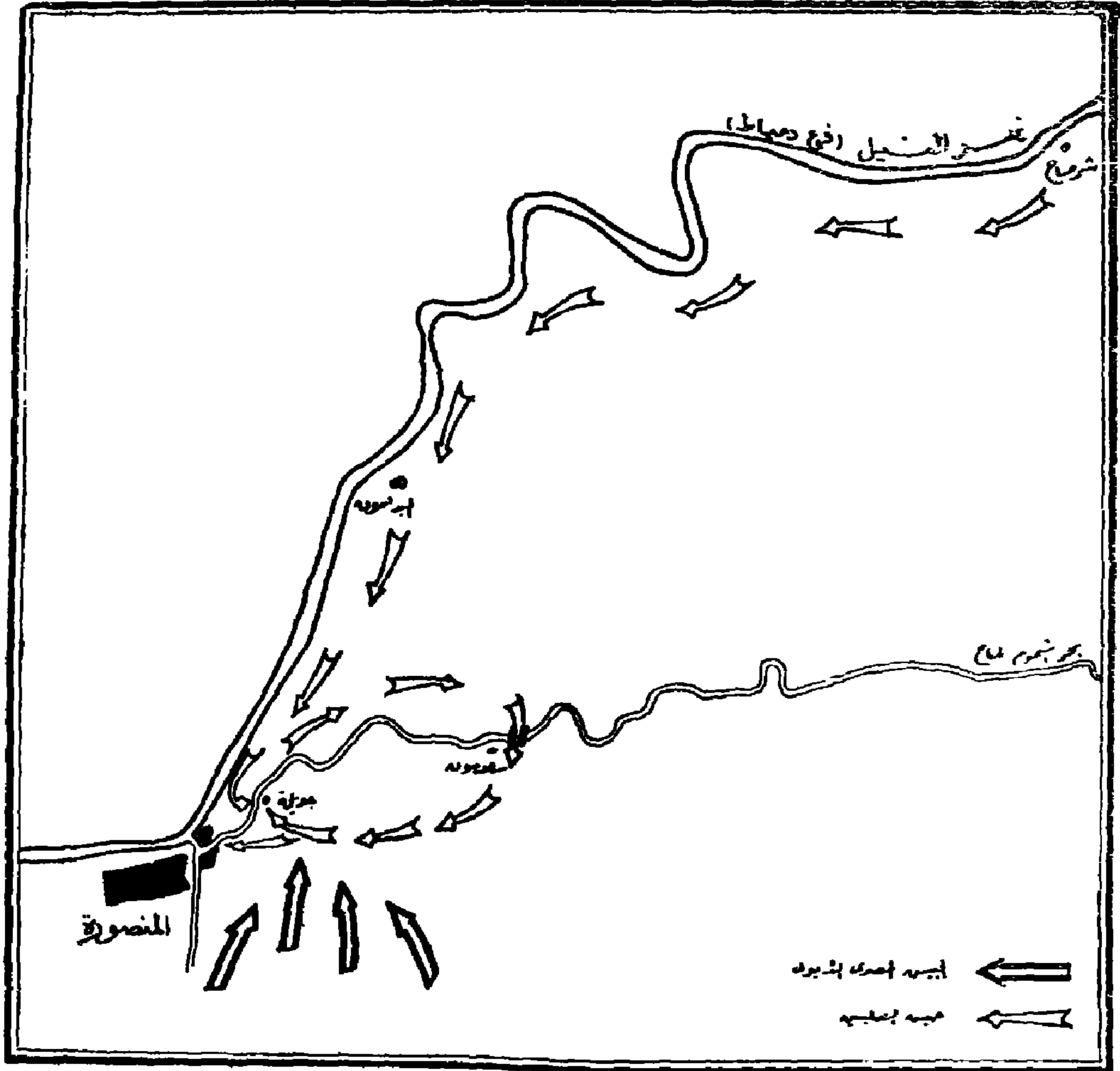
(٢) يعرف تل جديلة في العصر الحاضر باسم العاقولة ، حيث توجد مقابر هذه البلدة الصغيرة ، وليس يوجد في بلدة جديلة الحالية ما يدل على شيء من شواهد هذه الحادثة ، أو غيرها من الحوادث الهامة التالية .

وغيرهم ، ظهر ذلك اليوم ، نحو مدينة المنصورة نفسها ؛ وكانت عدة فرقة روبرت كونت أرتوا وحدها وقتذاك - على تقدير المقریزی - ألفاً وأربعمائة من الفرسان^(١) .

وطار حمام الزاجل بهذه الأخبار السيئة إلى القاهرة ، ووصلت البطاقة العسكرية بها إلى الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني ، نائب السلطنة ، عصر ذلك اليوم ، أي يوم الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٤ ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ . وكان نصّ هذه البطاقة : " هجم العدو المنصورة ، والحرب قائمة ، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد " . وانتشر الفرع بين الناس ، وماجت القاهرة بأسوأ أنواع الإشاعات ، وخصوصاً بعد صدور الأمر العام بإبقاء الأبواب الشمالية مفتوحة ليلة الأربعاء ، لدخول الواصلين من الخافلين من موظفي الدولة وغيرهم من الناس إلى العاصمة المصرية ، ووصول فئات من هؤلاء وأولئك فعلاً على ظهور الخيل في منتصف الليل ، ومنهم القاضي تاج الدين بن بنت الأعز متولى ديوان الصحبة ، وغيره من الموظفين . وباتت القاهرة على هذه الحال تلك الليلة المؤرقة ، دون أن يدري أحد بما حلّ بالمنصورة من كارثة لاكونت روبرت أرتوا وفرقته ، وغيرها من وحدة الطليعة الصليبية ، وهي التي بنى الملك لويس عليها آماله ، لتكون طليعة نموذجية لغيرها من وحدات جيشه ، وبأكورة ممهدة لعملياته الحربية التالية .

وتفصيل ما حدث من أوله إلى آخره أن روبرت كونت أرتوا عزم منذ جفول القوات المصرية الأيوبية عن جديدة ، صباح ذلك اليوم ، أن يتعقب هذه القوات على الفور إلى مدينة المنصورة ومعسكرها ، أملًا في الانتصار النهائي على هذه القوات سريعاً ، والانفراد وحده بمجد ذلك اليوم ، دون سائر الجيش الصليبي من وحدة الطليعة وغيرها من الوحدات الكبرى

(١) المقریزی : كتاب السلوك - نشر زيادة - ج ١ ، ص ٢٥٠ .



الخريطة رقم ٧

وصول فرقة الطليعة الصليبية
بقيادة روبرت كونت أرتوا إلى المنصورة

الزاحفة وراءها ، على الرغم مما فى ذلك من مخالفة ثانية لتعليمات أخيه الملك لويس التاسع ، وافتئات متكرّر على حقوق الفرسان الداوية بشأن موضعهم من الطليعة فى جيوش الصليبيين ، فضلاً عن عدم وجود قوات من المشاة الصليبية لتعزيز الحياالة فى الهجوم الذى عزم كونت روبرت على أن يقوم به . واعترض رئيس الفرسان الداوية ، وهو وليام سوناق ، كما اعترض قائد الفرقة الإنجليزية ، وهو وليام سالسبرى ، على هذه العجلة التى ربما تؤدى إلى غير ما أدت إليه المخالفة الأولى من نتيجة ، ونصحوا بالتريث والانتظار حتى يصل الملك لويس إلى معسكر جديدة ، ويصبح الصليبيون أكثر عدداً واطمئناناً إلى النصر ، تحت راية القيادة الملكية العامة ، وخصوصاً حين يتم بناء الجزء الباقى من الجسر المطلوب ، وتستطيع المشاة الصليبية أن تعبر عليه فى أمان ، لتنضم إلى الحياالة الصليبية بعد استكمال عبورها مخاضة سلمون .

لكن روبرت كونت أرتوالم يشأ أن يستمع إلى نصيحة ناصح ضحوة ذلك اليوم ، بل ركب رأسه ، وسيطرت عليه صفات التسرع والأناية وغرور المجد الشخصى ، فراح يتهم جميع المعترضين على خطة الزحف الفورى بالحبين والبلادة وضيق الأفق ، ووصف فرسان الداوية ورئيسهم سوناق بأنهم قوم لا يريدون من الحروب سوى أن تستمر طويلاً ، بل إنهم لا يريدون انتصار حملة من الحملات الصليبية على المسلمين ، لكيلا تنتهى تلك الحملات وحروبها ، وتضيع على طائفة الداوية ، وغيرها من الطوائف المشابهة ، وظائفها الديرية وطقوسها الدينية ، ومسوحها العسكرية الزائفة^(١) . والتفت كونت روبرت إلى فرسان الفرقة الإنجليزية ، وقائدهم سالسبرى ،

(١) أورد (Oman : Op. Cit. I. p. 847, N.I.) نص العبارات التى ألمقها روبرت كونت أرتوالم بطائفة الفرسان الداوية ، فى غير خشية أو تردد ، وهى منقولة من (Mathew Paris : Chronica Majora. V. p. 149) ، حيث هى واردة باللغة اللاتينية =

فرمقهم بنظرة استخفاف وسخرية ، وكال لهم بما كال به للداوية ، وأخذ يعيّر سامعيه من الإنجليز بما اشتهر به أجدادهم الأولون من الشبه بالقروذ المساحيط المناكيد ، وهم يجرّرون أذيال الخوف والتقهقر من أية معركة حربية قبل وقوعها^(١) . ثم نادى كونت روبرت فرقة للاستعداد للزحف نحو المنصورة ، ظهر ذلك اليوم ، كما تقدم .

وللمرة الثانية اضطرت الداوية والإنجليز والبريتانيون ، وغيرهم من فئات الطليعة الصليبية أن يسايروا روبرت كونت أرتوا في حركاته الطائشة ، ضد القوى المصرية الأيوبية الجافلة نحو المنصورة ، بل أعلن سالسبورى قائد الفرقة الإنجليزية ، وهو يستشيط غضباً من بذىء عبارات روبرت كونت أرتوا ، بأنه سوف يتقدم صفوف الخيالة الصليبية كلها ذلك اليوم ، وسوف يصل بخياله الإنجليزية إلى ما لا يجروء كونت روبرت أرتوا وخياله أن يصلوا إليه .

وأخذت فئات الفرسان والخيالة الصليبية تقرب اقرباً صاخباً راكضاً من أسوار المنصورة ، وبدا كأن ساعة الفصل اقتربت ، أو كادت . لكن هذه الفئات من الفرسان والخيالة الصليبية أعوزتها فئات تعزيزية من

— الدارجة في العصور الوسطى ، ونصها : *Hoc est : O antiqua Temple proditii ! quod diu praecinimus augurio, quod terra tota Orientalis jamdiu fuisset adquisita nisi Templi et Hospitalis fraudibus nos seculares impediremur. Timent autem Templarii et eorum complices quod si terra joribus subdatur Christianis, ipsorum exprobrabit (qui amplis redditibus saginantur), dominatio. Hinc est quod fideles ad negotium crucis accinctos variis inficiunt potionibus, et Saracenis con foederati prodicionibus interficiunt*".

(١) لم يذكر (Oman : Op' Cit. I. 347 N. 2) نص هذه العبارات التي رأى روبرت كونت أرتوا توجيهها إلى فئة الفرسان الإنجليز ، بل اكتفى بتلخيصها في أسلوبه الخاص ، مع اقتباس جملة واحدة من النص الأصلي ، وهي الجملة المتعلقة بقصة الشبه بين الإنجليز الأقدمين والفرقة .

المشاة الصليبيين ، لكي تستطيع أن تنصرف إلى واجباتها التقليدية في حروب العصور الوسطى ، لأن تقوم بواجبات المشاة ، بالإضافة إلى واجبات الترسان والخيالة في الميدان :

وإذ وصلت حملة الملك لويس التاسع ، ووصلت معها أعمال المقاومة الدفاعية المصرية الأيوبية بأنواعها ، إلى هذه المرحلة الحرجة المكتظة بأحداث . فلا بدّ للباحث من الوقوف هنيهة على الأقل ، لإلقاء نظرة سريعة على ما مضى من حوادث هذه الحملة حتى وقتذاك ، رغبة في إحصاء موازن القوة أو الضعف ، أو الغلط ، في استراتيجية الحملة وخطواتها الحربية المختلفة ، وما يوازها ويقابلها من ظواهر مماثلة في الجانب المصري الأيوبي :

رائل أهم ما في تلك النظرة السريعة ، لفهم ما سوف يندرج بعد هذه المرحلة من مراحل تالية ، هي ناحية الغلط الكبير ، أو بعبارة أخرى سلسلة الأغلط الكبرى ، التي وقعت فيها هذه الحملة ، سواء بسبب الملك لويس التاسع نفسه ، أو بسبب أخيه روبرت كونت أرتوا ، لأن هذه الأغلط رسمت مجرى الأحداث التالية رسماً لا ريب فيه . وأول تلك الأغلط سوء اختيار الملك لويس ميناء دمياط لبداية عمليات حماته على مصر ، وثانيها سوء تحديده وقت زحف الحملة جنوباً نحو القاهرة ، فضلاً عما وضح في ثنايا هاتين الخطوتين من اختلاف عميق في دوائر القيادة الصليبية . ولا حاجة هنا لتكرار ما سبق شرحه في هذا الصدد ، ما عدا ما فيه من دلالة على أن الملك لويس التاسع لم يكن على شيء من عبقرية عسكرية ، بقدر ما كان عليه من تدبّر وجبرية وقنوع تام بما كان ، وما سوف يكون^(١) . أما الغلط الثالث ، فهو الموافقة على عبور الخيالة الصليبية وحدها مخاضة سلمون ، وتوقيف الحركات التالية على ما سوف تقوم به هذه الخيالة للوصول إلى معسكر جديدة ،

(١) انظر ما سبق ، ص ١١٨ ، حاشية ١ .

مع التسليم بأنه لم يكن لدى الملك لويس وقتذاك سوى هذه الوسيلة الحالية من تعزيز المشاة في الميدان . وأما الغلط الرابع ، فالفضل في ارتكابه إلى روبرت كونت أرتوا ورعونته ، وفيه برهان ضمنى على أن قيادة الملك لويس التاسع لم تكن موضع طاعة دائمة ، وسوف تتضح نتائج هذا الغلط الرابع في بضع ساعات من دخول كونت روبرت والطلائع الصليبية كلها مدينة المنصورة ، ظهر يوم الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ م ، الموافق ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، وهو اليوم الذى اشتهر في التاريخ باسم يوم معركة المنصورة^(١) .

غير أنه لا ينبغي أن تؤدي هذه النظرة السريعة إلى القول بأن المراحل التالية من تاريخ المقاومة الدفاعية المصرية الأيوبية ، ضد حملة الملك لويس التاسع على مصر ، استمدت نجاحها مما في الأغلاط الصليبية الأربعة من مساعدة سلبية : والواقع أنه بالإضافة إلى الحاصل الناتج من جمع هذه الأغلاط الكبرى ، ادّخرت روح البطولة التاريخية لإزالة هذه الكريهة الصليبية شخصاً لم تعرفه المراجع حتى ذاك اليوم إلا أحياناً متقطعة ، واسمه بيبرس البندقدارى ، وهو الذى آلت إليه قيادة فرقة المماليك البحرية الصالحية حديثاً ، بعد ذهاب سلفه فارس الدين أقطاي إلى حصن كيفا ببلاد الجزيرة ، لاستحضار السلطان تورانشاه إلى مصر . ورأى الأمير بيبرس البندقدارى بثاقب نظره الذى اشتهر به طول حياته ، أن الزحف الصليبي الذى وصلت أخباره إليه ، منذ فجر ذاك اليوم ، ليس إلا طليعة لزحف عام يتطلب الاحتياط لدرئه قبل وقوعه . ورتب الأمير بيبرس لذلك خطة حربية وافقت عليها الأميرة شجر الدر ، وهى وقتذاك مقيمة بالقصر السلطان بالمنصورة . وبناء على هذه الخطة أكن بيبرس فرقة المماليك البحرية الصالحية ، وغيرها من الكتائب المصرية الأيوبية التى أخذت تستعيد قوتها بعد جديلة ، فى كمائن متعددة داخل المنصورة ، وأمر بمنع التجول والتزام المنصورين

(١) انظر (Oman : Op. Cit. I. p. 347 et seq.) ، حيث يشرح مؤرخ إنجليزى

مشهور تأثير أنانية روبرت كونت أرتوا فى مصير الحملة الصليبية كلها .

مساكنهم لا يخرجون منها إلا بإذن ، كما أمر جميع العساكر المصرية الأيوبية أن تظل في كمائنها حتى صدور الإشارة إليها بالحركة .

ثم دخل كونت روبرت أرتوا وفرقة مدينة المنصورة ظهر ذاك اليوم من الناحية الشرقية ، ومعه الداوية ورئيسهم سوناق ، والإنجليز وقائدهم ساسبرى ، والبريتانيون وقائدهم دوف بريتانى ، وغيرهم من فرق وحدة الطليعة الصليبية . ووجد كونت روبرت ورفقاؤه مدينة خالية من المقاومة ، وظن أن عسكر المنصورة وأهلها هربوا عنها ، بعد أن سمعوا بما حلّ بمعسكر جديدة على يديه ؛ وتأكدت آماله في النصر الفريد . وانتشر الفرسان الصليبيون والخيالة بنحولهم الضخمة ، في الشوارع والأزقة والدروب والحارات ، بحثاً عن الأنهاب والأسلاب والمذابح البشرية الممكنة ، وتمهيداً لذهاب كونت أرتوا بفرقة إلى القصر السلطاني ، في أقصى الناحية الغربية من المنصورة ، لطلب التسليم والاعتراف بالنصر الصليبي التام . غير أن كونت أرتوا لم يكد يقترب من القصر السلطاني حتى صدرت أوامر القائد بيرس البندقدارى ببدء حركة تطويقية متفق عليها ، فخرجت فرقة المالك البحرية الصالحة من كمائنها المحيطة بالقصر السلطاني ، وخرجت الخيالة المصرية الأيوبية التي انسحبت سابقاً من جديدة ، كما خرجت أصناف المدنيين من أهل المنصورة من بيوتهم ؛ وكل أولئك للدفاع ضد الخطر الصليبي الداهم . ثم تحركت كتية من الخيالة المصرية الأيوبية المعسكرة خارج المنصورة ، وأبادت في طريقها نحو القصر السلطاني أعداداً من الخيالة الصليبية المنتشرة في الشوارع ، والأزقة والحارات والدروب ، ولم تلبث هذه القوات المصرية الأيوبية المختلفة أن أطبقت من جميع الجهات على كونت روبرت وفرقة عند باب القصر السلطاني . وهرب روبرت ، كما هربت معه فئات الفرسان الداوية والإنجليزية والبريتانية وغيرها من فئات الطليعة الصليبية ، أملاً في النجاة من هلاك محقق^(١) .

(١) انظر خريطة رقم ٧ ، ص ١٥١ .

وهنا أسهم المدنيون من أهل المنصورة بسهم كبير في إيادة الحيلة الصليبية المبعثرة في مدينتهم على غير هدى ، إذ أخذ بعضهم في عرقلة الطرق ، الشوارع بما وصلت إليه أيديهم من ألواح وعروق وكتل من الخشب ، كما أخذ بعض آخر منهم في رمي الفرسان والحيلة الصليبية بالحجارة والطوب والطين والتراب ، وغير ذلك من مقنوفات المدنيين ، من شبابيك البيوت وسطوحها . وعمد بعض الجنود المصرية الأيوبية إلى مطاردة الهاربين من الصليبيين إلى أبعد مسافة خارج المنصورة ، ومعسكرها وأسوارها حتى شاطئ النيل ، حيث مات كثير من الصليبيين الهاربين غرقاً في الماء ؛ ولعل اسم بلدة ميت الغرقا الحالية ، جنوبي مدينة طلخا ، يرجع إلى رغبة محلية في تخليد هذا الجزء النيل من معركة المنصورة .

أما كونت روبرت فلجأ إلى بيت قريب من القصر السلطاني ، واعتصم به ، يبتغي إيجاد وسيلة سريعة للفرار من غضب مدينة المنصورة وجنودها وأهلها . لكن المنصورين لم يلبثوا أن اقتحموا عليه هذا البيت ، وأخرجوه منه قتيلاً مثخناً بجراح عديدة ، كما حدث للأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، صباح ذاك اليوم في جديلة .

وبلغ عدد القتلى من الصليبيين في هذه المعركة ، حسبما جاء في المراجع الأجنبية ، ثلاثمائة تقريباً من فرقة روبرت كونت أرتوا وحدها ، ومثل ذلك العدد من الداوية ، ومثله مرة أخرى من الفرقة الإنجليزية ، بما في ذلك قائدها وليام سالسبرى ، وهو الذى اشتهر في المراجع الأجنبية بلقب طويل السيف ؛ أما وليام سوناق رئيس الداوية ، فلم ينله من هذه المعركة سوى أنه فقد إحدى عينيه ، ولا بد أنه استطاع أن ينجو بنفسه ، وأن يهرب بجلده ، كما فعل كونت بريتاني وكونت سواسون ، وغيرهما من البارونات الصليبيين القليلين الذين لم يدركهم الهلاك والموت ، في ذلك اليوم العظيم^(١) . لكن المراجع

(١) انظر ملحق رقم ٢ ، حيث ترجم المؤلف إلى اللغة العربية ما جاء في جوائيل بصدق معركة المنصورة ووقعة جديلة ، ومن هذه الترجمة نقل المؤلف الحقائق الواردة هنا ، دون دأب على الإشارة إلى مواضع هذه الحقائق بصفحات هذا الملحق .

العربية قدرت عدد أولئك القتلى ، في بضع الساعات التي اضطربت فيها هذه المعركة ، بألف وخمسمائة من الحيلة والفرسان الصليبيين ، وهو عدد لا ينطوى على شيء كبير من المبالغة .

غير أنه مهما قيل بصدد تقدير الخسائر الصليبية بالمراجع العربية والأجنبية ، فالواضح من هذه وتلك أن مقتلة كبيرة حلت بالصليبيين وطلعتهم المشهورة في المنصورة ، وأن المراجع العربية والأجنبية كلها أغفلت أضعاف ما ذكرت من أخبار هذه المعركة^(١) ، وأن السر في ذلك الانتصار الكبير يرجع إلى اتقان الحركة التطويقية التي أوقعت كونت أرتوا وجنوده في مصيدة أسلاكها من سيوف الممالك ، فضلاً عن إمعان أهل المنصورة في الدفاع عن مدينتهم الجديدة ، بإزهاق الصليبيين المبعثرين بخيولهم الضخمة الحائرة بين الحارات الضيقة ، والدروب المسدودة وغير المسدودة ، أو كما أشار ابن واصل نفسه بقوله : ” كان من سعادة المسلمين تفرق الفرنج في الأزقة “^(٢) .

لكن المراجع العربية المعاصرة — والمتأخرة كذلك — لا تضيف إلى ما بها من أشباه هذه الإشارة البليغة أية أمثلة تاريخية ، أو أية عبارات وصفية ، لتصوير ما نهضت به الجيوش المصرية الأيوبية ، وأهل المنصورة أنفسهم ، في تلك الأزقة والدروب الضيقة ، من أعمال المقاومة والدفاع والهجوم ، والإزهاق والتمثيل والتنكيل ، ضد الفرسان والحيلة الصليبيين الذين غدوا في حال لا خلاص لهم منها إلا بالموت . وكان الفرسان والحيلة الصليبيون مستعدين — ولا شك — إذا رجحت كفتهم في هذه المعركة ، أن يعاملوا أهل المنصورة بمثل ما عامل به أسلافهم من الصليبيين

(١) انظر ملحق رقم ٢ ، حيث يلحظ القارئ أن جوافيل عبر على أخبار معركة المنصورة صبوراً خاطفاً ، كأنها لم تكن سوى مناوشة طارئة .

(٢) انظر مايل ، ملحق رقم ١ (ص ١٣٦٦) .

الأولين أهل مدينة بيت المقدس ، في أحوال مشابهة : غير أن البحث التاريخي لا يستطيع أن يزيد شيئاً على هذا القياس المبني على سوابق معروفة في تاريخ الصليبيين أنفسهم بالشرق ، لأن الباحث في التاريخ مربوط دائماً إلى عجلة مراجعه ، وهو لا يستطيع تحميل هذه المراجع ما ليس فيها ، أو ما لا طاقة لها به . ولا ينطبق هذا التقيّد على الكاتب القصصي طبعاً ، فهو طليق من صارم التاريخية وقيودها ، حرّ التصرف بالإطالة والإضافة والحذف والتحوير فيما لديه من حقائق قليلة أو كثيرة ، دون أن يتورط في زمرة المؤرخين ، أو أن ينزل من سماء الخيال إلى أرض التاريخ .

هذه هي معركة المنصورة ، وهي انتصار مصري أيوبى انتزعه الأمير بيبرس البندقدارى من أنياب الهزيمة ، وساعده أهل المنصورة في هذه العملية الجريئة مساعدة عظيمة ، بفضل ما انتشر بينهم من روح معنوية عالية ، وبفضل ما وصلت إليه أيديهم من مواد أولية ، وما وجدوه في بيوتهم من وسائل دفاعية معظمها من الشماريخ والعصى الغليظة ، والطوب والطين والنار والحجارة . غير أن الانتصار في هذه المعركة لم يكن من محض الصدفة ، ولم يستند إلى شيء من الارتجال ، بل هو وليد خطة ماهرة مدبّرة في رأس بيبرس ، وشجاعة دافقة وافرة في قلوب أهل المنصورة . ثم إنه لا سبيل إلى الشك في تاريخ هذه المعركة ، والمراجع العربية والأجنبية تكاد كلها تتفق على أنه كان في يوم الثلاثاء الرابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م . وحدّد جوانفيل ذلك اليوم تحديداً نهائياً ، حين ذكر أنه كان يوم الثلاثاء الرفاع ، وهو عيد مسيحي كاثوليكي يقع كل سنة في يوم الثلاثاء السابق على بداية الصيام الكاثوليكي الكبير ، في اليوم التالى^(١) .

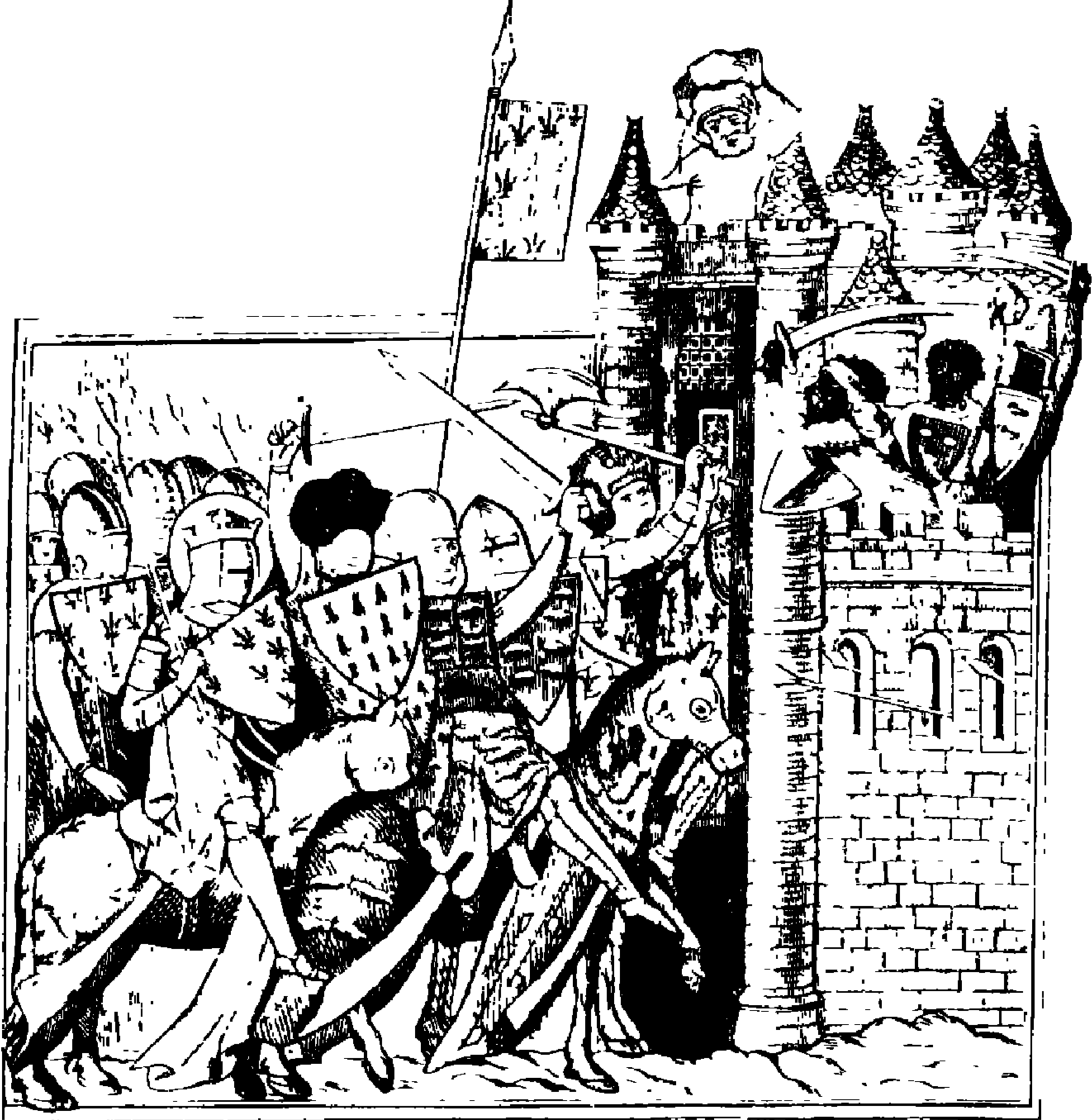
(١) لا يوجد بين المراجع العربية والأجنبية خلاف جوهري حول هذا اليوم ، ما عدا أن ابن واصل (انظر ملحق رقم ١) جعل هذا اليوم خامس شهر ذى القعدة ، وأن المقرئى (كتاب =

ومما يزيد في تأكيد هذا اليوم وتاريخه - إذا كانت ثمة حاجة بعد ذلك إلى تأكيد - أن البشرى بنصرة المنصورة وصلت إلى القاهرة صباح يوم الأربعاء ، وهذه البشرى انقلبت الحال من أراجيف الليلة السابقة ومخاوفها ، إلى أفراح ومسرات وزينات .

وبينما جرت معركة المنصورة مجراها نحو ذلك النصر العظيم ، كانت فرق الوحدات الصليبية الأخرى تأخذ مواقعها جنوبى بحر أشموم طنّاح ، بعد عبورها مخاضة سلمون ، حسب الخطة الملكية المتفق عليها ، دون أن تدري تلك الفرق بما حدث بالمنصورة . وهكذا وقفت فرقة شارل كونت آنجو في الحقول المحيطة بقرية سلمون ، ومعها فرقة الشمبانين ومنهم جوانفيل ، في انتظار عبور فرقة ألفونسو كونت بواتيه ، ثم فرقة الخيالة الملكية ، وعلى رأسها الملك لويس التاسع . وبينما فرقة شارل آنجو في موقفها هذا بغتها كتيبة كبيرة من كتائب الخيالة المصرية الأيوبية الزاحضة من ناحية المنصورة ، وأصاب عددا من كبار فرسانها بجراح بالغة ، ومنهم جوانفيل الذى لحا إلى بيت مهجور من بيوت بلدة سلمون ، لتضميد جراحه . ثم ارتدت هذه الكتيبة المصرية الأيوبية في سرعة إلى حيث أتت ، بعد أن أدّت مهمتها ، وهى الإغارة الخاطفة على الأطراف الصليبية ، دون الاشتباك في قتال ، مع استطلاع اتجاهات الزحف الصليبي المقبل ، ولا سيما اتجاهات الملك لويس التاسع نفسه ، بعد عبوره وفرقة الملكية مخاضة سلمون . ولذا لم تلبث هذه الكتيبة المصرية الأيوبية أن عادت إلى الإغارة للمرة الثانية ، فبيل ظهر ذلك اليوم ، فوجدت أن الملك لويس انتهى فعلاً من عبور المخاضة بفرقة الملكية ، وأنه يرتب قواته كلها من الفرسان والخيالة الصليبية لزحف جنوبى عام نحو المنصورة مباشرة ، بعد أن علم بما ارتكبه أخوه

= السلوك - نشر زيادة - ، ج ١ ، ص ٣٤٩) جملة رابعه أو خامسه ، والصحيح ما هنا ، استنادا إلى ما جاء في جداول (Wustene'ed) ، فضلا عن القرائن الإضافية المذكورة هنا .

(لوحة رقم ٢ ، بين صفحتي ١٦٠ ، ١٦١) .



معركة المنصورة

صورة توضح وصول فئات صليبية بقيادة روبرت كونت أرنوا أحي الملك لويس التاسع ، إلى القصر السلطاني بالمنصورة ، ويظهر روبرت كونت أرنوا في الجانب الأيسر من الصورة ، مرتدياً ملابس مطرزة بزخرفة الزئبق الملكية ، كما يظهر وليام سوانف رنيس طائفة الفرسان الداوية في وسط الصورة ، وعلى رأسه فنسوة دينية سوداء . وبالجانب الأيمن من الصورة أجناد القموات المصرية الأيوبيين ، وهم يدفعون بسيوفهم عن القصر السلطاني بالمنصورة ، وأهالي المنصورة وهم يقدّمون الصليبيين بالأحجار . انظر : (Joinville : Oeuvres..., Edit. De Wailly, Paris, 1867) ، حيث وردت هذه الصورة النادرة بغير عنوان .

روبرت كونت أرتوا من مخالفة لتعليماته . وبناءً على ذلك تطورت هذه الإغارة المصرية الأيوبية الاستطلاعية الثانية إلى قتال حامي الوطيس ، واستخدم فيه الفريقان السيوف والدبابيس والحرايب ، ولا سيما بعد أن انضمت أعداد جديدة من فرقة المماليك البحرية الصالحية إلى الكتية المصرية الأيوبية ، في سرعة باهرة ؛ وهكذا صار واضحاً للملك لويس أن الطريق الجنوبي البرى نحو المنصورة لن يكون سهل المثال .

وكان من رأى المشيرين الملكيين أن يزحف الملك لويس التاسع ، أولاً وقبل كل شيء ، في اتجاه شرقى مستقيم نحو معسكر جديدة ، بحيث تسير ميمته على طول بحر أشموم طنّاح في محاذاة ضفته الجنوبية ، ابتغاء الوصول في سرعة إلى ذلك المعسكر ، بعد أن سكتت مجانيقه المصرية الأيوبية ، وانقطعت قذائفها منذ صبيحة ذلك اليوم . وأخذ الملك لويس أخيراً بهذا الرأى ، بعد أن اشتدت وطأة الكتائب المصرية الأيوبية الراكبة على الفرقة الملكية ، وتركزت جهوده نحو الوصول إلى هذه الغاية . وتلقت الفرقة الملكية في أثناء ذلك هجمات متصلة متزايدة الأعداد والحماسة ، من ناحية هذه الكتائب المصرية الأيوبية الراكبة ، حتى إن الملك لويس نفسه كاد يذهب وميمته غرقى في بحر أشموم طنّاح ، واضطر بعض فرسان تلك الميمة إلى الهرب إلى المعسكر الصليبي الشمالى سباحاً في الماء ، بعد أن فقدوا خيولهم تحت وابل السهام والنبال .

ثم استطاع الملك لويس أخيراً أن يبلغ معسكر جديدة ، وبدأ من فوره في إقامة قنطرة مؤقتة ، لاستكمال الجسر الذى عجزت عن إتمامه جميع المحاولات السابقة ، من ناحية الضفة الشمالية . واستخدم الملك لويس في ذلك العمل جميع ما تركته القوات المصرية الأيوبية بمعسكر جديدة ، من أخشاب وقوارب ومجانيق ، وأدوات حربية أخرى . واستغرقت هذه العملية عصر ذلك اليوم ، فعمل فيها الملك لويس وأخواه كونت آنجو وكونت بواتييه من ناحيتهم ، كما عمل

فيها هيو الرابع دوق برجنديا وبارونات قبرص والشام من الناحية الأخرى ، على حين ظلت كتائب الحيلة المصرية الأيوبية تكرر وتهجم ، وتصوب النبال والسهام ، على الناحيتين الصليبيتين في غير انقطاع . ثم كمل إعداد الجسر المطلوب بإقامة القنطرة المؤقتة ، وغدا الجسر بذلك صالحاً للعبور ، واستطاع دوق برجنديا أن يرسل عدداً من المشاة والرماة الصليبية إلى معسكر جديلة ، فكان ذلك داعياً للقوات المصرية الأيوبية أن تنسحب في سرعة إلى الوراء ، دون أن تذهب بعيداً عن الميدان ، وكانت الشمس وقتذاك تميل إلى الغروب .

ثم دخل الليل ، وأرخص سدوله حول جوانب الميدان ، وساد الظلام وحال بين الفريقين المتحاربين ، قبل أن يتكامل عبور المشاة والرماة الصليبيين ، وغيرهم من قوات دوق برجنديا ، إلى الضفة الجنوبية من بحر أشموم طناح . ولذا بات دوق برجنديا بمعظم قواته في المعسكر الصليبي الشمالي على حاله ، أي شمالي بحر أشموم طناح ، كما بات الملك لويس التاسع في معسكر جديلة ، على حين بات قائد القوات المصرية الأيوبية ، وهو يعدّ الساعات انتظاراً لساعة معينة من تلك الليلة ، ليقوم بأول هجوم على الصليبيين الذين خالوا أنهم مقيمون طويلاً بمعسكر جديلة ، وأنهم سوف ينقلون منه إلى المنصورة والقاهرة . وعلم الملك لويس في أثناء تلك الليلة — لا قبل ذلك — بمقتل أخيه روبرت كونت أرتوا في معركة المنصورة ، ولعله أدرك مما علم كذلك من تفاصيل الخسائر الصليبية في هذه المعركة أن روبرت كونت أرتوا أفسد على الحملة الصليبية بطيشه وتهوره وأنانيته معظم الأمل في أي نجاح صليبي قريب ، أو بعيد .

هكذا انتهى ذلك اليوم الطويل الذي جعلت حوادثه مدينة المنصورة مجدداً من أمجاد التاريخ المصري ، وهي حوادث تعدّها بعض المراجع

الأوربية الحديثة نصراً صليبيّاً على وجه الإجمال ، لاختتامها باستكمال الجسر المطلوب وإقامة القنطرة المؤقتة ، وعبور عددٍ من المشاة والرماة الصليبيين من المعسكر الشمالى إلى معسكر جديدة ، فضلاً عن احتلال الملك لويس التاسع معسكر جديدة نفسه . على أن هذا النصر الإجمالى المزعوم كان نصراً فادح التكاليف والخسائر والنتائج ، على قول المصطلح التاريخى اليونانى القديم . وبرهان ذلك ما تبدّد فى أثناء حوادث ذلك اليوم من أعداد الفرسان والخيالة الصليبية ، سواء فى معركة المنصورة أو وقعة جديدة . وجدير بالإشارة هنا مرة أخرى ، أن ماحقته الملك لويس ذلك اليوم ، لم يزد عن استطاعة المهندسين والعمال الصليبيين استكمال الجسر المطلوب ، وعبور جزء من المشاة والرماة الصليبية إلى معسكر جديدة ، للانضمام إلى فئات الفرسان والخيالة التى هلكت طلائعها فى معركة المنصورة ، بسبب حماقات روبرت كونت أرتوا ، فضلاً عن مخاطرات الملك لويس نفسه بسائر تلك الفئات فى طريقه إلى جديدة ، دون أن تكون لديه فئات تعزيزية كافية من المشاة .

والواقع أن حوادث ذلك اليوم لم تكن بذاتها أو بنتائجها نصراً مادياً أوروبياً للصليبيين ، بالمعنى المفهوم من ذلك اللفظ ، بدليل ما أعقبها من هجمات مصرية أيوبية منبئة بروح معنوية لم يعثرها إحساس بهزيمة ، وذلك قبل أن تنتهى الليلة التالية لذلك اليوم العظيم . ثم إن هذا النصر المزعوم - وهو مزعوم لا غير - لم يجعل لتأثير معركة المنصورة فى الدوائر المصرية الأيوبية أى حساب مستقل خاص ، وهى المعركة التى أبدع ابن واصل فى وصفها ، فى عبارة بالغة الصدق والإيجاز ، بقوله إن هذه المعركة كانت " أول النصر ومفتاح الظفر " ، للجيش المصرية الأيوبية عامة ، ولفرقة الممالك البحرية الصالحية خاصة ، وللقائد المملوكى الأمير بيبرس البندقدارى ، ولمدينة المنصورة وأهلها جميعاً^(١) .

(١) انظر ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٦ ب .

وهنا يحقّ لمدينة المنصورة وحدها أن تفخر بما أفاءت على التاريخ المصرى الأيوبي ، والتاريخ المصرى المملوكى بعده ، من أفضال ثلاثة سابعة متتابعة ، فى مدة لا تتجاوز ثلاثين سنة ، وهى المدة الواقعة بين نشأتها الأولى زمن السلطان الكامل ، وبين معركة المنصورة التى اشترك المنصوريون فيها بدورهم المجيد ، دفاعاً عن مدينتهم الجميلة .

فمن المنصورة خرجت الجيوش المصرية الأيوبية التى قطعت خط الرجعة على الحملة الصليبية المعروفة بالخماسة ، زمن السلطان الكامل ، وأجأت الملك الصليبي حنا برين والنائب البابوى بلاجيوس ، إلى الجلاء الناجز عن دمياط والشواطئ المصرية ، فى غير قيد أو شرط^(١) . ومن المنصورة وقصرها السلطانى الكاملى ، ومن حاراتها وشوارعها ودروبها ، وأزقتها الضيقة المسدودة فى كثير من الأحيان ، تجمعت أنواع المقاومة العسكرية النظامية ، وأنواع المقاومة المدنية غير النظامية ، وتعاونت كلها من حيث تدرى ولا تدرى ، على إفناء الصليبيين المعتدين ، فى غير هوادة أو تمييز بين خيالة روبرت كونت أرتوا ، أو من خيالة الفرسان الداوية والإنجليز والبريتانيين والفلاندرين ، وغيرهم . ثم إن المنصورة ، بالإضافة إلى هذا وذاك ، صاحبة فضل ثالث فى إعطاء فرقة المماليك البحرية الصالحية فرصتها الذهبية الأولى ، للبرهان على قيمتها العسكرية فى ميادين الحروب ، وصلاحية زعمائها لتأسيس دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام ، وفى أعماق قلوب الناس فى الشرق الأوسط كله ، لمدة قرنين ونصف قرن من الزمان .

(١) انظر ما سبق ص ٥٨ - ٥٩ .

الفصل السادس

(١)

هزيمة لويس التاسع وأسيرة

تلقى تورانشاه أخبار معركة المنصورة ، وهو في آخر مرحلة من مراحل سفره الطويل إلى البلاد المصرية ، لاستلام مهام السلطنة بها ، فجده في السير ، ليكون على رأس الأفراح والزينات والمسئوليات المترتبة على ما نالته القوات المصرية الأيوبية في تلك المعركة من نصرٍ مبین .

وكان الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني ، نائب السلطنة بالقاهرة ، يخشى أن تذهب السلطنة إلى غير تورانشاه من أبناء البيت الأيوبي ، ولم يطمئن إلى سفر فارس الدين أقطاي بتعليمات شجر الدر . لإحضاره من حصن كيفا ببلاد الجزيرة ، اعتقاداً منه أن تورانشاه ربما اشمّ الغدر والمكيدة في استدعائه على وجه السرعة . ولذا أرسل الأمير حسام الدين من عنده أحد مماليكه ، وبعث معه كتاباً يحث فيه تورانشاه على سرعة القدوم إلى مصر ، خوفاً من أن تخرج البلاد من يده . وكان ذلك الكتاب كافياً لإقناع تورانشاه بصدق ما وصل إليه من أخبار وفاة أبيه ، ووجوب سرعة السفر إلى مصر ، وذلك لثقتة التامة بالأمير حسام الدين . منذ أيام إقامته معه أتابكا في حصن كيفا ، حين كان تورانشاه حديث عهد بولايته هناك (٢) .

(١) يجد المؤلف نفسه أمام خمسة عناوين يستطيع كل منها - إلى حد ١٠ - أن يكون عنواناً لهذا الفصل السادس من هذا الكتاب ، إذ تبدأ صفحات هذا الفصل بأخبار وقعة جديلة الكبرى ، ثم يتلوها وقعة بحر المحلة ، ثم وقعة مسجد النصر النهرية ؛ ثم تأتي بعد ذلك أخبار وقعة شرمساح ، ثم أسر الملك لويس التاسع وسجنه بالمنصورة . ولما كانت العبارة بالخواتيم ، فيبدو أن العنوان المختار هنا لهذا الفصل هو أصلح العناوين ، لشموله على جميع العناصر المتقدمة .

(٢) المقرئزي : كتاب السلوك - نشر زيادة - ج ١ ، ص ٢٨١ ، حاشية ٣ .

وكان تورانشاه منذ رحيله من حصن كيفا ، في يوم السبت ١١ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١٨ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، يخشى كذلك ألا يصل إلى مصر ألبته ، بسبب موقف أمراء الموصل وسروج وحلب منه ، وإنذارهم إياه بقطع الطريق عليه ، إذا هو اقترب من أطرافهم الجغرافية ، اختصاراً للطريق . ولذا خرج تورانشاه من حصن كيفا سراً ، ومعه خمسون من خاصته ، فعبر بهم طريق البرية الصحراوية إلى بلدة عانة ، وهي من البلاد التابعة للخليفة العباسي على الفرات ، وكاد قبل وصوله إليها يهلك وأصحابه من العطش ، لقلة الماء في ذلك الطريق القاحل الطويل . ثم خرج تورانشاه من عانة يريد دمشق ، على طريق السماوة في البرية الصحراوية كذلك ، خوفاً من الوقوع في أيدي بعض القبائل العربية الضاربة في بادية الشام ، فوصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٥ يناير سنة ١٢٥٠ م .

وأقام تورانشاه أيام عيد الفطر بقلعة دمشق ، وأصدر بها عدة قرارات إدارية ومالية ، كأنما هو سلطان متربّع في دست السلطنة ، مما يدل على أن أخبار وفاة أبيه السلطان الصالح أيوب لم تكن مكتومة عن الناس ، بالدرجة التي تصرّ المراجع على تأكيدها ، بل كانت معروفة في دمشق وغيرها من المدن الكبرى في الدولة الأيوبية ، بين كبار موظفيها على الأقل . ومن هذه القرارات التي أصدرها تورانشاه بدمشق ، أنه خلع على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور خلعة النيابة ، أي أنه أقرّه على وظيفة نيابة السلطنة بدمشق ، كما خلع على الأمراء القيمرية الأكراد عدداً من الخلع الثمينة ، وأعطاهم الأعطية الكثيرة ، وأخرج لذلك من خزائن أبيه بدمشق والكرنك كمية كبيرة من الخلع والأموال والهدايا ، وفرّقها عليهم .

وكانت القاهرة على معرفة بأخبار وصول تورانشاه إلى دمشق ، إذ

وردت إليها البطائق بذلك غداة نزوله بالقلعة الدمشقية، وضربت لذلك البشائر السلطانية بالقاهرة والمنصورة. ثم سار تورانشاه إلى غزة، حيث لقيه قاضي القضاة بدر الدين حسن بن يوسف السنجاري، وهو من أكبر رجال الدولة الأيوبية زمن السلطان الصالح أيوب. ووصل تورانشاه بعد ذلك إلى مدينة الصالحية، ونزل بقصر أبيه هناك. ومن يومئذ نودي بسلطنة تورانشاه، وعمره وقتذاك خمس وعشرون سنة؛ وأُعلن موت السلطان الصالح أيوب، وكان قبل ذلك ما يقدر أحد ينطق بموته، على قول ابن واصل وغيره من المؤرخين.

واستقبل السلطان المعظم تورانشاه بمدينة الصالحية جماعة من أمراء الدولة الأيوبية الذين حضروا لاستقباله هناك، وعلى رأسهم الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني، نائب السلطنة بالقاهرة، ومعه المؤرخ ابن واصل. وأمعن السلطان تورانشاه في التعبير عن شكره للأمير حسام الدين، وتقديره لما قام به من احتياطات داخلية وخارجية لصيانة السلطنة حتى حضوره إلى البلاد المصرية، فخلع عليه خلعة سنية، ومنطقة ثمينة مذهبة، وسيفاً محلى بالذهب، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ذهباً. ثم رحل تورانشاه من الصالحية إلى المنصورة، عن طريق منزلة حاتم وبلدة تلبانة، بمركز منيا القمح الحالية. ووصل تورانشاه أخيراً إلى المنصورة، في يوم الجمعة ٢١ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ، الموافق ٢٥ فبراير سنة ١٢٥٠ م، أي بعد سبعة عشر يوماً من معركة المنصورة.

وفي هذه الأيام السبعة عشر حدثت حوادث دلت على أن معركة المنصورة لم تكن هزيمة صليبية كبيرة فحسب، بل فاتحة لسلسلة انهزيمات صليبية أخرى، عاجلة في البر والنهر. ففي مطلع الفجر من اليوم التالي لمعركة المنصورة، أي يوم الأربعاء ٥ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ، الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ م، وهو بداية الصيام الكاثوليكي الكبير، هجمت فرقة

من المشاة والخيالة المصرية الأيوبية على معسكر جديلة ، حيث بات الملك لويس التاسع وجوانفيل ، في حراسة بقايا المجانيق والأدوات الثقيلة التي غنمها الصليبيون سابقاً من ذلك المعسكر ، بعد مقتل القائد فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ . ولم يدر بخلد الملك لويس ورجاله أن القوات المصرية الأيوبية تعود إلى الهجوم والمناوشة بهذه السرعة . ولذا وقع بمعسكر جديلة من المفاجأة للصليبيين ، مثلما وقع به في اليوم السابق من المفاجأة للقوات المصرية الأيوبية . غير أن القياس هنا مع الفارق الكبير بين الحادثين ، لأن الفرقة المصرية الأيوبية الهاجمة لم تزد وقتذاك عن كتيبة مشتركة من المشاة والخيالة ، ولم تقصد هذه الكتيبة إلى شيء سوى المناوشة الخفيفة الخاطفة ، ولذا عادت أدراجها بعد أن تحملت خسائر قليلة ، وبعد أن أصابت بسيفها عدداً من جند الصليبيين .

على أن أهم ما حدث ذلك اليوم هو ما قام به قائد القوات المصرية الأيوبية الجديد ، وهو الأمير بيبرس البندقدارى ، من مظاهرة عسكرية بمدينة المنصورة نفسها ، إذ طاف بشوارعها وأزقتها وثكناتها ، في موكب عسكري يتصدره جاويش من جاويشيتة ، يحمل ملابس صليبية ملكية عسكرية ، على رأس عود نشاب طويل ، وحوله جماعة من الجاويشية المساعدين ينادون في صوت إنشادي عالٍ ، بأن هذه الملابس تتعلق بالملك الفرنسي لويس التاسع ، وهي منزوعة عن جثمانه بعد موته قتيلاً في معركة المنصورة ؛ والحقيقة إن هذه الملابس كانت لأخيه روبرت كونت أرتوا الذي مات قتيلاً في تلك المعركة . وكان مثل ذلك الخلط بين الملك لويس وأخيه سهل الوقوع ، لأن ملابس أعضاء البيت الملكي الفرنسي تطرزت كلها بطراز زهرة الزنبقة ، ولا فرق فيها بين ما يتعلق منها بالملك نفسه وبين ما يتعلق منها بإخوته ، إلا من حيث الطول أو العرض . وأمر الأمير بيبرس البندقدارى أولئك الجاويشيتة أن ينادوا أيضاً في ذلك

الموكب الذى شهدته الخاص والعام من أهل المنصورة ، والقوات المصرية الأيوبية بها ، أن الصليبيين أمسوا بلا ملك يقودهم ، وأن الاستعدادات جارية على قدم وساق لافتراض الفرصة الأولى لمهاجمتهم ، بكل قوة ممكنة ، يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠ م ؛ وفى ذلك التحديد وعلنيته ، فى موكب عسكرى خرجت المنصورة كلها لمشاهدته ، دليل على مبلغ اعتداد الأمير بيبرس البندقدارى بقواته من الخيالة والمشاة المصرية الأيوبية ، بعد إفاقتها من كارثة جديدة ، بفضل ما تم لها من ظفر فى معركة المنصورة .

ووصلت أخبار ذلك الموكب ، ونداءاته وإنذاراته . إلى إسماع الملك لويس التاسع ، وهو منهمك فى إحاطة المعسكر الصليبي الجديد بجديلة بسور من الأعواد الخشبية ، بعد أن ألقى فى بحر أشموم طناح ما استطاع أن يلقي من طين وحطام وأحجار وأخشاب ، لتقوية الجسر الذى غدا واصلاً بين جديلة والمعسكر الصليبي الشمالى . وكان من المعقول أن ينهض الملك لويس التاسع بالإضافة إلى هذه الأعمال التحصينية الدفاعية ، أو بدلاً منها ، بعمل هجومى كبير ، منذ استيلائه على جديلة ، وعبور عدد من المشاة الصليبية إليه من المعسكر الصليبي الشمالى . بعبارة أخرى كان ينبغى للملك لويس التاسع ، بعد استقراره فى جديلة ، أن يقود زحفاً سريعاً مشتركاً نحو المنصورة ، لكشف مدى ما حاق بالطليعة الصليبية على يد أخيه روبرت كونت أرتوا ، ولتحويل زمام الموقف الحربى إلى جانب الصليبيين . لكن الملك لويس لم يكن فى شئون الحرب من العباقرة ، أو من الذين يستطيعون استغلال فرصة على غير ميعاد ، كما فعل الأمير بيبرس البندقدارى يوم المنصورة . ثم إن الخيالة الصليبية لم تكن فى حال تستطيع معها أن تقوم بأية حركة هجومية ، بعد ما نالها من خسائر فى الخيالة والخيول ذلك اليوم ، كما أنه لم يكن من

المنتظر أن يسمح الأمير بيبرس ، لأية حركة هجومية صليبية أن تتقدم في زحفها طويلاً نحو المنصورة .

وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن الملك لويس التاسع استجاب إلى نداءات الأمير بيبرس البندقدارى وإنذاراته العلنية ، بالإسراع في عملياته التحصينية بمعسكر جديدة . ثم رتب الملك لويس جيشه من الخيالة والمشاة وراء السور الخشبي الحديد ، لمقاومة الهجوم المصري الأيوبي المنتظر . وكانت المشاة الصليبية أكثر عدداً من الخيالة في ذلك الجيش ، نظراً لكثرة ماخسر الصليبيون من فرسانهم وخيالتهم في الحوادث السابقة . وجعل الملك لويس في أقصى الميمنة المستندة إلى فرع دمياط أخاه شارل كونت آنجو ، على رأس فرقته ، ومعه فئات البارونات المحليين ، أي بارونات قبرص وفلسطين ؛ وفي القلب وقف الملك لويس بفرقة الخيالة الملكية ، ومعه فرقة الفرسان الداوية والبارونات الفرنسيين ؛ وفي الميسرة وقف ألفونسو كونت بواتيه ، ومعظم عساكره من المشاة ، ووراءهم جماعة المهمات وباعة الأطعمة وأتباع المعسكرات . وأسهب جوائفيل وغيره من المراجع الأجنبية إسهاباً ملحوظاً في وصف ترتيب الجيش الصليبي يومذاك ، وفي تعيين وحداته وقياداتها الفرعية والرئيسية . غير أنه لا يوجد في المراجع العربية شيء موازٍ لهذا الإسهاب ، سواء في وصف الجيش الصليبي ، أو وصف القوات المصرية الأيوبية التي أعدها الأمير بيبرس البندقدارى لذلك اليوم .

والواقع أن المرجع الأوفى لوصف تكوينات هذه القوات المصرية الأيوبية ، وخططها التي رسمها الأمير بيبرس البندقدارى بنفسه في الميدان ، هو كذلك جوائفيل . وخلاصة ما ورد بذلك المرجع بشأن هذه التكوينات أن الأمير بيبرس البندقدارى جعل قواته المصرية الأيوبية في جبهة تشبه قوساً من الفرسان والخيالة ، بلغت عدتها أربعة آلاف ، بحيث

وصلت أطرافها إلى أقصى أطراف الميمنة والميسرة الصليبية ، وطوقت المعسكر الصليبي كله تطويقاً تاماً من ناحيته . واصطفت وراء هذه الجهة من الفرسان والخيالة المصرية الأيوبية جموع كبيرة من المشاة والرماة ، لحماية حركاتها الهجومية ، كما اصطفت وراء هؤلاء وأولئك جموع احتياطية مشتركة لحماية المؤخرة من أية حركة جانبية . ووقف الأمير بيبرس ، وسط فرسانه وخيالته ومشاته ورماته ، وأجال بصره في تنظيمات الملك لويس ووحداته الصليبية ، فكلماً رأى تركيزاً صليبياً كثيفاً جعل قبالة تركيزاً مصرياً أيوبياً مشابهاً ، على حين أنفذ فئة كبيرة عدتها ثلاثة آلاف من العربان ، للزحف شرقاً إلى مخاضة مجهولة الاسم ، بعيدة عن الميدان ، لعبور بحر أشموم طناح من هناك ، ومهاجمة دوق برجنديا والمعسكر الصليبي الشمالى .

وظل الأمير بيبرس منذ صباح يوم الجمعة إلى وقت الظهر ، وهو يتنقل بين الصفوف استعداداً للهجوم العام ، حسبما عزم على القيام به كتلة واحدة . ووقف الملك لويس التاسع وقادته خلف السور الخشبي ، وقفة المنتظر المستعد للدفاع ؛ وفي ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن القوات المصرية الأيوبية كانت على أهبة للتعقيب والثنية على معركة المنصورة ، بمعركة مثلها أو أشد منها ، وذلك بهجوم خاطف نهائى حاسم ، وأن في نيتها القضاء على الجيش الصليبي كله ، واسترجاع معسكر جديدة ، بأى ثمن .

ووضحت هذه النية تماماً حين صدرت الأوامر إلى القوات المصرية الأيوبية بالهجوم العام المتفق عليه ، إذ امتلأ الجو بأصوات الطبول والكوسات والتقارات والأبواق الحربية ، وزحفت الخيالة والمشاة المصرية الأيوبية من جميع الجهات نحو المواقع الصليبية ، في وقت واحد تقريباً ، على حين أخذت نبال الرماة وقذائف النيران الإغريقية تعمل عملها النريع ، بين فئات الصليبيين . وكانت تعليمات الملك لويس التاسع أن يثبت القادة الصليبيون في مواضعهم من الميدان ، مهما تكلفوا في سبيل ذلك

من خسائر ، وأن يحفظوا لصفوفهم تكويناتها الدفاعية ، حتى تنتهى وطأة الهجوم المصرى الأيوبي ، بانتهاء ما به من حماسة ومادة حربية . ولذا حمى القتال بين الفريقين المتحاربين إلى درجة ارتفعت بتلك الوقعة إلى مستوى الوقائع الحاسمة فى التاريخ .

ثم وصل الخبر إلى الملك لويس التاسع بأن الميمنة الصليبية قرب فرع دمياط ، بقيادة أخيه شارل كونت آنجو ، تكاد تنهار تمام الانهيار ، تحت أقدام الحيل والخيالة المصرية الأيوبية ، فضلاً عن وابل النار الإغريقية ، وأن حياة شارل كونت آنجو فى خطر شديد . فركض الملك لويس بفروسه شاهراً سيفه ، وشقّ الصفوف الصليبية المتراسة فى أماكنها ، لتخليص أخيه من براثن الموت ، قبل فوات الأوان . وأصابته النار الإغريقية ذيل الفرس الملكية وهى راكضة ، فازداد ركضها عنفاً ، واختل توازنها . ومع هذا ظلّ الملك لويس متشبثاً بمقعده من هذه الفرس ، برغم ركضها العنيف ، ولم يلبث أن وصل إلى حيث كان أخوه شارل واقفاً يدفع عن نفسه يميناً وشمالاً ، وجنوده تقاوم الهجوم المصرى الأيوبي مقاومة مستميتة ، وتحمل الخسائر من الجرحى والقتلى فى سبيل البقاء فى مواضعها . وبفضل وصول الملك لويس إلى الميمنة الصليبية ، نجا شارل كونت آنجو من مصير حاق مثيله سابقاً بأخيه روبرت كونت أرتوا ، يوم معركة المنصورة ، وتحول الهجوم المصرى الأيوبي إلى أطراف القلب الصليبي ، حيث كانت أشد أنواع المقاومة الصليبية ثباتاً وعناداً وصلابة ، منذ بداية القتال .

واختلفت الحال عن ذلك فى ناحية الوسط من القلب الصليبي ، حيث وقف رئيس الداوية وليام سوناق ، وحوله الفئة القليلة التى بقيت له من فرسانه ، بعد ذهاب معظمها فى معركة المنصورة . وكانت بضعة من بقايا المجانيق المصرية الأيوبية التى استولى عليها الصليبيون متروكة فى هذه الناحية من القلب ، وفوقها ألواح من الخشب لإخفائها عن الأنظار ، غير أن

قذائف النار الإغريقية اشتعلت في هذه الألواح الخشبية ، وأصاب شظية من شظاياها عين الرئيس وليام سوناق فأضاعها ، مع العلم بضياح عينه الأخرى قبل ذلك في معركة المنصورة . ثم لم يلبث الرئيس سوناق أن مات متأثراً بجراحه الكثيرة التي أصابته في ذلك اليوم ، كما مات معظم البقية الباقية من فرسانه ، لكثرة ما انهال عليهم من رمى النبال وقذائف النار الإغريقية . أما الصفوف الصليبية الأخرى من ناحية الوسط من القلب حتى الميسرة ، فكان أقربها إلى مواضع فرقة الفرسان الداوية ، فرقة فرنسية ألحقت النيران الإغريقية بها كذلك خسائر فادحة ، ثم فرقة الفلاندرين بقيادة كونت فلاندر ، ووراءها فرقة جوانفيل والشمبانين . ولم تكن هاتان الفرقتان الشمبانية والفلاندرية أقل نصيباً من وطأة الهجوم المصري الأيوبي ، ما عدا أن مواضعهما عند منعطف السور الخشبي جعلهما بنجوة نسبية من هجمات أمامية كثيفة . ولذا لم تنزل بفرقة كونت فلاندر خسائر غير عادية ، وحمد جوانفيل الصدفة الحميدة التي جعلته وفرقة الشمبانية وراء هذه الفرقة الفلاندرية ، لأنه لم يكن قادراً على أى دفاع أو مقاومة ، بسبب ما لحقه من جراح سابقة صبيحة يوم مخاضة سلمون .

وأما الميسرة الصليبية ، وعلى رأسها ألفونسو كونت بواتيه ، فتألف معظمها من المشاة ، كما تقدمت الإشارة إليه . وكان نصيب هذه الفرقة هزيمة تامة ، فضلاً عن وقوع كونت بواتيه نفسه أسيراً ، عند أول الهجوم المصري الأيوبي ذلك اليوم . وخشى جماعات المهمات التموينية ، والباعة وأتباع المعسكرات ، وهم الذين كانوا ملحقين بهذه الميسرة ، مما سوف يحل بهم من الأسر والهوان وضياح العيش ، في أعقاب هذه الهزيمة السريعة ، فاندفعوا نحو المهاجمين من القوات المصرية الأيوبية اندفاعاً جنونياً ، وما زالوا في اندفاعهم حتى وصلوا إلى كونت بواتيه ، وأرجعوه معهم إلى فرقته . وكان مما خفف قليلاً من تلك الهزيمة التامة على الميسرة الصليبية ، أن استطاعت فرقة

من رماة المعسكر الصليبي الشمالى أن ترمى على القوات المصرية الأيوبية
المقابلة لها عبر بحر أشموم-طناح ، بعد أن أحاطت هذه القوات المصرية
الأيوبية الميسرة الصليبية إحاطة تامة ، وكادت تبيدها عن آخرها (١) .

وهكذا انتهى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه زهرة الجيوش الصليبية ،
واعتبره جوانفيل لذلك يوماً عصيباً على الصليبيين ، ورجعت القوات المصرية
الأيوبية إلى قواعدها سالمة ، على قول التعبير الحربى الحديث ، بعد أن أدت
مهمتها الهجومية ، على أحسن ما أراد قائدها الأمير بيبرس البندقدارى .
وذلك اليوم ينبغي له أن يسمى يوم وقعة جديلة الكبرى ، تمييزاً له من يوم
وقعة جديلة السابقة ، وهو يوم الكارثة التى مات فى أولها الأمير فخر الدين
يوسف بن شيخ انشيوخ قتيلاً ، بيد فرسان الداوية ، وجفلت فى أثنائها
القوات المصرية الأيوبية فى أعداد كبيرة إلى المنصورة . أما يوم جديلة الكبرى
فحوادثه على تقيض ذلك كله ، ويقع تاريخه ، كما تقدمت الإشارة إليه ،
يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠ م ،
وهو بداية الصيام الكاثوليكي الكبير . وحوادث هذه الوقعة الحربية الكبرى ،
كما يرى القارئ ، لا تقل فى مبناها أو مغزاها عن حوادث معركة المنصورة ،
من حيث أنها أول حلقة - بعد المنصورة نفسها - فى سلسلة من الهزائم التى
غدت مقدرة مكتوبة على الصليبيين .

غير أنه مما يدعو إلى الالتفات والحيرة أن المراجع العربية كلها ، المعاصرة
منها والمتأخرة ، أغفلت أخبار هذه الوقعة الكبرى تمام الإغفال ،
مع العلم بورودها مفصلة أدق تفصيل ، فى كل من جوانفيل والمخطوطة
الروتلانية . ثم إنه مما يدعو إلى ما هو أكثر من الالتفات والحيرة ، أن
بعض المراجع الفرنسية الحديثة تصف هذه الوقعة بأنها كانت نصراً

(١) تستحق هذه الوقعة أن تكون موضوعاً لفصل مستقل من هذا الكتاب ، لولا قلة
المادة التاريخية التى تلزم لكتابة فصل بذاته ، مع العلم بأن هذه الوقعة هى المحور الذى دارت حوله
جميع الحوادث التالية .

شخصياً للملك لويس التاسع ، برغم ما أوردته مصادرها الأصلية مسجلة هنا فيما سبق ، وبرغم وصف الملك لويس لتلك الواقعة ، في خطبة ذات نغمة حزينة عزائية لقادته ، بأنها كانت عملية دفاعية ، ضدّ هجوم بدأت به واختتمته القوات المصرية الأيوبية ، حسبما شاءت وأرادت ، كأنما هي لا تخشى من الصليبيين خاشية^(١) .

ثم وقف القتال فجأةً بين الفريقين المتحاربين ، لأسباب لا تذكرها المراجع العربية أو الأجنبية صراحةً أو تلميحاً ، لكن ينطق بها منطق الحوادث الجارية في كل من المعسكر المصري الأيوبي ، والمعسكر الصليبي . وأول هذه الأسباب - فيما يبدو - من ناحية الصليبيين أن وقعتي جديلة ، الأولى والثانية على حدٍ سواء تقريباً ، وهما اللتان وصفتهما بعض المراجع الفرنسية الحديثة بأنهما كانتا نصراً شخصياً للملك لويس التاسع ، أحدثتا بالصفوف الصليبية من الحسائر المادية ، وفقدان الروح المعنوية . أكثر مما اتفقت هذه المراجع الفرنسية الحديثة على التسليم به . ثم برهنت كثرة الجثث التي أخذت تطفو على وجه الماء في بحر أشموم طناح ، على صدق هذا القول ، إذ تغلبت عفونات هذه الجثث على ثقل الملابس الحربية المزودة ، وعلى البرودة الشتوية الموسمية في شهر فبراير ، ودفعتها إلى سطح الماء في أعداد متزايدة ، بعد خمسة أيام من وقعة جديلة الكبرى ، أو تسعة أيام من وقعة جديلة السابقة عليها . ومنع الجسر الصليبي الواصل بين ضفتي بحر أشموم طناح مرور هذه الجثث من تحته ألبتة ، لشدة اقتراب دعائمه وقوائمه بعضها من بعض . فتراكت هذه الجثث إلى مسافة غير

(١) انظر ملخص خطبة الملك لويس في ملحق رقم ٢ ، ثم انظر بعد ذلك

(Grousset : Op. Cit. III. pp. 465, 473) ، حيث توصف وقعة جديلة الكبرى هذه ، في عنوان عريض وخط واسع بأنها الانتصار الشخصي الثاني للملك لويس ، على اعتبار أن وقعة احتلال جديلة قبل ذلك كانت انتصاره الشخصي الأول ، ودليلاً على يملوكه .

قصيرة ، وامتلاً بها مجرى الماء الراكد . وأمر الملك لويس باستخدام مائة من العمال الصليبيين لإخراج هذه الجثث من الماء ، وإزالة ما عليها من ملابس ، للتعرف على الجثث الصليبية من غيرها ، فما كان منها من موى الصليبيين انتشلوه ودفنوه في حفائر جامعة عميقة ، بعد وضعها في أكفان وتوايت بسيطة ، فيما يبدو ، وما كان منها من موى المسلمين حملوه إلى الناحية الأخرى من الجسر ، وألقوا به في الماء ، ليذهب مع ما عساه أن يكون وقتذاك من تيار ضعيف إلى بحيرة المنزلة^(١) . واستغرق العمال في ذلك العمل ثمانية أيام متتالية ، وتحولت ضفتا مجرى بحر أشموم طنّاح إلى معرض جنازى ، للتعرف على الجثث الصليبية قبل دفنها ، وإلقاء غير الصليبية منها في الماء ، وكان من بين الجثث الصليبية جاويشة روبرت كونت آرتوا الذين ماتوا معه في معركة المنصورة .

وكان الصليبيون وقتذاك يصومون صيامهم الكبير ، منذ اليوم التالى لمعركة المنصورة ، واعتمادهم في كثير من طعامهم على الأسماك دون غيرها من أنواع اللحوم الممنوعة في الصيام الكاثوليكي . ولذا أكل الصليبيون من أسماك بحر أشموم طنّاح ، وهى ممتلئة من سموم الجثث الطافية وغير الطافية ، ولا بد أنهم شربوا من ذلك البحر الذى غدت مياهه

(١) وجد أحد الإنجليز المقيمين بمدينة المنصورة ، أواخر القرن الماضى ، كيات كبيرة من عظام وجاهم بشرية ، مبعثرة في مساحة واسعة من أرض بلدة جديلة ، بينها وبين المنصورة ، كأنما كانت هذه المساحة الواسعة جبانة فسيحة قديمة ، كشفت عنها عوامل التعرية والتغيرات الأرضية والجوية . غير أن هذه الكيات الكبيرة من العظام والجاهم البشرية لم تتناسب مع بقايا الموى في بلدة من حجم جديلة ، في أى عصر من العصور . ولذا رجح هذا الباحث أن تكون هذه العظام والجاهم البشرية ، من بقايا الجثث الصليبية التى دفنها عمال الملك لويس التاسع في حفائر عميقة وأكفان وتوايت بسيطة ، لحفظها من التلف السريع ، وذلك بعد أن دلت معلومات حطية تشرّحية على أن هذه العظام والجثث ليست لمصريين أيوبيين ، بل لأجانب أوروبيين . انظر :

آسنة ملوثة ، فضلاً عن استنشاق هواء مشبع بالعفونات الوبيثة . ولذا انتشر بين الصليبيين مرض وبائي ، وصف جواناته وعلاماته ومضاعفاته ، فقال إن المصاب بذلك الوباء غثاً وغاب عن الحياة يوماً أو أكثر ، وهو يعالج سكرات الموت بين الرجاء واليأس ، وإن الناجي منه بدا في أعقاب إصابته به كأنه حزمة من عظام يكسوها جلد داكن طافح بالبثور ، وإن الذين ماتوا فعلاً بسبب ذلك الوباء لم يكونوا قليلين . ومن البديهي أن المعسكر الصليبي فتكت به وقتذاك أمراض وبائية مختلفة ، لا مرض وبائي واحد ، وأنه لم يكن يوجد بالمعسكر الصليبي من الأصحاء إلا خائفٌ على نفسه من المرض أو الموت ، أو باكٍ على ميتٍ قريب في خيمة مجاورة ، على قول المخطوطة الروتلانية .

أما أسباب توقف القوات المصرية الأيوبية عن أية حركة من ناحيتها ، بعد أن أدت مهمتها على أحسن ما يكون من التوفيق ، يوم وقعة جديلة الكبرى ، فيبدو منها أولاً وقبل كل شيء ، أن الهجوم على الخطوط الصليبية ذلك اليوم ، برغم قلة الخسائر المصرية الأيوبية ، بالقياس إلى خسائر الصليبيين ، استلزم إعادة تنظيم الصفوف المصرية الأيوبية ، قبل القيام بأى هجوم عامٍ آخر . ثم كانت هناك حالة القلق التى نجمت عن وصول تورانشاه إلى المنصورة ، ولا سيما بعد أن وضح للأميرة شجر الدر ، وللأمير أيبك التركمانى ، وغيره من أمراء الأتراك من فرقة المماليك البحرية الصالحية ، وهم الذين تحملوا مسئوليات الحكم والحرب مدة غير قصيرة ، أن السلطان المعظم تورانشاه لا ينوى أن يعترف لهم بجميل ما صنعوا له قبل وصوله إلى مصر ، أو أن يجزيهم على خدماتهم العظيمة لدولته وهو بعيد عنها ، بل إنه يضمن لهم سوءاً . ومما برهن لهم على ذلك أن السلطان تورانشاه أفرد بإكرامه وإنعامه رجال الدولة من الأمراء الأكراد القيمرية ، وهو بدمشق ، وأنه كرّر ذلك التحيز إلى الأكراد غداة وصوله إلى

مدينة الصالحية ، بالمبالغة في إكرام الأمير حسام الدين بن أبي على الهذباني ، نائب السلطنة بالقاهرة ، وهو كردى صميم ، كما أنه رشح للوزارة كاتبه النشوبة الله ابن حشيش ، بعد أن أسلم كاتبه هذا على يده ؛ وكل ذلك دون مشورة أحد من الأمراء المسئولين عن شئون الحكم والإدارة في مصر ، منذ وفاة السلطان الصالح أيوب .

ولعل هذه الجفوة الابتدائية الصامتة ، بين السلطان تورانشاه وأرباب الدولة وقادة القوات المصرية الأيوبية في المنصورة ، ومعظمهم من فرقة المماليك البحرية الصالحية ، هي التي أدت بالسلطان تورانشاه إلى التحول عن متابعة الهجوم البرى على مواقع الصليبيين في جديلة ، إلى خطة نهريّة محورها تجويعهم في ذلك المعسكر ، بقطع مواصلاتهم في النيل مع دمياط ، دون حاجة إلى الاستعانة في تنفيذ ذلك بالقوات المصرية الأيوبية البرية ، من المماليك البحرية الصالحية وغيرهم ، بدليل انعدام أية وقعة برية بين الفريقين المتحاربين ، بعد وقعة جديلة الكبرى .

وتنفيذاً لهذه الخطة النهرية الجديدة أمر السلطان تورانشاه ، بعد بضعة أيام من استقراره بالقصر السلطاني بالمنصورة ، بسحب عدد من المراكب المصرية الأيوبية الراسية جنوباً عند إحدى الموانئ النيلية القريبة ، ولعلها منية سمندو الحالية ، وتفكيك هذه المراكب لتحمل قطعاً على ظهور الجمال إلى بحر المحلة ، ثم تركيبها وشحنها بالمقاتلة هناك ، لإقلاعها شمالاً إلى مصب هذا البحر في النيل قرب شربين الحالية ، حيث تكمن هذه المراكب بالمرصاد للسفن الصليبية القمونية التي يعتمد الصليبيون على وصولها إليهم تبعاً من دمياط . وتنجزت هذه العملية البرمائية في سرعة هائلة ، ودلت على عزيمة تعاونية قوية بين المكلفين بتنفيذها في البر والنهر ، فضلاً عن إيمان راسخ بالنصر النهائي ، برغم ما أخذ يسرى في الدوائر المصرية الأيوبية من أنباء الكراهية والبغضاء ، بين السلطان تورانشاه وأصحاب الزعامة السياسية

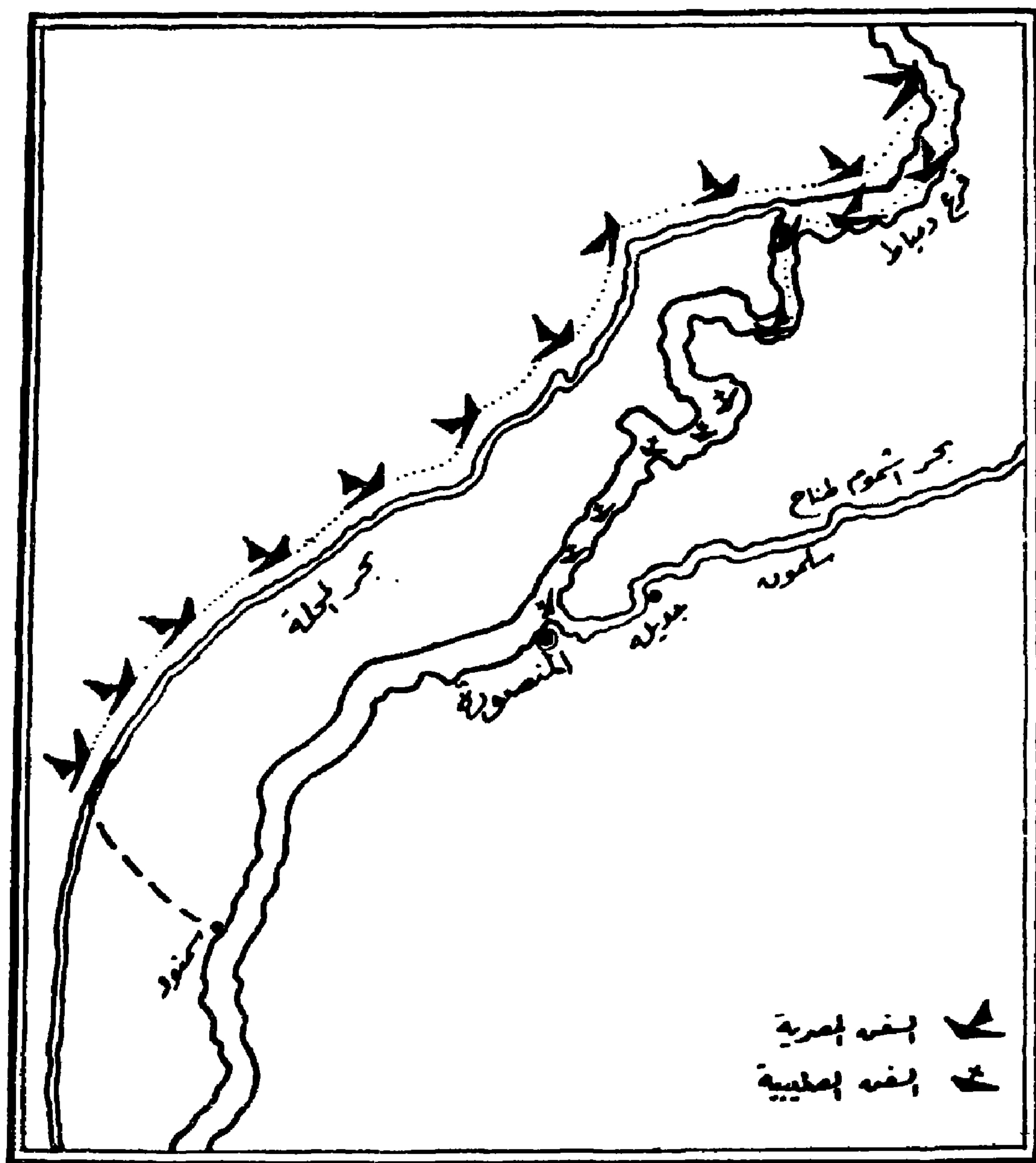
والحرية في دولته . وسارت قافلة صغيرة من هذه المراكب المصرية الأيوبية في بحر المحلة سيراً حاذراً ، حتى وصلت إلى فوهته قرب شربين الحالية ، وتسالت كذلك من هناك على حذرٍ إلى مجرى النيل . لكن السفن الصليبية المكلفة بحراسة المجرى بين المنصورة ودمياط ، لم تلبث أن كشفت هذه المراكب المصرية الأيوبية القليلة العدد ، وهي من النوع المعروف باسم الحراريق ، فهاجمتها واستولت على سبعٍ منها ، بعد أن أفلت بحارتها منها خشية الوقوع في أيدي الصليبيين ؛ وكان ذلك في يوم الاثنين مستهل ذي الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٧ مارس سنة ١٢٥٠ م ، أى بعد أحد عشر يوماً من وصول السلطان تورانشاه إلى المنصورة .

ثم تكاملت المراكب المصرية الأيوبية في بحر المحلة ، وازدادت أعدادها ازدياداً ملحوظاً ، بعد يومين أو ثلاثة من ذلك التاريخ ، وظهرت بينها مراكب حربية وفيرة من النوع المعروف باسم الشوانى ، وواحدتها شينية . وكمن عدد من هذه الشوانى الحربية عند فوهة بحر المحلة ، في انتظار قافلة ضخمة من سفن المؤونة الصليبية التى بارحت دمياط وقتذاك ، كما خرج عددٌ آخر من هذه الشوانى إلى مجرى النيل ، وسار فيه جنوباً حتى وقف على مسافة جنوبى شربين ، لقطع الطريق على القافلة الصليبية ، إذا هى نجحت في الإفلات من الشوانى المصرية الأيوبية الكامنة لها بالمرصاد . فلما جاوزت القافلة الصليبية شربين ، تحركت نحوها هذه الشوانى المصرية الأيوبية من كمينها ، ولحقت بها واشتبكت معها في معركة نهريّة كبيرة ، ولا سيما بعد أن تعزّزت بالشوانى التى انحدرت إليها عائدة من ناحية جنوبى شربين . وهكذا هجمت الشوانى المصرية الأيوبية على السفن الصليبية من ناحيتين في وقت واحد ، وأخذتها أخذاً وبيلاً ، وكانت عدة هذه السفن الصليبية اثنتين وخمسين سفينة . واستولت الشوانى على حمولات تلك السفن الصليبية التموينية من العلف والميرة ، وهى كميات

كثيرة ، كما أخذوا رجالها أسرى ، وعدتهم نحو ألفى رجل ، وأرسلوهم على ظهور الجمال إلى المنصورة^(١) ؛ وتلك هى المعركة النهرية التى ينبغى أن تسمى باسم معركة بحر المحلة ، وأن يضاف اسمها هذا إلى قائمة الأجداد المصرية الأيوبية فى التاريخ .

ثم تلا هذه الهزيمة الصليبية النهرية العظيمة هزيمة نهرية أخرى أعظم منها على الصليبيين ، فكانت هى القاضية على كل آمال الملك لويس التاسع ، فى الحاضر والمستقبل . وتفصيل هذه الهزيمة النهرية الأخرى أن قافلة ثانية من قوافل الميرة الصليبية الواردة من دمياط ، وعدتها اثنتان وثلاثون سفينة محملة بالحبوب والأعلاف والمؤن ، ومن ضمنها سبع شوانٍ صليبية حربية حارسة ، حاولت اختراق خط الشوانى الحربية المصرية الأيوبية التى غدت مهيمنة على مجرى النيل تمام السيطرة . واصطدمت هذه السفن الصليبية بالشوانى المصرية الأيوبية عند موضع غير معروف على وجه التحديد حتى العصر الحاضر ، واسمه مسجد النصر فى المراجع العربية ، وهو على مسافة سبعة كيلو مترات شمالى المنصورة ، حسب تقدير جوانفيل . وهناك نشبت معركة نهرية هائلة ، وانتهت هذه المعركة بوقوع السفن الصليبية كلها فى أيدي رجال الشوانى الحربية المصرية الأيوبية ، ما عدا سفينة صليبية صغيرة واحدة تابعة لكونت فلاندر ، إذ أفلتت هذه السفينة الصغيرة فى جنح الظلام ، ووصلت إلى أطراف المعسكر الصليبي الشمالى على النيل ، وأخبرت باستيلاء الشوانى المصرية الأيوبية على القافلة الصليبية كلها ، فضلاً عن حولتها التموينية المتنوعة . وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٩ ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، أى يوم وقفة عرفات ، الموافق ١٥ مارس سنة ١٢٥٠ م .

(١) انظر ملحق رقم ١ ، حيث أورد ابن واصل أخبار هذه المعركة النهرية ، قبل أخبار وقوع الحرائق المصرية الأيوبية فى أيدي الصليبيين ، يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، وهو غير معقول ، نظراً لفضالة القوات النهرية المصرية الأيوبية فى بحر المحلة قبل ذلك التاريخ .



الخريطة رقم ٨

معركة مسجد النصر النهرية

وتعدّ معركة مسجد النصر النهرية خط تقسيم المصائر في تاريخ حملة لويس التاسع على مصر ، وهي جديرة بهذا الوصف جدارة لا تشوبها شائبة أو نقص ، وكفى أنها أكدت نهائياً سيطرة المراكب الحربية المصرية الأيوية على الطريق النهري بين دمياط والمنصورة ، وجعلت الجيوش الصليبية تحت رحمة هذه السيطرة التامة . غير أنه من المؤسف أن موضع هذه المعركة غير معروف جغرافياً على وجه الدقة حتى العصر الحاضر ، وربما كانت تسميته بهذا الاسم من باب التخليد المعاصر لتلك المعركة النهرية العظمى ، ثم حلّ محله اسم آخر لعله بلدة البدالة الحالية ، ولا سبيل إلى ترجيح هذا الرأي أو غيره من الآراء . إلا عن طريق بحوث أثرية طبوغرافية مستقبلية .

ولم يعلم الصليبيون بحدوث هاتين المعركتين النهريتين ، إلا بعد وصول سفينة كونت فلاندر إليهم ، على قول جوانفيل نفسه ، وأدركوا أخيراً بأس أحوالهم في معسكرهم جنوبي بحر أشموم طنّاح ، مع العلم بأنهم لم يجرؤوا على الخروج من معسكرهم هذا جنوباً أو شمالاً ، منذ وقعة جديلة الكبرى ، وهو معسكر فتكت به الأمراض الوبيئة ، وبات أهله مهددين بالمجاعة المهلكة ، وسوف تنتابهم لذلك أمراض الحمى والدوسنطاريا ، مما هو أشد فتكاً .

وفي سبيل اتقاء هذه النوائب المتلاحقة جنح الملك لويس التاسع إلى سياسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه . بما يمكن أن يستقيم له من وسائل الإنقاذ . ورأى الملك لويس أولاً أن يجلو الجيش الصليبي عن معسكر جديلة ، بالانتقال عن طريق الجسر المعروف إلى شمالي بحر أشموم طنّاح ، حيث أقام دوق برجنديا بجزء كبير من القوات الصليبية ، منذ بداية القتال . ووافق جميع البارونات الصليبيين على ذلك المشروع ، وبدأوا في تنفيذه حسب الإرشاد الملكي ، بإقامة برج خشبي واطئ عند مدخل الجسر ، وشحنه بفرقة من الرماة بالنشاب ، لحماية الفرق الصليبية وهي تنسحب من

معسكر جديدة ، ولإخفاء عبورها عن أنظار القوات المصرية الأيوبية ورماتها . وترتبت عملية العبور بحيث جعل الملك لويس التاسع فرقة الملكية في المؤخرة ، وراء جميع الفرق الصليبية الأخرى ، على أن يكون القائد الفرنسي والترشاتيون في نهاية هذه المؤخرة ، لحماية الجيش الصليبي المنسحب من أية حركة مفاجئة معادية . ولذا لم يلبث معسكر جديدة أن امتلأ بحركة غير عادية ، بعد ما خيم عليه من سكون اليأس والوباء والمجاعة ، مدة ثمانية أسابيع طويلة ، أى منذ وقعة جديدة الكبرى ومعركة مسجد النصر النهرية . وأحسّت القيادة المصرية الأيوبية بهذه الحركة غير المنتظرة ، دون أن تهتدى إلى معانيها أو أهدافها ، لكنها اتخذت العدة لجميع احتمالاتها ، على أية حال .

وأخيراً ، ذات يوم لعله^(١) يوم الثلاثاء ١٦ ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٢ مارس ١٢٥٠ م . بدأت الفرق الصليبية من الخيالة والمشاة في العبور ، فهجمت عليها من فورها كتيبة من الخيالة المصرية الأيوبية ، وحملت على البرج الخشبي عند رأس الجسر . وتلقت فرقة المؤخرة الملكية الصليبية هذا الهجوم المصرى الأيوبي ، وتصدت له ، وشغلته بالمناوشة والكر والفر ، حتى انتهى عبور سائر الفرق الصليبية إلى شمالى بحر أشموم طنّاح ؛ ثم عبرت المؤخرة الملكية بدورها ، حسب الترتيب المرسوم . ولذا لم يبق من الفرق الصليبية عند رأس الجسر سوى فرقة والترشاتيون ، وهى نهاية المؤخرة الملكية ، فاصطلت هذه الفرقة بوابل الرماية التى صوبتها إليها كتيبة مشتركة من الخيالة والمشاة المصرية الأيوبية من النبال والسهم ، والطين والحجارة ، وكادت عساكرها تقع فى الأسر ، لولا عودة شارل كونت آنجو لنجسيتها ، واستطاعته معاونتها فى العبور .

(١) لم يحدد المرجع الوحيد لهذه الأخبار ، وهو (Joinville : Op. Cit. p. 168)

تاريخ هذه العملية الحربية ، وليس لدى المؤلف سبب خاص لاقتراح هذا التاريخ هنا سوى المدة التى لا بد أن يستغرقها إنجاز هذه العملية ، بعد معركة مسجد النصر النهرية ، أى بعد سبعة أيام تقريباً من هذه المعركة .

غير أن انسحاب الملك لويس التاسع بجيشه كله إلى المعسكر الصليبي الشمالى ، لم يخفف شيئاً من أحوال المجاعة والمرض بين العساكر الصليبية ، بل أخذت الأقوات تنفذ من المخازن ، لانعدام الوارد منها إلى الصليبيين ، من أية ناحية . وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً فى عيد الفصح ، وهو فى تلك السنة يوم الأحد ٢١ ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٧ مارس سنة ١٢٥٠ م ؛ فبلغ ثمن الرأس من البقر أربعين قطعة ذهبية ، ومن الضأن أو الخنزير خمس عشرة ؛ وبلغ ثمن البيضة الواحدة اثنى عشر بنساً ، والزجاجة من النبيذ خمس قطع ذهبية . وأما المرضى ، فظل على حاله الوبيئة ، كما يستدلّ من عبارات جوانفيل ، وكان من الذين أشرفوا على الموت بسبب ذلك المرض (١) .

ولذا لجأ الملك لويس التاسع إلى الوسيلة الثانية التى تراءت له من وسائل الإنقاذ وقتذاك ، وهى طلب المفاوضة والمهادنة مع السلطان المعظم تورانشاه ، على قاعدة عروض السلطان الكامل سابقاً ، وذلك بناء على نصيحة البارونات المحليين ، ولا سيما بارونات فلسطين ، برغم ما فى فكرة المفاوضة والمهادنة ، لدى الملك لويس نفسه ، من نزول عن كبرياء دينى قديم . وفى أواخر شهر مارس من تلك السنة ، جاء إلى مدينة المنصورة وفد صليبي على رأسه كونت فيليب مونتفرت ، وهو زعيم البارونات الصليبيين المحليين ، ومن أقرب المقرّبين إلى الملك لويس التاسع ، ومعه الفارس جود فرى سارجين ، وهو من أخص رجال الحاشية الملكية . وقابل هذا الوفد الصليبي نواباً مفوضين رسميين من عند السلطان المعظم تورانشاه ، ومنهم قاضى القضاة بدر الدين حسن بن يوسف السنجارى ، وهو كما هو معروف من كبار أهل المشورة والرأى فى الدولة ، والأمير زين الدين أمير جاندر ، وهو من ألزم رجال السلطان تورانشاه .

(١) انظر ما يلى هنا .

وعرض الوفد الصليبي استعداد الملك لويس التاسع للانسحاب بحملته شمالاً إلى دمياط ، تمهيداً للجلاء التام عن السواحل المصرية ، على شرط نزول السلطان تورانشاه لمعاكة عكا الصليبية عن مدينة بيت المقدس وبعض المدن الساحلية في فلسطين ، كأنما كان في استطاعة الملك لويس أن يشرط شروطاً ما وقتذاك . غير أن الجانب المصرى الأيوبي كان عليماً بالحال في المعسكر الصليبي ، ولا سيما حال التموين ، بفضل ما استولت عليه البحرية المصرية الأيوبية من السفن الصليبية التموينية في معركة مسجد النصر العظمى ، وما قبلها ، وما أعقب الاستيلاء على تلك السفن من سيطرة تامة على الطريق النهري بين دمياط والمنصورة . ولذا لم يجد المفاوضون المصريون الأيوبيون مسوّغاً أو داعياً لقبول هذه الشروط العجيبة التي اقترحها المفاوضون الصليبيون ، وفشلت المفاوضات وانتهت ، وهي لم تكد تبدأ .

لكن جوفانفيل يقول هنا إن تفاصيل العرض الصليبي لقيت قبولاً لدى المفاوضين المصريين الأيوبيين ، وإن المفاوضات انتقلت بعد ذلك إلى الحديث في موضوع الرهائن المعتادة التبادل بين الفريقين ، لضمان تنفيذ الشروط المتفق عليها . في دقة وسرعة . ويضيف جوفانفيل أن الجانب الصليبي اقترح أحد إخوة الملك لويس التاسع ، أى شارل كونت آنجو ، أو ألفونسو كونت بواتييه ، ليكون رهينة عند السلطان تورانشاه ، على حين أصرّ مندوبو الجانب المصرى الأيوبي على أن يكون الملك لويس نفسه هو الرهينة ، وأنهم لا يرضون عنه بديلاً ، مقابل أن يكون أحد أولئك المندوبين هو الرهينة المصرية الأيوبية الموازية . وغضب الفارس جود فرى سارجين من هذا الاستخفاف بذات الملك لويس ، وكان باستطاعته أن يردّ على ذلك الاقتراح مثلاً باقتراح أن يكون السلطان تورانشاه كذلك رهينة عند الصليبيين . لكن جودفرى سارجين كان فارساً ملكياً من صميم العصور الوسطى ، ولم يكن في مركز يسمح له بالردّ

على هذا الاستخفاف بمثله ؛ ولذا أجاب على اقتراح الجانب المصرى الأيوبي إجابة حائق مكظوم ، وهى أنه يفضل أن يقع هو وجميع الصليبيين قتلى أو أسرى فى أيدي القوات المصرية الأيوبية ، عن أن ينسب إليهم أنهم وافقوا على أن يتركوا ملكهم رهينة فى مصر ؛ ولهذا فشلت المفاوضات .

ونتيجة لفشل هذه المفاوضات ، بالإضافة إلى انعدام الأمل فى زوال المجاعة والمرض من المعسكر الصليبي ، لم يبق لدى الملك لويس التاسع سوى وسيلة واحدة أخيرة من وسائل الإنقاذ ، لتخليص حملته من الفناء الذى غدت مناجيله تصول وتجول بين الجنود الصليبية . والصناع والسوقة ، بعد أن برحت بهم جميعاً مضاعفات الأمراض الوبائية المتزايدة . وكان بعض هذه المضاعفات أشد وقعاً وإيلاماً من الموت نفسه ، ولا سيما أورام الفم التى عاجلها الجراثيم والمزيتون الصليبيون بالبر بالسكين ، حتى يستطيع المصابون بتلك الأورام إدخال الطعام إلى حلوقهم .

أما هذه الوسيلة الأخيرة التى اختمرت فى رأس الملك لويس التاسع . فهى الانسحاب بالجيش الصليبي كله فى البر والنهر إلى دمياط ، عاجلاً وسريعاً ، وبأية طريقة . غير أن بعض البارونات اقترحوا على الملك لويس أن يسبق هذا الانسحاب العام بالرحيل بنفسه خلصةً إلى دمياط ، فى ظلام الليل ، فى فئة من حاشيته . عن طريق البر أو النهر ، ليكون بعيداً عن أخطار الانسحاب العاجل السريع . لكن الملك لويس أبى أن يستمع إلى ذلك الاقتراح ، بل أعلن أن موضعه سوف يكون فى آخر المؤخرة وراء المنسحبين . كما حدث أثناء الجلاء عن معسكر جديدة إلى المعسكر الصليبي الشمالى .

ولم يكن هذا الانسحاب سهلاً التنفيذ ، نظر لفقدان الروح المعنوية فى الجيش الصليبي ، وضآلة الطاقة الجسمانية بين صفوفه ، فضلاً عن طول المسافة من المنصورة إلى دمياط العصور الوسطى ، وهى فى تفصيلها على وجه التقريب اثنان وعشرون كيلومتراً من شمالى المنصورة إلى شرماسح ،

وثمانية وعشرون كيلومتراً من شرمساح إلى فارسكور ، وعشرون كيلومتراً من فارسكور إلى دمياط العصور الوسطى . وهذه المسافات التقريبية تبلغ في مجموعها الكلى سبعين كيلومتراً ، وهي كثيرة المعائر والعراقيل المائبة ، كما عرفها الصليبيون تمام المعرفة سابقاً ، حين ساروا من دمياط نحو المنصورة ، بعد موسم الفيضان ، واستغرقوا في سيرهم وقتذاك سبعة عشر يوماً ، وسوف تقابلهم في طريق انسحابهم بعض هذه المعائر والعراقيل ، لا كلفتها ، نظراً لجفاف الأرض وقلة المياه في الترع والقنوات ، ولذا سوف يستغرقون في انسحابهم هذا مدة أقل كثيراً مما استغرقوا في تجربتهم السابقة ، أى سبعة أيام مثلاً ، أو حسبما تشاء المقادير الخافية في عالم الغيب والمستقبل غير البعيد^(١) .

وكانت خطة الملك لويس التاسع أن يسير الصليبيون القادرون على السير ضمن القافلة المنسحبة في البر ، وأن تحمل السفن الصليبية جميع المرضى والجرحى في النيل ، وذلك بعد قيام فئة من المهندسين بهدم الجسر المعهود ، وتفكيك قواربه وحباله وأخشابه ، حتى لا تعبر عليه القوات المصرية الأيوبية إلى شمالى بحر أشموم طنّاح ، وتهجم على مؤخرة الصليبيين المنسحبين في البر ، وهم في المرحلة الأولى من مراحل هذا الانسحاب الطويل .

ثم تقرر أن يكون البدء في تنفيذ هذه الخطة مساء يوم الثلاثاء ، بعد عيد

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٢٨ ، حيث توجد فقرة طويلة بصدد تلك المسافات ، وهي فقرة تشغل أربعة أسطر بآخر تلك الصفحة المذكورة ، وتحتوى على بضعة أخطاء لفظية وحسابية ينبغي استدراكها وتصحيحها هناك بالآتى : ” ويكنى للبرهان على هذا وذلك أن الحملة استغرقت في زحفها من دمياط العصور الوسطى إلى شمال المنصورة الحالية سبعة عشر يوماً ، وهي مسافة لا يمكن أن تزيد عن سبعين كيلومتراً ، أى أن الحملة لم تستطع أن تقطع في اليوم الواحد سوى أربعة كيلو مترات على المتوسط . . . ” . انظر كذلك ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، لتصحيح بعض الأرقام في هاتين الصفحتين ، على الوارد بالمتن هنا .

النصح الكاثوليكي ، أى مستهل المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٥ أبريل سنة ١٢٥٠ م . ولمدة أسبوع سابق على ذلك التاريخ ، على أقل تقدير ، أخذت حركة واجمة عابسة تملأ جوانب المعسكر الصليبي شمالى بحر أشموم طناح ، حتى إذا اقتربت استعدادات الرحيل من الانتهاء ، عمد الملك لويس التاسع إلى إشعال النار فى أخشاب المعسكر وأسواره ، أول يوم من أبريل ، أى قبل الموعد المضروب للحركة الانسحابية الفعلية بثلاثة أيام . وربما أراد الملك لويس بإشعال تلك النار ، وإحراق الأخشاب والأسوار الخشبية ، أن يعلن للفرق الصليبية استحالة البقاء بعد ذلك فى المعسكر الصليبي الشمالى ، وأن ينذرهم بقرب موعد الحركة الانسحابية ؛ وحدث كل ذلك على حين وقفت كتائب القوات المصرية الأيوبية ترقب بداية الحركة الصليبية للانسحاب العام .

ثم صدر الإذن بالرحيل الصليبي فى البر والنهر مساء ذلك اليوم الموعود ، ولم يلبث ظلام الليل أن حجب بين القوات المصرية الأيوبية والصليبيين المنسحبين . واعتقد الملك لويس أنه سوف يكسب لجنوده بذلك الظلام مسيرة ليلة ، وهى آمنة من أى هجوم خلفى ، وكان من أمله أن يكسب مسيرة ليلة أخرى ، قبل أن تستطيع القوات المصرية الأيوبية لإصلاح الجسر الذى أمر الملك لويس مهندسيه وعماله بهدمه ، وتفكيك قواربه وحباله وأخشابه . غير أن الجسر لم يكن مهذوماً أو مفكك القوارب والحبال والأخشاب ، أو فى حاجة إلى أى إصلاح ، لأن فئة المهندسين الصليبيين التى كلفها الملك لويس بإتلافه نسيت أن تحدث به شيئاً ، فى غمرة الاستعداد للرحيل العام . ولذا لم تكد القوات المصرية تفتن إلى رحيل الصليبيين عن معسكرهم شمالى بحر أشموم طناح ، حتى أسرع فئات منها إلى عبور الجسر وراءهم ، فى أعداد كبيرة ، للحاق بهم ، رغم ظلام الليل .

ومن هنا يستطيع الباحث أن يتابع مجرى الحوادث التالية فى كل من البر والنهر على حدة ، لأن جوانقيل قام مشكوراً بتخصيص فقرات معينة

لوصف ما جرى لشخصه ، وللسفن الصليبية التي حملته وغيره من المرضى والجرحى في النيل ، على حين خصص فقرات أخرى لتدوين ما حدث للملك لويس التاسع ووحدات الجيش الصليبي ، وخیالته ومشاته ، وعماله وسوقته ، أثناء الانسحاب العام في البرّ ؛ وهذه الفقرات الخاصة بالانسحاب البرّي مستمدة مما أدلى به الملك لويس بنفسه فيما بعد . لصديقه جوانفيل .

وكان الملك لويس التاسع وقتذاك مريضاً بالدوسنطاريا الوبائية المنتشرة بالمعسكر الصليبي ، وهو لا يكاد يستطيع الحراك أو الركوب ذلك اليوم . لكنه رفض أن يكون طريق الفراش على ظهر سفينة من السفن الصليبية المنسحبة في النيل ، مع سائر المرضى والجرحى والعاجزين عن الحركة من الصليبيين ، وأصرّ على البقاء في موضعه من المؤخرة ، كعادته في جميع العمليات الصليبية السابقة .

وبدأت السفن الصليبية عملية الانسحاب النهري باستقبال المرضى والجرحى على دفعات ، منذ ظهر يوم الثلاثاء الذي تقدّمت الإشارة إليه . وكانت فئة جوانفيل من أوائل الفئات الصليبية المبكرة في النزول إلى السفينة المعينة لها ، ابتغاء الرحيل في غفلة إلى دمياط ، قبل أن تأخذ السفن الصليبية الأخرى حولتها من المرضى والجرحى ، وقبل أن تكون سفن الحراسة الحربية اللازمة على استعداد للرحيل . غير أن البحارة الصليبيين منعوا سفينة جوانفيل من تحقيق غرضها ، بعد أن شرحوا لجوانفيل ما سوف يتعرض له شخصه من الوقوع في أسر المراكب الحربية المصرية الأيوية ، وهي المنتشرة في كل مكان ، أو الهلاك غرقاً في النيل ، إذا حاولت سفينته هذه أن تصل بمفردها إلى دمياط . أما عملية استقبال المرضى والجرحى فاستمرت حتى منتصف الليل في ضوء المشاعل الساحلية ، ووقفت السفن الصليبية التي أخذت حولتها الكافية من هؤلاء وأولئك في عرض النيل استعداداً

للرحيل ، وبواسطة الضوء الذى انتشر من هذه المشاعل الساحلية شهد جوانفيل من نافذة سفينته طلائع القوى المصرية الأيوبية البرية التى أدركت ذيول الصليبيين المنسحبين ، وهى تنقض انقضاضاً خاطفاً على بعض فئات الذبول التى لم تزل تنتظر دورها للنزول إلى السفن الواقفة قرب الساحل . وخشى بحارة السفن الصليبية الواقفة فى عرض النيل مما سوف ينتابهم من البر أو النهر حين تتصل هذه الطلائع البرية بقافلة المراكب الحربية المصرية الأيوبية ، الرابضة عند موضع مسجد النصر ، حيث انتصرت المراكب المصرية الأيوبية انتصارها العظيم ، على مسافة سبعة كيلو مترات شمالى المنصورة . لكن البحارة الصليبيين كانوا يأملون أن يساعدهم سواد الليل ، وغياب القمر فى مستهل الشهر المحجرى ، على التسلل فى سرعة مع تيار الماء فى اتجاه دمياط ، قبل أن يحدث ذلك الاتصال الخطير بين القوات المصرية الأيوبية البرية والنهرية .

ثم دنا آخر الليل ، وهبت رياح عكسية قللت كثيراً من سرعة السفن الصليبية الحربية وغير الحربية ، ولم تلبث هذه السفن أن وجدت نفسها قبالة المراكب المصرية الأيوبية المصطفة عند موضع مسجد النصر ، على أهبة للقتال ، وفى محاذاتها فئة من الخيالة والرماة المصرية الأيوبية المزودة بالنار الإغريقية والنبال . وعندئذ هربت مجموعة السفن الصليبية الحربية المكلفة بحراسة أخواتها من السفن المحملة بالمرضى والجرحى الصليبيين ، واتخذت سبيلها فى النيل نحو الشمال طلباً ، للنجاة قبل فوات الأوان ، على حين نشبت معركة نهريّة بين السفن الصليبية المحملة بالمرضى والجرحى ، وبين القوات المصرية الأيوبية فى البر والنهر . ونزلت القذائف المصرية الأيوبية على هذه السفن الصليبية فى أثناء تلك المعركة ، من رماة فى البر ورماة فى النهر ، ولا بد أن تراءى للناظر إلى تلك المعركة الهائلة كأن هذه القذائف نجوم ليل هاوية من جميع النواحي والجهات . واختلط الحابل

بالنابل ، وكثر عدد القتلى من المرضى والجرحى الصليبيين بهذه السفن ، بعد الاستيلاء عليها في سهولة وسرعة ، لانعدام وسائل المقاومة نتيجة ، لذهاب سفن الحراسة الصليبية عنها ، ولعجز المرضى والجرحى الصليبيين عن أى دفاع عن أنفسهم . وبلغت المغنمات التويزنية التى استولت عليها السفن المصرية الأيوبية من وفرة الكمية وقتذاك ، مثلاً بلغ القتلى الصليبيين من كثرة العدد ، كما زادت أعداد الأسرى الصليبيين عن أى حساب ، بالقياس إلى أعدادهم فى أية معركة من المعارك النهرية الماضية .

وتوجس جوانفيل خيفةً ، وهو طريق فراش المرض ، أن يكون نصيبه ونصيب أتباعه القتل أثناء هذه المعركة الدامية ، فألقى بصندوق نقوده ومجوهراته فى النيل ، وكاد أن يلقى حتفه فعلاً على يد أحد البحارة المهاجمين للسفن الصليبية ، لولا صياح خادم جوانفيل ، وإشارته إلى ملابس مخدومه النبيلة الغالية ، وقوله بأن جوانفيل قريب من أقرباء الملك لويس التاسع ، أى أنه ممن سوف يدفعون فدية كبيرة ؛ وهكذا نجا جوانفيل وأتباعه معه من القتل ، بفضل هذا القول الذى لم يستند إلى حقيقة . واستدعى أمير السفن المصرية الأيوبية جوانفيل إلى سفينة القيادة النهرية العامة ، يوم الجمعة ٤ المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٨ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، وسأله عن حقيقة قرابته للملك لويس التاسع ، أو غيره من الملوك الأوربيين . وأجاب جوانفيل على هذا السؤال إجابة لبقّة ، إذ قال بأنه قريب من ناحية الأم للإمبراطور فردريك الثانى ، وهو الإمبراطور صاحب السمعة الواسعة الطيبة ، فى دوائر الشرق الأوسط فى العصور الوسطى . وبذا جعل جوانفيل نفسه موضع عناية خاصة ، واستضافه أمير السفن المصرية الأيوبية حتى يوم ٦ المحرم سنة ٤٦٨ هـ ، الموافق ١٠ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، وأركبه معه فرساً للنزهة بعض الأحيان ، على شاطئ النيل . ثم ذهب جوانفيل مع الذاهبين من الأسرى الصليبيين إلى معسكر المنصورة ، حيث علم

أن الملك لويس التاسع . ومعظم البارونات الأوربيين والمحليين ، وقعوا كذلك في الأسر ، وأن الانسحاب الصليبي العام في البر ، كان أتعس حظاً وأشدّ كارثةً مما حلّ بالسفن الصليبية ومرضاها وجرحاها ، في نهر النيل .

وكانت بداية الانسحاب الصليبي البري العام ، كبداية الانسحاب النهري ، مساء يوم الثلاثاء الذي تقدّمت الإشارة إليه ، واتخذت الفرق البرية الصليبية كذلك من الليل ستاراً ، كما حدث في الانسحاب النهري في النيل ، بعد أن جعل الملك لويس التاسع موضعه في ذيل المؤخرة ، ومعه من خاصة حاشيته الفارس جودفري سارجين . وازداد المرض على الملك لويس التاسع في ذلك المساء ، حتى أمسى لا يطيق ركوب فرسه الحربية ، لشدة ما به من اضطراب معويّ حادّ عنيف . ولذا اكتفى الملك لويس بفرس عادية هادئة هينة السير ، للركوب والنزول أثناء تلك الليلة على قدر طاقته . غير أن ظلام الليل لم يغن عن الصليبيين في البر شيئاً ، لأن ما كسبوه من سبقٍ على القوات المصرية الأيوبية البرية ، بفضل ذلك الظلام ، لم يلبثوا أن فقدوه بسبب بعض المعائر والعراقيل المائية – ولا مناص منها في الطريق من المنصورة نحو دمياط أو العكس – فضلاً عن قلة الخيل والخيالة نسبياً لديهم . ولذا تطورت عملية الانسحاب الصليبي البري العام إلى سيرٍ متعثرٍ لينٍ بطيء ، تعتوره وتعوقه هجمات مصرية أيوبية جريئة عنيفة سريعة ، شمالاً ويميناً وفي المؤخرة ، بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى ، دون أن يستطيع الصليبيون عن أنفسهم دفعاً ، أو أن ينهضوا بشيء سوى الاستمرار في بطء السير وضآلة المقاومة ، ضد الهجمات المصرية الأيوبية المتكررة .

وأظهر الملك لويس التاسع من موضعه في ذيل المؤخرة الصليبية صفات الفروسية المعهودة في العصور الوسطى ، من ثبات ومثابرة واستهانة بالمرض ،

ولم يتحول عن موضعه هذا إلى موضع أقلّ تعرضاً للهجمات الخلفية المصرية الأيوبية المتكررة . ومن هذا الموضع المطلّ على السير الصليبي الضعيف الوثيد من ناحية ، والزحف المصرى الأيوبي القوى المتحفز للقتال من ناحية أخرى ، استطاع الملك لويس أن يشهد ما لم يستطع أن يشهده غيره من القادة الصليبيين ، وهم يسرون مطرقين على رأس صفوفهم المتداعية . وهكذا رأى الملك لويس تدهور السير الصليبي واسترخاءه من مرحلة إلى أخرى ، على حين رأى ازدياد الهجمات المصرية الأيوبية شدةً وتكراراً ، ساعة بعد ساعة .

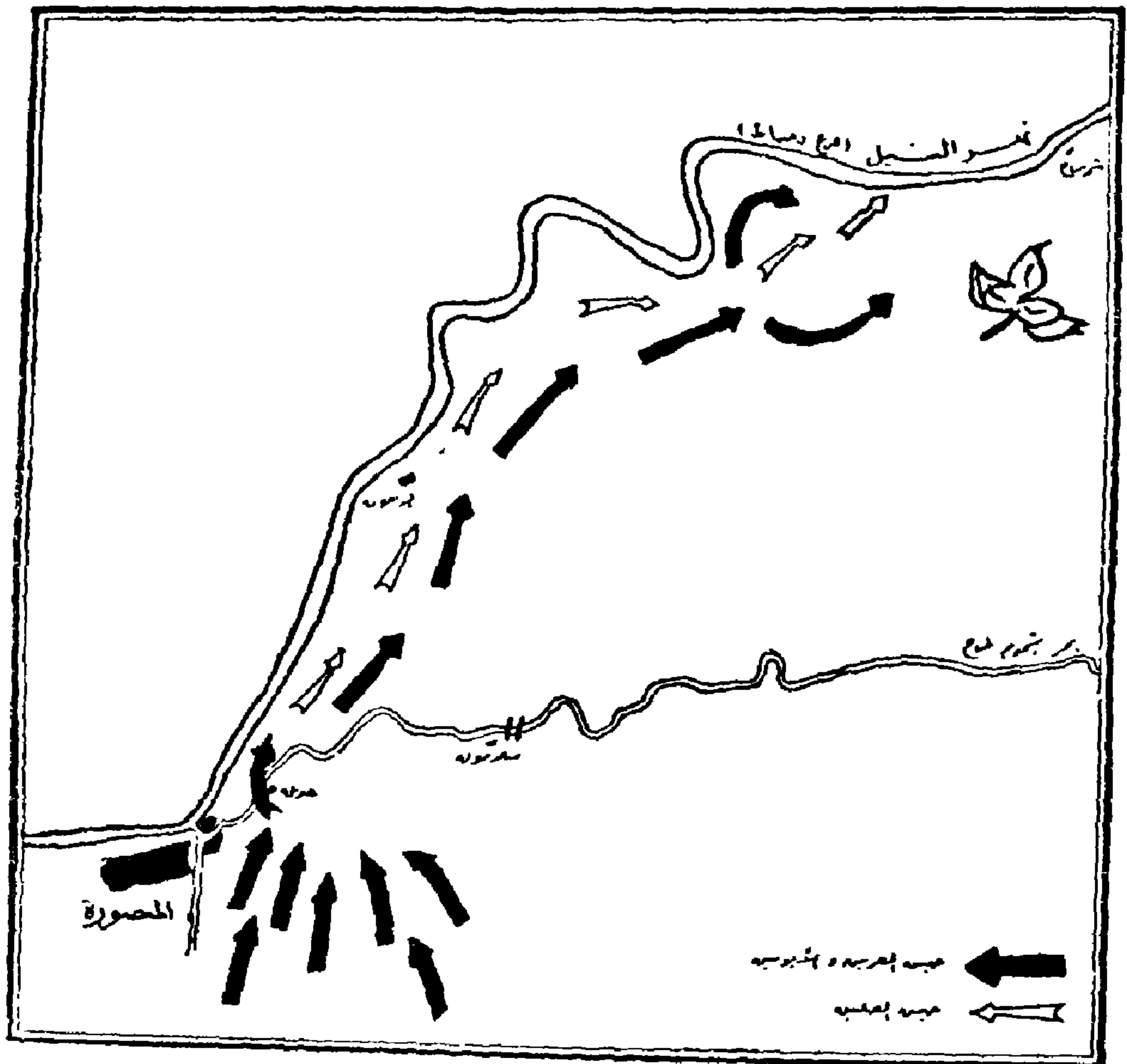
ثم انجلى صباح الأربعاء ٢ المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٦ أبريل ١٢٥٠ م ، وكشف عن منظر رائع مؤذن بهزيمة لامناص من حلولها بالصليبيين ، إذ تراءت القوات المصرية الأيوبية الزاحفة ، وهى تسير فى شكل قوس ضخّم ، يحتوى على أعداد متوتبة من الفرسان والخيالة والمشاة ، وهذه الأعداد تنتظر إشارة من قائدها الأمير بيبرس البندقدارى ، للإطباق من طرفى هذا القوس الضخم على الفئات الصليبية المنسحبة . وعند منتصف هذا القوس وقعت مناوشات ومحاولات متكررة ، على مؤخرة الصليبيين المنسحبين ، تبتغى الوصول إلى شخص الملك لويس التاسع ، لأخذه أسيراً ، بأية وسيلة ممكنة ، لتقرير مصير حملته الصليبية بتلك الطريقة القصيرة الناجزة ، ولحمل الصليبيين على الاستمرار فى القتال بدون ملك يقودهم فى الميدان ، كما انتهى لهم الأمير بيبرس البندقدارى ، قبيل يوم وقعة جديلة الكبرى . ووقف الفارس جودفرى سارجين ، لدفع هذه المحاولات الجريئة ، أحياناً بسيفه وأحياناً بحرבתه ، وكان كأنما يدفع ذباباً هائلاً عن شراب حاو المذاق ، على قول جوانفيل نفسه .

ولم يكن الصليبيون وقتذاك على مسافة كبيرة من بداية انسحابهم في الليلة السابقة ، لأنهم لم يستطيعوا عقلاً أن يقطعوا في ليلة واحدة ما يزيد عن عشرة كيلومترات على أطول تقدير ، أى أنهم كانوا في مطلع الصبح من يوم الأربعاء هذا ، على مسافة عشرة كيلومترات أخرى تقريباً جنوبى شرمساح^(١) .

ثم لم تكن ساعة أو ساعتان ، من ذلك الصباح المحتوم على الصليبيين المنسحبين ، حتى أخذ شكل القوس المصرى الأيوبي الضخم يضيق رويداً رويداً ، ويتحول من شبه قوس إلى شبه حلقة ناقصة ، وذلك دون أن يبدو من فئات الصليبيين المنسحبين شىء من حركة دفاعية أو هجومية من ناحيتهم ، بسبب ماران عليهم من تعب السير طول الليلة السابقة ، فضلاً عما أصبحوا فيه من أثر الشعور العميق باليأس من النجاة . ثم لم تلبث القوات المصرية الأيوبية أن أطبقت حوالى ظهر ذلك اليوم على الصليبيين المنسحبين^(٢) ، لإبادتهم عن آخرهم ، قبل أن يصلوا إلى شرمساح للاحتماء بها . وخشى الفارس جودفرى سارجين مما عسى أن يحلّ بشخص الملك لويس التاسع ، أثناء القتال اليأس الذى ربما ينشب ذلك اليوم . وكان الملك لويس لا يستطيع حراكاً من شدة المرض ، فبادر جودفرى إلى الفرار به ، وأوصله إلى مكان أمين معروف له من قبل ، فيما يبدو . بقرية ميت الحولى عبد الله الحالية ، على الشاطئ الشرقى للنيل . هناك اعتصم الملك لويس بموضع اسمه تل قونة ، حيث أوى إلى بيت ريفى من بيوت هذه القرية الصغيرة^(٢) ، ولحقه بها أخواه وكثير من كبار بارونات وحاشيته ، ومنهم كونت شاتيون الذى وقف بخياله في طرف

(١) انظر الخريطة رقم ٩ ، وعنوانها الانسحاب الصليبي العام ، ص ١٩٥ .

(٢) انظر الملحق رقم ٢ .



الخريطة رقم ٩
الانسحاب الصليبي العام

شارع القرية ، لحراستها من أية إغارة مفاجئة ، على حين تكفلت امرأة فرنسية نبيلة بتمريض الملك لويس والعناية به ، وهو وقتذاك فاقد الحركة ، مغمى عليه ، والأمل ضئيل في بقائه حياً حتى مساء ذلك اليوم .

ودخل على الملك لويس التاسع ، وهو على تلك الحال المريضة الكثيرة ، في تلك القرية المصرية النيلية الصغيرة ، كونت فيليب مونتفرت ، وهو الذى ترأس وفد مفاوضات الهدنة التى أدى فشلها إلى تقرير هذا الانسحاب التعيس العام . وأخبر كونت فيليب جماعة البارونات الأوربيين الحاضرين ، على مسمع من الملك لويس . بعد إفاقته قليلاً من إغمائه ، بأن البارونات المحايين يطلبون محاولة المفاوضة مرة أخرى ، لعقد هدنة على شروط يقبلها السلطان تورانشاه ، وأنه قام لذلك الغرض نيابةً عن البارونات المحليين بالاتصال برئيس المفاوضين المصريين الأيوبيين سابقاً — ولعله قاضى القضية بدر الدين حسن بن يوسف السنجارى — ، وأحسن منه استعداداً طيباً لاستئناف المفاوضات ، على هذه القاعدة الجديدة . ورحب الملك لويس بهذه الأخبار ، وأعلن راضياً بأن يكون هو لا غيره رهينة لدى السلطان تورانشاه ، حسب اقتراح الجانب المصرى الأيوبي قبلاً . وفوض الملك لويس كونت فيليب مونتفرت لقبول الشروط التى سوف يعرضها عليه المفاوض المصرى الأيوبي ، كيفما تكون . ولذا أسرع كونت فيليب إلى المفاوض المصرى الأيوبي ، وتعاقد معه مبدئياً على هدنة محورها جلاء الصليبيين عن دمياط ، دون أى قيد أو شرط من الجانبين .

غير أنه حدث ، قبل بضع ساعات من حصول كونت فيليب مونتفرت على هذا الاتفاق المبدئى بصدد الهدنة ، أن انتشر فجأة بين صفوف الصليبية المنسحبة نداء جاويز فرنسى اسمه مارسيل ، بأن الملك لويس التاسع أصدر أوامره بالتسليم العام للقوات المصرية الأيوبية ، وأنه يدعو وحدات الجيش الصليبي جميعاً ، من الفرسان والخيالة والمشاة ، إلى تسليم

أنفسهم وإلقاء سلاحهم ، في غير تردد أو مقاومة أو إبطاء . ويبدو أن هذا الجاويش الفرنسي قام بذلك النداء بناء على وحي من البارونات الصليبيين المحليين ، وهم الذين أضناهم اليأس ، ولم يروا في استمرار المقاومة أية جدوى ؛ أو أنه نادى به بعد اقتناعه وأمثاله من الجاويشية الفرنسيين بأن التسليم الصليبي آت لا ريب فيه ، وأنه ربما ينقذ الموقف قليلاً أن تعتقد القوات المصرية الأيوبية أن الملك لويس التاسع هو الداعي بنفسه إلى ذلك التسليم . ويقال غير ذلك بشأن هذا الجاويش الفرنسي الذي قفز إلى منابر التاريخ ، من حيث لا يحتسب ، بنداؤه الذي دلّ فيما دلّ على عقم الحروب الصليبية ، في نظر بعض دوائر الصليبيين المعاصرين . ذلك أنه بالإضافة إلى احتمال تأثير البارونات الصليبيين المحليين ، في إقناع هذا الجاويش الفرنسي بفائدة القيام بما قام به من نداء للتسليم العام ، يحتمل كذلك أن بعض الفرنسيين الذين عاشوا بمصر ، وحسنت إقامتهم بها منذ اشتراهم السلطان الكامل من حملة الأطنال الصليبيين ، أقنع هذا الجاويش الفرنسي بوسيلة من وسائل الإقناع ؛ بأن المبادرة إلى التسليم الصليبي عاجلاً خير من الاضطرار إليه آجلاً .

وكيفما كان الدافع الحقيقي وراء هذا النداء المفجائي ، أطاعت الوحدات الصليبية كلها هذا النداء إلى التسليم ، إطاعة عامة تامة ، في سرعة وفي غير تردد أو إبطاء . بعد أن انتشرت الأخبار بين صفوف الصليبيين أن ملكهم أصدره ، وبعد أن غدوا يشعرون كأنهم محبوبسون داخل قفص هائل ، أعواده مصنوعة من حديد السيوف والرماح والدبابيس ، والأسنة والحراب المصرية الأيوبية . وبعد أن غدوا يتمنون الخلاص بالوصول إلى دمياط ، وطريق الوصول مسدود ، حقيقةً ومجازاً . ولذا سلم الصليبيون جميعاً أنفسهم وسلاحهم ، في غير مقاومة أو إبطاء ، بناء على نداء فجائي لم يعلم به أحد من البارونات الفرنسيين على الأقل ، مع العلم

أن الملك لويس التاسع نفسه لم يعلم شيئاً عن ذلك النداء أو يسمع به ، وهو بعيد في مأواه بقرية ميت الخولى عبد الله .

هكذا وقع الجيش الصليبي كله غنيمه باردة - صفواً عفواً - في أيدي القوات المصرية الأيوبية ، وأحاطت به كتائبها القرية إحاطة سهلة سريعة ، وتحول الميدان جنوبى شرمساح إلى ساحة مائجة بجموع الأسرى الصليبيين ، لفرزهم وإحصائهم وتوزيعهم على الخيام المؤقتة التي ضربت في عراء الريف المصرى ، ذلك اليوم المشهود . وبدأت هذه العمليات بفرز البارونات والفرسان ، والقادرين على اقتداء أنفسهم بالمال ، لاقتيادهم أسرى ممتازين إلى المنصورة . وجاء دور كونت فيايب مونتفرت أمام الموكلين بالإشراف على هذه العمليات ، ومنهم صاحب المفاوضات والتعاقد المبدئى على الهدنة ، فتأسف للكونت بانقلاب الحال إلى هذه الصورة المفاجئة .

ثم بدأ البحث عن الملك لويس التاسع ، فلما اهتدى الباحثون إلى مكان اختفائه في البيت الريفى بتل قونة ، في قرية ميت الخولى عبد الله ، أرسلوا جماعة من الخيالة المصرية الأيوبية لمسكه . ورأى كونت شاتيون هذه الخيالة المصرية الأيوبية وهي راكضة نحو شارع القرية الوحيد ، فأسرع إلى فرسه وسيفه ، ووقف في طرف الشارع مستعداً للدفاع عن الملك لويس ، بكل خياله عن طيب خاطر ، فضلاً عن الجود بنفسه في سبيل واجبه . وأدركت الخيالة المصرية الأيوبية أن فئة من الخيالة الصليبية معسكرة بالقرية تحت قيادة كونت شاتيون ، فأخذت في الرمي عليها بالنبال ، على حين ذهب عدد من هذه الخيالة لمصرية الأيوبية لسد الطرف الآخر من الشارع . وأدار كونت شاتيون عنان فرسه ، ووراءه بعض خياله الصليبية ، لمواجهة هذا الهجوم الثانى ، فانهالت عليه النبال المصرية الأيوبية من الطرفين ، وما زال على تلك الحال حتى مات قتيلاً ، وهو على ظهر فرسه ، بعد أن قنى أفراد خياله عن آخرهم .

ووصلت كتيبة من القوات المصرية الأيوبية إلى حيث كان الملك لويس التاسع مختفياً ، فوجدوه جالساً في حوش البيت الريفي الذي تقدمت الإشارة إليه ، وحوله أخواه وجماعة كبيرة من بارونات وحاشيته . ثم وصل الطواشي جمال الدين محسن الصالحى ، والأمير سيف الدين القيمرى الكردي ، في جماعة من فرسان القوات المصرية الأيوبية ، إلى حيث جلس الملك لويس وإخوته وبارونات وحاشيته . فطلب الملك لويس مهما الأمان ، لنفسه ولمن معه ، فأجاباه وأمناه ، باسم السلطان المعظم تورانشاه . ثم صدرت التعليمات المصرية الأيوبية بنقل الملك لويس وأصحابه أسرى إلى المنصورة ، في سفينة من السفن الراسية في النيل ، ومعه أخواه شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتيه . وما زالت هذه السفينة تسير الهوينا ، حتى وصلت إلى ساحل المنصورة ، وسط ضوضاء الطبول والكوسات التي امتلأت بها سفن مصرية أيوبية أخرى ، وهي تسير في النيل محاذية لهذه السفينة الملكية ، وذلك فضلاً عن تهليلات العساكر المصرية الأيوبية والعربان ، وهم يسرون مشاةً وركباً على جانبي النيل إلى المنصورة .

وكذا قضت عدالة السماوات ألا يدخل الملك القديس لويس مدينة المنصورة إلا مهزوماً مأسوراً مريضاً ، مكلاً بأشواك الحية ، جزاءً وفاقاً على ما اقترف بحملته الصليبية من اعتداء أثيم . وتراعى للمعاصرين والمتأخرين ، من أهل الشرق الإسلامى ، أن الملك لويس استأهل هذا المصير ، فهو في نظرهم سبب موت سلطان عظيم كدأ ، وسبب مقتل قائدٍ عامٍ وهو أعزل من السلاح ، وسبب تحويل جامع دمياط الكبير إلى كنيسة كندرائية ، للمرة الثانية في جيل واحد أو بعض جيل . ولو أن الملك لويس رضى بمفاوضة السلطان الصالح أيوب ، أو غيره من رجال الدولة المصرية الأيوبية ، عند ما عُرضت عليه المفاوضات لأول مرة ،

أو لو أنه اختار طريق الهدنة الكاملة الفردريكية ، أو ما يشبه ذلك الطريق السلمي ، لما وقع لشخصه ما وقع من مذلة الأسر ، على الأقل .

وللمؤرخ ابن تغرى بردى هنا وصف لنقل الملك لويس التاسع أسيراً إلى المنصورة ، وهو وصف دالٌّ على مبلغ ما امتلأ به الخاضع والعام من فرح ببلىة الملك لويس التاسع ، وبلىة حملته الصليبية على مصر ، ونصه : ” وأنزل الفرنسيين فى حراقة ، وأحدقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات والطبول ، وفى البر الشرقى العسكر سائر منصور مؤيد ، والبر الغربى فيه العربان والعامه ، فى لهُوٍ وتهانٍ وسرورٍ بهذا الفتح العظيم ، والأسرى تقاد فى الحبال ، فكان يوماً من الأيام العظيمة المشهودة^(١) “ .

وامتلات الأيام التالية بعمليات التصفية التى نجمت عن هذا الانهيار الصليبي فى النهر والبر ، فأمر السلطان المعظم تورانشاه باعتقال الملك لويس التاسع ، وأخويه شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، فى مسكن فسيح لائق بالمنصورة ، بعد تقييد كل منهم فى رجله بقيد من حديد^(٢) . ووقع اختيار السلطان تورانشاه على دار من الدور الحكومية التى أقيمت أيام بناء المنصورة العسكرية الأولى ، زمن السلطان الكامل ، لإقامة الملك لويس التاسع وأخويه على هذه الحال ، إلى أجل غير مسمى أو معلوم . ولذا فلا بد أن هذه الدار كانت فسيحة البناء ، بحيث وسعت إقامة

(١) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ، ج ٦ ، ص ٣٧٠ ، وغيره من المراجع العربية المعاصرة والمتأخرة حيث تتردد هذه انغمة الرنانة الظافرة فى كثير من المنظوم والمنثور فى ذلك العصر ، وأشهر ذلك كله ما أورده المقرئى : المواعظ والاعتبار - بولاق - ، ج ١ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، من قصائد شعرية . انظر كذلك أحمد أحد بدوى : من النقد والأدب ، ص ٣٥ ، وما بعدها .

(٢) انظر ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٩ ب .

الملك لويس التاسع وأخويه الاثنين ، فيما يبدو ، فضلاً عن خادم واحد لكل^٣ منهم على أقل تقدير . ثم أنه لا بد كذلك أن هذه الدار كانت بسيطة البناء ، خالية من زخرف المعمار المدني الأيوبي المعاصر ومئاته ، شأنها في ذلك شأن جميع الأبنية العسكرية . وكانت هذه الدار مخصصة لصاحب (رئيس) ديوان الإنشاء ومساعديه ، وهو وقتذاك فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، فعُرفت باسمه . وربما عرفت بغير ذلك من أسماء أصحاب هذا الديوان قبله . على أن نقطة الأهمية هنا هي أن الملك لويس التاسع ، وأخويه شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتيه ، لقوا بدار ابن لقمان من حسن الإقامة ما شهدت به المراجع ، وأن هذه الدار لا بد أشبهت في بساطة بنائها القصر السلطاني الكاملى نفسه ، وربما كانت على مسافة قريبة من ذلك القصر ، ولا يبعد أن يكون موضع الدار الباقية المعروفة بهذا الاسم ، في العصر الحاضر ، جزءاً من الموضع الأصلي لدار ابن لقمان الأولى^(١) .

أما مجموعة الأسرى من الفرسان الصليبيين ، وعدتهم عشرة آلاف فارس ، ما عدا كبار البارونات الصليبيين ، حسب تقدير جوانفيل نفسه ، فأمر السلطان تورانشاه بجمعهم كذلك بالمنصورة ، في خيمة كبيرة من النوع المسمى في ذلك العصر باسم الدهليز ، وشبيهه في العصر الحاضر ما يعرف باسم الصوان الذى يُقام للموالد السنوية والاحتفالات الكبرى ، من أعمدة خشبية تشدّها بعضها إلى بعض حبال متينة ، وتكسوها أقمشة سميكّة مزخرفة بزخارف ذات أشكال كوفية زاهية الألوان . وهذه الخيمة الكبيرة هي التي جاء إليها جوانفيل ، وقيد اسمه عند الموقعين (الكتبة) الجالسين عند مدخلها ، قبل أن يأخذ مكانه بين زملائه وأصدقائه من الفرسان الصليبيين .

(١) انظر ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ، ج ٦ ، ص ٣٦٦ ، حاشية ٣ ، حيث توجد عدة اقتراحات لتحديد مكان دار ابن لقمان الأصلية .

واشتمل حوش قريب من تلك الخيمة الكبيرة ، وهو حوش مسور بسور من طوب نيتىء وطن ، على مجموعة أخرى من الأسرى من الفرسان الصليبيين ، وهم — فيما يبدو — خليط قليل العدد من بقايا هيئتي الفرسان الداوية والاسبتارية المشهورين بحماستهم الدينية المنادية بضرورة استمرار الحرب ضد المسلمين ، بدليل أن الموكلين بشئونهم من العساكر المصرية الأيوبية عمدوا إلى معاملتهم بطريقة مختلفة عما عوملت به فئات الأسرى العلمانيين من الفرسان الصليبيين ، إذ كانوا يخبرون أفراد هذه المجموعة بين الإسلام أو القتل ، وينفذون حكم القتل فى الواحد منهم بعد الآخر ، إذا هو اختار عدم الدخول فى الإسلام ؛ وهكذا كانت مستويات تلك العصور الوسطى ، فى الشرق والغرب ، فى كثير من الأحيان .

أما كبار البارونات الصليبيين ، وهم فئة قليلة على أية حال ، فصدرت الأوامر بنقلهم إلى خيمة صغيرة مجاورة للخيمة الكبيرة ، لتبليغهم رغبة السلطان تورانشاه فى معرفة ما هم مستعدون لتقديمه من فدية ، مقابل افتكاكهم من الأسر . وطلب مندوبو السلطان تورانشاه من أولئك البارونات تعيين أحدهم لينوب عنهم فى الإجابة على التبليغ السلطانى ، فاختاروا بطرس كونت بريتانى ، لأقدميته ومرتبته فى السلم الإقطاعى ، ومقامه الخاص عند الملك لويس ، بعد أخويه المأسورين معه .

وأحاط مندوبو السلطان تورانشاه كونت بريتانى علماً باستعداد السلطان لإطلاق سراح كبار البارونات المحليين وخدمهم ، مقابل نزولهم له عن إماراتهم ومدنهم وقلاعهم فى فلسطين . وأجاب كونت بريتانى بأن هذه الإمارات والمدن والقلاع منح إقطاعية من صاحبها الإمبراطور فردريك الثانى ، صديق السلاطين الأيوبيين ، وهو لا يزال على قيد الحياة ، ومن المستحيل النزول عن أية واحدة منها إلى أية سلطة أخرى إلا بإذنه ، وهو مالا يريد السلطان تورانشاه أن يطلبه من الإمبراطور فردريك

نفسه ، احتراماً للصداقة الفردريكية الكاملية القديمة . ولذا انتقل المندوبون عن السلطان تورانشاه إلى إحاطة كونت بريتانى برغبة سلطانية ثانية ، وهى تسليم القلاع والمدن التابعة لهيئتي الفرسان الداوية والاسبتارية بفلسطين . لكن الكونت أجاب باستحالة ذلك كذلك ، لأن طائفتي الفرسان الداوية والاسبتارية هيئتان دينيتان مستقلتان بشئونهما تمام الاستقلال ، وليس لأحد عليهما من سلطان سوى عهدهما الديرية الدينية ، بالمحافظة على ممتلكاتهما من الضياع أو التلف ، حتى الموت .

وهكذا أسفر التبليغ السلطاني الأول والثاني عن لاشيء ، وخرج مندوبو تورانشاه من الخيمة البارونية الصغيرة ، بعد أن هددوا كبار البارونات الصليبيين تهديداً فيه إشارة غامضة إلى القتل بالسيوف وشيكا . ولم يكذ المندوبون عن السلطان تورانشاه يخرجون من هذه الخيمة الصغيرة حتى دخل على كبار البارونات الصليبيين عدد من العساكر المصرية الأيوبية ، وكل منهم سيفه في عنقه . معلق في وسطه ، ويتقدمهم شيخ عجوز جلله المشيب . وتكلم الشيخ العجوز ، فقال لكبار البارونات في سخرية إنهم جند صليبيون مسيحيون ، وإن المسيح عليه السلام مات بزعمهم على الصليب ، ومن أجلهم ، وإنهم جاءوا للحرب في سبيل الدين ، وإنهم سوف يموتون في ذلك السبيل بسيوف جند السلطان ، فلا ينبغي لهم أن يخافوا أو يحزنوا لهذه الخاتمة الطيبة^(١) . وظن كبار البارونات الصليبيين أن الساعة اقتربت ، ولا ريب ؛ لكن الشيخ العجوز لم يلبث أن انصرف عن الخيمة الصغيرة ،

(١) انظر اللوحة التوضيحية رقم ٣ ، بين صفحتي ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، حيث يبدو الشيخ العجوز الأشيب عارى الرأس ، قصير القامة ، طويل اللحية والشارب ، متكئاً على عكازين ، وهو يشير بيده إلى مندوبى الصليبيين . ووراء الشيخ العجوز الأشيب جماعة الجند من القوات المصرية الأيوبية ، وهم بملابسهم الحربية ، وبأيديهم سيوفهم الثقيلة عارية مستندة إلى أكتافهم ، لا في أعمادها ، كما بالمتن المستمد هنا من جوانفيل (Op. Cit. p. 183) ، على حين وقف مندوبو الصليبيين من الأسرى بغير شيء من السلاح أو الملابس الحربية ، كما هو منتظر .

ووراءه عساكره ، وسيوفهم في أغمادها ، دون أن يحدث لكبار البارونات الصليبيين شيئاً . وبعد هنية عاد مندوبو السلطان تورانشاه بتبليغ ثالث جديد كل الجدة ، ومن ناحية غير منتظرة ، وهو أن الملك لويس التاسع قرّر ، بعد مفاوضات طويلة مع مندوبي السلطان تورانشاه ، أن يفتدى جميع الأسرى من كبار البارونات الصليبيين ، المحليين منهم والأوربيين سواء ، بمبلغ عظيم من ماله الخاص ، وأنه يرغب في حضور أربعة منهم إليه ، لسماع هذا الخبر . وذهب أولئك الأربعة صحبة المندوبين عن السلطان تورانشاه إلى دار ابن لقمان ، حيث علموا من الملك لويس أنه استقر رأيه أخيراً على هذا القرار ، بعد مفاوضات شبيهة بمفاوضات مندوبي السلطان مع كبار البارونات أنفسهم سابقاً .

أما بداية مفاوضات السلطان تورانشاه مع الملك لويس التاسع ، فكانت بعد أن عين السلطان أحد رجاله القدماء ، وهو الطواشي صبيح المعظمي ، ليقوم على حاجات الملك لويس التاسع وأخويه في معتقلهم ، وليكون كذلك وسيطاً موثقاً به ، مؤتمناً على أسرار ما سوف يجري عاجلاً من مساومات بين الملك والسلطان ، في سبيل تسوية عامة . واشتهر الطواشي صبيح المعظمي ، منذ قيامه في خدمة تورانشاه أيام ولايته بمحضر كيفنا ، بأنه دبلوماسي ناجح ، وربما كان هو الذي أشار على السلطان تورانشاه بإرسال خلعات الشرف الثمينة إلى الملك لويس التاسع وأخويه وكبار باروناتهم ، للدلالة على اعتزام السلطان حسن معاملتهم وإكرامهم جميعاً . غير أن الملك لويس رفض دون أخويه وجميع كبار البارونات أن يلبس الخلعة السلطانية المرسلة إليه ، خشية أن يحسب ذلك عليه بأنه اعتراف منه بتبعية للسلطان تورانشاه ، وقال ما معناه ، نقلاً عن المؤرخ ابن تغرى بردى : ” إن بلادى بقلر بلاد صاحب مصر ، كيف ألبس خلعته ؟ ” . ثم أعد السلطان تورانشاه وليمة عظيمة لليوم التالى من بداية المفاوضات ، ودعا

إليها الملك لويس وأخويه وباروناته ، فامتنع الملك لويس من حضورها ، وقال ما معناه ، نقلاً عن المؤرخ ابن تغرى بردى كذلك : ” أنا ما آكل طعامه ، وما يحضرني إلا ليهزأ بي [أمام] عسكره : ولا سبيل إلى هذا “ (١) . وهكذا دلّ الملك لويس التاسع على كبرياء ليس من المسيحية أو القداسة في شيء ، ولا سيما بعد أن غدا مسئولاً عن أرواح أعداد كبيرة من الأسرى ، مما تتطلب منه قسطاً كبيراً من اللباقة والكياسة والرضى بالأمر الواقع ، وكان له قدوة حسنة ناجحة في سلوك فخر الفروسية الأوروبية قبله ، وهو رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفي مرونة أعظم أباطرة العصور الوسطى مكانة في التاريخ ، وهو فردريك الثاني هو هنشتاوفن إمبراطور الدولة الغربية .

ومع هذا أرسل السلطان تورانشاه مندوبيه ، إلى الملك لويس التاسع ، مرة أخرى ، ليعرف منه مدى قبوله لمبدأ النزول عن إمارات الصليبيين المحليين ومدنهم وقلاعهم بفلسطين ، أو تسليم مدن طائفتي الفرسان الداوية والاسبتارية ، كما حدث في مفاوضاته السابقة مع كبار البارونات الصليبيين . ورفض الملك لويس هذين الاقتراحين رفضاً قاطعاً ، دون أن يحيطه أحد بما أجاب به بطرس كونت بريتاني في هذا الصدد ، لعدم اتصاله بالبارونات الصليبيين إلا عن طريق الطوائف صبيح المعظمى ، ولتحديد إقامته بدار ابن لقمان لا يبرحها وهو متمدد في رجله بقيد من حديد . فلما هدده مندوبو السلطان تورانشاه باحتمال تعذيبه بوضع رجله في المعصرة ، وربما وصفوا له ما المعصرة وآلام التعذيب بها ، أجابهم بأنه بطبيعة الحال سجين في أيديهم ، وفي مقدورهم أن يوقعوا به من ألوان التعذيب ما يشاءون .

(١) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ، ج ٦ ، ص ٣٦٦ ، حيث توجد أخبار إنعام السلطان تورانشاه بهذه الخلعة على الملك لويس ، وما تلاها من دعوة للطعام .

وأدرك السلطان تورانشاه أن التهديد لن يجدى شيئاً في هذا الملك العنيد ، فأرسل إليه مندوبيه باقتراح مختلف ، ومحوره أن يتعهد الملك لويس التاسع بدفع مبلغ معين من المال ، في سبيل إطلاق سراحه ، مع الإفراج عن أخويه وباروناته جميعاً ، باعتبارهم جزءاً منه ، بالإضافة إلى الجلاء الناجز براً ونهراً عن دمياط والسواحل المصرية . ورضى الملك لويس بهذه القاعدة وشروطها ، ثم وافق من فوره في جلسة تالية على المبلغ الكبير الذى حدده السلطان تورانشاه من باب التعجيز ، لأداء للفدية المطلوبة ، وهو مليون بيزنطية ذهبية ، أى مائتين وخمسين ألفاً (ربع مليون) من النقود الذهبية الإمبراطورية المتوجة ؛ وهذه النقود الإمبراطورية الذهبية المتوجة هى ما اتفق الطرفان على أن يتم الدفع بها ، وذلك فضلاً عن الجلاء السريع التام عن دمياط والسواحل المصرية .

ولم يشأ الملك لويس التاسع أن يجادل في هذا المبلغ ، لئلا يظهر أمام السلطان تورانشاه بمظهر العاجز القليل المال ، بل اكتفى بطلب تعديل الاتفاق شكلاً فقط ، لا موضوعاً ، بحيث يكون مبلغ الفدية كله مخصصاً لإطلاق سراح الأسرى من كبار البارونات ، فضلاً عن الأخوين الملكيين شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، وأن يكون الجلاء عن دمياط والسواحل المصرية هو الفدية الملكية ، لأن الملوك لا ينبغي أن يوزنوا بمال ، أو يشتروا بذهب أو فضة . وأعجب السلطان تورانشاه بهذه المقالة ، وما فيها من ديبلوماسية وكياسة حريصة على الكرامة الملكية ، وقرر ألا يكون متخلفاً في هذين المضمارين ، فقال في وصف الملك لويس التاسع ما نصه ، نقلاً عن جوانفيل : ” هذا والله فرنجى عظيم ، لم يساوم أية مساومة في مبلغ الفدية على ضخامته “^(١) . ثم أمر السلطان تورانشاه مندوبيه بالعودة إلى دار ابن لقمان ، لتبليغ الملك لويس بأن السلطان

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 187) .

نزل عن خمسين ألفاً من النقود الذهبية الإمبراطورية ، أى أن الفدية المطلوبة نزلت إلى مائتي ألف فقط من تلك النقود .

وجرت هذه المباريات المالية والساطان تورانشاه فى فارسكور ، والمملك لويس التاسع لا يزال معتقلاً بدار ابن لقمان بالمنصورة ، ومعه أخواه وكبار الأسرى من البارونات الصليبيين فى مواضعهم المخصصة لهم . ذلك أن السلطان تورانشاه انتقل إلى فارسكور بعد الانتصار المصرى الأيوبى فى البر والنهر ، وابتنى بها مساكن وأبراجاً عسكرية سلطانية من الخشب ، بالإضافة إلى خيام ودهاليز من القماش . وأقام السلطان تورانشاه بهذه المساكن العسكرية بفارسكور . ليكون على مقربة من دمياط والحوادث المستقبلية ؛ وربما بنيت هذه المساكن السلطانية فى موضع مسجد المسيرى المطل على النيل فى مدينة فارسكور الحالية . وفى يوم ما ، والسلطان تورانشاه فى انتظار الخطوة التالية بشأن الفدية والهدنة والتسليم الصليبي العام ، وصل إليه من عند الملك لويس التاسع رسالة فيها طلب بالإذن لعدد من كبار الأسرى الصليبيين ، بينهم جوانفيل ، للذهاب فى أربع سفن مصرية أيوبية إلى دمياط ، لإذاعة شروط الهدنة وتفاصيلها ، والتسليم وتاريخه . ولإحاطة الملكة مرجريت البروفنسالية برغبات زوجها الملك لويس التاسع بشأن جمع مال الفدية . وهنا قرّر الملك لويس مرة أخرى أن ينزل عما تبقى من كبريائه الدينى العسكرى القديم ، إذ وافق أخيراً فى رسالته هذه على الذهاب بنفسه إلى فارسكور ، ليكون رهينة عند السلطان تورانشاه . حتى يتمّ تسليم دمياط ، فى يوم السبت ٣٠ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٦ المحرم سنة ٦٤٨ هـ^(١) .

وعلى الرغم من عدم ورود أية إشارة صريحة إلى هذا القرار المالكى ، فيما كتب جوانفيل فى ذلك الصدد ، فالمعروف من سياق كتابته أن الملك

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 187) .

لويس التاسع ترك دار ابن لقمان صحبة كبار الأسرى من البارونات الصليبيين
الذاهبين إلى دمياط ، وأنه أبحر معهم في إحدى السفن المصرية الأيوبية
الأربع إلى فارسكور . ثم إن هذه السفن وقفت ساعة أو بعض ساعة
عند فارسكور ، لأجل نزول الملك لويس إلى البر .

وهناك سنحت الفرصة للمؤرخ جوافيل أن يشهد عن كتب مساكن
السلطان تورانشاه وملحقاتها ، ومكان الضيافة الذى أعده السلطان خصيصاً
لإقامة الملك لويس التاسع رهينة عنده . ورأى جوافيل أول ما رأى من
هذا المساكن السلطانية وملحقاتها برجاً عالياً ، مكوناً من أعمدة من خشب
الصنوبر ، وهذا البرج بمثابة الباب الخارجى للمسكن السلطانى الخاص ،
وبجواره خيمة يذهب إليها أمراء الممالك أرباب السيوف نلجع سيوفهم
وأسلحتهم ، قبل الدخول إلى الحضرة السلطانية . وظهر وراء هذه الخيمة
برجٌ ثانٍ مثل الأول ، وهو الباب الداخلى الذى يؤدى مباشرة إلى خيمة
عالية هى الدهليز السلطانى الكبير ، حيث استقبل السلطان تورانشاه أمراء
الممالك وكبار موظفى الدولة ورجال الحكم . ومن وراء هذا الدهليز
الكبير ظهر برجٌ ثالث ، مثل الأول والثانى ، وهو يؤدى إلى المسكن
السلطانى الخاص . وهذا المسكن السلطانى الخاص مطل على حوش واسع ،
يليه برجٌ رابع ، وهو أعلى الأبراج جميعاً ، وأبعدها مسافة عن شاطئ النيل ،
ومنه أشرف السلطان تورانشاه على هذه المساكن السلطانية وما حولها من
أرض الرّيف . وامتد من هذا الحوش الواسع طريق خاص إلى شاطئ النيل ،
حيث أقيمت خيمة صغيرة لاستحمام السلطان تورانشاه . وكانت هذه
المساكن السلطانية الخشبية كلها مصنوعة من الخشب المعرّش على الطريقة
المعروفة فى مصر باسم البغدادلى ، وفوق الخشب قماش أزرق يحجب

(لوحة رقم ٣ ، بين صفحتي ٢٠٩ ، ٢١٠) .



صورة لملدوبي الأسرى الفلسطينيين ، وهم يستمعون إلى أحد ملدوبي السلطان تورانشاه ، وهو يشرح لهم شروط السلطان تورانشاه لإطلاق سراحهم من الأسر ، وهذا الملدوب السلطاني شيخ عجوز أشيب ، يمشي على عكازين ، ووراءه مجموعة من جند القوات المصرية الأيوبية والعسكرة منتقلة من (Credo de Joinville) ، وهي مأخوذة أصلا من خطوطه (Lacroix : La Chevelarie et les Croisades, p. 189) .

داخل هذه المساكن عن الأنظار ، كما كانت الأبراج الأربعة مكسوة كذلك بقماش أزرق ملون^(١) .

وأرست السفن المصرية الأيوبية الأربع ، قبالة هذه المساكن السلطانية ، ونزل الملك لويس التاسع من إحداها إلى خيمة الضيافة ، المقابلة للمسكن السلطاني الخاص ؛ وكان ذلك يوم الخميس ٢٨ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٤ المحرم سنة ٦٤٨ هـ . وعلى هذا تكون مدة إقامة الملك لويس التاسع ، بدار ابن لقمان بالمنصورة ، اثنين وعشرين يوماً ، وهى المدة التى استغرقها المفاوضات السابقة بين مندوبى السلطان تورانشاه ومندوبى الملك لويس . أما ميعاد تسليم أدمياط ، فاتفق الطرفان على أن يكون ذلك بعد يومين اثنين من هذا التاريخ ، كما اتفقا على أن تتم عملية التسليم مع إطلاق سراح الملك لويس ، فى وقت واحد .

وبدئى أن هذه المفاوضات لم تدخل فى حسابها مصير عامة الأسرى الصليبيين ، من العسكر والصناع والسوقة ، وعدتهم فى تقدير جوائفل عشرة آلاف ، وفى المخطوطة الروتلانية اثنا عشر ألفاً ، وفى ابن تغرى بردى نيف وعشرون ألفاً ، وفى المقرئى مائة ألف . وهذه أرقام أصغرهما كبير ، بالنظر إلى حروب العصور الوسطى ، وأقربها إلى الصحيح على أية حال تقدير جوائفل ، لكونه شاهد عيان فى الميدان ، مع التجاوز له عن بعض المبالغة المتعمدة فى تقديره ، من باب التهويل فى مدى الخسائر الصليبية ، فى كثير من المناسبات . ولم يكن عجيباً أن يضيق السلطان الأهوج تورانشاه بهذه الأعداد الكبيرة من عامة الأسرى الصليبيين ، وأن يؤدى به هوجه إلى التخلص فوراً من العاجزين عن الحركة والضعفاء منهم ، بالقتل والرمى فى النيل . غير أن هذه الوسيلة لم تؤد إلى النتيجة المطلوبة ، ولذا عمد تورانشاه إلى خطة للتخلص من كافة

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 189) .

أولئك الأسرى من العساكر الصليبية ، في جماعات ما بين ثلاثمائة وأربعمائة ، ليلة بعد ليلة ، على يد رجل من أغلظ المخلوقات الأراذل الذين جاءت بهم المقادير في حاشية تورانشاه ، من حصن كيفا ، واسمه سيف الدين يوسف الطورى^(١) . على أن السلطان تورانشاه لم يكن وحيد العصور الوسطى في ارتكابه لهذه الفعلة ، إذ سبقه إلى مثلها أو أشنع منها رتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا ، حين أمر بذبح جميع الأسرى المسلمين الذين وقعوا في يده من حامية عكا ، أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وعدتهم ألفان وسبعمائة ، كما أمر بذبح زوجاتهم وأطفالهم على مقربة من جثثهم ، لا لسبب سوى أنه ضاق بهذه الأعداد الكبيرة قبيل زحفه نحو مدينة بيت المقدس^(٢) . ومع هذا فلا مناص لمؤرخ يحترم صناعة التاريخ التي ينتسب إليها ، من التنديد الشديد بفعلة خالية من صفات الرحمة أو الشجاعة ، وهي فعلة يتحمل مسئوليتها تورانشاه ونصحاء السوء الذين جاءوا معه من حصن كيفا ، وكانوا هم السبب في سقوطه العاجل السريع ، فيما بعد .

أما كبار الأسرى الصليبيين الذين ذهبوا إلى دمياط ، في السفن المصرية الأيوبية ، لترتيب شئون التسليم ، فوجدوا الملكة مرجريت البروفنسالية غارقة في بحر من مشاكل متزاخمة ، وليس يوجد حولها من رجال الدولة سوى شيخ عجوز من رجال الدين ، تاهز الثمانين من العمر ، وهو جاي الخامس بطرق بيت المقدس . وكانت الملكة مرجريت حاملاً غير بعيدة الموعد للولادة ، حين بدأ الملك لويس التاسع زحفه من دمياط نحو المنصورة . ثم ولدت الملكة طفلاً ذكراً ، بعد ثلاثة أيام من وصول الخبر إليها بوقوع زوجها أسيراً في قرية ميت الخولى عبد الله ، ووقوع الهزيمة المزدوجة على الصليبيين في البر والنهر ؛ ولذا سميت الملكة مرجريت مولودها

(١) انظر المقرئى : كتاب السلوك - نشر زيادة - ج ١ ، ص ٢٥٦ ؛ وابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ج ٦ ، ص ٣٦٦ .

(٢) انظر (Ranchman : Op. Cit. II. p. 353) .

باسم جان تريستان ، أى حنا وليد الأحزان . وعلمت الملكة مرجريت وقتذاك أن زعماء الجاليات الإيطالية من البيازنة والجنوية ، يستعدّون للرحيل سريعاً عن دمياط ، وهم أصحاب التجارة والمال وشئون التمويل بها ، منذ وصول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطئ المصرية . واتخذ البيازنة والجنوية هذا القرار ، لأنهم خشوا ما سوف يحقق بهم من غرامات الهزيمة الصليبية ، وقلة المواد الغذائية بين الصليبيين بدمياط ، وانتشار الجوع والأمراض بين عامة السكان . واستدعت الملكة مرجريت زعماء هذه الجاليات ، وأخبرتهم بما وصل إلى علمها من شروط الهدنة والتسليم ، وشرحت لهم أن رحيلهم عن دمياط ، فى تلك الأيام الحرجة ، سوف يحرم الملك لويس التاسع من عناصر الاستقرار المالى التى لا بدّ له من الاطمئنان إليها ، ليقوم بما وعد بتقديمه سريعاً للجانب المصرى الأيوبي من أموال الفدية ، مقابل إطلاق سراحه وسراح أخويه وباروناته من الأسر . ولذا استقرّ الرأى أخيراً بين البيازنة والجنوية ، على البقاء بدمياط ، بعد أن وافقت الملكة مرجريت على أن تشتري منهم بأثمان عالية جميع المواد الغذائية التى لديهم ، وأن تشرف هى على توزيع هذه المواد الغذائية ، بما تراه لذلك من أثمان مخفضة ، منعاً للاضطراب فى الأيام المقبلة ، ودفعت الملكة مرجريت من أجل ذلك الاتفاق مبلغ ثلاثمائة وستين ألف قطعة ذهبية ، إمبراطورية متوّجة ، وهو مبلغ أربى كثيراً عن مال الفدية المطلوبة .

الفصل السابع

جلاء الصليبيين عن دمياط

جاء في التاريخ المعاصر الذي ألّفه سبط ابن الجوزي ، وعنوانه ” مرآة الزمان وتاريخ الأعيان “ ، أن السلطان تورانشاه بعث بأخبار هزيمة الملك لويس التاسع ، ووقوعه أسيراً بقرية منية الحولى عبد الله ، في رسالة رسمية طويلة ، إلى الأمير جمال الدين بن يغمور ، نائب السلطنة بدمشق ، ونصها بعد البسملة : ” الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من [عند] الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم . وأما بنعمة ربك فحدث ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . نبشّر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشّر الإسلام كافة ، بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فإنه قد كان استفحل أمره ، واستحكم شره ، وأيس العباد من الأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . ولما كان يوم الأربعاء مستهلّ السنة المباركة ، تمّم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرّقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوّعة . واجتمع خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، وجاءوا من كلّ فج عميق ، ومن كلّ مكان بعيد سحيق . ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح ، على ما وقع الاتفاق عليه بينهم وبين الملك الكامل ، فأبيناه . ولما كان في الليل تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم ، وقصدوا دمياط هاربين . فسرنا في آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في أديبارهم عامة الليل ، وقد حلّ بهم الخزي والويل .

فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا ، غير من ألقى نفسه في
البحر ؛ وأما الأسرى فحدثت عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيين
إلى المنية ، وطلب الأمان فأمناه ، وأخذناه وأكرمناه . وتسلمنا [٥]
بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته“ (١) .

وبعث السلطان تورانشاه مع هذه الرسالة ، إلى الأمير جمال الدين بن
يغمر ، بعض الملابس العسكرية الخاصة بالملك لويس التاسع ، لعرضها
بدمشق على الناس ، من باب البشري بذلك الانتصار العظيم . وكانت هذه
الملابس الملكية تشتمل على معطف أحمر يسمى الغفارة ، في مصطلح ذلك العصر ،
وسترة قرمزية اللون تسمى أشكرلاط ، نسبة إلى لونها القرمزي ، وهي
مبطنة بفرو سنجاب ، وفي رقبته حلية ذهبية اسمها بكلة ، وهي كلمة أجنبية
معناها مشبك . ولبس الأمير جمال الدين بن يغمر هذه الملابس ، وراه
المؤرخ أبو شامة وهو يحتفل بعرضها هكذا على الحاضرين من الناس ، في
احتفال كبير بدار النيابة بدمشق ، وذلك يوم الأربعاء ١٦ محرم سنة
٦٤٨ هـ ، الموافق ٢٠ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، أو يوم الخميس التالي
لذلك التاريخ (٢) .

ولا بد أن احتفالات مشابهة — على الأقل — قامت قبل ذاك
بالمنصورة والقاهرة وفارسكور ، لكنها كانت كلها — فيما يبدو —
احتفالات مشوبة بكثير من القلق ، بسبب سلوك السلطان تورانشاه
نحو جميع الشخصيات التي حفظت له عرش أبيه من الضياع ، وجلبت
النصر للجيش المصري الأيوبي على الصليبيين . ذلك أن تورانشاه أوضح

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان — طبعة حيدرآباد ، ج ٨ ، ص ٨٧٨ — ٨٧٩ .
انظر كذلك المقرئ (كتاب السلوك — نشر زيادة — ج ١ ، ص ٣٥٦ — ٣٥٧) ، وغيره
من المراجع المتداولة في هذه الحواشي ، حيث توجد هذه الرسالة بنصها كما هنا ، تقريباً .
(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ١٨٤ .

بأعماله ، منذ وصوله إلى دمشق من حصن كيفا ، أنه لا يأتمن أحداً من أهل الدولة بالمنصورة أو القاهرة ، وأنه سوف يقلب لهم جميعاً ظهر الحنّ ، ليحاسبهم حساباً عسيراً على ما لديهم من أموال هي في نظره أمواله بعد أبيه . ولذا أقام تورانشاه بدمشق سبعة وعشرين يوماً ، أنفق فيها ما كان بالخزائن الدمشقية والكركية من الأموال والخلع السلطانية على الأمراء القيمرية الأكراد ، ليستميلهم إلى جانبه ضد أمراء مصر ، ومعظم هؤلاء من المماليك الأتراك ، منذ أنشأ السلطان الصالح أيوب فرقة المماليك البحرية الصالحة . وعند ما وصلت الأخبار إلى مصر بوصول تورانشاه إلى مدينة بيت المقدس ، غادرت شجر الدر مدينة المنصورة إلى القاهرة ، اجتناباً لمقابلته ، بعد أن علمت بعض نوابها^(١) . ثم وصل السلطان تورانشاه أخيراً إلى مدينة المنصورة ، فتلقاه رجال الدولة وقادة الجيش بما يليق به من حفاوة واحترام ، وسلموه مقاليد الحكم والقيادة الحربية ، وتمنوا نيل الانتصار الحربي النهائي على يده .

غير أن السلطان تورانشاه لم يلبث أن حقق جميع مخاوف زعماء الدولة ، لشدة هوجه ورعونته وخفة عقله ، إذ بادر إلى الاستيلاء على أملاك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وموجوده ومماليكه ، بنصف القيمة ، دون أن يعطى الورثة شيئاً ، سوى ما رمى به الأمير فخر الدين من طموح غادر وقلة مروءة . وأعقب تورانشاه ذلك بأن بعث إلى الأميرة شجر الدر يهددها ، ويطلب ما عندها من الأموال والجواهر ، كما تنكر لفارس الدين أقطاي الذي ذهب بتعليقاتها لإحضاره من حصن كيفا ، بأن أغفل الوفاء له بالوعد بتأميره وتعيينه على نيابة الإسكندرية . ثم ذهب السلطان تورانشاه إلى فارسكور ، وأقام بها مساكنه السلطانية

(١) سبط ابن الجوزي : نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٧٨٢ .

التي تقدم وصفها ، واستدعى إليه الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني من القاهرة ، وأعفاه من نيابة السلطنة ، وهو صاحب الأفضال الكبيرة عليه . وولى تورانشاه بدل الأمير حسام الدين الأمير أقوش التجيبي ، فذهب الأمير أقوش إلى القاهرة لاستلام مهام وظيفته ، على حين ظل الأمير حسام الدين بفارسكور ، مهملاً مُطرح الجانب .

وحسب السلطان تورانشاه أن الصمت الذي قوبلت به هذه الإساءات العديدة صادرٌ عن خوف من بطشه ، فأخذ يمعن في هذه الإساءات يميناً وشمالاً ، بأن عزل رجال الدولة القدماء عن وظائفهم^١ واحداً بعد آخر ، من أتراك وأكراد سواء ، وأحل محلهم فيها رجالاً من بطانته المختلطة التي جاءت معه من حصن كيفا ، أمثال يوسف الطوري ، وقاضي حصن كيفا الذي لم تهتم المراجع لذكر اسمه ، وأمثال الطواشي صبيح المعظمي الذي وكل إليه تورانشاه أموره كلها ، على قول ابن واصل ٥ ثم زاد السلطان تورانشاه الطين بلة ، حين بدأ مفاوضات واختتمها مع الملك لويس التاسع ، على يد الطواشي صبيح المعظمي ، ولم يستشر في ذلك أحداً من الذين اشتركوا سابقاً في هذه المفاوضات ، بعد أن أصبحوا في نظره بعيدين رسمياً عن شئون الحكم . وهكذا فضل السلطان تورانشاه أن يعتمد على قوم وصفهم ابن واصل بأنهم لا أخلاق لهم ، دون قوم هم على أية حال أرباب خبرة ودراية بشئون الحكم في مصر ، فضلاً عن أنهم أصحاب أحقية واضحة في المشاركة في جني ثمرات النصر على الصليبيين ، لأنهم هم الذين جاءوا للدولة المصرية الأيوبية بمعظم ذلك النصر العظيم .

وبينما تتطور الحال من سيء إلى أسوأ ، بين السلطان تورانشاه والقدماء من رجال دولته في فارسكور ، جاء إلى هذه المدينة جماعة كبار الأسرى الصليبيين ، وهم الذين ذهبوا سابقاً إلى دمياط ، بإذن من تورانشاه ، في أربع سفن

حربية مصرية أيوبية ، للقيام نيابة عن الملك لويس التاسع ، بتبليغ شروط الهدنة . ومواعيد التسليم الصليبي ، والجلاء عن الأراضي المصرية ، وغير ذلك من التفاصيل التي تمّ الاتفاق عليها بين الطرفين . وتألفت هذه الجماعة من بطرس كونت بريتاني ، ووليام كونت فلاندر ، وجاى كونت إيلين ، والمورخ جوانفيل ، وغيرهم من البارونات الصليبيين الأوربيين والمخليين ، لضمان تبليغ شروط الهدنة ، ومواعيد التسليم والجلاء ، إلى مختلف الطوائف الصليبية المقيمة بدمياط ، من حاميات عسكرية . وجاليات تجارية إيطالية . فلما عاد أولئك البارونات إلى فارسكور ، يوم الخميس ٢٨ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٤ المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، أرست بهم السفن الحربية المصرية الأيوبية ، على مقربة من خيمة الضيافة التي أقام بها الملك لويس التاسع ، قبالة المساكن السلطانية ، تمهيداً لاشتراكها جميعاً في القافلة النهرية الكبيرة ، وهي القافلة التي سوف يتصدّرها السلطان تورانشاه إلى دمياط ، للاحتفال بالجلاء الصليبي التام عن الشواطئ المصرية ، بعد إطلاق سراح الملك لويس التاسع وأخويه وباروناته من الأسر ، وذلك يوم السبت ٣٠ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٦ محرم سنة ٦٤٨ هـ .

غير أن السلطان تورانشاه كان على موعدٍ مع المأساة التي حفر هاويتها بنفسه لنفسه ، منذ اطّرح الزعماء القدماء من رجال دولته ، إذ تأمر عليه كلّ أولئك الزعماء ، وانضم إليهم أمراء فرقة المالك البحرية الصالحة – وهم حرسه الخاص في الليل والنهار – ، وقرروا جميعاً فيما بينهم أن يتخلصوا منه بالقتل ، قبل أن يتخلص هو منهم بما هو أسوأ من القتل ، مما سوف يرتبه نصحاؤه لهم من أنواع الاتهام ووسائل التنكيل والإذلال ، أو الاغتيال . ولذا امتلأ الجوّ في فارسكور بوجوم عميق ، وخيم على أرجاء المدينة سكون مناقض لما كان متظراً من مظاهر الابتهاج والزينة ، لقرب تسليم دمياط والجلاء الصليبي عن الأراضي المصرية . وبقي البارونات الصليبيون في السفن

الأربع حائرين ، لا يدرون ما عسى أن تأتى به المقادير ، كما بقى الملك لويس التاسع فى خيمة الضيافة السلطانية ، فى انتظار أوامر السلطان تورانشاه . وهكذا جاء وانتهى يوم ٣٠ أبريل واليوم التالى له ، وكل فئة من فئات العسكريين والمدنيين بمدينة فارسكور ، فى شغل بما حولها من ريبة وغموض ، وحيرة وجمود .

وفى عصر يوم ٢ مايو سنة ١٢٥٠ م ، وهو يوم الاثنين ٢٨ محرم سنة ٦٤٨ هـ ، جلس السلطان تورانشاه إلى مائدة الطعام (السباط) بالدهليز السلطاني ، على العادة ، وجلس معه بعض أمراء فرقة الممالك البحرية الصالحية ، وهم الذين جرى البروتوكول يجلسهم حول المائدة السلطانية ، وأولئك فضلاً عن ثلاثة من الأئمة الذين استدعاهم السلطان تورانشاه ، لمناظرة فى مختلف المسائل الفقهية والأدبية التى شغف بالتحدث فيها ، كلما سنحت له فرصة الخلو من الأعمال الحكومية . وانتهى الطعام ، وانتقل السلطان تورانشاه من الدهليز السلطاني إلى مسكنه الخاص المطل على الحوش الكبير ، وأخذ سائر الحاضرين فى ترتيب أنفسهم للاستماع إلى المناظرة السلطانية .

ثم انطلق من هذا المسكن السلطاني الخاص صريخ عال ، مصدره السلطان المعظم تورانشاه نفسه ، إذ بغته أحد أمراء النوبة (النوبتجية) المكلفين بحراسته ذلك اليوم ، وهو الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وضربه بالسيف ضربة كادت تطير يده عن ذراعه . وأدرك السلطان تورانشاه أن هذه الضربة بداية لمؤامرة دموية مدبرة ، فأسرع إلى البرج الخشبي المجاور للدهليز السلطاني ، حيث ضمت الجرائحيون جرح يده ، وهو يتوعد الجاني وشركاءه بالقتل . وهناك دخل عليه ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وفارس الدين أقطاي ، وغيرهما من أمراء الممالك البحرية الصالحية ، وهم شاهرون سيوفهم ، وقلوبهم مشتعلة بشرى خاف عن الأنظار .

وأحسَّ السلطان تورانشاه بما هو فيه من الموت القريب قتلاً بالسيوف ، فهرب إلى أعلى البرج الخشبي ، وأخذ في الاستغاثة ، ولا مغبثه ثم أشعل أمراء المماليك النار في هذا البرج ، كما أخذوا في الرمي على تورانشاه بالنشاب من كل ناحية . وظنَّ تورانشاه أن باستطاعته النجاة إلى إحدى السفن الأربع ، أو غيرها من السفن الراسية بالنيل ، فقفز من البرج إلى الأرض ، لكنه وجد الأمير فارس الدين إقطاي واقفاً له بالمرصاد . وتعلق السلطان تورانشاه بملابس الأمير فارس الدين إقطاي ، واستجار به ، فلم يجره ، بل دفعه بعيداً عنه . وعند ذلك حاول السلطان تورانشاه أن يصل إلى الخيمة الصغيرة المخصصة لاستحمامه ، على شاطئ النيل ، فحال أمراء المماليك بينه وبين هذه الخيمة ، بأن حطموا تعاريش الطريق المؤدى إليها ، ورموا السلطان تورانشاه بالنشاب وهو يركض نحوها ركض الخارب من الموت . وأصابه فارس الدين إقطاي بنشابة استقرت في جنبه ، فعطلت من سرعته ، لكنه ظل في ركضه ممسكاً بالنشابة في يده الجريئة . وأخيراً استطاع تورانشاه أن يرمى نفسه في النيل ، فسبح فارس الدين إقطاي وراءه ، ولم يجد صعوبة في اللحاق به ، وطمعنه بسيفه طعنة أخيرة مميتة ، على مقربة من السفن الأربع التي كانت تنتظر العودة في صحبته إلى دمياط ، لبداية الأفراح والمسرات والاحتفالات ، وللمساهمة في عملية التسليم والجلاء الصليبي عن دمياط والأراضي المصرية . وهكذا مات السلطان المعظم تورانشاه جريحاً حريقاً غريقاً ، على قول المقریزی ، بعد أن حكم مصر حكماً طائشاً غشوماً ، حوالى شهرين من الزمان .

وعبر أمراء المماليك البحرية الصالحية ، وعلى رأسهم فارس الدين إقطاي ، إلى الخيمة التي انتظر فيها الملك لويس التاسع أوامر السلطان تورانشاه ، وهم يلوحون في الهواء بسيوفهم المملطخة بالدماء ، من باب الإعلان عن مقتل السلطان التعييس . وظنَّ الملك لويس التاسع أن ساعته

اقتربت ، وأن شروط الهدنة والتسليم ذهبت مع السلطان القليل . غير أن فارس الدين أقطاي طمأنه على حياته ، بل يقال إنه أخبره مازحاً بأن أمراء المماليك يفكرون في إقامته سلطاناً عليهم ، إذا قام هو من ناحيته باعتناق الإسلام . ولم يكن الملك لويس التاسع في حالٍ أو موقفٍ يسمح له بمبادلة هذا المزاح بمزاح مثله ، فلم يجب بكلمة .

وفي نفس الوقت صعد إلى السفن المصرية الأيوبية الأربع فئة من المماليك البحرية الصالحية ، وهم مدججون بالسيوف والفؤوس الحربية ، وأنزلوا جميع البارونات الصليبيين القابعين بهذه السفن إلى أجوافها ، وأغلقوا عليهم أبوابها ونوافذها ، وتركوهم سجناء بها على هذه الحال ، بعد أن وضعوا الحراسة النهرية الشديدة عليها . وافترش أولئك البارونات أرضية هذه السفن ، وقضوا ليلة مسهدة في انتظار الذبح الباكر ، في غير إبطاء أو استثناء . وبات جواناتيل ليلته هذه مؤرقاً ممدداً ، غارقاً في خوف شديد ، وقدماه في وجه بطرس كونت بريتاني ، ووجهه عند قدمي هذا الكونت . ثم عاد أمراء المماليك البحرية الصالحية إلى هذه السفن مبكرين ، صباح اليوم التالي ، أي يوم ٣ مايو ، لا ليذبحوا أحداً ، بل ليخرجوا البارونات جميعاً من سجونهم المائتة ، وليطلبوا منهم أن يرسلوا عنهم نواباً لتجديد شروط الهدنة والتسليم والجللاء ، على نسق ما قام به الملك لويس التاسع في خيمة الضيافة ، بحضرة مفاوضين تجديدين ، وعلى رأسهم الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني ، وهو الذي أدار دفعة تلك المفاوضات الجديدة ، نيابة عن أمراء المماليك البحرية الصالحية .

ولم يكن من غرض الأمير أيك التركماني ، وهو الذي صار مؤقتاً على رأس الدولة في فارسكور ، أن يغير من الشروط السابقة شيئاً . ولذا انتهى الاتفاق نهائياً بين الأمير أيك التركماني والملك لويس التاسع على الشروط التي شرحها الملك لويس نفسه فيما بعد ، في خطاب مشهور له إلى رعيته

في فرنسا ، وخلاصتها (أولا) أن يقوم الملك لويس التاسع بتسليم دمياط فدية عن نفسه ، كالاتفاق السابق مع السلطان تورانشاه . (ثانياً) أن يدفع الملك لويس التاسع مال الفدية المقررة عن أخويه وكبار الأسرى من البارونات ، ومبلغه مائتا ألف قطعة ذهبية إمبراطورية ، مسكوكة بصورة التاج الإمبراطوري ، على أن يتم دفع النصف الأول من هذا المبلغ معجلاً ، قبل الرحيل عن الشواطئ المصرية ، ويكون دفع النصف الثاني منه بعد وصول الملك لويس التاسع إلى عكا . (ثالثاً) أن يطلق أمراء المماليك البحرية الصالحية سراح الملك لويس التاسع وأخويه ، وكذلك كبار الأسرى من البارونات الصليبيين مباشرة وفي آن واحد ، بعد تنفيذ الشرطين السابقين . (رابعاً) أن يقوم الملك لويس التاسع بإطلاق سراح جميع الأسرى الذين عنده من العساكر المصرية الأيوبية ، فضلاً عن الأسرى السابقين الذين وقعوا منهم في أيدي الصليبيين ، بعد انقضاء أجل الهدنة الكاملية الفردريكية . (خامساً) أن يعمل الملك لويس التاسع على إقرار السلام في المدن التي لم يزل الصليبيون يحتلون في فلسطين . (سادساً) أن يطلق أمراء المماليك البحرية الصالحية جميع الأسرى الصليبيين الذين عندهم من حملة الملك لويس التاسع على مصر ، فضلاً عن جميع الصليبيين الذين عندهم منذ انقضاء أجل الهدنة الكاملية الفردريكية . (سابعاً) أن يقوم أمراء المماليك البحرية الصالحية بالمحافظة على الآلات الحربية والمؤونة والأثقال الصليبية التي سوف يتركها الصليبيون مؤقتاً في دمياط ، وذلك حتى تحين الفرصة لنقل هذه المواد الحربية وغير الحربية إلى المدن التي لم تزل بأيدي الصليبيين في فلسطين . (ثامناً) أن يشمل أمراء المماليك البحرية الصالحية بأمانهم جميع المرضى والعجزة ، وجميع المتخلفين بدمياط من الصليبيين المدنيين وأرباب التجارة ، لبيع أملاكهم ومتاجرهم وموجوداتهم بدمياط ، وأن يكون مسموحاً لكل فردٍ من هؤلاء وأولئك بالرحيل براً أو بحراً عن دمياط ، حسب مصلحته الفردية .

وأقسم الطرفان على هذه الشروط ، فحلف أمراء الممالك البحرية الصالحة ، بناء على طلب الملك لويس التاسع ، بأنهم يعاهدون الله على تنفيذها ، وأنهم إذا نقضوا عهدهم فيها صاروا آثمين حائشين ، تجب عليهم فريضة الحج إلى بيت الله الحرام طلباً للمغفرة ، وصارت نساؤهم طالقات ، وصار مثلهن مثل آكل لحم الخنزير من مرتكبي الكبائر . وطلب أمراء الممالك البحرية الصالحة أن يحلف الملك لويس التاسع مقابل هذا اليمين العظيم يميناً مكتوباً مشاهياً ، بأنه إذا أخلف وعده معهم صار بريئاً عن الديانة المسيحية والمعمودية ، منكراً للمسيح والصليب والعذراء ، والحواريين والقديسين والقديسات . غير أن الملك لويس التاسع رفض القسم بهذه الصيغة الخطيرة ، رغم رجاء بعض المفاوضين الصليبيين وإلحاحهم عليه بتأدية هذا اليمين على خطورته ، في غير تردد ، من باب التدليل على حسن النية وصدق الرغبة في التنفيذ .

وجاء وقتذاك إلى فارسكور جاي الخامس بطرق بيت المقدس ، وهو مزود بورقة أمان قديم صادر من عند السلطان تورانشاه ، وغرض هذا البطرق معاونة الملك لويس التاسع في مفاوضاته الجديدة ، مع أمراء الممالك البحرية الصالحة . لكن أمراء الممالك اعتبروا البطرق أسيراً ضمن الأسرى ، لبطلان أمانه وانتهاء مدته بمقتل السلطان تورانشاه ، وأحضروه إلى خيمة الملك لويس التاسع ، لعله يستطيع إقناعه بقبول اليمين المطلوب ، حسب الصيغة المقترحة . ومع هذا استمر الملك لويس التاسع في رفضه ، واعتقد أحد أمراء الممالك أن البطرق هو الذي نصح الملك لويس بذلك الاستمرار في العناد ، واستأذن زملاءه الأمراء من الممالك في قطع رقبة البطرق ، بضربة سيف واحدة ، على مرأى من الملك لويس ، وبذا تنهار أعصاب الملك ، ويسرع إلى تأدية اليمين . لكن أمراء الممالك استفظعوا هذه الوسيلة الوحشية ، واكتفوا بربط البطرق إلى عمود خيمة الملك لويس ،

بعد أن أوثقوا يديه إلى ظهره ، وهو كما تقدم شيخ ناهز الثمانين من العمر . وظلّ البطرق على هذه الحال الأليمة لمدة ساعات ، ثم لم يلبث أن صاح من شدة الألم ، وأهاب بالملك لويس أن يؤدى أى يمين يطلبه منه أمراء الممالك ، وأنه لا وزر عليه من أية صيغة كائنة ما تكون ألفاظها ، ما دامت نيته منعقدة على الوفاء بالشروط المتفق عليها . وبذا اقتنع الملك لويس ، وأدى اليمين التى أصرّ عليها أمراء الممالك ، وتخلص البطرق مما لحقه من الإهانة بسببه ، وانحلت العقدة الباقية لبداية الهدنة والتسليم والجلء .

ثم جرى الاتفاق أن يتم تسليم دمياط وإطلاق سراح الملك لويس التاسع وأخويه ، وكبار البارونات الصليبيين ، يوم الجمعة ٢ صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٦ مايو سنة ١٢٥٠ م . وفى عصر اليوم السابق لهذا التاريخ ، وهو يوم الخميس المعروف باسم عيد الصعود فى الكنيسة الكاثوليكية ، سارت السفن المصرية الأيوبية الأربع إلى دمياط ، ومعها الملك لويس التاسع . وأرست هذه السفن عند جسر السلسلة ، قبالة البرج المعروف بذلك الاسم فى العصر الحاضر ، بالشمال الغربى من دمياط الحالية ؛ وعلى مقربة من هذا الموضع أقيمت خيمة صغيرة لمبيت الملك لويس التاسع . ثم أصبح صباح الجمعة ، فدخل كونت جودفرى سارجين مدينة دمياط ، وسلمها للمندوبين لذلك الغرض من الجانب المصرى الأيوبي . وسرعان ما ارتفعت وررفت أعلام السلطنة المصرية الأيوبية على الأسوار والأبراج الدمياطية ، وحلت محلّ أعلام الصليبيين التى اغتصبت تلك الأسوار والأبراج منذ أوائل شهر يونية سنة ١٢٤٩ م ، أى مدة أحد عشر شهراً . وقيل تسليم دمياط بساعات أبحرت الملكة مرجريت البروفنسالية إلى عكا ، ومعها وليدها حنا الأحران ، وبعض البارونات الصليبيين .

وافتح الدمياطيون صباح ذلك اليوم المشهود باحتفالات لا مثيل لها فى تاريخ دمياط ، ولا حاجة للمراجع أن تقول هنا للباحث أو لا تقول بأن تلك

الاحتفالات بدأت بعودة جامع دمياط الكبير إلى سيرته الأولى ، بعد أن ظل كندرائية كاثوليكية ، طول إقامة حملة الملك لويس التاسع في الأراضي المصرية ، أى مدة سنة تقريباً^(١). والواقع أن افتتاح هذه الاحتفالات بعودة جامع دمياط الكبير إلى أصله كان أمراً بديهاً ، وربما أغفل المؤرخون ذكره لبدايته ؛ وربما ولنفس السبب لم تشرح المراجع ما امتلأت به دمياط ، منذ صبيحة ذلك اليوم العظيم ، من مواكب الطوائف الدينية ، وأناسيدهم وتكبيراتهم وتهليلاتهم^(٢) .

واستولت على الدمياطيين وغيرهم من أهل البلاد القريبة ، ممن شهدوا ذلك اليوم التاريخي ، موجة حماسية جنحت بهم إلى نقض بعض شروط الهدنة ، دون خشية من ردع أو عقاب ، من ناحية السلطات المصرية الأيوبية ، ودون شك من ناحية الدمياطيين أنفسهم بأنهم يقومون بأعمال انتقامية ، وهى مشروعة طبعاً في نظرهم ، ضد بقايا الاعتداء الصليبي على مدينتهم . ومن ذلك أن جماعة من الدمياطيين عمدوا إلى الآلات والأثقال الحربية الصليبية ، وهى التى تعهدت السلطات المصرية الأيوبية بحفظها إلى حين ، فحطموها وجعلوا منها كوماً هائلاً أشعلوا فيه النار . وذهب جماعة آخرون إلى مخازن المؤونة الصليبية ، فأكلوا وشربوا منها ما شاءوا ، ما عدا أكداس لحوم الخنزير المملحة ، وكانت كميات ضخمة ، فعافوها وجعلوا منها حريقاً كبيراً على النيران ، بفضل ما فى تلك اللحوم من شحم غزير وملح وفير . وذهب جماعة آخرون إلى مكان المرضى الصليبيين ، وهم الذين جرى الاتفاق على بقائهم حتى شفائهم بدمياط ، ويقال إن فئة من

(١) المقصود بذلك جامع أبو المعاطى القديم ، وهو على مقربة من مقابر دمياط الحالية . ويبدو هذا الجامع الآن فى حال محزنة من الخراب ، ولا يستخدمه أحد للصلاة ، وأعمده وعقوده متداعية ، وليس به ما يلفت النظر سوى الإهمال وفعل الرطوبة ، وبجانبه قبة فاتح الأسمر ، وهى تشبه فى حالها حال هذا الجامع الأثرى الكبير .

(٢) انظر ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ، ج ٦ ، ص ٤٦٨ .

هذه الجماعة هجمت على مكان أولئك المرضى ، وأبادتهم عن آخرهم ؛ ويقال كذلك إن هذه الفئة أشعلت في أولئك المرضى النار . وكل من هذين القولين مشكوك في تمام صحته ، مردود بقرائن منطقية لا سبيل إلى إغفالها ، وأولها أن السلطات المصرية الأيوبية هي التي أعطت كلمة الأمان عن أولئك الجرحى والمرضى من الأسرى الصليبيين ، وليس نقض كلمة الأمان من المؤلف في تاريخ الشرق الإسلامي ، وثانيها أن العلاقات بين الطرفين سارت على وتيرة حميدة منذ مقتل السلطان تورانشاه ، وثالثها أن كثيراً من الأسرى الصليبيين ، وهم الذين قيل إنهم أبيدوا أو أحرقوا في ذلك اليوم ، كانوا أحياء يرزقون في مختلف البلاد المصرية ، لعدة سنين تالية ، وجاءت بعثات صليبية إلى القاهرة خصيصاً لجمعهم ، والعودة بهم إلى أوطانهم^(١) .

وكيفما كانت حقيقة الموقف ، فالواضح أن الزمام أفلت من أيدي رجال الدولة المصرية الأيوبية في ذلك اليوم ، وتعددت الحال حين حاول حزب المتطرفين ، وعلى رأسهم الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني ، أن يفتح باب المناقشة من جديد ، أملاً في تغيير مصير الملك لويس التاسع وأخويه ، وكبار الأسرى من البارونات الصليبيين ، ولا سيما بعد أن تم استرجاع دمياط . وقال متكلم من ذلك الحزب المتطرف ، بأن طول إقامة الصليبيين بالأراضي المصرية ، من دمياط إلى جديلة ، أطلعهم على كثير من عورات شرق الدلتا ، وأنه ينبغي أن تؤمن الدولة المصرية الأيوبية على حياتها المستقبلية ، بحيلولة أبدية بين الصليبيين وأوطانهم ، وذلك بقتلهم جميعاً في دمياط ، بما في ذلك الملك لويس التاسع وأخويه وباروناته الصليبيين . وانبرى أمير مملوكي من حزب المعتدلين ، واسمه سابريشي ، وهو من أصل إسباني ، حسبما ذكر جوفانفيل ، فقال إن قتل الملك لويس التاسع ، بعد قتل السلطان تورانشاه ، سوف يجعل أهل مصر ورجال الدولة

فيها كأنهم قوم سفاكون غادرون ، في نظر القريب والبعيد : ورد المتكلم بلسان حزب المتطرفين ، فقال إن قتل السلطان تورانشاه كان خروجاً على الآية القرآنية الكريمة التي تقول : ” أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم “ ، لكن قتل الملك لويس التاسع وأخويه ، وباروناته وأتباعه ، فيه استجابة لقوله تعالى : ” واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً “ (١) .

وظلت المناقشة محتدمة طول ذلك اليوم ، وتدخل فيها رجال الدين الذين جاءوا بهذه الاستشهادات القرآنية ، على حين انشغل رجال الدولة بشئون الأمن والنظام ، بعد حوادث ذلك اليوم ، حتى إنهم نسوا أن يقدموا أى طعام للملك أو لأخويه ، أو للبارونات ، أو لأنفسهم ، أثناء ذلك النهار . وتبددت آمال الملك لويس في النجاة ، وأخذ كبار الأسرى من البارونات الصليبيين يعدّون أنفسهم لأسوأ مصير ، ولا سيما بعد أن أمر أحد أمراء المماليك البحرية الصالحية بحلّ مرابط السفن ، أى السفن الراسية بكباو الأسرى الصليبيين قبالة دمياط ، ورجوع هذه السفن أدراجها إلى فارسكور ، إيذاناً بانتصار حزب المتطرفين من أمراء المماليك . وأخذت هذه السفن تسير في مجراها نحو فارسكور ، واغرورقت عيون بعض كبار الأسرى من البارونات الصليبيين بالدموع ، لا حسرة على أنفسهم فحسب ، بل حزناً على قرب فقدان الملك لويس التاسع ، وهو الذى كاد أن يجعل مصر جزءاً من الممتلكات الصليبية .

ثم تغير الموقف أخيراً ، والشمس وقتذاك تميل إلى الغروب ، إذ تغلب أمراء المماليك من حزب المعتدلين ، وهم القائلون بوجوب المحافظة على العهود والمواثيق التي تمت بين الطرفين ، وعاد كبار الأسرى من

(١) هذه الأخبار مستمدة من (Joinville : Op. Cit. pp. 203-205) ، وهذه الآيات

القرآنية واردة بهذا المرجع بمعناها العام ، لا بنصها المثبت هنا .

البارونات الصليبيين على ظهور السفن إلى قبالة دمياط مرة أخرى ، وطلبوا أن تأذن السلطات المملوكية بإطلاق سراحهم ، ليذهبوا إلى الملك لويس ، لمعرفة تعليماته النهائية بشأن الجلاء : غير أن أمراء المماليك لم يأذنوا بإطلاق سراحهم إلا بعد أن قدموا لهم طعام العشاء ، لأنهم لم يريدوا أن يقال عنهم أنهم يتركون ضيوفهم جوعاً بلا طعام ، ولو كانوا من الأسرى الصليبيين : على أنهم لم يستطيعوا أن يطعموهم لحماً حنيئاً وخبزاً سميذاً ، كما انتهى البارونات أن يُطعموا ، لتعويض ما انتابهم من الجوع طول ذلك اليوم ، بل اقتصر الطعام على وجبة جافة مكونة من أقراص جبنة قديمة ، وبشماط (بقسماط) جامد ، وبيض مسلوق ملون بمختلف الألوان الزاهية ، كما ينبغي أن يكون البيض المسلوق في عيد شمع النسيم ، وهو في تلك السنة يوم الاثنين ٢ مايو سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٧ محرم سنة ٦٤٨ هـ : غير أن المؤرخ جوفانفيل اعتقد أن تقديم البيض المسلوق ملوناً بتلك الألوان الزاهية ، كان من باب التكريم والاحتفال بالبارونات الصليبيين . ثم انتهى الطعام ، وعند ذلك سمح الأمراء المماليك للبارونات الصليبيين ، بالنزول إلى البر ، والذهاب إلى خيمة الملك لويس ، كما سمحوا للملك لويس بالخروج من خيمته ، لاستقبال البارونات ، والذهاب بعد ذلك إلى حيث كانت سفينة جنوية صليبية في انتظاره ، على الشاطئ الأيمن للنيل ، قرب موضع عزبة البرج الحالية .

وأخيراً مشى الملك لويس التاسع إلى مرسى هذه السفينة الجنوية ، صبيحة يوم الجمعة ٢ صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٦ مايو سنة ١٢٥٠ م ، وفي معيته حرس عدته عشرون ألفاً من العسكر المصري الأيوبي ، وسيوفهم في أغمادها ، حسبما ذكر جوفانفيل . فلما اقترب الملك لويس من شاطئ النيل ، أدى الجند الصليبيون الذين حملتهم هذه السفينة الجنوية ، وعدتهم ثمانون جندياً من الرماة ، تحية رسمية عابسة للحرس المصري الأيوبي الزاخر ، وانتهى

ذلك اليوم بصعود الملك لويس التاسع ، والبارونات الصليبيين ، كلٌّ إلى سفينته . ثم صعد إلى سفينة الملك لويس ، من خاصته وحاشيته ، أخوه شارل كونت آنجو ، ورئيس الحرس الملكي جود فرى سارجين ، وحاجب الحجاب فيليب نامور ، ومقدم العسكر حنا كليمان ، وراعى الكنيسة الملكية نيقولا ميتوران ، وكذلك جوانفيل . غير أن ألفونسو كونت بواتيه ، وهو أصغر إخوة الملك لويس التاسع ، تخلف عن ركوب السفينة الملكية ، إذ أصرت السلطات المصرية الأيوبية على احتجازه رهينة عندهم ، ريثما ينتهى دفع المبلغ المتفق على تأديته معجلاً ، من الفدية المقررة .

ومنذ صبيحة اليوم التالى ، وهو يوم السبت ٣ صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٧ مايو سنة ١٢٥٠ م ، أخذ الملك لويس التاسع والبارونات فى العبور بسفنهم ، من منطقة عزبة البرج الحالية ، إلى منطقة جيزة دمياط (رأس البر الحالية) ، على الضفة الغربية للنيل ، وهى المنطقة التى أُرست قبالتها سفنهم وعساكرهم ، غداة وصولهم الأول إلى الشواطئ المصرية ، ومنها بدأوا زحفهم الصليبي نحو دمياط ، فى يونيه من السنة الماضية . وهكذا عاد الصليبيون أدراجهم إلى نقطة بدايتهم الأولى ، دون أن يحققوا لأنفسهم شيئاً سوى الهزيمة والتسليم ، والنجاة بأرواحهم ، أى أنهم رجعوا إلى قواعد اعتدائهم بنحى حنين ، لا أقل ولا أكثر (١) .

ومنذ صباح ذلك اليوم كذلك ، بدأت عملية دفع المبلغ المتفق على تأديته معجلاً من الفدية المقررة ، ومقداره مائة ألف قطعة ذهبية إمبراطورية متوجة . وأخذ الموكلون بخزانة الملك لويس التاسع فى حساب هذا المبلغ وزناً وعداً ، حسبما جرت به العمليات المالية فى تلك العصور ، فجعلوا

(١) انظر لوحة رقم ٤ ، بين صفحتى ٢٤٠ و ٢٤١ ، حيث يبدو الملك لويس التاسع عابساً مقطب الجبين ، وبجانبه أحد أخويه ، وهو أشد عبوساً وإحساساً بالخيبة ، وحولهما عدد من الجند المصرى الأيوبي .

كلّ وزنة خمسة آلاف قطعة ذهبية . واستغرقت هذه العملية يوم السبت كله ، ثم يوم الأحد كله كذلك حتى المساء . وأخيراً تبين للحاسبين من الوزّانين والعدّادين ، أن المال الموجود فعلاً في الخزانة الملكية ، ينقصه عن المبلغ المطلوب خمس عشرة ألف قطعة ذهبية ، وليس ثمة أمل في سدّ ذلك العجز النقدي الكبير ، في سرعة .

ولجأ الملك لويس إلى مناورة دبلوماسية ماهرة ، لعله يستطيع من ورائها تأجيل هذا المال الناقص ، إلى ما بعد وصوله هو إلى عكا ، وذلك باستغلال ما وقع بدمياط من نقض لبعض شروط الهدنة . وتفصيل ذلك أن النار كانت لم تزل مشتعلة ، منذ يوم الجمعة السابق ، بأكداس الخلفات الصليبية ، من أسلحة وآلات حربية محطمة ، وموئن ولحوم مجففة مملّحة ، وهي التي تعهدت السلطات المصرية الأيوبية بصيانتها ، إلى حين تسليمها بحالها للصليبيين . فبعث الملك لويس إلى الأمير فارس الدين أقطاي ، وهو أكثر أمراء المماليك عطفاً على الصليبيين ، برسالة شفوية ، مع واعظ فرنسكاني معروف في الدوائر المملوكية ، واسمه راوؤل ، للاحتجاج على ما حدث من إتلاف عامدٍ لهذه الخلفات ، ولتوجيه النظر إلى ما ينطوي عليه هذا الإتلاف من نقض صارخ لشروط الهدنة . غير أن الأمير فارس الدين أقطاي أرسل للملك لويس التاسع ، ينصحه بالألا يحتج أو يظهر أيّ معّص ، مما حدث أو يحدث للصليبيين أو لخلفاتهم ، ما دام هو والصليبيون مقيمين في الأسر ، بالأراضي المصرية ، لأنهم لا يزالون كلّهم غنيمة حربية صامته ، لا حقّ لهم ولا حرية عند السلطات المصرية الأيوبية ، ما عدا ما تجود به هذه السلطات من تلقاء نفسها ، طواعيةً واحتساباً ، لا نتيجةً لاحتجاجٍ أو توجيه نظري ، من ناحية الملك لويس التاسع . ولذا أشار الأمير فارس الدين أقطاي على الملك لويس التاسع ، بتأجيل احتجاجاته إلى ما بعد وصوله إلى عكا ، مع التنبيه عليه بتدبير المبلغ الناقص من الفدية المقرّرة ، في سرعة ، لأن تأخير ذلك سوف

يؤخر إطلاق سراح ألفونسو كونت بواتيه ، دون جميع الأسرى من كبار البارونات الصليبيين ، وهم الذين أصبحوا شبه أحرارٍ طلقاء ، منذ عبورهم مع الملك لويس التاسع إلى منطقة جيزة دمياط ، وتحديد إقامتهم بها إلى وقت إبحارهم نهائياً عن الشواطئ المصرية .

والمراجع لا تخبر بهذا التنبيه الأخير صراحةً أو تلميحاً ، لكنها تدلّ عليه من طريق الاستنتاج ، إذ جاء وقتذاك إلى الملك لويس التاسع وفد من كبار البارونات الصليبيين ، وعلى رأسهم كونت فلاندر ، وكونت سواسون ، وغيرهما من كبار الأسرى ، وهم الذين خشوا طول الإقامة المحددة بمنطقة جيزة دمياط . وطلب هؤلاء البارونات من الملك لويس ، أن يأذن لهم بالرحيل عن مصر إلى أقاليمهم الفرنسية ، فأشار عليهم الملك لويس بالانتظار قليلاً ، حتى يتم تدبير المبلغ المطلوب في يومٍ أو بعض يوم ، وعندئذ تطلق السلطات المصرية الأيوبية سراح ألفونسو كونت بواتيه ، ويبحر الجميع في أمان واطمئنان ، إلى حيث يشاءون . لكن أولئك البارونات آثروا الرحيل فوراً ، وأبحروا من يومهم في بضعٍ من السفن إلى فرنسا ، ومعهم أحد معمرى الحروب الصليبية وحملاتها السابقة ، وهو بطرس كونت بريتاني ، صاحب فكرة الاستيلاء على الإسكندرية ، والزحف منها نحو القاهرة ، بدل الزحف الفاشل من دمياط إلى القاهرة ، عن طريق المنصورة . وكان بطرس كونت بريتاني مريضاً ، فثقل عليه المرض في عرض البحر ، ومات قبل أن تصل هذه السفن ، والبارونات الصليبيون الذين أبحروا عليها ، إلى الشواطئ الفرنسية .

ثم أشار المؤرخ جوانفيل على الملك لويس التاسع أن يسدّ هذا العجز المالى ، بقرضٍ من طائفة الفرسان الداوية ، وهم أرباب القروض المالية والودائع والأعمال المصرفية (البنوك) ، في تلك العصور الوسطى . وذهب جوانفيل بتفويضٍ من الملك لويس التاسع إلى مقدّم الداوية ، ليطلب القرض

اللازم ؛ وكان هذا المقدم - واسمه ستيفن أوتويكور - متولياً شئون الطائفة الداوية ، منذ موت رئيسها وليام سوناق متأثراً بجراحه ، في معركة المنصورة ووقعة جديلة الكبرى ، وكل اهتمامه متركز في الأمور المالية . ورفض هذا المقدم أوتويكور أن يوافق على منح القرض المطلوب ، بحجة أنه ليس من حقه أن يتصرف فيما لديه من ودائع مالية ، بالقرض أو غيره من أنواع التصرف ، إلا بترخيص من أصحابها ومودعيها . ونتيجة لهذا الرفض الجاف ، تبادل هذا المقدم أوتويكور والمؤرخ جوانفيل ألفاظاً حادة غاضبة ، لكن في غير جدوى .

ثم استأذن جوانفيل من الملك لويس التاسع ، ليذهب بنفسه إلى السفينة البحرية التي حفظ الداوية فيها خزائنها وودائعهم ، وليأخذ منها المال المطلوب ، كائنة ما تكون النتائج . وراح جوانفيل إلى تلك السفينة الراسية وقتذاك قبالة دمياط القديمة ، وطلب مفاتيح الخزائن من أمين الداوية ، فلم يجد منه مجيباً . وعند ذلك أمسك جوانفيل ببلطة حربية وقع نظره عليها في أرضية السفينة ، وهدد بأن يجعل منها مفتاحاً ملكياً عظيماً لكل خزانة مغلقة ، وبذا رضى أمين الداوية بتسليم مفاتيح الخزائن كلها ، إشارة منه إلى رضوخه مكرهاً لتهديد جوانفيل . لكن جوانفيل اكتفى بفتح خزانة واحدة من تلك الخزائن ، بعد أن علم بأنها تحتوى وحدها على أموال كبار البارونات الصليبيين . وقام رجل من رجال الحاشية الملكية بأخذ المال المطلوب منها ، باسم الملك لويس التاسع نفسه ، وبذا استطاع الملك لويس أن يؤدي ، للسلطات المصرية الأيوبية ، جميع المبلغ المعجل من الفدية المقررة .

ثم جاء جماعة من البارونات الصليبيين المكلفين بضبط عملية دفع الفدية ، وأخبروا الملك لويس التاسع بأن السلطات المصرية الأيوبية لا تنوى إطلاق سراح ألفونسو كونت بواتيه ، إلا بعد استلام مبلغ

الفدية المقررة كله ، فعلاً في أيديهم ، وأشاروا على الملك لويس بالألا يسلم هو شيئاً من هذا المبلغ ، إلا بعد إطلاق سراح كونت ألفونسو . غير أن الملك لويس رأى أن يحترم ما التزم به ، وهو تسليم جميع المبلغ المعجل من الفدية المقررة ، أولاً وقبل كل شيء ، وأن يترك للسلطات المصرية الأيوبية أن تحترم ما هي ملتزمة به من الشروط المقابلة . وعند ذلك - لا قبله - أخبر حاجب الحجاب في الحاشية الملكية - وهو فيليب كونت نامور - بأن العدّادين والوزّانين المالكين ارتكبوا - فيما بينهم - غلطة حساية متعمّدة ، في مبلغ خمس آلاف قطعة ذهبية ، من مجموع المبلغ المعجل من الفدية المقررة ، وأن السلطات المصرية الأيوبية سوف تتسلم أكياس الفدية ناقصة ، وأنها لن تكتشف هذا النقص إلا بعد الرحيل الصليبي عن الشواطئ المصرية . غير أن الملك لويس أصرّ على تأدية هذا المبلغ الناقص ، خشية أن تكشف السلطات المصرية الأيوبية هذه الغلطة قبل بداية الرحيل الصليبي ، وتجعل منها سبباً لإطالة بقاء كونت ألفونسو في الأسر .

وفي أثناء تلك الساعات الختامية من إقامة الملك لويس التاسع بمنطقة جزيرة دميّاط ، جاء لزيارته هناك شخص أبيض البشرة ، وعلى وجهه سيم الغنى والثروة . وتكلّم هذا الشخص الزائر بلسان فرنسي خالص ، وقدّم للملك لويس صينية عليها آنية من فضة ، فيها لبن مخمر (لبن زبادى) ، ومعها باقات من أزهار متنوعة مختلفة الألوان ، هدية من عند أولاد الملك الناصر داود صاحب الكرك سابقاً ، وهم الذين جاءوا إلى معسكر المنصورة بعد وفاة أبيهم بالكرك ، واستقرّوا بمصر منذ أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب (١) . وسأل الملك لويس هذا الشخص الزائر عن مصدر معرفته باللسان الفرنسي ، فأجابه بأنه فرنسي مسيحي الأصل ، وأنه أقام بمصر

(١) انظر ملحق رقم ١ (ص ٣٥٨ ب) .

منذ سنين ، وأنة اختار الإسلام ديناً . فامتعض منه الملك لويس امتعاضاً واضحاً ، وأمسك عن الكلام معه بتاتاً ، وأعرض عنه تمام الإعراض . وشهد جوائفيل هذه المقابلة الملكية الجافية ، فانتحى بهذا الزائر الفرنسى الأصل جانباً ، وسأله عن قصته ، فأخبر بأنه وُلد في بلدة بروفان بفرنسا ، وأنه جاء إلى مصر في حملة الملك حنا برين ، وبقي منذئذ بالبلاد المصرية ، واعتنق الدين الإسلامى ، وتزوج امرأة مسلمة ، وأصبح من أرباب المقام والنفوذ والثروة ، وغدا من عليّة المجتمع المصرى الأيوبي^(١) . وبالطبع اقترح جوائفيل على هذا الزائر أن يرجع إلى الديانة المسيحية ، لكن الزائر لم يوافق على هذا الاقتراح ، وفضل الاستمرار على الإسلام ، وترك الحضرة الملكية حانقاً أسفاً ، ومضى إلى حال سبيله .

وكانت السفن الصليبية الراسية في البحر ، على أهبة الرحيل عن الشواطئ المصرية ، ووقف بحارتها على ظهورها في صبرٍ صامتٍ ، وهم ينتظرون الإذن برفع المراسى ونشر القلاع . وأشار بعض البارونات الصليبيين على الملك لويس التاسع ، بالانتقال وقتذاك إلى السفينة المعدة له في البحر ، بعد أن صار من المؤكد أن النقود الناقصة ، من المبلغ المطلوب للقدية المعجلة ، في طريقه إلى السلطات المصرية الأيوبية . لكن الملك لويس ظلّ في موضعه على الضفة الغربية للنيل ، على مسافة قصيرة من لسان رأس البر الحالية ، وكرّر أنه لن يرحل عن موضعه إلا بعد أداء هذه النقود الناقصة ، عدّاً ووزناً . غير أنه لم يكد ينتهى هذا وذاك حتى التفت الملك إلى البارونات ، وأعلن فيهم أنه أوفى بكل وعوده ، بشأن مال القدية المعجلة ، وطلب منهم أن يسيروا معه في شيء من البطء ، مطمئنين آمنين في نهر النيل ، وأن ينتقلوا في غير عجلةٍ ، إلى السفن الواقفة في عرض البحر الأبيض

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 217) .

المتوسط ، وذلك لإعطاء الفرصة لأخيه ألفونسو كونت بواتيه أن يلحق .
م ، بعد إطلاق سراحه .

ثم لم يلبث أحد البارونات الصليبيين ، وهو فيليب كونت مونتفرت ،
أن أبصر كونت ألفونسو قادماً في النهر ، في سفينة صغيرة تجرى جريئاً
سهلاً مع التيار ، على نحو ما يرى من السفن الشراعية التي تجرى في النيل
متجهةً إلى مدخل البحر الأبيض المتوسط ، بمصيف رأس البر الحالية ،
في العصر الحاضر . فنادى كونت فيليب في الملك لويس والبارونات نداء
الفرحان ، وأشار إلى قرب وصول ألفونسو كونت بواتيه ، أو بعبارة
أخرى إلى قرب ساعة الرحيل العام عن الشواطئ المصرية ، وعن ذكرياتها
الحالكة في نفوس الصليبيين . وكافأت الكونتيسة بواتيه بحاراً صليبياً جاء
إليها بنجر وصول زوجها إلى السفن الصليبية ، بأن نفحته بعشر قطع
ذهبية ، من النقود الإمبراطورية المتوجة .

وأخيراً تحول الملك لويس التاسع وأخواه وسائر البارونات الصليبيين ،
إلى سفنهم البحرية الواقفة في انتظارهم في مدخل البحر الأبيض المتوسط ،
ما عدا عددٌ من الفرسان الصليبيين الذين بقوا بدمياط ، بإذن من الأمراء
المماليك ، لمراقبة عملية استلام الأسرى الصليبيين ، وهم الذين سوف تطلق
السلطات المصرية المملوكة سراحهم ، ولترحيل أولئك الأسرى عن البلاد
المصرية ، وإقناع الراغبين منهم في اعتناق الإسلام والإقامة في مصر ،
بما سوف ينالون من مكافآت متنوعة ، إذا هم ظلّوا على مسيحياتهم ،
وعادوا إلى أوطانهم (١) .

وأخيراً انتقل الملك لويس وأخواه ، وسائر البارونات الصليبيين ، كلٌّ
إلى سفينته المعدة له ، في غير إبطاء ، ودون انتظار لإعداد الفرش والملابس

(١) انظر (Michaud : Hist. des Croisades. IV. p. 625) .

اللازمة للملك لويس ، بعد طول إقامته أسيراً في معتقله بدار ابن لقمان .
ورضى الملك لويس مؤقتاً بما وجدته بالسفينة الملكية ، وقنع لتومه بما كان معه
من فراش الأسر ، كما قنع بما عليه من خلعة سلطانية مملوكية ، وهي التي
خلعها عليه السلطان تورانشاه ، غداة وصوله أسيراً إلى المنصورة ،
أو غداة اتفاهه معه على شروط الهدنة والفدية ، والجلاء التام عن الشواطئ
المصرية . واشتملت هذه الخلعة السلطانية فيما اشتملت ، نقلاً عن جوائفيل ،
على قباء من أطلس حرير أسود ، بفرو سمور وسنجاب ، وأزرار كثيرة
كلها من الذهب^(١) ، على طراز أرفع الخلع السلطانية ، المخصصة لكبار
الأمراء في الدولة المصرية الأيوبية ، في ذلك العصر . أما جوائفيل فكان
لابساً وقتذاك سترة قصيرة ، وهي مصنوعة من لحافه الذي التحفه مدة
أسره ، ويبدو أنه قنع كذلك بتلك السترة مؤقتاً ، سواء لساعات النهار
أو الليل .

وأصبح صباح يوم الأحد الرابع من صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٨ مايو
سنة ١٢٥٠ م ، فإذا السفن الصليبية ناشرة قلاعها ، آخذة طريقها في البحر

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 221) ، حيث يوجد هذا الوصف الدقيق
لتلك الخلعة السلطانية الثينة ، كما رآها جوائفيل ، حينما كان الملك لويس مرتدياً لها ، وهو
ينتقل وقتذاك إلى السفينة الملكية . ويلاحظ أن الإشارة تقدمت فيما سبق هنا (ص ٢٠٤)
إلى إرسال السلطان تورانشاه خلعاً سلطانية ثميناً ، إلى كل من الملك لويس التاسع وأخويه
وباروناته ، غداة وصولهم إلى معتقلاتهم بالمنصورة ، وأن الملك لويس رفض حينذاك ، دون
أخويه وباروناته ، أن يلبس الخلعة السلطانية المرسلة إليه ، خشية أن يحسب ذلك عليه بأنه
اعتراف منه بتبعية للسلطان تورانشاه . ولذا فمن المحتمل ، بعد أن قرر جوائفيل أنه رأى
الملك لويس التاسع لابساً خلعة سلطانية ، يوم الرحيل الملكي عن الشواطئ المصرية ، أن
الملك لويس رجع عن رفضه الأول المذكور ، ولبس الخلعة السلطانية التي أرسلها إليه السلطان
تورانشاه ، بعد أن اطمأن إلى حسن موقف السلطان منه ، وبعد أن استراح إلى طيب
معاملة القائمين على راحته وحراسته ، في معتقله بدار ابن لقمان ، كما أنه من المحتمل
كذلك أن السلطان تورانشاه خلع هذه الخلعة السلطانية على الملك لويس ، بعد أن أتم اتفاهه معه
على شروط الهدنة والفدية ، والجلاء التام عن الأراضي المصرية .

سراعاً تبعاً إلى عكا . وامتلأت دمياط ذلك اليوم - أى للمرة الثانية في أسبوع واحد - بأنواع الاحتفال البهيج . ثم بدأت دمياط تخلو من العساكر المصرية المملوكية ، بعد أن أخذوا يرحلون عنها يوماً بعد يوم ، في أفواجٍ متتابعة إلى القاهرة ، وعلى رأسهم أربعة رجال ، لكل منهم نصيبٌ معلومٌ في هزيمة الملك لويس التاسع ، وإخراجه من مصر كسير الجناح ، وهم حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني ، وأيبك التركماني ، وبيرس البندقداري ، وأقطاي الجمدار . وتستحق شجر الدر أن تنصدر هؤلاء الأربعة الرجال ، عن جدارة ، وأن يكون لها مكان الصدارة بين الأفواج العسكرية الداخلة وقتذاك أرسالاً إلى القاهرة ، وهي التي وصفها ابن العبري ، بأنها كانت " لانظير لها في النساء حسناً ، وفي الرجال حزمًا " ، من باب التنويه بما قامت به بدور كبير في تدبير الانتصار النهائي على الملك لويس التاسع وحملته الصليبية^(١) . لكن شجر الدر كانت بالقاهرة فعلاً قبل تلك الأيام ، أي منذ انتقلت إليها من المنصورة ، قبيل وصول السلطان تورانشاه إلى الأراضي المصرية .

وازيّنت القاهرة ومصر بأنواع الزينة ، ودوّت البشائر بطبورها ، وانطلقت من آلاتها الموسيقية أنغام الظفر ، لعدة أيام متوالية ، في كل مكان . ثم وصلت العساكر الظافرة إلى القاهرة ؛ في يوم الجمعة التاسع من صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ١٢ مايو سنة ١٢٥٠ م ، فخرج القاهريون من كل حيّ من أحيائها ، واصطفوا بالشوارع ، لرؤية العساكر المصرية المملوكية ، والأسرى الصليبيين في ركابهم . وانتشرت الأفراح والألعاب في ميادين القاهرة ، وتبارى الشعراء في إلقاء القصائد المناسبة لجلال تلك الأيام . ورأت الأميرة شجر الدر ، وهي التي ما لبثت أن أصبحت السلطانة في مصر ، أن تضيف

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٣ .

إلى جلال تلك الأفراح ، فقررت توزيع الخلع السنية على الأمراء وأرباب الدولة من الممالك وغيرهم ، وأنفقت في سائر العسكر جملة كبيرة من الأموال والعطايا . ثم أقامت السلطنة شجر الدرّ حفلاً كبيراً ، في يوم الثلاثاء الثالث عشر من صفر ٦٤٨ هـ ، الموافق ١٧ مايو ١٢٥٠ م ، لتوزيع تلك الخلع والأموال والعطايا على مستحقيها . ومن البديهي أن تلك الأفراح لم تقتصر على القاهرة ، بل تعدتها إلى غيرها من البلاد المصرية الأخرى ، مثل دمياط والمنصورة وفارسكور .

هكذا كانت أفراح القاهرة وغيرها من البلاد المصرية ، حين كانت حملة الملك لويس التاسع تجرّ أذيال الهزيمة ، على ظهور السفن الصليبية إلى عكا ، بعد إقامة تلك الحملة على دمياط وجيزتها وجزيرتها ، مدة سنة تقريباً . وهكذا سجل التاريخ في سجلاته المستمرة الصامتة ، وبرهنت الحوادث التاريخية في مسالكها اللانهائية ، أن هزيمة حملة الملك لويس التاسع في الأراضي المصرية ، دليلٌ على قرب اختتام أيام الصليبيين بالشرق الإسلامي كله ، فضلاً عن انتهاء أحلام مملكة صليبية في بيت المقدس . ومع هذا ظنّ الملك لويس التاسع أن باستطاعته أن يوقف عربة التاريخ ، ريثما يصلح من أغلاط حملته على مصر ، ويعود بعد ذلك إلى البلاد المصرية أو غيرها من البلاد الإسلامية ، لمرادة أعماله الصليبية من جديد . ولم يشأ الملك لويس التاسع أن يجد مرشداً مأموناً ، أو ناصحاً مسموعاً ، إلا من تقواه العسكرية المحاربة ، ومن إيمانه الديني الراسخ ، وكلاهما أوحى إليه بأن مملكة بيت المقدس الصليبية حقيقة ثابتة ، وسوف يتم ظهورها مرة أخرى ، على يديه .

ومن أجل هذا ينتقل مسرح الحوادث الصليبية - جغرافياً وتاريخياً - من مصر إلى فلسطين ، أو بعبارة أخرى من دمياط ومشارفها إلى عكا وماجاورها من البلاد الفلسطينية ، وهي التي لم تزل وقتذاك بأبدي الصليبيين

المحليين ، حيث ظلّ الملك لويس التاسع ، وجزء من بقايا حملته الصليبية السابقة ، أربع سنوات طويلة .

وهذه السنوات الأربع ، هي في جملتها وتفصيلها ذيلٌ بلقاء الملك لويس وحملته عن دمياط ، وتكملةٌ لهزيمته في مصر ، وتذكرةٌ بعدم اقتناعه الشخصي بهذه الهزيمة . وهذه السنوات الأربع هي كذلك فاصلٌ زمنيٌّ كان من الممكن أن يخرج الملك لويس منه بحملة صليبية فرنسية أخرى على مصر ، أو غيرها من البلاد الإسلامية ، لو أن المقادير جرت في أفعته لا في أفعنتها ، واستندت إلى رغباته ، واعتمدت على تقواه العسكرية المحاربة . ومع أن هذا الفاصل الزمني ، ليس في مبناه أو معناه جزءاً من حوادث حملة الملك لويس التاسع على مصر ، فهو نتيجة من نتائجها ، وسنواته الأربع كانت سنوات تطبيقٍ لشروط هدنة دمياط ، واللقاء عن الأراضي المصرية ؛ ولذا فليس هذا الفاصل الزمنيّ خارجاً عن محيط حملة الملك لويس على مصر ، وهزيمته في المنصورة .

وتلقى الملك لويس التاسع غداة وصوله إلى عكا ، في أواسط مايو سنة ١٢٥٠ م ، رسالة من عند أمه الملكة بلانش القشتالية ، وهي التي قامت بالوصاية على عرش فرنسا مدة غيبته . وألحّت الملكة الوالدة في هذه الرسالة على ابنها الملك لويس ، بضرورة عودته سريعاً إلى بلاده ، بعد أن ترامت الأخبار إليها أن هنري الثالث ملك إنجلترا ، يوشك أن يقوم بحركة عدائية نحو الأراضي الفرنسية ، لتسوية حساب له لإقطاعي قديم مع العرش الفرنسي ، وهذا فضلاً عن بضع مشاكل فرنسية داخلية ، وكلها تستدعي إشراف الملك لويس بنفسه على شئون مملكته .

غير أن روح التقوى العسكرية المحاربة ، وهي الروح الجياشة دائماً في قلب الملك لويس ، لم تسمح له بأن يكون مجيباً أو مطيعاً أو سميعاً لهذا الإلحاح من جانب أمه ، بل استقرّ لديه أن المصلحة الصليبية لا تزال

بحاجة إلى وجوده بفلسطين ، لأن أيام المنصورة وجديلة الكبرى ، وبحر المحلة ومسجد النصر ، وشرمساح ومنية الحولى عبد الله ، أبادت فيما بينها جيشاً للصليبيين المحليين عن آخره تقريباً ، بالإضافة إلى جيش صليبي فرنسي بأسره ، ولذا رأى الملك لويس أنه لا أقل من الإقامة بفلسطين مدة ما ، لإصلاح ما أفسدت حوادث تلك الأيام المشهورة من سمعة الجيوش الصليبية المحلية والفرنسية ، في الشرق والغرب . يضاف إلى ذلك واجب الملك لويس نحو الصليبيين الذين وقعوا أسرى في أيدي القوات المصرية الأيوبية أثناء تلك الحوادث ، وهو واجب البقاء على مقربة منهم ، لضمان تنفيذ شروط الهدنة المملوكية الصليبية حتى نهايتها ، أى حتى إتمام إطلاق سراح جميع الباقين منهم في الأسر في مصر ، وهم عدد غير قليل . كان للملك لويس مآرب سياسة أخرى تمنى تحقيقها ببقائه في فلسطين ، وسوف تتضح أطراف هذه المآرب السياسية ، كما سوف تتضح قلة التجانس في دبلوماسية الملك لويس ، في ثنايا حوادث هذه السنوات الأربع التالية .

ولكل هذه الاعتبارات استدعى الملك لويس التاسع إليه مجلس مشورته ، ومنهم أخواه شارل كونت آنجو ، وألفونسو كونت بواتيه ، والمندوب البابوي أودو أسقف طوسكولوم ، وفيليب كونت فلاندر ، وحنّا كونت يافا ، وجى موفوازان ، والمؤرخ جوانفيل ، وغيرهم من البارونات الفرنسيين والمحليين . واجتمع هذا المجلس الملكي يوم الأحد ١٩ يونيه سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ١٧ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ^(١) بمدينة عكا ،

(١) هذا التاريخ استنتاجى خالص ، وليس بالمراجع ذكر له ، لكن المعروف أن اجتماعات هذا المجلس بدأت وظلت مفتوحة مستمرة ثلاثة آحاد متتالية ، وأنها انتهت يوم الأحد ٣ يوليه سنة ١٢٥٠ م ، الموافق أول ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ . وعلى هذا يكون تاريخ يوم الأحد الذى بدأت به هذه الجلسات الثلاث ، هو التاريخ المثبت هنا بالمتن .

حيث أفضى الملك لويس إلى الحاضرين بما جاء برسالة الملكة الوالدة بلانش القشتالية ، ثم سألمهم عما يشيرون به من عودة عاجلة إلى فرنسا ، أو بقاء موقوف في عكا . وانتقل الملك لويس بعد ذلك السؤال انتقالاً ملحوظاً ، لشرح أحوال البارونات المحليين ، ونبه تنبيهاً خاصاً إلى ما صاروا إليه بعد أن ذهب عنهم جيوشهم في مصر ، ما بين قتيل أو جريح أو مريض أو أسير . وأضاف الملك لويس بأن هؤلاء البارونات المحليين يخشون سوء العاقبة ، إذا هو قرّر العودة بجيشه سريعاً إلى فرنسا ، لأن رحيله سوف يؤدي إلى رحيل سائر القوى الصليبية الفرنسية بعده ، وبذا تصبح عكا وغيرها من المدن الصليبية خالية من أية قوة حربية تساعد على حمايتها .

وأمهل الملك لويس التاسع أعضاء المجلس سبعة أيام ، لتقليب الرأي فيما بينهم حول ما ينبغي عمله ، على أن يعودوا إليه يوم الأحد التالي بما يرون فيه المصلحة المرغوبة . ثم لم يلبث أعضاء ذلك المجلس الملكي أن انقسموا حينذاك فريقين ، فرأى الفريق الأول ، ومعظمه من البارونات الفرنسيين ، وعلى رأسهم المندوب البابوي أودو أسقف طوسكولوم ، وجوب عودة الملك لويس سريعاً إلى فرنسا ، في غير تردد ، على حين رأى الفريق الثاني ، وهو فريق البارونات المحليين ، وزعيمهم حنا كونت يافا ، ضرورة إقامته في عكا مدة سنة على الأقل . ثم طلب المندوب البابوي أودو من صديقه جوانفيل أن يساعده على إقناع الملك لويس ، بضرورة العودة الملكية العاجلة إلى فرنسا ، اعتماداً منه على أن جوانفيل أضحي جليساً يومياً من جلساء المائدة الملكية ، في الغداء والعشاء ، وفي استطاعته أن يستولى على سمع الملك لويس أثناء الطعام . غير أن جوانفيل لم يلبث أن صار لذلك السبب مؤيداً للأفكار الملكية الخاصة ، كيفما تكون ، بل لم يلبث أن صار زعيماً من زعماء القائلين بوجوب بقاء الملك في عكا إلى حين ، وانضمت معه فئة من الحاشية الملكية :

وانعقد المجلس الملكي التالى يوم الأحد ٢٦ يونيه سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٤ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ ، أى حسب الميعاد المتفق عليه ، بحضور جميع البارونات الفرنسيين والمحليين . والتفت الملك لويس التاسع إلى أخويه شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتيه ، وإلى فيليب كونت فلاندر ، وإلى كبار البارونات الفرنسيين ، وسأل عما استقر رأيهم عليه . ونهض البارون المختار للإجابة نيابة عن الحاضرين ، وهو جى موفوازان ، فقال إن رأى الذى استقر عليه البارونات الفرنسيون ، هو أن يعود الملك لويس سريعاً إلى فرنسا ، ولا سيما أنه لم يبق من جيشه الملكى الخاص سوى مائة من الفرسان ، وهم كل عسكره فى عكا ، ولن يستطيع الملك لويس أن يجعل منهم قوة محاربة ، أو يسد بهم ثغرة ، أو ينفع بهم أحداً . أما إذا عاد الملك إلى مملكته ، وأصلح من شئونها بعد طول غيبته ، فسوف يجمع من البارونات الفرنسيين ، والفرسان والعساكر والأموال ، ما يكفى لحملة صليبية كبيرة يهبط بها إلى الشرق مرة أخرى ، ليجرب حظه من جديد . غير أن الملك لويس التاسع لم يقتنع بهذا رأى ، وجمال بنظره فى الحاضرين ، ليتعرف حقيقة شعور المجلس الملكى . ثم التفت الملك لويس إلى أخويه ، وإلى فيليب كونت فلاندر ، لعله واجد لديهم رأياً ثانياً ، لكنهم أمتنوا جميعاً على ما قاله جى موفوازان .

وأراد المندوب البابوى أودو أن ينتهز هذه الفرصة ، لإخراج أصحاب الرأى القائل بضرورة بقاء الملك لويس التاسع فى عكا إلى حين ، فسأل حنا كونت يافا ، وهو زعيم البارونات المحليين القائلين بهذا الرأى ، أن يعقب على رأى الأغلبية البارونية الفرنسية . لكن حنا كونت يافا امتنع من الكلام ، مخافة أن يتهم بإيثار مصلحته المحلية الخاصة ، على المصلحة الصليبية العامة . لكن الملك لويس ألح على كونت حنا أن يجهر بما عنده من رأى ، فاقترح الكونت أن يبقى الملك لويس بفلسطين بقاء مشروطاً



صورة محفورة على الخشب ، وهي مأخوذة من (Lacroix : Vie Militaire et Religieuse Paris, 1874) نغلا عن (Grand Voyage de Hiérusalem, Paris, 1522) . ويبدو أن المقصود بهذه الصورة وصف حال اليأس الذي اسولى على الصليبيين . بعد أن أيتنوا بقرب جلائهم عن الأراضي المصرية . غير أن هذه الصورة تجمع بين حوادث متفاوتة تفاوتاً زمنياً واضحاً من حملة الملك لويس التاسع على مصر . ففي وسط الصورة يظهر الملك لويس عابساً مفيداً في يديه - لا في رجله حسبما ذكر ابن واصل ، وبجانبه أحد أخويه . وحولهما جنود مصريون أيوبيون . وكأنهم وصلوا بالملك لويس وأخيه إلى باب دار ابن لقمان بالمنصورة . وفي هذه الصورة تظهر كذلك سيدة واقفة وراء الملك لويس . وهي حزينه الوجه ، وبين ذراعيها طفل ، وكأنها الملكة مرجريت البروفنسالية ووليدها حنا الأحران . وهي تستقبل زوجها الملك لويس يوم وصوله إلى دمياط ، بعد إطلاق سراحه من الأسر . ومن المحتمل كذلك أن تكون هذه الصورة مرسومة للدلالة على الملك لويس وأخيه شارل كونت آنجو . وهما واقفان عند الموضع المعروف باسم اللسان في رأس النهر الخالية . في انتظار وصول أخيهما ألفونسو كونت بواتيه ، بعد أن أطلق أمراء المماليك إطلاق سراحه . عقب تأدية المبلغ المعجل من الفدية المقررة . وربما تكون السيدة الواقفة وراء الملك لويس هي الكونتيسة بواتيه ، زوجة ألفونسو .

بمسئدة واحدة ، أى حتى تستطيع القوات الصليبية المحلية أن تسترجع شيئاً من قوتها السالفة . وعزز جوانفيل ذلك الاقتراح النصفة ، وانقلبت الجلسة إلى مناقشة حادة ، بين فريق الأغلبية الواضحة من البارونات الفرنسيين من ناحية ، وفريق البارونات المحليين ، ومعهم حنا كونت يافا وجوانفيل ، من ناحية أخرى .

وفى أثناء تلك المناقشة قال جوانفيل ، بإيعاز من الملك لويس فيما يبدو ، بأن الخزانة الملكية لا تزال عامرة بالأموال ، وأن باستطاعة الملك أن يجند بهذه الأموال جيشاً صليبياً كبيراً ، من دوقية بلاد المورة بشبه جزيرة اليونان الحالية ، أو غيرها من الدوقيات الصليبية القائمة على أنقاض الدولة البيزنطية ، وبذا يستطيع الملك لويس أن يبقى بفلسطين إلى أجل غير مسمى ، ويستطيع ببقائه أن يهيمن على عملية إطلاق سراح الأسرى الصليبيين فى مصر ، وبدون ذلك لن يكون ثمة أمل فى إطلاق سراح أولئك الأسرى . وعند ذلك طلب المندوب البابوى أودو من مقدم المعسكر الفرنسية ، وهو وليام بومون ، أن يبدى رأيه فى هذه المناقشة الطويلة ، فأمن وليام بومون على قول جوانفيل . واشتد الأخذ والرد بعد ذلك بين الفريقين ، ولم تنته الجلسة إلا عند ما قال الملك لويس إنه استمع إلى ما فيه الكفاية ، وإنه سوف يعلن عن قراره النهائى بعد سبعة أيام أخرى ، أى يوم الأحد التالى .

وامتلات تلك الأيام السبعة بكثير من الانصالات الفردية الغاضبة ، وعقد جوانفيل النية بينه وبين نفسه أن يبقى بفلسطين ، سواء بقى الملك لويس التاسع أو عاد إلى فرنسا ، وأعلن أنه سوف يلتحق بخدمة بوهمند الخامس أمير أنطاكية الصليبية ، أملاً فى تكوين حملة لتخليص الأسرى الصليبيين من أسرهم .

ثم جاء يوم الأحد المحدد لإعلان الملك لويس التاسع ما استقر عليه رأيه النهائى ، وهو يوم ٣ يوليه سنة ١٢٥٠ م ، الموافق أول ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ .

واكمل عدد الأعضاء من البارونات الصليبيين الفرنسيين والمحليين ، فضلاً عن الأخوين الملكيين شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتيه . وافتتحت الجلسة حين نهض الملك لويس التاسع ، ورسم بيده علامة الصليب على صدره وجهته ، وابتهل إلى روح القدس أن يرشده إلى قول الصواب ، ثم قال ما نصه ، نقلاً عن جوانفيل : ” أيها السادة ! إنني أشكر كثيراً جميع الذين ينصحونني بالعودة إلى فرنسا ، وأقدم الشكر كذلك إلى هؤلاء الذين ينصحونني بالبقاء هنا . أما رأيي فهو أنني لا أجد خطراً على مملكتي من الضياع ، إذا أنا بقيت هنا ، لأنه يوجد حول السيدة الملكة والدتي رجالٌ قادرون على حماية البلاد ، والدفاع عنها . ثم إنني أخذت بعين الاعتبار كذلك قول بارونات هذه البلاد ، وهو أنه إذا نحن رحلنا سريعاً إلى فرنسا ، فإن دولة بيت المقدس سوف تضع ، لأن أحداً لا يجرؤ على البقاء هنا بعدى . ولذا رأيت أنني لا أستطيع أن أترك دولة بيت المقدس تفنى ، مهما كلفني البقاء بقربها من تضحية أو ثمن ، فإني جئت إلى هنا أصلاً لاستعادتها ولحمايتها . وهذا هو رأيي ، وهو أن أبقى هنا أولاً وآخرأ . وأقول لكم أيها السادة الفرسان الحاضرون هنا ، وأقول لجميع الفرسان الآخرين الذين يرون البقاء معي ، أن تعالوا إليّ ، وقولوا قولاً صريحاً ، وسوف أقدم لكم من الأموال ما يجعلكم تأسفون إذا أنتم قرّرتم عدم البقاء معي “ (١) .

وانتهت مناقشات هذا المجلس الملكي الحاسم ، بتقرير شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتيه ، ومعظم البارونات الفرنسيين ، أن يعودوا إلى فرنسا فوراً ، على حين أخذ الملك لويس في الإغداق على الذين اختاروا البقاء معه في فلسطين ، بأن أدخلهم في خدمته ، وجعل لهم الرواتب العالية اللائقة من خزانته ، ومنهم جوانفيل ، وأولئك فضلاً عن رجال الحاشية

الملكية ، أمثال جودفري سارجين ، وبطرس الحاجب ، وجيل الأسود ، وهو كندا صطبل فرنسا الحديد .

وأبجر شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتيه ، ومعهما البارونات الفرنسيون ، في منتصف شهر يوليو سنة ١٢٥٠ م ، بعد أن تركوا في عكا جميع ما تبقى لهم من أموال كثيرة ، فضلاً عن فرسان وخيالة وعساكر صليبية ، دخلوا كلهم في خدمة الملك لويس التاسع ، وعدتهم في مجموعهم ألف وأربعمائة ، من مختلف الأقاليم الفرنسية . وبقيت الملكة مرجريت البروفنسالية ، وابنها حنا الأحران ، مع الملك لويس في فلسطين ، حيث ولدت له ولداً ثالثاً اسمه بطرس ؛ ولم تشأ الملكة أن ترحل مع الراحلين عن الشرق . ثم بعث الملك لويس ، في أوائل أغسطس سنة ١٢٥٠ م ، إلى جميع رعيته من البارونات والفرسان ورجال الدين الفرنسيين ، وهم الذين لم يشتركوا في حملته ، خطابه المشهور الذي تقدمت الإشارة إليه ، وشرح لهم فيه أخباره ، منذ يوم وصوله الأول إلى دمياط إلى يوم خروجه النهائي منها بفلول عسكره . وأفاض الملك لويس في هذا الخطاب ، في ذكر أسباب بقاءه بفلسطين ، وطلب نجدة فرنسية كبيرة ، ليستطيع بها القيام بحملة صليبية أخرى في العام القادم ، دون أن يعين لتلك الحملة المرجوة هدفاً معيناً ، أو ميداناً محدداً ، ما عدا ما ورد في هذا الخطاب الملكي من إشارة عامة إلى وجوب إعادة العمل على عودة دولة بيت المقدس الصليبية ، دينياً وسياسياً^(١) .

ومنذ صار من المعروف أن الملك لويس التاسع باقٍ بالشرق ، لتحقيق هذه الأمنية ، بصورة أو بأخرى ، غدت مدينة عكا مركزاً لحركات دبلوماسية غير متناسقة ، على قول بعض أصدقاء الملك لويس ، لاقتصار معظمها ، على شئون الصليبيين المحليين ، وهم الذين أمست مصالحهم خليطاً من الأغراض

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

الصليبية الدينية والأطماع السياسية السافرة ، كما أمست دماؤهم خليطاً من الصليبيين الجدد والمستوطنين^(١) .

على أن هذه الدبلوماسية المحلية المختلطة ، وما تخللها من قلة النجاس ، أشبعت - فيما يبدو - روح التقوى العسكرية المحاربة في نفس الملك لويس التاسع ، إذ جعلته ملكاً فيصلاً ، بيده الأمر والنهي فيما تبقى من دولة بيت المقدس الصليبية ، ومملكته الرمزية الباقية بمدينة عكا ، ولا سيما بعد أن سلمه الوصي على تلك المملكة الرمزية مقاليدها تسليماً نهائياً . وجاء إلى عكا وقتذاك مبعوثون من عند الإمبراطور فردريك الثاني هوهنشتاوفن ، ومعهم رسائل ودّية إلى السلطان تورانشاه ، للوساطة في إطلاق سراح الملك لويس وأخويه وباروناته من الأسر . ولم يكن المبعوثون الإمبراطوريون على معرفة بمقتل السلطان تورانشاه ، وما أعقب مقتله من حوادث ، ولم يحلموا أنهم سوف يرون الملك لويس التاسع حراً طليقاً في عكا ، لاعتقادهم بأنه لم يزل أسيراً في معتقله بمدينة المنصورة . ولذا عاد المبعوثون أدراجهم ، ويحتمل أنهم مروا في طريق عودتهم على الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ، ليتعرفوا منه على تفاصيل الموقف السياسي ، منذ مقتل السلطان تورانشاه .

ومما يرجح هذا الاحتمال أن الملك الناصر يوسف هذا ، وهو حفيد من أحفاد السلطان العظيم صلاح الدين ، أضحى وقتذاك عميد البيت الأيوبي كله ، وقبلة الأنظار القريبة والبعيدة بين الملوك الأيوبيين ، ومستودع الآمال في نهضة الدولة الأيوبية المتحدة ، الشاملة لمصر والشام معاً ، كما كان الحال سابقاً أيام السلاطين صلاح الدين والعادل محمد ، والكامل محمد والصالح نجم الدين أيوب . ولهذا الأسباب القويّة وجد أمراء فرقة

(١) انظر (Grousset : Op. Cit. III. p. 496) .

المماليك البحرية الصالحية ، وهم الذين أصبح بأيديهم الحل والعقد في القاهرة ، شيئاً من الصعوبة في إعلان سلطنة شجر الدر ، ووضحت لهم هذه الصعوبة حين هبت دمشق ونيابتها ، وحاميتها المكونة من الأكراد القيمرية ، ورفضت أن تعترف بالسلطنة شجر الدر ، وامتنعت عن الحلف لها . ثم قام الأمير الكردي جمال الدين بن يغمور ، نائب السلطنة بدمشق ، واستدعى الملك الناصر يوسف من حلب ، لمساعدة دمشق في موقعها من السلطنة الجديدة . ودخل الملك الناصر يوسف مدينة دمشق بغير قتال ، يوم السبت ٧ ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٩ يولييه سنة ١٢٥٠ م ، أي بعد ستة أيام من إعلان الملك لويس التاسع قراره بشأن إقامته في عكا إلى حين . ثم لم يلبث الملك الناصر يوسف أن بعث برسالة ودّية إلى الملك لويس في عكا ، وعرض عليه عروضاً سخية ، مقابل صداقة أيوبية صليبية ناشطة ، ومن هذه العروض أن ينزل الملك الناصر يوسف للملك لويس عن مدينة بيت المقدس نفسها ، إذا هو حالفه حلفاً هجوماً ضد دولة المماليك البحرية الصالحية ، وسلطانهم شجر الدر .

ومن ناحية أخرى ، نهض أمراء فرقة المماليك البحرية الصالحية ، لإحباط حركات الملك الناصر يوسف ، بزواج السلطنة شجر الدر من الأمير أيبك التركماني ، وإقامته مكانها سلطاناً ، بعد أن نزلت عن منصب السلطنة ، ثم بإعلان طفل من سلالة الفرع الأيوبي البني ، واميّه موسى ، ليكون شريكاً للسلطان أيبك في السلطنة . غير أن الملك الناصر يوسف لم يلقِ بالاً لهذه الحركة ، بل أرسل فئة من قواته إلى غزة ، فدخلها وضمّتها إلى ممتلكاته كذلك بغير قتال ، أواخر جمادى الثانية سنة ٦٤٨ هـ ، أي أواسط أغسطس سنة ١٢٥٠ م . وبذا أصبحت مدن الشام كلها ، من غزة إلى حلب ، في يد الملك الناصر يوسف وأقاربه من الملوك الأيوبيين ، كما أصبحت طلائع قواته على مقربة من الأطراف المصرية .

ومن باب الردّ على ذلك التحدّي أعلن السلطان أيك التركمانى أن مصر من ممتلكات الخلافة العباسية ، وأنه ينوب عن الخليفة المستعصم العباسى فى حكومتها وإدارتها . وبناء على هذا الإعلان ، وتطبيقاً لالتزاماته ، أرسل السلطان أيك الأمير فارس الدين أقطاى الحمدار ، ومعه حملة مملوكية غير صغيرة ، لإخراج عسكر الملك الناصر يوسف من غزة ، ففاوضهم أقطاى مناوشاتٍ حربيةٍ ناجحة ، وما زال بهم حتى أخرجهم منها عنوة ، يوم الخميس ٨ رجب سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٦ أكتوبر سنة ١٢٥٠ م .

وبينما هذه المناوشات الحربية الناجحة تجرى بين الطرفين الأيوبي والمملوكي ، تمخّضت المفاوضات التى بدأها الملك الناصر يوسف مع الملك لويس عن مناورة دبلوماسية صليبية حاذرة . وافتتح هذه المناورة مبعوثو الملك لويس التاسع إلى دمشق ، وعلى رأسهم راهب دومنيكانى عارف باللغة العربية ، واسمه أيف البريتونى . وقام هذا المبعوث بتبليغ رسالة ملكية طويلة ، وخلاصتها أن الملك لويس لا يستطيع الدخول مع الملك الناصر يوسف فى حلف ضدّ السلطنة المملوكية وأمرائها بالقاهرة ، أو أن يقبل وعداً بنزول الملك الناصر يوسف عن مدينة بيت المقدس للصليبيين ، إلّا إذا تأكد أولاً بأن السلطان المملوكى أيك ، وأمراء الدولة المملوكية ، عازمون على عدم احترام هدنة دمياط ، ممتنعون عن إطلاق سراح الأسرى الصليبيين المبعثرين بأنحاء البلاد المصرية . واختتمت هذه الرسالة بقول الملك لويس التاسع ، بأنه على وشك إنفاذ مبعوثين صليبيين من عكا إلى القاهرة ، لشرح رغباته فى ذلك الصدد للسلطان أيك ، وأمراء الدولة المملوكية ، فإذا ثبت لدى هؤلاء المبعوثين أن الدولة المملوكية لا تستجيب لهذه الرغبات ، فإنه لن يتردّد فى الدخول مع الملك الناصر يوسف فى الحلف الصليبي الأيوبي المطلوب .

والواقع أن الملك لويس التاسع أرسل إلى القاهرة وفداً صليبياً كبيراً على رأسه حنا فالانسين كونت حيفا ، وهو بحكم جغرافية كونتيته من العارفين بشدة العداء بين السلطنة المملوكية والملوك الأيوبيين . وابتدأ حنا فالانسين جلسة الاجتماع الأول بالمندوبين عن السلطنة المملوكية ، بقلعة الجبل بالقاهرة ، بخطبة فيها نغمة مصطنعة من الاحتجاج الشديد على ما حدث من إتلاف الآلات الحربية والمؤن الصليبية ، قبيل الجلاء الصليبي عن دمياط . ثم تحول حنا فالانسين من نغمة الاحتجاج الشديد إلى نغمة الإنذار بالمخاضة الشديدة ، ثم انقلب من هذا وذاك إلى لهجة ليّنة ، حين أردف نغمة الإنذار بقوله إن ما فات مات على أية حال ، بشرط أن يطلق السلطان أيلك سراح الفرسان الصليبيين وهم الذين لا يزالون في قبضة السلطنة المملوكية بالقاهرة نفسها ، ولم يتفرقوا وقتئذٍ في عامة البلاد المصرية . ثم اختتم حنا فالانسين خطبته هذه ، بقوله إنه إذا لم يتم إطلاق سراح هؤلاء للفرسان الصليبيين ، على وجه السرعة ، فسوف يقوم الملك لويس بمحاربة الغريم اللدود للسلطنة المملوكية ، وهو الملك الناصر يوسف ، كاتبة ما تكون النتائج .

ولذا استجاب السلطان أيلك إلى إطلاق سراح عدد كبير من الفرسان الصليبيين ، كما وافق حنا كونت فالانسين بدوره ، نيابة عن الملك لويس التاسع ، على عقد محالفة مع السلطنة المملوكية ضد الملك الناصر يوسف ، مع التأكيد للمندوبين عن السلطنة المملوكية ، بعدم الدخول في أية مفاوضات صليبية أيورية مستقبلية . وعاد حنا كونت فالانسين إلى عكا بأعداد كبيرة من الأسرى ، بلغت في مجموعها الكلى ثمانمائة ، منها مقدم الاسبتارية وليام شاتونيف ، وخمسة وعشرون من فرسان هذه الطائفة ، وخمسة وعشرون من طائفة فرسان الداوية ، وعشرة من طائفة الفرسان التيوتونية ، ومائة من الفرسان الملكيين الفرنسيين ، وأربعون من الفرسان

الشامبانيين ، وذلك فضلاً عن ستائة من عامة الأسرى^(١) ، بالإضافة إلى رفات كونت والتر برين ، وهو الذى مات فى الأسر ودفن بالقاهرة سابقاً ، سنة ١٢٤٤ م ، أى قبل مجيء حملة الملك لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة ، بست سنين .

غير أن الملك لويس التاسع لم يقنع بإطلاق سراح هذه الأعداد الكبيرة من الفرسان وغير الفرسان الصليبيين ، على الرغم من أن معظم هؤلاء وأولئك لم يلبثوا أن دخلوا فى خدمته المملوكية ، وأسهموا فى تنمية قوته الحربية ، كما أنه لم يظهر شيئاً من الجميل لإعادة رفات بارون صليبي كبير ، بعد عدة سنوات من موته بالقاهرة . الواقع أن الملك لويس أراد أن يفترص وقتذاك فرصة سيكولوجية واضحة ، للإمعان فى استغلال ما بين السلطنة المملوكية والملوك الأيوبيين من ضغينة وعداء ، ولم يشأ أن يدع هذه الفرصة تمرّ أو تفلت من يده . ولذا استدعى الملك لويس المبعوثين من عند السلطان أيبك ، وهم الذين جاءوا إلى عكا من القاهرة مع حنا كونت فالانسين ، فى ١٩ رجب سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ١٧ أكتوبر سنة ١٢٥٠ م ، وخاطبهم بلغة جافية على غير عادته التى اشتهر بها ، وطلب عودة المزيد من الأسرى الصليبيين ، بالإضافة إلى النزول عن المبلغ المؤجل من الفدية المقررة ، وهو مائة ألف قطعة ذهبية إمبراطورية متوجة ، أى نصف المبلغ الأصيل ، مقابل ما أثلف الدمياطيون من الأثقال والمؤونة الصليبية سابقاً ، وذلك قبل الموافقة على أية مخالفة صليبية مملوكية ضدّ الملك الناصر يوسف الأيوبي . وأعاد الملك لويس مبعوثي السلطان أيبك إلى القاهرة بهذه المطالب الكثيرة ، ومعهم حنا كونت فالانسين مرة أخرى ، وظلّ هذا الكونت بالقاهرة مدة طويلة ، نظراً

(١) هنا دليل من الأدلة على عدم صحة الأخبار التى تقدمت الإشارة إليها (ص .

٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢٢٤) ، بشأن إبادة الأسرى الصليبيين ، على اختلاف مراتبهم .

لذا طرأ على الموقف السياسى بين الدولة المملوكية والملك الناصر يوسف من تدهور .

ذلك أن الملك الناصر يوسف عقد النية أخيراً على غزو مصر ، ومحاربة السلطنة المملوكية فى عقر دارها الجديدة ، وأراد بذلك أن يقضى على هذه السلطنة الناشئة ، قبل أن يستوى عودها . ولذا خرج الملك الناصر يوسف من دمشق ، بجيش كبير من المماليك الأكراد ، فى منتصف رمضان سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ١١ ديسمبر سنة ١٢٥٠ م ، ومعه جميع الملوك الأيوبيين بالشام ، على رأس عساكرهم من المماليك الأكراد والأتراك . واقتحم الملك الناصر يوسف وحلفاؤه أطراف الأراضى المصرية ، وزحف شرقاً حتى وصل إلى قرية كراع ، قرب بلدة العباسية ، على مسافة اثنين وعشرين كيلومتراً من مدينة الزقازيق الحالية ، ضحوة يوم الخميس ١٠ ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٢ فبراير ١٢٥١ م . وهناك التقى جيش الملك الناصر يوسف وحلفائه ، وهو جيش مكون من المماليك الأكراد والأتراك ، بالجيش المملوكى بقيادة السلطان أيبك ، وهو جيش مكون من المماليك الأتراك فقط . ثم حدث فى أثناء القتال ، فى ذلك اليوم المشهور ، أن انضمت بعض الفئات المملوكية التركية ، من جيش الملك الناصر يوسف وحلفائه ، إلى زميلاتهما من الفئات المملوكية التركية المصرية ؛ ولذا انتهى القتال بهزيمة الملك الناصر يوسف ، ورجوعه القهقرى فى سرعة إلى الشام .

ومع أن وقعة العباسية تعدّ بحق من الوقائع الفاصلة فى تاريخ الشرق الأوسط ، لأنها مهدت للسلطنة المملوكية أن تستقرّ - فيما بعد - فى مصر والشام ، لمدة قرنين ونصف قرن من الزمان ، فإن هذه النتيجة التاريخية لم تتضح إلا بعد أن امتزجت بعوامل أخرى داخلية وخارجية مساعدة . أما الذى اتضح سنة ١٢٥١ م ، برغم انتصار السلطان أيبك والسلطنة المملوكية فى وقعة العباسية ، فهو أن الملك الناصر يوسف ، وحلفاءه من الملوك

الأيوبيين ، ظلّوا قوة ينبغي أن تحاط بجميع أنواع الرقابة واليقظة ، منعاً
لزعحف أيوبى مرة ثانية ، نحو الأراضي المصرية .

ولذا أرسل السلطان أيك مبعوثيه إلى الملك لويس التاسع من جديد ،
مزوّدين بعروضٍ مملوكيةٍ متضمنةٍ لجميع المطالب التي أصرّ الملك لويس
على قبول السلطان أيك لها ، ثمناً لعقد محالفة مملوكية صليبية ، ضد
الملك الناصر يوسف الأيوبي . واستقبل الملك لويس التاسع هؤلاء المبعوثين
بالمملوكيين ، أوائل مايو سنة ١٢٥٢ م ، وهو وقتذاك على مدينة قيسارية ،
حيث كان يعمل في ترميم قلاعها وتحصينها ، منذ أوائل الصيام المسيحي
الكبير ، أى منذ أوائل مارس من تلك السنة ، من باب الزلفى وطلب
المغفرة والندم على ما مضى . وبناء على شروط المحالفة المملوكية الصليبية التي
انعقدت بين الفريقين ، تمّ الاتفاق على اقيام بحملة مملوكية صليبية مشتركة ،
ضدّ الملك الناصر يوسف الأيوبي ، في أقرب فرصة ، مع التعهد بتسليم
مدينة بيت المقدس للملك لويس التاسع ، بعد الانتصار وانتهاء القتال .

وتحمّس الملك لويس التاسع لهذه المحالفة حماسة واضحة ، لأنه فضّل
أن يحالف سلطنة مملوكية ناشئة ، وهي تحبّو في مشاكلها حبّو المبتدئ المشغول
بكيانه ، عن أن يكون في جانب دولة أيوبية تستمدّ تقاليدها السياسية من
أيام صلاح الدين العظيم ، وسياسته الفحلة . ثم إن السلطنة المملوكية لم تزل
على أية حال قابضة على أعداد كبيرة من الأسرى الصليبيين ، سواء
بالقاهرة أو بعامة البلاد المصرية . ولذا غضب الملك لويس التاسع غضبة
شديدة ، على رئيس طائفة الفرسان الداوية ، وهو ستيفن أوتيكور ، حين علم
بأنه يكاد يفسد عليه هذه المحالفة الصليبية المملوكية ، باتفاقاته الخاصة
مع الملك الناصر يوسف الأيوبي ، بشأن بعض الأراضي والضيايع ، على قاعدة
المناصفة الإقطاعية المعتادة في تلك العصور . وأمر الملك لويس التاسع رئيس
الداوية بإلغاء ما تمّ الاتفاق عليه ، مع الملك الناصر يوسف ، والاعتذار عما قام

به بدون علمه ومشورته ، مع عقاب مندوب الداوية الذى قام بعقد تلك الاتفاقات فى دمشق ، وذلك بنفيه من البلاد الصليبية بالشرق .

ثم تقررت الحطة الحربية للقيام بالحملة المملوكية الصليبية المشتركة ، وهى أن يزحف الملك لويس التاسع من ناحية قيسارية إلى يافا ، لاحتلالها ، على حين يزحف السلطان أيك من الأراضى المصرية إلى غزة ، بحيث يتم اتصال الزحفين المملوكى والصليبي عند موضع متفق عليه ، بين يافا وغزة ، فى ربيع الأول سنة ٦٥٠ هـ ، أى منتصف مايو سنة ١٢٥٢ م . ثم لم تلبث أخبار هذه الحملة المملوكية الصليبية المشتركة أن تسربت إلى الملك الناصر يوسف ، فأسرع إلى غزة بجيش عدته أربعة آلاف مقاتل ، واستولى عليها ، وبذا تغيرت أوضاع الحملة المملوكية الصليبية ، المشتركة ، وتحتّم على الطرفين تأجيل عملياتهما الحربية . ومع هذا زحف الملك لويس التاسع إلى يافا ، بجيشه الصليبي الصغير الذى لم يزد وقتذاك عن ألف وأربعمائة مقاتل ، أملاً منه فى أن يتحرك السلطان إيك ، عاجلاً أو آجلاً بجيش مملوكى كبير نحو غزة ، وأن تتكرر الهزيمة التى لحقت بالملك الناصر يوسف سابقاً على أيدي الجيوش المملوكية التركية ، عند العباسية . ولذا قبع الملك لويس فى يافا مدة سنة تقريباً ، فى انتظار هذه النتيجة ، وعمل فى أثناء إقامته هناك على تقوية حصون يافا ، واشترك بنفسه فى ذلك العمل .

غير أن السلطان أيك لم يقم بأية حركة حربية . أو غير حربية ، لتنفيذ نصيبه من الحملة المملوكية الصليبية المشتركة ، وذلك لانشغاله بمشاكل داخلية كثيرة ، وقبوله الصلح مع الملك الناصر يوسف ، على شروط اقترحها الخليفة المستعصم العباسى ، لكى يصبح الشرق الأوسط جبهة متحدة أمام الخطر المغولى الدايم . على أن السلطان أيك حرص على الوفاء بالوعود الأخرى من اتفاقيته مع الملك لويس التاسع ، فأعاد إليه — وهو فى يافا — أعداداً من الأسرى الصليبيين ، على دفعات متتالية ، بلغت

في مجموعها الكلتى ، حسبما جاء في المخطوطة الروتلانية وغيرها من المراجع الصليبية ، أكثر من ثلاثة آلاف ، ما بين رجال ونساء وأطفال ، فضلاً عن رفاتٍ وجماجمٍ كثيرة مجهولة^(١) ؛ وكل ذلك مقابل ثلاثمائة من الأسرى المصريين والشاميين . واحترم السلطان أيك وعده كذلك بشأن النزول عن النصف المؤجل من الفدية المقررة ، وهو مبلغ غير صغير ، وأرسل إلى الملك لويس التاسع فيلاً وزرافةً وتحفاً أخرى مصنوعة من البتلور ، وعطوراً ، في زجاجات بلتورية ، من باب الهدية ، بل يقال إنه سمح لمبعوثين صليبيين أن يحضروا مرةً ثانية إلى البلاد المصرية ، للبحث عمن عساه يكون باقياً بأرجائها من بقايا الأسرى الصليبيين .

والخلاصة أن الحلف بين السلطان أيك والملك لويس التاسع انتهى إلى لا شيء ، ما عدا إطلاق سراح أعداد كبيرة من الأسرى الصليبيين ، وهو ما لم تتردد السلطنة المملوكية في الوفاء به ، بالإضافة إلى النزول عن النصف المؤجل من الفدية المقررة ، وهو ما وعد الملك لويس سابقاً بتأديته ، نظير أولئك الأسرى ، ثم نكث بوعده حين غدا حراً طليقاً ، بعيداً عن تناول السلطنة المملوكية .

ومع هذا كله لم يفكر الملك لويس التاسع في العودة إلى فرنسا ، بل ظلّ في فلسطين سنتين أخريين ، وهو يعتل النفس بآمال صليبية عريضة . وشجّعته البيئة السياسية المحيطة به ، على احتضان تلك الآمال الصليبية العريضة ، مع العمل على إعداد العدة الممكنة لديه لتحقيقها ، بترميم قلاع عكا وحيفا وقيسارية ويافا ، وتحصينها وشحنها بالرجال والمؤن والأسلحة ، وهي التي حصل عليها من مختلف المصادر المحلية ، المحدودة . وبذلك استطاع الملك لويس — على الأقل — أن يمدّ في عُمُر السيطرة الصليبية على بعض تلك البلاد أربعين سنة أخرى .

(١) هنا دليل آخر ، للبرهان على عدم صحة أخبار قتل الأسرى الصليبيين جميعاً ، في شرمساح ودمياط . انظر ما سبق ص ٢٤٨ .

على أن جهود الملك لويس التاسع لم تقتصر على تلك الأعمال التحصينية والاستعدادية ، بل تعدتها إلى النهوض لحماية بعض المدن الصليبية ، مثل صيدا ، من تحركات الملك الناصر يوسف ضدها ، أواخر سنة ١٢٥٣ م ، فضلاً عن القيام بتسوية مشاكل الوراثة في إمارة أنطاكية ، ومملكة قبرص ؛ وكل ذلك ليجعل من البقايا الصليبية بفلسطين قوة حربية ، بحيث تستطيع أن توازر ما سوف يأتي إليه من أوربا ، من حملة صليبية مأمولة .

وفي سبيل ذلك كذلك ، عمد الملك لويس التاسع إلى عقد محالفة ودية مع هيئة الباطنية الفدائيين ، وهي هيئة شديدة العداء نحو الدول السنية في الشرق الأوسط . وخلاصة ذلك أنه بينما بقي الملك لويس التاسع مقيماً في عكا ، جاء إليه مبعوثون من عند رئيس تلك الطائفة وقتذاك ، واسمه أبو الفتوح بن محمد ، وهو المعروف وغيره من رؤساء تلك الطائفة باسم شيخ الجبل ، نسبة إلى القلاع الجبلية التابعة له ، على طول الطريق بين مدينتي حماة وطرابلس الشام ، ولا سيما قلعة مصياف ، وهي العاصمة . ودوّخت تلك الطائفة زعماء المسيحيين والمسلمين سواء ، ومات كونت مونتفرات على أيدي فدائي من فدائيتها ، ولم ينج السلطان صلاح الدين من خناجرها المسمومة إلا بأعجوبة من صنع المقادير . وجاء المبعوثون الفدائيون إلى حضرة الملك لويس التاسع بعكا ، صبيحة يوم من ديسمبر سنة ١٢٥٠ م ، فاستقبلهم الملك لويس استقبالا فوق العادة ، إذ سمح لهم أن يجلسوا في حضرته ، مدججين بسلاحهم وأدوات غدرهم . فجلس كبيرهم بملابسه الحربية المزودة ، وجلس وراءه مبعوث آخر في يده ثلاثة خناجر ، مقابضها متداخلة بعضها في بعض ، لتقديمها للملك لويس إذا فشلت مفاوضاتهم معه ، ثم مبعوث ثالث ملفوف حول ذراعه كفن من قماش أبيض خشن ، لتقديمه كذلك للملك عقب تقديم الخناجر .

وتغاضى الملك لويس التاسع عن هذا وذاك ، من مظاهر العنف والتحدى .
 والتهديد ، لعزمه على كسب صداقة هذه الطائفة . ولذا بدأ الملك لويس
 بأن سأل كبير المبعوثين عن سبب قدومه ، فناوله هذا المبعوث الكبير
 رسالة مكتوبة من عند شيخ الجبل ، وأعقبها بسؤال شفوئى فيه إيهام
 واعتداد بقوة الطائفة الباطنية ، إذ استفهم هذا المبعوث الكبير إذا كان
 الملك لويس يعرف شيخ الجبل ، فأجاب الملك لويس بأنه يسمع به طول
 حياته ، دون أن يراه ، ولذا فهو لا يعرفه شخصياً . وعند ذلك اقترح
 هذا المبعوث الكبير على الملك لويس أن يبرهن على رغبته فى مصادقة
 شيخ الجبل ، بأن يؤدى له مالا سنوياً ، ليضمن به حيدة الشيخ والطائفة
 الباطنية ، فى مستقبل الحوادث بين الصليبيين والمماليك ، كما فعل
 الإمبراطور فردريك الثانى وملك المجر ، وسلاطين مصر أنفسهم ، على
 قول هذا المبعوث الكبير ، مع العلم بأنه لا يوجد بالمراجع أى دليل على
 صحة هذا القول . غير أن الملك لويس التاسع لم يؤخذ بهذا التهديد ،
 ورفض التعهد لشيخ الجبل وطائفته بمال أو غيره .

لذا انقلب المبعوث الكبير إلى طلب إعفاء الطائفة الباطنية ، مما تدفعه
 من المال لهيئتي الفرسان الداوية والاسبتارية ، فى سبيل تأمين مواصلاتها
 بين قلاعها الجبلية المشهورة . ووافق الملك لويس على ذلك الطلب ، لأنه
 لن يكلفه شيئاً ، بل سوف تخسر هاتان الهيئتان بسببه بعض الأموال التى
 تتكسب لديهما عاماً بعد عام . واستدعى الملك لويس مقدمى هاتين الهيئتين
 إلى حضرته ، عصر ذاك اليوم ، وتمّ الاتفاق على الإعفاء المطلوب ،
 على أن يصادق شيخ الجبل على ذلك الاتفاق مصادقة رسمية ، ويدخل
 مع الملك لويس فى معاهدة دفاعية هجومية عامة .

وذهب المبعوثون الفدائيون بتلك الشروط إلى شيخ الجبل ، وعادوا
 من عنده إلى عكا بهدية فاخرة للملك لويس ، وهى تحتوى على فيلٍ

وزرافة وكرة ، وكلها من البللور الصافي الدقيق الصنع ، بالإضافة إلى طاولة وشطرنج ، من الخشب المطعم بالعاج والأبنوس والذهب ؛ وكل ذلك في صناديق مضمخة بالعنبر النادر ، كأنما كان المقصود أن تكون تلك الهدية أكثر فخامة وأعلى ثمناً من سابق هدية السلطان أيبك إلى الملك لويس التاسع . فلما فتح المبعوثون الفدائيون صناديق هديتهم ، في حضرة الملك لويس ، فاحت منها رائحة زكية ملأت أرجاء الحضرة الملكية . وأجاب الملك لويس التاسع على تلك الهدايا بمجموعة من الأحجار الثمينة ، وكمية من القماش القرمزى ، وعدة أقذاح من الذهب ، فضلاً عن سرج من القضة ؛ وأرسل معها سفيراً عارفاً باللغة العربية تمام المعرفة ، وهو أيف البريتوني . وأعجب السفير إيف بمكتبة الطائفة الباطنية ومحتوياتها ، في بلدة مصيف العاصمة ، ولا سيما كتاب فيه موعظة للسيد المسيح إلى القديس بطرس . وزار هذا السفير شيخ الجبل ، وقدم إليه هدية الملك لويس ، وشهد خروجه شيخ الجبل وموكبه اليومي ، وذكر أنه يركب وأمامه أحد الجاويشية حاملاً بلطة حربية ثقيلة ، في عودها الخشبي عدد من الخناجر ، مرشوق في جوانب العود ، والجاويشية تنادى في الناس : ” افسحوا للذي بيده أرواح الملوك “ (١) .

وبينا الملك لويس التاسع مقيم في مدينة قيسارية ، وصلت إليه في أبريل سنة ١٢٥٢ م ، بعثته الشهيرة التي أوفدها قبلاً من قبرص إلى بلاد المغول ، أي قبل ذهاب حملته إلى مصر ؛ وكان أعضاؤها ثلاثة من الإخوان الدومنيكان ، وهم أندرو لونجيموه ، ووليام لونجيموه ، وحنّا الكركسوني . وأحضرت البعثة معها رسالة شامخة متلطفة ، من عند الأميرة أوغول قايميش ، وهي الوصية على العرش المغولي الأعظم ، بعد وفاة زوجها كيوك خان . لكن هذه

الرسالة لم تذكر شيئاً عن وعود التحالف والمعونة الحربية ، وهى الوعود التى جاء بها مبعوثون مغوليون سابقاً إلى قبرص (١) .

ودلّ ذلك كاه على أن البعثة الصليبية إلى بلاد المغول ، وهى التى استغرقت فى رحلتها أكثر من سنتين ، عادت دون أن تحقق شيئاً مذكوراً . ورضى الملك لويس التاسع بهذه النتيجة السالبة المحيرة ، وربما أقنع نفسه أن أميرة وصية ، مؤقتة على العرش المغولى الأعظم ، لم يكن باستطاعتها شىء سوى أن تعتمد إلى عبارات تقليدية متعالية ، مما درج خانات المغول على توجيهه ، للمجاورين وغير المجاورين لهم من ملوك الشرق والغرب . ولذا لم يقطع الملك لويس الأمل فى مفاوضات مغولية مستقبلية ، لعلها تكون أحسن نتيجة وأقل استعلاءً ، من ناحية المغول .

ثم وصل إلى مسامع الملك لويس التاسع ، فى أوائل سنة ١٢٥٣ م ، أن خاناً مغولياً اعتنق المسيحية ، وهو سارتاك بن باطو . فلم يكد هذا الخبر يصل إلى الملك لويس ، حتى خيل إليه أن جميع آماله الصليبية قريبة التحقيق . ولذا أنفذ الملك لويس إلى بلاط هذا الخان الجديد ، على نهر فولجا ، بعثة مكونة من أخوين دومنيكانيين اثنين ، وهما وليام الروبريكى وبارتلوميو الكرىموفى ، وكلّفهما بطلب المعونة المغولية الحربية ، على وجه السرعة ، نجدة من الخان المغولى الكرىم لإخوانه المسيحيين بفلسطين ، وابتغاء القيام بحملة صليبية مغولية عاجلة ، ضد السلطنة المملوكية . غير أن سارتاك خان لم يكن مسيحياً ، بل وثناً متسامحاً نحو الديانات الإسلامية والمسيحية والبوذية ، شأن كثير من المغول فى تلك المرحلة من تاريخهم . ثم إن سارتاك ، وهو خان إقليم صغير ، لم يملك من السلطان ما يستطيع به أن يعقد أية محالفة خارجية ، دون إذن من الخان المغولى الأعظم ، وهو وقتذاك منكوك خان . ولذا أرسل سارتاك مبعوثى الملك

(١) انظر ما سبق ، ص ٩٧ ، وغيرها .

(لوحة رقم ٥ ، بين صفحتي ٢٥٦ ، ٢٥٧) .



صورة تمثال من الخشب للملك لويس التاسع ، وهي مأخوذة من (Joinville: The History of St- Louis. Trans. Evans) نقلا عن التمثال الأصلي الذي يرجع إلى سنة ١٢٦٠ م تقريبا ، وهو موجود فوق المنضدة الخلفية لمذبح كنيسة سانت شابل ، في باريس .

لويس إلى بلاط منكو خان ، حيث وجدوا استعدادات قائمة على قدم وساق ، لبداية هجوم مغولي عام ، ضد غرب آسيا والشرق الأوسط الإسلامي كله . لكن حلفاء مغولياً صليبياً لم يتم ، لأن منكو خان لم يشأ أن يعترف بالملك لويس التاسع ، أو بغيره من الملوك القريبين والبعيدين ، على أنهم أسوياء محالفون للخان المغولي الأعظم ، لأنهم في نظره تابعون ، يجب عليهم الطاعة والخضوع ، ولا تنبغي لهم المطالبة بمحالفة أو معاهدة . ولذا عادت البعثة الصليبية إلى عكا ، لتبلغ الملك لويس التاسع هذه النتيجة البئيسة ، فوجدت أن الملك لويس رحل نهائياً عن فلسطين ، إلى فرنسا .

هكذا انتهت جميع الآمال والمآرب التي احتضنها الملك لويس التاسع ، مدة إقامته بفلسطين ، وكان أولها أمله في حملة صليبية كبيرة تأتي إليه من أوروبا . غير أن ذلك الأمل لم يلبث أن تبدد ، لأن فكرة هذه الحملة ولدت ميتة ، منذ أواسط ١٢٥٠ م . ومن الدليل على ذلك أن هنري الثالث ملك إنجلترا نذر وقتذاك أن يذهب إلى فلسطين ، على رأس فرقة إنجليزية ، للاشتراك في هذه الحملة الصليبية الجديدة ، تلبيةً لدعوة البابا إنوسنت الرابع ، ثم اضطر الملك هنري أن يطلب من هذا البابا نفسه أن يعفيه وباروناته من هذا النذر ، إلى أجل غير مسمى . يضاف إلى ذلك أن أخوى الملك لويس ، وهما شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، وغيرهما من كبار البارونات الفرنسيين ، رفضوا الاشتراك في إرسال أية مساعدة صليبية إلى أخيهام من فرنسا . ثم إن الحركة الفرنسية المعروفة باسم الباستوروه ، أي حركة الرعاة ، قامت في فرنسا للمطالبة بعودة الملك لويس إلى بلاده ، والاحتجاج على البابوية ورجال الدين ، وسائر الدعاة لحملة صليبية ، من طراز الحملات الصليبية السابقة ، اعتقاداً منهم أنهم هم الوحيديون الذين يصلحون للقيام بحملة صليبية جديدة . وجهر البارونات الفرنسيون بانتقادات مريرة ضد البابا إنوسنت الرابع ، لأنه هو الذي دعا

إلى هذه الحملة ، ولا سيما بعد أن علموا بأنه رسم بأن تزحف فئات هذه الحملة أولاً على إيطاليا ، لمحاربة عدو البابوية وقتذاك ، وهو الإمبراطور كونراد بن فردريك الثاني هوهنشتاوفن ، لا إلى عكا أو غيرها من المدن الصليبية المحتضرة . ثم إن الملكة الوالدة بلانش القشتالية هدّدت بمصادرة أملاك المستجيبين لدعوة البابا إنوسنت الرابع ، من الفرسان الفرنسيين ، ولم تفكر ألبتة في إرسال أية نجدة حربية لابنها بفلسطين ، خشية إطالة مدة بقاءه في عكا ، بل ساعدت الملكة بلانش حركة الباستوروه المنادية بعودة الملك لويس إلى فرنسا ، ولم تقطع مساعداتها عن هذه الحركة ، إلا بعد أن تطوّرت أعمال الباستوروه أنفسهم إلى هستيريا صليبية عنيفة .

ثم ماتت الملكة الوالدة بلانش القشتالية ، في نوفمبر سنة ١٢٥٢ م ، ومع هذا بقي الملك لويس التاسع في عكا مدة غير قصيرة ، لتسوية ما تبقى من مشاكل صليبية محلية في فلسطين ، كأنما هو موكل بتسويتها بنفسه ، ومنها إقامة الأميرة الوالدة كونستانس وصية على مملكة قبرص ، في يناير سنة ١٢٥٣ م ، لتحلّ هذه الوصية محلّ ابنها هيو الثاني في الحكم ، ومنها زواج بوهمند السادس أمير أنطاكية من ابنة هيتوم ملك أرمينية الصغرى ، في أوائل سنة ١٢٥٤ م ، توكيداً لإنشاء حلف صليبي قوى دائم ، ضد مملكة حلب الأيوبية .

وأخيراً استطاع الملك لويس التاسع أن يبرح عكا ، في أبريل سنة ١٢٥٤ م ، وأن يصل إلى فرنسا في يولييه من تلك السنة ، حيث وجد مشاكل فرنسية داخلية وخارجية كثيرة ، وهي كفيلة باستهلاك نشاطه لعدة سنين . غير أنه لم يقنط من احتمال قيام حملة صليبية في المستقبل القريب ، أو البعيد ، ولم ينزل قيد أنملة عن فكرة قيادتها وتوجيهها بنفسه يوماً من الأيام . الواقع أن الملك لويس التاسع لم ينس مملكة بيت المقدس الصليبية ، سواء في مبناها الجغرافية ، أو في معناها السياسي الديني ، رغم مشاغله السياسية الفرنسية الكثيرة ، وتدهور أحواله الصحية ، سنة بعد أخرى . ومن

الدليل على ذلك كله أن الملك لويس حرص على إرسال مبلغ كبير من المال سنوياً ، إلى مندوبه جودفري سارجين ، للصرف على الكتيبة الفرنسية التي لبثت في عكا بعد رحيل الملك لويس ، لتظل هذه الكتيبة عربوناً حياً للحملة الصليبية المنتظرة .

ولكبار المحدثين من المؤرخين الأوربيين ، أقوال وآراء فيما أفادته حملة الملك لويس التاسع على مصر . وهي تختلف فيما بينها بعض الاختلاف ، لكنها كلها صادرٌ بالطبع عن زوايا أوربية مختلفة الأشكال ، كاختلاف الزوايا الهندسية في أشكالها ، فهي حادة ضيقة أحياناً ، أو قائمة معتدلة بالقياس إلى سابقتها ، أو منفرجة رحيبة الأفق ، وهذه الزاوية الثالثة هي أقرب الزوايا اعتدالاً في كتابة التاريخ ، لاتساعها النسبي ، واستطاعتها أن تكون مصدراً لوجهات نظرٍ ، متباينة متوافقة في آن واحد . واختلاف أشكال هذه الزوايا ، فضلاً عن اختلاف الأقوال والآراء الصادرة عنها ، دليلٌ على سلامة ما ورد في الصفحة الأولى من صفحات هذا البحث ، من إشارة إلى الزاوية الجديدة التي اتخذها المؤلف مصدراً لبحثه ، دون تغيير أو تبديل في الحقائق التاريخية ، أو ترتيبها الزمني ، أو تفضيل بعضها على بعض ، إلا من حيث تاريخيتها ، مع إعطاء كل حقيقة منها نصيبها من الاهتمام .

وليت لمؤرخ واحدٍ أن يلمّ تمام الإلمام بجميع اللغات الأوربية الحديثة ، فيحصي من مؤلفاتها المعتمدة في الأوساط العلمية ، جميع الأقوال والآراء حول حملة الملك لويس التاسع ، ليستخلص منها في سهولة ووضوح ، أن كتابة التاريخ من زوايا مختلفة الأشكال عملٌ علميٌ سليم ، وأن الموضوعية المطلقة ، المجردة عن الطبائع البشرية ، ضربٌ من المحال في البحث التاريخي ، لأن لكل مؤرخ زاويته الجغرافية والثقافية والحضارية ،

وهو لا يستطيع التحلل من أية واحدة منها ، مهما طرأ عليه من طارئ عابر (١) .

على أن الطاقة الشخصية لمؤلف هذا البحث ، لا تستطيع أن تتعدى مجموعة محدودة من المؤرخين ، في اللغتين الفرنسية والإنجليزية فحسب ، وأول هذه المجموعة هنا ، على سبيل المثال لا الحصر أو الترتيب ، هو المؤرخ الفرنسي جروسيه ، وهو الذى يفتح كتابته الطويلة الضافية ، فى حملة الملك لويس التاسع على مصر ، بقوله فى كثير من التفاخر : ” إن حملة الملك القديس لويس اضطبغت بصبغة فرنسية خالصة ، وهى الصبغة التى تميز هذه الحملة من سائر الحملات الصليبية السابقة . ومع أن معظم الحملات الصليبية السابقة اشتملت على أغلبية عددية من الفرنسيين ، فإن ذلك لم يغير من كونها — من ناحية الاسم — حملات صليبية عامة ، مشتركة بين الممالك الأوربية ، وأسهم فيها العالم المسيحى كله . أما حملة الملك لويس التاسع ، فتبدو لنا على عكس ذلك ، لأنها برغم ما أسبلته عليها قداسة زعيمها وقائدها من مسحة دينية عميقة . هى أول حملة استعمارية قامت بها مملكة فرنسا فى الشرق “ (٢) .

غير أن هذه النُصرة الفرنسية ، وهى نُصرة ” كليله “ عن إدراك عيوب حملة الملك لويس التاسع وقيادتها ، لا تستطيع أن تجد صدقاً فى غير الفرنسيين من المؤرخين ، ومثال ذلك المؤرخ الإنجليزى أومان ، وهو الباحث الحربى الناقد ، إذ يصف الكارثة الصليبية فى المنصورة ، بأنها درس من الدروس

(١) انظر فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة زيادة والعرينى والعدوى ، صفحة ٥ .
 (٢) انظر (Grousset: Op. Cit. III. p. 428) . ويلاحظ أن جروسيه المؤرخ يريد هنا أن يباهى بنزعة استعمارية فرنسية ، فى حملة الملك لويس التاسع ، وأن يشيد بما لفرنسا نتيجة لذلك من سبق فى مضمار الاستعمار ، دون غيرها من الممالك الأوربية فى العصور الوسطى ، مع العلم بأن جوائفيل نفسه ، وهو المؤرخ الفرنسى الذى اشترك بشخصه وماله فى هذه الحملة ، لم يذكر شيئاً من تلك النزعة الاستعمارية .

الحرية الدالة على " أن غلطة تتولد في ثنايا استراتيجية خاطئة تستطيع أن تؤدي منطقياً إلى خطط حربية خاطئة . . . ولذا كانت كارثة الصليبيين في المنصورة خاتمة حربية سيئة ، لزحف سيء التدبير . للاستيلاء على مصر " (١) .

أما رانسيان وهو المؤرخ الإنجليزي الثاني هنا ، ومؤلف أحدث الكتب في تاريخ الحروب الصليبية ، فيختتم ما كتبه في حملة الملك لويس التاسع على مصر ، بقوله : " إنه كان من اليسير على الملك لويس التاسع أن يعلن أن كارثة حملته آية من آيات العناية الإلهية ، ابتلاه الله بها ، ليعلمه درساً في فضيلة الخضوع والرضى بقضاء الله . لكن الملك لويس لا بد أنه فكر وتأمل في الثمن الذي دفعه ، من أجل هذا الدرس ، وهو تضحيته بعدة آلاف من أرواح الأبرياء " (٢) . ولا يكتفي رانسيان بهذه النعمة اللوامة الناقدة ، بل يقول في نعمة أشدّ لوماً ونقداً : " إن حملة الملك القديس لويس على مصر ورطت الصليبيين بفلسطين في كارثة عسكرية مروعة . وبالرغم من أن بقاء الملك لويس في عكا ، لمدة أربع سنوات ، ساعد كثيراً على تعويض ما خسرتة القضية الصليبية من سمعة ، فإن الخسارة في الأرواح لم تكن شيئاً يمكن تعويضه . وكان الملك لويس التاسع أنبل عظماء الصليبيين خلُقاً ، غير أن الدولة الصليبية بفلسطين ربما كانت أسعد حالاً ، لو أنه بقي في فرنسا لم يغادرها ، لأن هزيمته كانت أعمق أثراً من أية هزيمة صليبية سابقة . وذلك لأن الملك لويس عاش طول حياته رجلاً فاضلاً يخاف الله ، ومع هذا ابتلاه الله بهزيمة حربية كبيرة . وفيما مضى من الحروب الصليبية كانت هزائم الصليبيين تُفسر على أنها جزاء إلهي على ما ارتكبوه من جرائم وآثام ، لكن مثل هذا التفسير الساذج لا يمكن الأخذ به في تحليل هزيمة القديس لويس . فهل لنا أن نستنتج من ذلك

(١) انظر (Oman : Op. Cit. I. pp. 320,340) .

(٢) انظر (Runciman : Op. Cit. III. p. 274) .

أن هزيمة الملك لويس التاسع في مصر ، كانت نتيجة لغضب الله على الحركة الصليبية كلها ؟ “(١) .

وهذا السؤال قديم متداول بين أجيال الباحثين في تاريخ الحروب الصليبية ، وينتهي نسبه زمنياً إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، حين تصدّت جماعة من الكتاب الأوربيين المسيحيين لتعليل أسباب الهزائم الصليبية ، ولاسيما هزيمة الملك لويس التاسع في مصر ، في مقالات مشهورة رفعوها إلى الكرسي البابوي . وهذه المقالات تشغل جزءاً كبيراً من كتاب معروف في نقد الحروب الصليبية ، وهي في ذاتها دليل على شكوك من فئة المفكرين المسيحيين منذ العصور الوسطى ، في جدوى تلك الحروب ، عند الله رب العالمين (٢) .

(١) انظر (Runciman : Op. Cit. III. p. 289) .

(٢) انظر (Throop : Criticism of the Crusades, pp. 56-58,155) .

مِلَّاحِق

ملحق رَقْم ١

أخبار حملة الملك لويس التاسع على مصر ، منذ قدومها إلى الشواطئ المصرية إلى جلائها نهائياً عن دمياط ، وهي منقولة من مخطوطة ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (تاريخ الواصلين ، ج ٢ ، ص ١٣٥٦ - ١٣٧٤) . انظر صور شمسية بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ ، تاريخ ، وهذه الصور الشمسية مأخوذة من نسخة خطية من هذا الكتاب ، بالمكتبة الأهلية بباريس^(١) .

(١٣٥٦) ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية وتملكهم ثغر دمياط

قال (٣٥٦ ب) ولما كانت ثاني ساعة من نهار يوم الخميس ، لتسع بقين من هذه السنة ، وهي سنة سبع وأربعين وستمائة ، وصلت مراكب الفرنج ، وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها ، فأرسوا في البحر بإزاء المسلمين .

(١) هذا الملحق والذي بعده مادة تاريخية معاصرة ، وكل منهما مأخوذ من مؤرخ خاص ، وهو في كل من الحالين شاهد عيان للحوادث . وهذه المادة التاريخية بطبيعتها بحامة أولية أصلية ، وبها من تبعات هذه الصفات ومستلزماتها ما يتطلب اختبارها أولاً بالجرح والتعديل ، فضلاً عن ضرورة مقارنتها وموازنتها بغيرها من المادة التاريخية بالمراجع المشابهة ، قبل استخدامها على أنها حقائق تاريخية مقبولة . ولذا سوف يجد القارئ بهذين الملحقين عبارات وتواريخ وإشارات لم يأخذ المؤلف بها في فصول هذا الكتاب ، لعدم وجود ما يؤيدها من المراجع الأخرى ، أولرجحان المادة التاريخية في تلك المراجع الأخرى على الوارد بهذين الملحقين هنا ، أو لعدم علاقتها المباشرة بموضوع الكتاب .

وفي هذا اليوم ، وهو يوم السبت ، شرعوا في النزول إلى البحر لدى فيه المسلمون ، وضربت خيمة الملك أريدافرنس ، وكانت حمراء . وناوشهم^(١) بعض المسلمين بعض المناوشة . فاستشهد في ذلك اليوم الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، رحمه الله ، وقد قدمنا ذكره ، وأنه كان هو وأخوه شهاب الدين يونس الملك الصالح [نجم الدين أيوب] ، وهو بالكرك ، بأمر الملك الناصر داود لهما بذلك ؛ وكان [الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام] رجلاً صالحاً . واستشهد أيضاً من أمراء مصر أمير يقال له الوزير .

فلما أمسى المسلمون ، رحل بهم الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقي الذي فيه دمياط ، وخلا البر الغربي للفرننج .

ولما عدى^(٢) فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والعسكر إلى البر الشرقي ، (٣٥٦ ب) رحل العسكر طالباً أشمون طنّاح . وحصل عند العسكر طمع ، بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين^(٣) أيوب ، فلم يكن لهم من يردّهم ولا يردّهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشمون طنّاح .

وخلا البر الشرقي من عساكر المسلمين ، فخاف أهل دمياط على أنفسهم أن يُستحصروا . وكان فيهم جماعة من الكنانية شجعان ، فألقى الله

(١) في الأصل ” وناوشهم “ ، والتصحيح يقتضيه السياق . وسوف يقتصر تحقيق المتن هنا على نهاية صغرى من تعديل بحذف أو إضافة ، أو ترقيم أو ضبط ، أو تصحيح بعض الألفاظ أو تصويبها ، كما في هذه الصفحة . أما شرح المصطلحات التاريخية ، والأعلام الجغرافية ، فينبغي الرجوع من أجلها إلى فهرس كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، وغيرها من الفهارس المطبوعة المشابهة ، ومنها ما سوف يظهر قريباً في آخر الجزء الثالث من طبعة كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، لابن واصل ، بتحقيق الدكتور جمال الدين محمد الشيال ، وهو الذي سمح لي بنقل صفحات هذا الملحق ، من الصور الشمسية التي عنده ، قبل ظهورها في الطبعة المشار إليها .

(٢) في الأصل ” عدا “ .

(٣) في الأصل ” نجم الدين بن أيوب “ ، وهو خطأ ، والصحيح ما بالمتن .

سبحانه وتعالى الرعب في قلوبهم ، فخرجوا هم وأهل دمياط على وجوههم طول الليل . ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفراً من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشموم طنّاح .

وكان هذا فعلاً قبيحاً منهم ، ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الحرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط ، فإن دمياط في الكرة الأولى لما نازها الفرنج أيام الملك الكامل ، كانت أقلّ ذخائر وعدداً^(١) ، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة . فلما نوزلت سنة خمس عشرة وستائة ، وأخذت سنة ست عشرة وستائة ، لم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع .

والكنانية وأهل دمياط لو غلقوا أبوابها ، وتحصّنوا بها ، بعد رجوع العسكر إلى أشموم طنّاح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العساكر ردت إليهم ، ومنعت [الفرنج] عنهم ، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم في غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين ، أو أكثر من ذلك ؛ ولكن إذا أراد الله أمراً فلا مردّ له .

ولكن أهل دمياط كانوا معنورين ، لأنهم لما رأوا هرب العساكر ، وعلموا مرض السلطان ، خافوا أن يستمرّ عليهم الحصار مدة طويلة ، فهلكوا جوعاً ، كما هلك أهل دمياط في المرة الأولى .

قال ولما أصبح الصباح يوم الأحد ، لسبع بقين من صفر ، جاء الفرنج إلى دمياط ، فوجدوها صفراً من الناس ، وأبوابها مفتحة ، فلكوها صفواً وعفواً ، واحتوا على ما كان فيها من العدد والأسلحة ، والذخائر والأقوات والمناجيق^(٢) ؛ وكانت هذه مصيبة عظيمة لم يجر مثلها .

(١) في الأصل " وعدد " .

(٢) كذا في الأصل .

قال صاحب التاريخ ، ووردت يوم الأحد إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني ، وأنا عنده ، بطاقة^(١) بذلك ، فاشتد الجزع^(٢) والخوف ، ووقع [الرعب^(٣) بين] الناس (٣٥٧ ١) بالديار المصرية بالكلية ، والسلطان مريض ، وقد ضعفت قواه عن الحركة ، وليس قد بقي له قدرة على ضبط جسده ، وقد اشتد طمعهم فيه .

ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان حقق على الكنانيين حقاً شديداً ، وأمر بشنقهم ، فشنقوا جميعاً . وتألم [السلطان] مما فعله فخر الدين والعسكر ، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإغفاء^(٤) عما فعلوه .

ذكر رحيل السلطان الملك الصالح [وعساكره] إلى المنصورة ونزولهم بها

ولما جرى ما ذكرناه ، رحل السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى المنصورة ، فنزل بها ، وهي المنزلة التي كان أبوه [السلطان] الملك الكامل نزهاً ، [في] نوبة دمياط الأولى ، وهي شرقي النيل في قبالة جوجر^(٥) ، وبينها وبين الجزيرة - التي هي برّ دمياط - بحر أشموم طناح .

(١) في الأصل " لطافة " ، والصحيح ما بالمتن .

(٢) في الأصل " الجوع " ، والمثبت بالمتن يقتضيه السياق .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين لاستكمال المعنى الأقرب للمقصود .

(٤) في الأصل " الاعفاء " .

(٥) في الأصل " وجوحر " ، والصحيح ما بالمتن . انظر ياقوت (معجم البلدان ،

ج ٢ ، ص ١٤٢) ، حيث ورد أن جوجر " بليدة من جهة دمياط في كورة السمنودية " .

ويلاحظ أن ورود اسم هذه القرية التي لاتزال توجد حتى العصر الحاضر ، جنوبي طلخا الحالية ، هو أول إشارة معروفة ، للدلالة على موضع المنصورة الأولى ، وليس في المراجع والخرائط المتداولة هنا ما يضيف إلى هذا التعريف ، المذكور هنا . انظر كذلك على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٠ ، ص ٧٠ .

وكنا ذكرنا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان أمر ببناء الأبنية فيها ، وجعل بينها وبين البحر سوراً . و [كان] لأبيه الملك الكامل فيها قصر^(١) عالٍ على بحر النيل ، فنزله الملك الصالح ، وضرب دهليزه إلى جانبه . وكان استقرار السلطان [الملك الصالح] بالمنصورة يوم الثلاثاء ، لخمس بقين من صفر .

وشرعت العساكر في تجديد الأبنية ، وقامت بها الأسواق ، وأصلح السور الذى على البحر ، وسُتر بالستائر . وجاءت الشوانى والحراريق ، وفيها العدد الكاملة والمقاتلة ، فأرسوا قُدّام السور .

وجاء إلى المنصورة من الرجالة والحرافشة ، والغزاة المطوعة ، من سائر النواحي ، خلقٌ كثيرٌ ، لا يقع عليهم الإحصاء .

وورد [ت] من العربان أمم كثيرة ، وشرعوا فى الإغارة على الفرنج ومناوشتهم . وحصّن الفرنج أسوار دمياط ، وشحنوها بالمقاتلة .

وفى يوم الاثنين سلخ ، ربيع الأول ، ورد إلى القاهرة من أسارى الفرنج الذين تخطفهم العربان وغيرهم ، ستة وأربعون أسيراً ، منهم فارسان .

وفى يوم السبت ، لخمس مضمين من ربيع الآخر ، وصل أيضاً منهم تسعة^(٢) وثلاثون أسيراً ، أسرهم العرب والحوارزمية ، [قرب غزة]^(٣) . ثم دخل منهم إلى القاهرة أيضاً اثنان وعشرون أسيراً ، أخذوا من غزة . وكان دخولهم لسبع مضمين (٣٥٧ ب) من ربيع الآخر .

وفى يوم الأربعاء ، لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر ، وصل أيضاً منهم خمسة وثلاثون أسيراً ، منهم ثلاثة من الحباله .

(١) فى الأصل " قصر اعالى " ، والتصحيح والإضافة للتوضيح .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين استناداً إلى المعروف بشأن الحوارزمية ، وهو أنهم كانوا ممنوعين من دخول الأراضى المصرية ، وذلك بأمر السلطان الصالح أيوب ، أى أنه لم يوجد أحد منهم فيما وراء غزة من البلاد . ولذا كان وقوع أولئك الأسرى الصليبيين فى أيديهم فى هذه المنطقة ، دون غيرها من المناطق المصرية . انظر كذلك الفقرة التالية ، حيث يرد اسم مدينة غزة على أنه مصدر لفئة أخرى من الأسرى .

وورد يوم الجمعة ، لخمس بقين من ربيع الآخ ، بأن عسكر السلطان الملك الصالح بدمشق خرجوا إلى صيدا ، وتسلموها من الفرنج . ثم كان بعد كل قليل يصل من الفرنج أسارى ، جمع بعد جمع . ووصل منهم ، لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، خمسون أسيراً^(١) . وكل هذا يجرى والسلطان الملك الصالح يتزايد مرضه ، وقواه تضعف وتتلاشى ، والأطباء ملازمون له ليلاً ونهاراً ، وقد وقع بأسهم من عافيته ، ونفسه مع ذلك وعزيمته في غاية القوة . وتعاضد عليه مرضان عظيمان ، [وهما] الخراجة في مخاصيه والسل .

ذكر تسليم الكرك إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب

قال صاحب التاريخ ، ولما ضاقت الأمور على الملك الناصر داود بن الملك المعظم [عيسى] بالكرك ، مع قلة سعده ، استناب بالكرك ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى ، وأخذ ما يعزّ عليه من الجواهر ، ومضى في البرية إلى حلب ، وقد زالت السعادة عنه ، مستجيراً بالسلطان الملك الناصر [يوسف] صاحب حلب ، [وهو] بن الملك العزيز ، وملتجئاً إليه ، كما فعل عمه الملك الصالح عماد الدين^(٢) إسماعيل . فأنزله الملك الناصر [يوسف] عنده بحلب ، وأكرمه غاية الإكرام . ثم إن^(٣) [الملك الناصر داود] سیر ما معه من الجواهر إلى بغداد ، لتكون وديعة عند الخليفة المستعصم بالله . فلما وصل الجوهر^(٤) إلى بغداد ، قبضه [الخليفة] . وسیر إلى الملك الناصر [داود] خطه ، بقبضه^(٥) ، وأراد الملك الناصر

(١) في الأصل " خمسين " .

(٢) في الأصل " انه " وحذف الضمير وإضافه العائد بين حاصرتين للإيضاح .

(٣ ، ٤) في الأصل " فلما وصل الجوهر إلى بغداد وقبض وسیر إلى الملك الناصر خط

بقبضه . . . ، " ، والتعديل يقتضيه السياق .

بذلك أن يكون آمناً عليه ، بكونه مودعاً في دار الخلافة ، فلم تقع عينه بعد ذلك عليه . و [هكذا] كان [هذا الجواهر] رزقاً للتتر ، ساقه الله إليهم ، لما أخذوا بغداد ، وقتلوا الخليفة . [و] ذكر الملك الناصر [داود] أن قيمة الجواهر الذي بعثه إلى بغداد يزيد على خمسمائة ألف دينار ، إذا بيع بالهوان ، فإنه يزيد على ذلك .

وكان ولده الملك المعظم [شرف الدين عيسى] الذي تركه نائباً عنه بالكرك ، أمه أم ولد تركية ، كان يميل إليها الملك الناصر داود ميلاً كثيراً . وكان الملك الناصر يحبه أكثر من محبته لإخوته الباقين . وكان له ولدان من ابنة عمه الملك الأجد بن الملك العادل ، هما أكبر من ابنه الملك المعظم [عيسى] ، وهما الملك الناصر شادى ، والملك الأجد حسن . والملك الظاهر أكبر أولاده ، وُلد له بقلعة دمشق ، قبل أن تؤخذ دمشق منه . وكان ابنه أيضاً الملك الأجد نبياً فاضلاً ، مشاركاً^(١) في علوم شتى . وكان له أولاد من أمهات شتى ؛ فلما قدّم الملك الناصر [داود] ولده الملك المعظم [عيسى] ، تألم الباقون من ذلك ، وخصوصاً ولداه لابنة عمه ، لكبر سنهما ، وتميّزهما في أنفسهما عن الباقين .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، لما كان بالكرك ، كانت أمهما بنت الملك الأجد تخدمه ، وتقوم بمصالحه كلها ، لأنها ابنة عمه ، ولوصية زوجها الملك الناصر داود لها بذلك . فكان ولداها الملك الظاهر والملك الأجد يأنسان بالملك الصالح ، ويلازمانه في أكثر الأوقات . واتفق مع ذلك مضيعة^(٢) الوقت ، وتطاول مدة الحصر ، فاتفقا مع أمهما على أخيهما الملك المعظم [عيسى] ، ففعلا ذلك ، واستوليا على الكرك ، لذهاب الملك منهما . ثم عرّضا على تسليمها إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يأخذا منه عوضاً عنها . فسار الملك الأجد إلى المعسكر بالمنصورة ،

(١) في الأصل " مشارك " .

(٢) في الأصل " ضيقة " .

فوصل إليه يوم السبت ، لتسع مضين من جمادى الآخرة من هذه السنة ،
أعنى سنة سبع وأربعين وستائة . وقرّر [الأجد] مع السلطان الصالح
تسليم الكرك إليه ، وتوثق منه لنفسه ولإخوته ، وطلب^(١) منه خبزاً
بالديار المصرية ، ليقوم بهم^(٢) . فأكرمه الملك الصالح ، وقد أقبل عليه
إقبالاً كثيراً ؛ وسيّر إلى الكرك الطواشى بدر الدين الصوابى متسلماً لها ،
ونائباً عنه بها .

وبعد ذلك وصل إلى المعسكر^(٣) أولاد الملك الناصر جميعهم ، وأخواه
الملك القاهر عبد الملك ، والملك المغيث عبد العزيز (٣٥٨ ب) ، [ومعهما]
أولاد الملك المعظم ، ونسائهم^(٤) وجواريهم ، وغلمانهم وأتباعهم ؛ وأقطعوا
إقطاعات جليلة ، ورتبت [لهم] الرواتب الكثيرة . وأنزل^(٥) أولاد الملك
الناصر ، الأكابر منهم ، و [أنزل] إخوته في الجانب الغربى ، قبالة المنصورة .
وفرّح الملك الصالح نجم الدين أيوب بأخذ الكرك فرحاً كثيراً ،
مع ما هو فيه من المرض . وزينت القاهرة ومصر ، وضربت بالقلعتين
البشائر . وكان تسلم الملك الصالح نجم الدين أيوب الكرك يوم الاثنين ،
لاثنى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة .

وفى يوم الخميس ، لثلاث عشرة ليلة مضت من رجب ، وصل إلى
القاهرة من أسارى الفرنج سبع وأربعون^(٦) أسيراً أيضاً منهم ، حتى امتلأت
القاهرة بالأسارى .

(١) فى الأصل " وطلباً " ، ولعل الصحيح ما بالمتن .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل " العسكر " ، وسوف يدأب الناشر على إيراد الصيغة المثبتة بالمتن
هنا ، فيما يلى ، بغير تعليق .

(٤) فى الأصل " ونسائهم " .

(٥) فى الأصل " وانزلوا " .

(٦) فى الأصل " وأربعين " .

ذكر وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل رحمه الله تعالى

قال وتزايد المرض بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واشتد . وكان كما ذكرنا مرضان : من مخاصيه والسل . وما كان يشعر بالسل ، وإنما كان يظن أن عجزه وضعفه عن الحركة وإنما هو بسبب الجرح الذي في بيضه . و [في] آخر المرض قلت المواد ، وفنيت ، فجفت الجرح ؛ فكتب [السلطان الصالح] إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] يبشّره بذلك ، ويعلمه بعافيته ، وأن الجرح قد برأ ، وما بقي إلا الركوب واللعب بالصوالجة^(١) .

وكان عند^(٢) [السلطان الصالح] بالمعسكر من الأطباء الرشيد المعروف بأبي حليقة^(٣) ، [وهو] طيب والده الملك الكامل . وكتب [السلطان الصالح] إلى حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] يطلب منه إنفاذ الحكيم موفق الدين بن أبي الفضل الحموي ، فسيره إليه . ثم بعث [السلطان الصالح] يطلب منه إنفاذ الحكيم فتح الدين ابن أبي الحوافر ، فسيره إليه . فوصل [ابن أبي الحوافر] إليه قبل موته بأيام ، وقد ضعفت قواه ، وامتنع عن تناول الغذاء ؛ فلم يحضر [ابن أبي الحوافر] عنده .

ولما مات^(٤) الملك الصالح نجم الدين أيوب أحضر الحكيم [فتح الدين] ليتولى غسله ، وقصّد بذلك (١٣٥٩) كتمان موته ، فإن غيره لو دخل ارتيب به ، وتفظّن بموته . وانتقل الملك الصالح إلى رحمة الله تعالى ورضوانه ، وهو في مقابلة الفرنج ، مرابطاً مجاهداً ، في سبيل الله تعالى . وكانت وفاته ليلة الأحد ،

(١) في الأصل " الصولجة " .

(٢) في الأصل " عنده " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للتوضيح .

(٣) في الأصل " خليفة " .

(٤) في الأصل " ومات الملك الصالح نجم الدين بن أيوب ولما مات أحضر الحكيم ... " ، والتعديل بالتقديم والتأخير ، والإضافة بين حاصرتين ، يقتضيه السياق . انظر ما يلي ، ص ٢٨١ .

لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان ، من هذه السنة ، أغنى سنة سبع وأربعين وستائة . فكانت مدة ملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً ، وكان عمره نحو أربعين سنة ، لأن مولده سنة ثمان^(١) وستائة .

ذكر سيرته رحمه الله تعالى

كان الملك الصالح رحمه الله تعالى ملكاً مهيباً ، عزيز النفس عن أموال الرعية ، حشماً عفيفاً ، طاهر اللسان والذيل ، لا يؤثر الهزل ولا العبث ، شديد الوقار ، كثير الصمت . واشترى من الممالك الترك ما لم يشتره غيره من الملوك ، ولا أحدٌ من أهل بيته ، حتى صاروا معظم عسكره ، منهم سيف الدين قلاون الألفي ، وركن الدين بيبرس [البندقداري] الصالحى ، وعز الدين [أيبك] التركمانى ، وغيرهم ، ومن هؤلاء وأشباههم .

وكنا ذكرنا الأمير ركن الدين بيبرس الذى أعلمه ، كان من ممالك الملك الكامل ، وأن الملك الصالح لما رأى من غدر الأكراد وغدرهم به ، يوم أخذت دمشق ، وثبات ممالكه معه ، لما فرّ الناس عنه بقصر معين الدين بالغور ، مال إلى ممالكه ورجعهم . وصار [السلطان الصالح] لما ملك مصر يقطع [أخبار] الأمراء الذين [كانوا] عند [هـ من أيام] أبيه وأخيه ، ويعتقلهم ، وكلما قطع خبز أمير جعل مملوكاً^(٢) من ممالكه بموضعه ، حتى صار أكثر الأمراء [من] ممالكه .

واشترى [السلطان الصالح] بمصر جماعة كثيرة من الترك ، وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه ، وسماهم البحرية . وصاروا عسكراً كثيراً فى نهاية الشهامة والشجاعة ، انتفع المسلمون بهم غاية الانتفاع ، لما طرقت الفرنج البلاد ، وخصوصاً يوم الكبسة ، على ما سذكروه إن شاء الله تعالى ،

(١) فى الأصل " ثمانية " .

(٢) فى الأصل " مملوك " .

فهم كانوا أنصار الإسلام يومئذ ، وعدته وعمدته ، وبهم انتصر المسلمون على التتر بعد ذلك .

قال القاضي جمال الدين بن واصل ، (٣٥٩ ب) صاحب هذا التاريخ ، وحكى لي حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني ، رحمه الله تعالى ، أن هؤلاء المماليك ، مع فرط جبروتهم وسطوتهم . بلغ من عظيم هيبة الملك الصالح نجم الدين أيوب [عندهم] ، أنه كان إذا خرج [الملك الصالح] ، وشاهدوا صورته ، يرعدون منه ، ولا يبقى أحد منهم يجسر يتحدث مع أحد ، وأنه كان مع هذه الشهامة العظيمة والهيبة البالغة ، لا يكاد يرفع طرفه إلى محدثه حياءً منه وخفراً^(١) ، وأنه لم يسمع منه قط في شتمه لغيره لفظاً^(٢) فيه هجر ، ولا ينطق حال غضبه بكلمة قبيحة قط ، وأكثر ما كان يقول إذا شتم [أحداً] : ” يا متخلف “ ، لا يزيد على هذا .

وكان [السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب] مع هذه الطهارة في اللسان ، طاهر الذيل ، لم يعرف إلا الحلال ، من جارية مملوكة له ، أو زوجة له ، مع أنه كان قليل العناية بأمر الباه . [و] لم يكن عنده في آخر وقت غير زوجتين : إحداهما هي المعروفة ببنت العالم ، تزوجها بعده الجوكندار أحد مماليكه ، والأخرى شجر الدر^(٣) والددة [ابنه] خليل ، وهي التي دُعِيَ لها بالسلطنة بعد ابنه الملك المعظم [تورانشاه مدة] ، وتزوجها الملك المعز عز الدين أيبك التركماني ، وكان من أمرها وأمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

(١) في الأصل ” وحراً “ ، من غير فقط ألبتة .

(٢) في الأصل ” لفظاً “ .

(٣) في الأصل ” شجرة الدر “ ، وفي مواضع أخرى بالمتن بدون ياء التانيث ، كما هنا . والناشر يفضل هذه الصيغة الثانية ، ويلتزمها في سائر المتن ، بدون تعليق ، لأنها هي الصيغة الغالبة في مختلف المراجع والنقوش المعاصرة .

وحكى أن الملك الصالح نجم الدين كان إذا جلس مع ندمائه ، ويلعبون عنده ، لا يحصل عنده من الخفة والطرب ما يحصل عند غيره ، بل إنه يكون صامتاً لا يتزعزع ولا يتحرك ، وعليه السكينة والوقار ، وجلساؤه لما يرون من وقاره يلزمون هذه الحالة ، ويكون كأن الطير على رؤوسهم .

و [الملك الصالح نجم الدين] إذا تكلم مع بعض خواصه تكلم كلمات نذرة^(١) في غاية الوقار ، وتكون تلك الكلمات متعلقة بمهم عظيم ، من استشارة في أمر ، أو تقدم بأمر من الأمور المهمة ، لا يعدو حديثه في غالب أحواله هذا النحو ؛ ولا يتكلم أحد قط بين يديه إلا جواباً . وعندما لا يكون في مجلس الأنس ، يكون منفرداً بنفسه ، لا يدنو منه أحد ، والقصص ترد إليه مع الخدّام .

وكان [الملك الصالح نجم الدين] حسن العقيدة (١٣٦٠) ، حميد الطوية ، ومع ذلك فإنه^(٢) ما كان له ميل إلى مطالعة الكتب والعلوم .

وكان يحب أهل الفضل والدين ، ويجرى عليهم الجامعات والجرايات ، ويحسن إليهم ، ولكنه كان قليل المخالطة لهم ولغيرهم ، لمحبه للعزلة^(٣) والانفراد ، ولا يجتمع كثيراً بندمائه إلا على الوجه الذي ذكرت من الانقباض والسكينة .

وكانت همته عالية جداً ، ينمو^(٤) على الاستيلاء على المعاقل والحصون ، والانفراد بها لنفسه .

وكان ميالاً^(٥) إلى العماره واتخاذ الأبنية العظيمة ، ويباشرها بنفسه ، وعمل له من ذلك ما لم يعمل [لأحد] من ملوك زمانه . [و] بنى القصور

(١) في الأصل " نذره " .

(٢) في الأصل " انه " .

(٣) في الأصل " بالعزلة " .

(٤) كذا في الأصل .

(٥) في الأصل " مايلا " .

التي في وسط قلعة الجزيرة ، غرم عليها جملا عظيمة من المال . وهذه الجزيرة كانت منزهاً للملوك ، وكان للملك الكامل فيها قصر يتنزه [فيه] على الأحايين ، ومقعد يعرف بالبانياسي . فبنى الملك الصالح فيها من الدور العظام والقصور ما لم يكن مثله من جميع الملوك ، ولا أكاسر العجم في قديم الزمان ، يحار الناظر إذا دخلها ، ورأى ما فيها من الذهب العظيم ، والزخرفة الكثيرة ، والرخام الفاخر . وجعل [الملك الصالح] في المقعد المعروف بالبانياسي طاقات عظام بالشبايك الحديد على البحر ، وشاذروانين للماء ، وبينهما بحرة كبيرة ، كلها معمولة بالرخام الفائق . وبلى المقعد من جهة الشرق بستان فيه صنوف الحمضات . ويخرج من هذا المقعد إلى قاعات مزخرفة في غاية الحسن ، تنفذ من كل واحدة إلى أخرى ، كثيرة العدد . وفي آخرها مجلس عظيم برسم مد السباط ، فيه من الذهب والترخيم البديع ، والنحت^(١) المذهب ، ما لا يمكن التعبير عنه ، ولا عن وصف حسنه ، بل خبره أبدا يصغر الخبر عنه^(٢) .

وكانت هذه الجزيرة لا يحيط بها الماء إلا أيام الزيادة ، [و] في معظم الأيام^(٣) يكون [الماء] أبداً غربها . فلم يزل السلطان الملك الصالح يتحیل بتغريق السفن في البحر من جهة الغرب (٣٦٠ ب) إلى أن انصرف شطر من الماء عظيم إلى جهة الشرق . وصار الماء يحيط بها من الجانبين دائماً ، وصار بينها^(٤) وبين مصر بحرٌ زاخرٌ ، فنصب عليه جسراً يُجاز عليه من مصر إليها .

وبنى [الملك الصالح] أيضاً على البحر من جهة اللوق قصوراً أيضاً^(٥) في غاية الحسن ، وجعل إلى جانبها ميداناً يضرب فيه بالصوالجة ، وكان الملك الصالح مُغرّى بها .

(١) في الأصل " المحب " ، بغير نقط . (٢) كذا في الأصل .

(٣) في الأصل " البحر " . (٤) في الأصل " بينهما " .

(٥) كذا في الأصل ، وهي مكررة في الجملة .

وبنى قصرًا عظيمًا بين مصر والقاهرة ، على تل عالٍ في غاية الحسن والإشراق ، وسماه الكبش ، وقصوراً حسنة في بستان الخشاب .

وكذلك بنى بالعلاقة^(١) والساح ، وأمر باختطاط بلدة بالساح ، فرتب قصوره [بها] ، وسماها الصالحية . وبالجمله فكانت همته في العمارة وبناء^(٢) الآدر والقصور لا يشبهها همة .

وكان للملك الصالح نجم الدين أيوب ثلاثة^(٣) بنون ، لما ورد^(٤) إلى دمشق من الشرق ، أكبرهم الملك المغيث فتح الدين عمر ، وأوسطهم الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ، وأصغرهم الملك القاهر . وكان يحب الملك المغيث ويؤثره جداً ، لأنه كان يناسبه في كثرة العقل والسكون ، والشهامة والنجابة ، فاستصحبه معه لما قدم إلى دمشق ، واستصحب معه أيضاً ابنه الأصغر الملقب بالقاهر . وترك ابنه الأوسط الملك المعظم [تورانشاه] بآمد ، وكان مرتباً معه فيها الأمير حسام الدين محمد أبي علي [الهذباني] .

وكان الملك المعظم [تورانشاه] يميل إلى العلوم ، ويجتمع بالفقهاء ويباحثهم ، ويعرف شيئاً من الخلاف والفقه والأصول والأدب ، إلا أنه كان عنده هوج واضطراب ؛ وكان أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب يكرهه لذلك . وكان جدّه الملك الكامل يحبه ، فكان يلقي عليه - وهو صغير - المسائل العويصة في العلوم ، ويأمره أن يعرضها على من يحضر مجلسه من العلماء ، ويمتنحهم بها .

ثم جرى للملك المغيث [عمر] من موته معتقلاً بقلعة دمشق ما جرى ، في حبس الملك الصالح عماد الدين إسماعيل . ومات الملك القاهر ، وهو ابن

(١) في الأصل " العلاقة " .

(٢) في الأصل " وبني " .

(٣) في الأصل " ثلاث " .

(٤) في الأصل " ولما " .

الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو الأصغر ، بقلعة دمشق أيضاً ، قبل أن يأخذها الملك الصالح إسماعيل أيضاً ، وقد ذكرناه .

ولما قدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشرق ، كان قد استدعى حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] من آمد ؛ وبقي [الملك المعظم تورانشاه] بآمد . فجاءت عساكر الروم مع الحلبيين ، وحاصروا آمد ، كما ذكرنا ، وأبقوا حصن كيفا للملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين ، مع قلعة الهيثم ؛ فأقام [تورانشاه] بها إلى أن مات أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وكان وُلد للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو معتقل بالكرك ، ولده خليل من أم ولده المسماة شجر الدر . وكان قد عقد عقده عليها ، وصارت زوجة له . وورد معه ولده خليل إلى القاهرة ، لما ملكها ، ومات خليل في حياة أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب صغيراً .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، لكراهته لابنه الملك المعظم [تورانشاه] ، لم يأذن له في القدوم عليه إلى مصر ، مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ، ويكون وليّ عهده إذا مات . وبأن من كراهيته له ما أخبرني [به] الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] ، قال : ” قال السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، إذا قُضى عليّ بالموت ، فلا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه “ .

ولما مرض [السلطان الملك الصالح] المرضة التي مات فيها^(١) ، كانت نفسه قوية ، وأمله متسعاً ، ولم يغلب على ظنه أنه يموت من مرضه^(٢) . ذلك . وكان به ما قدمنا ذكره : الخراجة والسل . ولم يكن

(١) في الأصل ” فيه “ .

(٢) في الأصل ” موضعه “ .

يشعر أن به سلاً ، بل كان يجتهد في مداواة الحرجة^(١) ، فورد عليه السل قبل موته بأيام يسيرة ، كما ذكرنا . وكانت الحرجة لما انقطعت عنها المواد ختمت وصلحت . وكتب [الملك الصالح] كتاباً^(٢) إلى حسام الدين محمد بن أبي علي : ” إن الحرجة التي في قد صلحت ، وختمت الرطوبات التي فيها ، ولم يبق إلا ركوبى ولعبى بالصوالجة^(٣) . فتأخذ بحظك من هذه البشرى “ ؛ فسر^(٤) (٣٦١ ب) حسام الدين بذلك .

قال صاحب التاريخ ، فأوقفنى حسام الدين على كتابه ، وقد كنتُ أسمع من الأطباء حقيقة مرضه . ولم يكن جفاف الحرجة إلا بسبب^(٥) فناء المواد ، كما ذكرنا ، مع ضعف^(٥) القوة عن دفع شيء مما بقى منها^(٦) ؛ فإذ لك تم قبض الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولم ينص [الملك الصالح أيوب] على من يقوم بالأمر بعده ، ولو أوصى لما خرج عن حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذبانى] ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . و [أما] فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، فلم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة ، سيما و [أنه] كان متألماً منه ، لرجوعه بالعساكر عن دمياط ، وتهاونه بها حتى أخذها الفرنج .

-
- (١) في الأصل ” الجراحة “ ، انظر السطر السابق هنا ، وسوف يلتزم الناشر هذه الصيغة ، فيما يل بالمتن ، بغير تعليق .
- (٢) في الأصل ” كتاب “ .
- (٣) في الأصل ” بالصوالجة “ .
- (٤) في الأصل ” سبب “ .
- (٥) في الأصل ” وضعف “ .
- (٦) في الأصل ” إليها “ .

ذكر قيام الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بعد موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بتدبير المملكة .

قال ولما توفي السلطان الملك الصالح ، أحضرت شجر الدرّ زوجة الملك الصالح ، الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، والطواشي جمال الدين محسن ، وهو كان^(١) أقرب الناس إلى السلطان الملك الصالح ، وإليه كان القيام بأمر ممالكه . وأمرتهما [شجر الدرّ] بكتان موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، خوفاً من الفرنج ، فإنهم كما ذكرنا قد ملكوا ثغر دمياط ، وفيها من جموعهم ما لا يحصى ولا يعدّ ، وهم على شرف^(٢) الاستيلاء على مملكة الديار المصرية .

واتفقوا جميعهم على أن يقوم بتدبير المملكة الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، إلى أن يقدم الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من حصن كيفا ، وأن يحلف الناس للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولابنه الملك المعظم [تورانشاه] بعده بولاية العهد ، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر ، والقيام بأمر الملك .

ثم أحضر الحكيم فتح الدين بن أبي الحوافر ، رئيس الأطباء ، وهو أحد حكماء السلطان [الصالح نجم الدين أيوب] . وكان كما تقدّم ذكره . قد استدعاه السلطان ليداويه^(٣) ، فسيره حسام الدين من القاهرة إليه ، فوصل إلى (١٣٦٢) المعسكر المنصور ، وقد شارف السلطان الموت . فلما مات أحضره ، ليغسل السلطان والصلاة عليه ، لثلاثين يوماً بدخول

(١) كذا في الأصل .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) في الأصل " ليداوه " .

غيره إذا دخل بهذا الغرض . فغسل فتح الدين الطبيب السلطان ،
وكفنته ، وصلى عليه ، وجعله فى تابوت ؛ وكُتِم موت السلطان عن
كل أحد .

قال ، واستمر الأطباء يلزمون الدهليز [السلطاني] غدوة وعشية ،
ليظنّ الناس أن السلطان مريض . ونُقل التابوت الذى فيه السلطان
سرّاً إلى قلعة الجزيرة ، فترك بها إلى أن نقل إلى القاهرة ، فيما بعد ،
على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم أحضرت [شجر الدر] الأمراء بالدهليز السلطاني ، وقيل لهم :
” إن السلطان قد رسم أن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم بعده ، وللأمير
فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر ، والقيام
بالأتابكية ، وتدبير المملكة “ ؛ فأجابوا كلهم إلى ذلك ، وحلفوا الأمراء
والأجناد ، وممالك السلطان .

ثم ورد المرسوم إلى القاهرة إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبي على
[الهذباني] ، بأن يحلف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة ، على ما وقع
التحليف عليه بالمنصورة ، وأن يخطب على المنابر للملك المعظم
[تورانشاه] ، بعد أبيه السلطان الملك الصالح . فحضر قاضى القضاة
بدر الدين يوسف بن الحسن قاضى القاهرة والوجه البحرى ، وبهاء الدين
زهير كاتب الإنشاء ، وكان الملك الصالح قد عزله لأمرٍ قد نقمه عليه ،
وحضر^(١) إلى القاهرة [لهذا الغرض] شمس الدين باخل^(٢) ، [وحضر]
غيرهم من الأجناد وأرباب الدولة ؛ ووقع التحليف على الوجه المذكور ،
يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان .

(١) فى الأصل ” وحضروا ” .

(٢) فى الأصل ” باحل ” ، بغير نقط ألبته .

ثم استدعى بهاء الدين زهير إلى المعسكر [بالمنصورة] ، فضى [إليه] ، ورجع إلى منصبه .

وبولغ في كتمان موت السلطان الملك الصالح عن كل أحد ، من كبير في الدولة وصغير ، حتى على الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] ، نائب السلطنة بالديار المصرية . وكانت الكتب ترد من المعسكر [بالمنصورة] إليه ، ويكتب فيها علامة السلطان التي صورتها : ” أيوب ابن محمد بن أبي بكر بن أيوب “ ، بخط يشبه خطه جداً ؛ وكان يكتبها خادماً من خدام السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، يعرف بالسهيلي . وكان حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] يظن أن السلطان حي ، وأن الخط الوارد إليه في الكتب خطه .

قال جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ . و [أما] أنا فقد كان تحقق عندي موته بقرائن كثيرة ، [ومنها] أنه يوم التحليف الذي جرى بالقاهرة ، قال لي ابن طيبيه الذي يباشره ويعرف حقيقة مرضه : ” إني فارقت المعسكر ، والسلطان رحمه الله قد امتنع عن الغذاء بالكلية ، وسقطت^(١) قواه ، ولا شك أنه قد مات “ . وعلمت من جهة قريبة أخرى ، أقوى القرائن عندي ، وهو أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ما كان يثق بالأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، بالثقة التي توجب أنه يفوض إليه الأمور بعده ، وهو يعرف همة فخر الدين وتعالها ، وأنه يوم ملك السلطان الملك الصالح مصر ، وأطلق فخر الدين [من سجنه الذي كان به بقلعة الجبل ، منذ أيام الملك العادل الصغير]^(٢) ركب فخر الدين ركبة عظيمة ، ودعا له المصريون ، واحتفوا^(٣) به .

(٣) في الأصل ” وسقط “ .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٠) ، والمقرئى (كتاب السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٢٧٦) ، حيث توجد معلومات إضافية كثيرة ، بشأن حياة الأمير فخر الدين .

(١) في الأصل ” واحفوا “ .

فأوجب ذلك أن استشعر [السلطان الملك الصالح] منه ، وألزمه داره ،
كما تقدم ذكره ، إلى أن مات أخوه^(١) صاحب معين الدين [بن شيخ
الشيوخ] بدمشق ، فاحتاج السلطان إلى الاستعانة بفخر الدين يوسف ،
لشهامته ونجايته ، فأخرجه وقدمه .

وكان السلطان الملك الصالح لا يعتمد في حفظ الديار المصرية إلا على
حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] ، حتى إنه في السفرة الأولى قال
له : ” إني أسافر ، وأخاف أن يعرض لي موت ، وأخى في قلعة الجبل ، فربما
استولى على الأمر ، فيهلككم “ ، وذكر له أشياء شتى ، [مما] لا يمكنني أن
أسطره . وقال له مرة أخرى : ” إن حدث بي موت ، فسلم البلاد إلى
الخليفة المستعصم بالله ، يرى فيها رأيه “ ، وقد تقدم ذكر ذلك .

ثم جرى من فخر الدين يوسف [ما جرى] ، من رجوعه عن ثغر
دمياط ، حتى بلغني أنه كان في نفس الملك الصالح من هذا أمرٌ عظيم ،
وحتى عليه ، وعلى جماعة من الأمراء الذين كانوا مع فخر الدين ؛ ولم يتمكن
[الملك الصالح] في ذلك الوقت الصعب أن يحدث حادثاً^(٢) يوجب
الاضطراب ، (١٣٦٣) وخروج الديار المصرية من أيدي المسلمين . فتحقق
عندي ، من هذا وما أشبهه ، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو أوصى إلى أحد
بتدبير الملك بعده ، ما عدل عن حسام الدين بن أبي علي [الهذباني] .

فورد على حسام الدين مرة كتاب في اقتضاء أمرٍ من الأمور ، قال
القاضي جمال الدين قاضي حماه صاحب هذا التاريخ ، فأوقفني عليه ، وكان
قد حصل له بعض الارتباب . فقلت له : ” والله العظيم ، ما هذا خط
السلطان الملك الصالح !! “ . فقال : ” وكيف عرفت ذلك ؟ “ ، فقلت له :

(١) في الأصل ” اخاه “ .

(٢) في الأصل ” حادث “ .

” احضر لي بعض الكتب التي فيها خطه “ ، فأحضر لي [ذلك] . فقابلت بين حروفه وحروف ذلك الكتاب ، فتبين مخالفة الخط للخط : من ذلك أنه كان يكتب الياء ممتدة ، وفي ذلك الكتاب تشبه الراء . فغلب على ذهن حسام الدين إذن ما قلته ، وأخذ في التبيين عنه ، والكشف له من خواص السلطان نجم الدين أيوب بالمعسكر ، فتحقق موته . وحينئذ اشتد خوفه من الأمير فخر الدين يوسف أن يغلب على الملك ، ويستبد به لنفسه ، فإن الأمير فخر الدين رحمه الله كان على الهمة جداً ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر .

قال ، وشرع فخر الدين يوسف في إطلاق المحبوسين^(١) ، فأفرج عن محبي الدين الجزري^(٢) ، وسيف الدين بن عدلان ؛ ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب اعتقلهم . وكان السلطان رحمه الله قد غضب على جمال الدين بن مطروح ، وأبعده وعزله عن نيابة السلطنة بدمشق ، فقرّبه فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وأحسن إليه . وأحضر [فخر الدين] بهاء الدين زهير ، كما ذكرنا ، بعد إبعاد السلطان له ، وردّه إلى منصبه .

ثم أخذ [فخر الدين] في التصرف في الأموال ، فأطلق منها جملة ، وخلع على خواص الأمراء . فعلم الناس كلهم [من ذلك] موت السلطان ، وتحققوه ، إلا أن أحداً لا يستجرئ أن يتفوّه به ، إقامة للهية ، بسبب كون الفرنج في البلاد ، والخطبة والسكة مستمرة للملك الصالح ، وبعده لولده الملك المعظم تورانشاه .

وتوجه من المعسكر قصّاداً لإحضار الملك المعظم [تورانشاه] ، من جهة الطواشي جمال الدين محسن ، وشجر الدر (٣٦٣ ب) ؛ وما أمكن

(١) في الأصل ” المحبين ” .

(٢) في الأصل ” الحررى ” ، بغير نقط ألبته .

فخر الدين يوسف إلا الموافقة على ذلك . ومن جملة من توجه لإحضاره
الأمير فارس الدين أقطايا^(١) ، وكان من الحمدارية . وكانوا^(٢) يستبعدون
وصول الملك المعظم [تورانشاه إلى الديار المصرية] ، بسبب^(٣) تحصن كيفا ،
وأنه ربما لا يتمكن بسبب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، والحليين .
وسير حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذيانى] من عنده قاصداً ،
هو أحد مماليكه الخواص ، يعرف بزين الدين العاشق . وبعث معه كتاباً^(٤)
يحث فيه الملك المعظم [تورانشاه] على سرعة القدوم ، خوفاً من أن تخرج
البلاد من يده ، ولم يثق حسام الدين بمن توجه من المعسكر لإحضاره .
وكان التقدم بالخطبة للملك المعظم [تورانشاه] تالياً^(٥) للخطبة لأبيه ،
يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان ، سنة سبع وأربعين وستائة . ورُسم
في ذلك اليوم أن يُنقش اسم الملك المعظم على سكة الدراهم والدنانير ،
بعد اسم أبيه ، فخطب الخطباء باسم الملك المعظم ، في يوم الجمعة التالية
ليوم الاثنين المذكور .

وكان الملك المغيث بن الملك العادل بن الملك الكامل عند عماته بنات
الملك العادل ، فذكر للأمير حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذيانى] ،
أن فخر الدين بن شيخ الشيوخ ربما طمع في السلطنة ، ليستولى على المملكة ،
ويديرها باسمه . وكان عمر الملك المغيث يومئذ ، على ما بلغنى ، أربع
عشرة سنة أو نحوها . قال ، فأحضرت حسام الدين حين سمع هذا القول
شمس الدين بن "باخل"^(٦) وإلى القلعة ، وأمره أن ينقل الملك المغيث إلى

(١) كذا في الأصل .

(٢) في الأصل " وكان " .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) في الأصل " كتاب " .

(٥) في الأصل " تالية بالخطبة " .

(٦) في الأصل " باحل " ، بدون نقط ألبتة . انظر ما سبق ، ص ٢٨٢ .

القلعة ، فنقله إلى القلعة . وصعد حسام الدين إلى القلعة ، وأمر والى القلعة بالاحتفاظ به ، والاحتياط عليه ، وألا يسلمه إلى من يطلبه منه .

واستمرت المكاتبة مترددة بين فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وحسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] ، وعنوان المكاتبة من : ” فخر الدين الخادم يوسف “ ، ” ومن حسام [الدين] المملوك أبو علي بن أبو علي ، وبينهما مجاملات في الظاهر ، وفخر الدين يعمل على الاستبداد ، (١٣٦٤) والاستقلال بالأمر ، إن تعذر وصول الملك المعظم . وصار لفخر الدين^(١) موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم في خدمته ، ويرجلون له كلهم عند النزول ، ويحضرون لسياطه .

قال ، ووصل قاصد حسام الدين [محمد بن أبي علي الهذباني] إلى حصن كيفا ، واجتمع بالملك المعظم [تورانشاه] ، وحثه على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، وقال له : ” إن تأخرت فات الأمر ، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد ، وربما جعلها باسم ابن عمك الملك المغيث بن الملك العادل “ . ووصل^(٢) إلى حصن كيفا أيضاً قصّاد المعسكر^(٣) [بالمنصورة] ، و [معهم] فارس الدين أقطايا^(٤) الجمدار ، وحثوه على الحركة .

ذكر مسير الملك المعظم غياث الدين توران شاه بن الملك الصالح إلى الديار المصرية

قال ، ولما حث الملك المعظم القصّاد على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، خرج في جماعة قليلة من أصحابه وخواصه ، ومعه كاتبه النشو ابن حشيش النصراني المصري ، متخفياً ، [خشية] أن يظفر به بدر الدين لؤلؤ

(١) في الأصل ” و صار له “ وحذف الضمير وإضافة العائد للتوضيح .

(٢) في الأصل ” وصلت “ .

(٣) في الأصل ” المعسكر “ .

(٤) كذا في الأصل .

صاحب الموصل ، والحليون . وكان خروجه من حصن كيفا ، ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان المعظم ، من هذه السنة ، أعني سنة سبع وأربعين وستائة .

وترك [المعظم تورانشاه] بحصن كيفا ولده الملك الموحد عبد الله ، وعمره على ما سمعتُ منه عشر^(١) سنين ؛ وترك عنده من يقوم بتدبير أمره . وكانت^(٢) عدة من خرج مع الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من خواصه وألزامه ، خمسين^(٣) فارسا . وقصد [المعظم بهم إلى] جهة عانة ، وهي من بلاد الخليفة [المستعصم العباسي] . وبلغ الحلبين وبدر الدين لؤلؤ خروجه ، وتوجهه إلى الديار المصرية ، فأرصدوا له جماعة ليقبضوا عليه^(٤) ، ويتفقوا^(٥) معه على ما يريدون ؛ فلم يقع أحد منهم به . ووصل [المعظم تورانشاه] إلى عانة ، فعدى الفرات منها .

ذكر تقدم الفرنج ونزولهم قبالة عسكر المسلمين

قال : ولما تحقق الفرنج من موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رحلوا من دمياط بفارسهم وراجلهم ، وشوانهم في البحر تحاذيهم^(٦) . فنزلوا على فارس كور (٣٦٤ ب) ، ثم تقدموا منها مرحلة ، وذلك في يوم الخميس ، لخمس بقين من شعبان ، من هذه السنة ، أعني سنة سبع وأربعين وستائة .

(١) في الأصل " عشرة " .

(٢) في الأصل " كان " .

(٣) في الأصل " خمسون " .

(٤) في الأصل " ليقبضوه " .

(٥) في الأصل " يتفقون " .

(٦) في الأصل " تحاذيهم " بالدال .

وفي غد هذا اليوم ، وهو يوم الجمعة ، ورد من الأمير فخر الدين يوسف كتاب ينذر^(١) الناس ، ويأمرهم بالجهاد ، وفيه علامة تشبه علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ليظنّ الناس أنه كتابه ، [و] أوله [بعد البسملة] ” انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون “ ، وهو كتاب بليغ ، [وعلمت فيما بعد] أنه من^(٢) إنشاء بهاء الدين زهير ، وفيه مواعظ جميلة ، وتحريض على قتال الكفار ، وأن الفرنج قد قصدوا الديار المصرية والبلاد الإسلامية ، بحدّهم وحديدهم ، وقد أطمعهم أنفسهم بملك البلاد ، وقد وجب على المسلمين كافة النفر إليهم ، ودفعهم عن البلاد . فقرأ هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلاة بالقاهرة ؛ فبكى الناس بكاء كثيرا ، وانزعج الناس لذلك .

وخرج من القاهرة ومصر وسائر النواحي خلق عظيم ، وعظم الخوف لموت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وتمكن الفرنج بتملك^(٣) دمياط وكثرتهم^(٤) ، وتحققوا أنه إن اندفع العسكر الذين بالمنصورة إلى ورائهم مرحلة واحدة ، مُلكت ديار مصر أجمعها في أسرع الأوقات .

ولما كان يوم الثلاثاء ، مستهلّ شهر رمضان ، وقعت بين الفرنج والمسلمين وقعة عظيمة ، استشهد فيها أمير مجلس المعروف بالعلائي ، وجماعة من الأجناد ؛ ونزلت الفرنج بشرمساح .

وفي يوم الاثنين ، لسبع مضيّن من رمضان ، نزلت الفرنج البرمون ، وكثّر الاضطراب بسبب دنوّ ملك الإفرنج من عساكر المسلمين .

(١) في الأصل ” يدر “ .

(٢) في الأصل ” انه بانشا “ .

(٣) في الأصل ” بملك “ .

(٤) في الأصل ” وكثرتهم “ ، بدون فقط ألبته .

وفي يوم الأحد ، لثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان ، وصلت الفرنج إلى طرف جزيرة دمياط ، وصاروا في مقابلة المسلمين ، ومعظم عسكر المسلمين في المنصورة ، وهي في البرّ الشرقى ، و [معهم] جماعة من العسكر ، وأولاد الملك الناصر داود بن الملك المعظم [عيسى صاحب الكرك] ، وهم الملك الأمجد ، (١٣٦٥) والملك الظاهر ، والملك المعظم ، والملك الأوحى ؛ و [كان] الأكابر منهم في البرّ الغربى . وكان (١) أولاد الملك الناصر [داود] ، الأكابر والأصاغر الذين قدموا القاهرة ، اثنى عشر ولداً ذكراً . وكان بالبرّ [الغربى] أيضاً أخوا (٢) الملك الناصر داود ، [وهما] الملك القاهر ، والملك المغيث .

ولما نزل (٣) الفرنج يجمعهم في طرف الجزيرة التي فيها دمياط ، وصاروا في مقابلة المسلمين ، خندقوا عليهم خندقاً ، وأداروا عليهم سوراً ستروه بالستائر ، ونصبوا المناجيق (٤) يرمون بها المسلمين . ونزلت شوانيهم بإزائهم (٥) في بحر النيل ، وشوانى المسلمين بإزاء المنصورة ؛ ونشب القتال بين الفريقين برّاً وبحراً .

وفي يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان ، قفز إلى المسلمين [ثلاثة] (٦) من خيالة الإفرنج ، وأخبروا بضائقة الفرنج .

وفي غد هذا اليوم ، وهو يوم الخميس ، كان وصول الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح إلى عانة ؛ ثم انفصل [المعظم] عن عانة متوجهاً إلى دمشق ، على طريق السماوة .

(١) في الأصل " وكانوا " .

(٢) في الأصل " اخو " ، والصحيح ما هنا . انظر المقرئى : كتاب السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .

(٣) في الأصل " نزلت " .

(٤) كذا في الأصل . انظر ما سبق ، ص ٢٦٧ .

(٥) في الأصل " باولهم " .

(٦) أضيف ما بين الحاضرتين من المقرئى : كتاب السلوك - نشر زيادة - ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

ذكر وصول الملك المعظم غياث الدين توران شاه إلى دمشق

وكان رحيل^(١) [المعظم تورانشاه] من عانة يوم الأحد ، لعشر بقين من شهر رمضان . ثم وصل إلى القصر ، ونزل في دهليزٍ ضربه له جمال الدين [بن] يغمور ، نائب السلطنة بدمشق ، يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر رمضان .

ودخل [المعظم تورانشاه] غدٍ يوم الاثنين إلى دمشق ، وزينت له ، ودخل بقلعتها ؛ وقام بخدمته جمال الدين بن يغمور . ووصل إليه أيضاً من حماة الخطيب زين الدين بن مرهوب ، رسولاً من صاحبها السلطان الملك المنصور ، رحمه الله ، مهتماً له بقدمه . ووصل إليه أيضاً رسول السلطان الناصر ، صاحب حلب ، وعيّد [معه] بدمشق .

وفي هذا اليوم أُسر من الفرنج كُند كبير ، من أقارب الملك ريدافرنس . واستمر القتال بين الفريقين في البحر والبر ، وكل يوم يُقتل من الفرنج ويؤسر جماعة كبيرة .

وكان الفرنج يجدون من حرافشة المسلمين أذىً كثيراً ، و[كان أولئك الحرافشة] يتخطفون من الفرنج ويقتلون ، فإذا شعروا بالفرنج رموا أنفسهم في الماء ، وسبحوا إلى أن يخرجوا من جانب المسلمين . وكانوا يتحيلون على التخطف من الفرنج بكل حيلة ، فبلغني أن إنساناً^(٢) منهم قور بطيخة خضراء ، وجعلها ملبسة على رأسه ، ثم سبح في الماء ، وقرب من الفرنج حتى ظنه بعض الفرنج سابيلاً^(٣) على الماء ، فنزل ليتناولها ، فخطفه ذلك الشخص وأسره ، وأتى به إلى المسلمين ؛ فعجبوا من ذلك .

(١) في الأصل " رحيله " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للتوضيح .

(٢) في الأصل " انسان " .

(٣) كذا في الأصل ، وبدون نقط على التاء المربوطة .

ولأربع ليالٍ مضين من شوال ، وردت البطائق إلى القاهرة ، بوصول
[الملك المعظم] تورانشاه [إلى دمشق ، واستقراره بقلعتها . فضربت
البشائر بالقاهرة وبالمعسكر المنصور ، وحصل السرور بذلك .

وفي يوم الأربعاء ، لسبع مضين من شوال ، أخذ المسلمون من الفرنج
شيئاً ، فيه مائتا^(١) رجل وكُند كبير .

وفي يوم الخميس ، منتصف شوال ، ركب^(٢) الفرنج والمسلمون ، ودخل
المسلمون إليهم إلى برّهم ، واقتتلوا فيه قتالاً شديداً . فقتل من الفرنج
أربعون فارساً ، وقتلت خيلهم أيضاً .

وفي غدٍ هذا اليوم ، وهو يوم الجمعة ، وصل إلى القاهرة سبعة
وستون^(٣) أسيراً ، منهم ثلاثة من أكابر الدولة .

وفي يوم الخميس ، لثمان بقين من شوال ، أحرقت للفرنج مرمة^(٤)
عظيمة في البحر ، واستظهر عليهم المسلمون استظهاراً عظيماً بيناً .

ذكر مسير الملك المعظم [تورانشاه] من دمشق إلى الديار المصرية

قال ، وسافر الملك المعظم [تورانشاه] من دمشق ، بعد أن عيّد بها ،
متوجهاً إلى الديار المصرية ، بعد أن خلع على الأمير بدر الدين بن يغمور ،
وقرّره في النيابة عنه بها . وخلع على الأمراء القيمرية ، وأعطاهم عطاءً كثيراً ،

(١) في الأصل " مائتي " .

(٢) في الأصل " ركبت " .

(٣) في الأصل " سبع وستين " .

(٤) في الأصل " مراكب " ، وهو خطأ من جملة أخطاء ناسخ هذه المخطوطة ، وصحته
المثبتة هنا منقولة عن المقرئ (كتاب السلوك - نشر زيادة - ج ١ ، ص ٣٤٨) ، وغيره
من المؤرخين الذين نقلوا أخبار هذه الحوادث من مخطوطة أخرى ، هي أحسن كثيراً مما لدينا هنا ،
من تاريخ ابن واصل .

وأخرج من الخزائن جملة من المال ، وفرّقها في الجند . واستصحب [الملك المعظم تورانشاه] معه القاضي الأسعد شرف الدين الفائزى ، وكنا قد ذكرنا أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب جعله في دمشق ، ناظراً في ديوانها .

ولما دخل الملك المعظم [تورانشاه] الرمل ، أسلم على يده كاتبه النشوبن حشيش النصرانى ، ولقبه [السلطان بلقب] معين الدين ، ورشحه للوزارة بالديار المصرية .

ذكر الكبسة التى وقعت على المسلمين بالمنصورة ومقتل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ثم انتصار المسلمين بعد ذلك على الفرنج

(٣٦٦ ا) قد ذكرنا استقرار الفرنج في قبالة المسلمين ، واتصال القتال بين الفريقين ، وبينهما بحر أشمون ، وهو بحر صغير ، وفيه مخاض رقاق^(١) . فدلّ بعض المسلمين [ملك] الفرنج على مخاضة بسلمون ، فركب الفرنج وقصدوا المخاضة بكرة الثلاثاء ، لخمس مضيّن من ذى القعدة ، فلم يشعر المسلمون بهم إلا وقد خالطوا معسكرهم .

وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل في الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر . فركب [الأمير فخر الدين] دهشاً غير مستعدّ ولا متحفّظ . فصادفه^(٢) جماعة من الفرنج ، فقتلوه رحمه الله . وكان أميراً فاضلاً ، عالماً متأدّباً ، جواداً سمحاً ، على الهمة كبير النفس ، ما كان في إخوته مثله ، بل ولا في غير إخوته . [و] نال [الأمير فخر الدين] من الدنيا سعداً عظيماً ، ومكانة عالية ، وانتهى إلى

(١) كذا في الأصل .

(٢) في الأصل " فصادفوه " .

قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت همته تترقى إلى الملك ،
وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضى عنه .

ودخل ملك الإفرنج^(١) ريدافرنس المنصورة ، ووصل إلى القصر
الذى للسلطان . وتفرق الفرنج في أزقة المنصورة ، وهرب كل من فيها من
الجند والعامّة والسوقة ، يميناً وشمالاً ، وكادت شأفة الإسلام تُستأصل ؛
وأيقن الفرنج بالظفر ، و [لكنه] كان من سعادة المسلمين تفرق الإفرنج
في الأزقة .

واشدّ الأمر ، واعضلّ الخطب ، فانتحت الطائفة التركية ، [وهى
طائفة] مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من البحرية
والجمدارية ، و [هم] أسود الحرب وفرسان الهيحاء ، وحملوا على الفرنج
حملة واحدة . وكانت حملة عظيمة ، فزعزعوا بها أركانهم ، وهدّوا بنيانهم .
وأخذت الفرنج السيوف والدبابيس من كل جانب ، فأثخنوا فيهم القتل
والجراح ، وطرحوهم في أزقة المنصورة ، فكانت عدة من قتل من الفرنج
ألف وخمسمائة فارس من فرسانهم ، وصناديدهم وشجعانهم .

وأما رجالة الفرنج فكانوا قد جاءوا على الجسر المصون على بح
أشمون ، ليعدّوا منه ، ولو تراخى الأمر ، وعدّت الرجالة (٣٦٦ ب)
إلى المسلمين ، وتكاملوا فيه ، لاعضلّ الداء ، فإن الرجالة كانوا جمعاً عظيماً ،
وكانوا تحموا فرسانهم . ولولا ضيق مجال القتال ، فإن الحرب كان بين
الأزقة والدروب ، لكانوا استأصلوا^(٢) الفرنج عن آخرهم . لكن سلم
الباقون منهم ، ومضوا إلى جديلة ، واجتمعوا بها . ودخل الليل ، ففرق

(١) كذا في الأصل ، وهو خطأ مشهور ، والصحيح أن أخا الملك لويس التاسع ،
واسمه روبرت كونت أرتوا ، هو الذى دخل مدينة المنصورة محارباً ، على رأس فئات الطليعة
من الجيش الصليبي ، وهو الذى لقي حتفه في معركة المنصورة . على أن الملك لويس التاسع جاء
إلى مدينة المنصورة أسيراً ، على رأس أفواج من الأسرى الصليبيين .

(٢) في الأصل " استوصلوا " .

بينهم [وبين المسلمين] . وضربوا على جديلة سوراً ، وخذقوا خندقاً عليهم . وأقامت طائفة منهم في البرّ الشرقى ، ومعظمهم في طرف الخزيرة المتصلة بدمياط ، و [صار] على الطائفتين الخندق والسور .

وكانت هذه الواقعة أول النصر ومفتاح الظفر . ووردت البطاقة إلى القاهرة ، فأحضرت إلى حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] ، بعد الظهر من يوم الواقعة ، ومضمونها أنه سرح الطائر ، وقد هجم العدو المنصورة ، والحرب قائمة ، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد ؛ وليس في البطاقة غير ما هذا معناه . فانزعجنا ، وانزعج المسلمون كافة ، وغاب على الظنون بوار الإسلام .

وورد المهزمون من المسلمين آخر النهار ، وبقي باب النصر مفتوحاً طول ليلته ، وهى ليلة الأربعاء ، والجند والعامة والكتاب والمتصرفون يدخلون منه منهزمين ، ولا علم لهم بما تجدّد بعد دخول الفرنج المنصورة . وممن دخل تلك الليلة ، وجاء إلى الأمير حسام الدين ، القاضي تاج الدين المعروف بابن بنت الأعز ، وكان متولّى النظر بديوان الصعبة .

وبقيت القلوب منزعجة ، إلى أن طلعت الشمس من يوم الأربعاء ، فوردت البشرى بالنصر . وزينّ البلد ، وضربت البشائر ، وعظم السرور والفرح ، بالانتصار على الفرنج ؛ وكانت هذه أول واقعة انتصر فيها أسود الترك على كلاب الشرك . ووردت البشرى على الملك المعظم [تورانشاه] بذلك ، وهو في الطريق ؛ فجذّ في السير إلى الديار المصرية .

ذكر وصول الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى المعسكر بالمنصورة

قال ، ولما تواترت الأخبار بقرب [وصول] الملك المعظم [تورانشاه] إلى الديار المصرية ؛ قال صاحب التاريخ ؛ خرج الأمير حسام الدين

[محمد بن أبي علي الهذلي] نائب السلطنة إلى لقائه ؛ وخرجت أنا في صحبته ؛ (١٣٦٧) فالتقيناه بالصالحية يوم السبت ، لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة . وكان قاضي القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن [السنجاري] قد التقاه من غزوة ؛ فوصل في صحبته . ونزل الملك المعظم [تورانشاه] بالصالحية بقصر والده ؛ ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح نجم الدين أيوب ؛ وكان قبل [ذلك] ما يقدر واحد ينطق بموته ؛ وكانت الخطبة مستمرة للملك الصالح إلى ذلك الوقت .

ونخلع الملك المعظم [تورانشاه] بالصالحية على الأمير حسام الدين خلعة سنية تامة ، ومنطقة وسيفاً محليّ بالذهب والجوهر ، وسير إليه فرساً^(١) من أجود الخيل بخلعة مذهبة ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ؛ فلبس [الأمير حسام الدين] الخلعة ، وقبل حافر الفرس ، وركبه .

ورحل الملك المعظم [تورانشاه] من الصالحية ، متوجهاً إلى المنصورة ، فنزل بالمنزلة المعروفة بمنزلة حاتم . وحضرت يومئذ في خدمته بعد صلاة العصر ، وجرت بيني وبينه مباحثة في أنواع شتى من العلوم والآداب . من ذلك أني أوردت أن ابن نباتة الخطيب [قال] ، وأخذ بعض الناس في قوله : الحمد لله الذي إذا وعد وفا ، وإذا أوعد تجاوز وعفا ، فإن تجاوز الباري تعالى بعد الإخبار عنه ، أنه يعاقب المتجاوز عنه ، يلزم منه الخلف في الخبر ، وهو على الله تعالى محال ، وإنما يصح مثل هذا في حق الآدميين ، إذ يجوز في أخبارهم ، كقول القائل :

ولاني وإن أوعده أو وعدته لمنجز إيعادي ومخلف موعدي

ولأنما يعفو الله تعالى عن^(٢) لم يخبر أنه يعاقبه ، وأما من أخبر أنه يعاقبه ،

(١) في الأصل " فرس " .

(٢) في الأصل " من " .

فلا بدّ وأن يعاقبه ، واللّا^(١) نام أن يخبره مطالعاً للمخبر عنه ، وهذا محال ؛ وانجرّ البحث في هذا إلى أشياء كثيرة^(٢) .

وانتقل البحث إلى مسائل أدبية ، وبحث [المعظم تورانشاه] في ترجيح أبي تمام على المتنبي ، وغير ذلك من الفنون . وكانت عبارته رحمه الله غزيرة ، وعنده استحضار لمسائل كثيرة من العلوم ؛ ولم نزل ذلك الوقت نتجاري في العلوم إلى أن كادت الشمس تغرب .

ثم رحل [المعظم تورانشاه] من الغد من تلك المنزلة إلى تلبانة ، ثم رحل منها مرحلة قريبة من المنصورة ، ثم وصل [إلى] المنصورة ، (٣٦٧ب) يوم الخميس ، لتسع بقين من ذى القعدة .

وتلقته الأمراء والبحرية ممالك أبيه ، وفرحوا به ، فلو أحسن إليهم وسلك معهم ما كان أبوه يسلكه من البرّ بهم ، لنصروه وشدّوا أزره ، وعاضدوه . ولكنه اطّرحهم وجفاهم ، وقدّم عليهم من لا يصلح للتقدّم . ففسدت أحواله ، كما فسدت أحوال عمه الملك العادل ، بعد أبيه الملك الكامل .

ولما استقرّ [المعظم تورانشاه] بقصره بالمنصورة ، ركب بالعساكر إلى قبالة الفرنج ، وبابهم^(٣) للقتال ، وحاصروهم في منزلهم التي نزلوها . وكان [المعظم تورانشاه] يمدّ السباط كلّ يوم ، ويحضر سباطه الأمراء والأكابر والمعمّون .

وقدّم إلى المنصورة جماعة من العلماء ، منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه بهاء الدين بن الحميرى ، وفخر الدين بن عماد الدين بن السكرى ، والشريف عماد الدين السلماني ، والشيخ سراج الدين

(١) كذا في الأصل .

(٢) أودّ هنا أن أشكر لزميلي وصديق القديم الدكتور أبو العلا عفيف ، معونته العلمية على تقويم هذا النص الكلاسي ، وما يليه من النصوص الفقهية والأدبية ، بهذا الملحق .

(٣) كذا في الأصل .

الأرموى ، والقاضى عماد الدين بن القطب ، وكان الملك الصالح قد ولاه قضاء مصر وما معها من الوجه القبلى ، وهو الذى ذكرنا أنه كان قاضى حماة ، ثم عزل منها . وكان الملك المنصور صاحب حمص أرسله إلى الملك الصالح ، فمنعه الملك الصالح من الرجوع اليه ، وقد ذكرنا ذلك . وتوفى القاضى أفضل الدين الخونجى^(١) فى سنة ست وأربعين وستائة ، والسلطان [الصالح أيوب] بالشام ، فلما رجع من الشام ولّى^(٢) [عماد الدين بن القطب] الحكم بمصر وما معها من البلاد . وكان الملك المعظم [تورانشاه] يجتمع بهؤلاء الفقهاء ، ويباحثهم ، ويجرى بين يديه فوائد كثيرة .

وحضرتُ عنده بالمنصورة ، وهو يسأل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : ” نِعِمَّ الْعَبْدُ صُهِيبٌ ، لَوْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ لَمْ يَعَصِهِ “ . والقاعدة أن^(٣) لو للمثبت بعد ما يكون منفيًا ، والمنفى مثبتًا ، ويلزم أن يكون المعنى أنه خاف الله وعصاه . وليس هذا مراد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وإنما المعنى أنه لا يعصى الله تبارك وتعالى على تقدير عدم الخوف ، فمن طريق الأولى أنه لا يعصيه فى حال الخوف .

ومال [المعظم تورانشاه] إلى ميلًا كثيرًا ، ولم أزل أُلَازِمُهُ إلى أن دخلتُ القاهرة ، لما دخلها [الأمير] حسام الدين [محمد بن أبى على الهذباني] ، وكنتُ على عزم العود اليه ، وجرى ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وقوع أسطول المسلمين على مراكب الفرنج وضعف الفرنج

ولما استقرّ الفرنج بمنزلتهم ، كانت تأتيهم الميرة من دمياط فى نهر النيل ، فعمد المسلمون إلى مراكب شحنوها بالمقاتلة ، وحملوها على الجبال إلى بحر

(١) فى الأصل ” الخويجى “ .

(٢) فى الأصل ” ولاه “ ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين ، للتوضيح .

(٣) فى الأصل ” وقاعدة لوان “ ، والصحيح ما هنا بالمتن .

المحلة ، وألقوها فيه ، وفيه ماء من زيادة النيل واقفة ، لكنه متصل بالنيل . فلما جاوزت مراكب الفرنج وهي مقلعة من دمياط في بحر المحلة ، وتلك المراكب التي ^(١) للمسلمين مكنة ، خرجت عليها تلك المكنة في بحر المحلة ، ووقع القتال بين الفريقين . وجاءت أساطيل المسلمين من ناحية المنصورة منحدره إليهم ، والتقى الأسطول والمراكب التي كانت مكنة ، فأحاطوا بالفرنج ، فأخذوهم ومراكبهم أخذاً باليد . وكانت عدة المراكب المأخوذة للفرنج اثنين وخمسين مركباً ، وأسيرَ مَنْ كان فيها ، [وهم] نحو ألف رجل ، وأخذ جميع ما فيها من الميرة . ثم نُحِلَّت الأسرى على الجمال ، وقُدِّمَ بهم إلى المعسكر .

وانقطعت الميرة بسبب ذلك عن الفرنج ، ووهنوا وهناً عظيماً . واشتدَّ عندهم الغلاء ، وبقوا محبوسين لا يستطيعون المقام ولا الذهاب ، واستظهر عليهم المسلمون ^(٢) ، وطمعوا فيهم .

وفي مستهل ذي الحجة ، أخذ الفرنج من مراكب المسلمين التي في بحر المحلة سبع حراريق ، وهرب من فيها من المسلمين . .

وفي ثاني ذي الحجة ، تقدَّم الملك المعظم [تورانشاه] إلى الأمير حسام الدين [محمد بن أبي علي الهذباني] ، في ^(٣) الدخول إلى القاهرة ، وفي المقام بدار الوزارة ، ليجرى على عادته في نيابة السلطنة .

قال صاحب التاريخ القاضي جمال الدين بن واصل ، وخلع المعظم [تورانشاه] على وعلى جماعة من الفقهاء الذين وردوا إلى خدمته ، ووصل إحسان الملك المعظم إلى كل من قصد بابه . قال ودخلت القاهرة مع الأمير حسام الدين .

(١) في الأصل " الذى " .

(٢) في الأصل " المسلمين " .

(٣) كذا في الأصل .

(٣٦٨ ب) وفي يوم الاثنين ، لتسع بقين من ذى الحجة ، وهو يوم عرفة ، خرجت شوانى المسلمين على مراكب وصلت للفرنج على^(١) الميرة ، فالتقوا عند مسجد النصر^(٢) . وأخذت شوانى المسلمين من مراكب الفرنج اثنين وثلاثين مركباً ، منها سبعُ شوان^(٣) . فازداد عند ذلك ضعف الفرنج ووهنهم ، وقوى الغلاء عندهم .

وعند ذلك شرع الفرنج فى مراسلة المسلمين وطلب المهادنة منهم ، ووصلت رسلهم [لذلك إلى المعسكر] . فاجتمع بهم الأمير زين الدين أمير جندار ، وقاضى القضاة بدر الدين [يوسف بن الحسن السنجارى] . فرغب الفرنج على أن يسلّموا دمياط للمسلمين ، على أن يأخذوا بذلك بيت المقدس وبعض الساحل ؛ فلم تقع الإجابة إلى ذلك .

وفى يوم الجمعة ، لثلاث بقين من ذى الحجة ، أحرق^(٤) الفرنج أخشابهم كلها ، وأبقوا مراكبهم ، وعزموا على الهروب إلى دمياط ؛ وخرجت هذه السنة وهم مقيمون بمنزلتهم ، فى مقابلة المسلمين .

ذكر ما تجدد فى هذه السنة بالشرق

كانت نصيبين قد صارت مشتركة بين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والملك السعيد صاحب ماردين ، ولكل واحدٍ منهما وال [فيها] . فوقع

(١) كذا فى الأصل .

(٢) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يعثر على موضع هذا المكان ، بالمراجع الأخرى المتداولة بهذه الحواشى ، أو بالخرائط والمعاجم الجغرافية المختلفة ، كما أنه لم يستطع أن يهتدى إلى أى أثر لهذا الموضع ، وربما يكون هو موضع البدالة الحالية . على أنه يوجد فى (Joinville : Op. Cit. p. 161) إشارة لتحديد تقريبي لهذا الموضع ، إذ قال إنه على مسافة سبعة أميال شمال المنصورة .

(٣) فى الأصل " شوانى " .

(٤) فى الأصل " شرعت " .

(٥) فى الأصل " احترقت " .

بين الولاة تنازع ، وكثر بينهما الحال والقييل ، فأدّى ذلك إلى خروج بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين ، فاستولى عليها .

ثم سار [بدر الدين] إلى دنيسر ، وهي [كذلك] للملك السعيد صاحب ماردین ، فنهبا . ثم سار إلى رأس عين ، وبها عسكرٌ لصاحب ماردین ، [وألثك] كانوا قد توجهوا لإنجاد السلطان الملك الناصر صاحب حلب ، على عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، لما كان نازلاً^(١) على مدينة حمص . فلما وقع الصلح عادوا ، فوقع عليهم بدر الدين ، فنهبهم ، وأخذ خيولهم ، وقبض على مسومرهم^(٢) . ثم رجع [بدر الدين] إلى دنيسر ، فنقل ما كان فيها من الغلال إلى نصيبين ، وخرّب دنيسر ، حتى لم يبق فيها قائماً سوى الجامع ، على ما قيل . فبعث صاحب ماردین إلى الملك الناصر صاحب حلب مستغيثاً به ، فجهز الملك الناصر رحمه الله عسكراً من حلب ، وقدم عليهم عم أبيه . الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين ، فساروا إلى ماردین ، فزلوا بحرزم^(٣) . ونزل إليهم الملك السعيد صاحب ماردین ، وتأهبوا للقاء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وكان نازلاً بنصيبين ، وقد عمر قلعتها في مدة قريبة ؛ وهو مهتمٌ بجمع العساكر والجند .

فبينما هو كذلك إذ ورد رسول الخليفة المستعصم بالله ، ليصلح بينهم ، وطلب من بدر الدين تسليم دارا إلى صاحب ماردین ، فأجاب [بدر الدين] إلى ذلك ؛ ولم يبق إلا انتظام الصلح .

(١) في الأصل " نازل " .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) في الأصل " محروم " ، بغير نقط . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ،

ص ٢٢٩) ، حيث ورد أن حرزم بليدة بين ماردین ودنيسر .

ثم إن بدر الدين لؤلؤ رجع عن ذلك ، فوقع بين الفريقين مصاف^(١) ظاهر نصيبين ، فوقعت الكسرة على بدر الدين لؤلؤ ، وهزمه الحليون والملك السعيد هزيمة قبيحة ، واستولوا على خيامه وسرادقه وخزائنه . ونزلت العساكر على نصيبين ، ففتحوا قلعتها بالأمان ، ورتبوا فيها الولاة . ثم ساروا إلى دارا ، ونصبوا عليها المجانيق ، وحاصروها ثلاثة أشهر ، ثم ملكوها وأخربوها . ثم توجهت فرقة من عسكر حلب إلى قرقيسيا ، فملكوها . ثم عاد العسكر الحلي إلى حلب ، وصاحب ماردين إلى بلده .

ودخلت سنة ثمان وأربعين وستائة ، والحال على ما ذكرناه ، من ضيق الحال على الفرنج ، وعزيمتهم على الهرب إلى دمياط .

ذكر هزيمة الفرنج واستئصالهم قتلاً وأسراً والقبض على ملكهم ريدافرنس

لما جرى ما ذكرناه ، وعيل صبر الفرنج من الضيق ، وقلت^(٢) الذخائر عندهم ، وعُدم القوت ، لم يبق لهم لفرط الجوع وانقطاع المادة صبر على المقام ، فأحرقوا كما ذكرنا أخشابهم ، وأبقوا مراكبهم ، وتأهبوا للهرب . ولما كانت ليلة الأربعاء ، لثلاث مضي من المحرم ، من سنة ثمان وأربعين وستائة ، وهي الليلة الغراء المسفرة عن النصر الأعظم والفتح الأكبر ، (٣٦٩ ب) رحل الفرنج بفارسهم وراجلهم متوجهين إلى دمياط ، ليستعصموا بها ؛ وأخذت مراكبهم في الانحدار في البحر قبالتهم . وعلم المسلمون بذلك ، فتبعوهم ، وركبوا أعناقهم ، بعد أن عدّوا إلى برّهم ، فاتبعوهم .

(١) في الأصل " مصافا " .

(٢) في الأصل " وقلة " .

وطلع الصباح من يوم الأربعاء المذكور ، وقد أحاط بهم المسلمون ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، وأحاطوا عليهم قتلاً وأسراً ، فلم يسلم منهم أحد ؛ فذكر أن عدة القتلى بلغت ثلاثين ألفاً . وكان للمالك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية ، في هذه الواقعة ، الهمة العالية والتقدم العظيم ، فأذاقوا الفرنج البلاء ، وكان لهم الحظ الأوفى الأوفر ، [و] كانوا قاتلوا قتلاً شديداً ، وهم الذين أقدموا على اتباع^(١) الفرنج ، وهم كانوا داوية الإسلام .

قالوا ، وانحاز الملك ريدافرنس الملعون ، والأكابر من ملوك الفرنج ، إلى تل قونة^(٢) ، مستسلمين طالبيين الأمان . فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحى ، فنزلوا على أمانه ؛ واحتيط عليهم كلهم . ومضوا بالملك ريدافرنس ومن معه من ملوك الفرنج إلى المنصورة ، فضربوا في رجل الملك الكبير ريدافرنس القيد ، وكذلك جميع من معه من الملوك . واعتقل [ريدافرنس] في الدار التي كان نازلاً بها كاتب الإنشاء فخر الدين [بن] لقمان ، ووكل به الطواشي صبيح المعظمى ، وهو أحد خدّام الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو ممن قدم في صحبته من حصن كيفا ، فقدّمه وأعلى شأنه وعظمه في هذه الكرة .

وفي اعتقال ملك الفرنس^(٣) ريدافرنس في دار فخر الدين بن لقمان ، وتوكيل الطواشي صبيح به ، قال جمال الدين يحيى بن مطروح ، رحمه الله تعالى :

(١) كذا في الأصل .

(٢) كذا في الأصل ، والمعروف أن الملك لويس التاسع لجأ إلى قرية منية الخولى عبد الله ، وهي قرية صغيرة مطلة على النيل ، بين شرمساح وفارسكور الحالية . غير أن كاتب هذه السطور لم يستطع أثناء زيارته لهذه التربة الصغيرة ، أن يحدد موضع هذا التل المذكور .

(٣) كذا في الأصل .

قل لفرنسيس إذا جثته
آجرك الله على ما جرى
(١٢٧٠) فساقك الحمق إلى موضع
وكل أصحابك أوردتهم
خسون ألفاً لا يرى منهم
وفقك الله لأمثالها
إن كان بابابكم بذاً راضياً
وقل لهم أن أضمرُوا عودة
دار ابن لقمان على حالها

مقال حق عن قوول نصيح
من قتل عباد يسوع المسيح
ضاق له عن ناظر بك الفسيح
بحسن تدبيرك بطن الضريح
إلا قتيل أو أسير جريح
لعل عيسى منكمو يستريح
فرب غش قد أتى من نصيح
لأخذ ثأراً أو لقصد^(١) صحيح
والقيد باقى والطواشى صبيح

قال ولما جرى ذلك ، رحل [الملك المعظم] تورانشاه والعساكر من
المنصورة إلى جهة دمياط ، فزلوا بفارسكور ، وهى من أعمال دمياط .
وضرب بها دهليز السلطنة ، ونصب إلى جانبه برج خشب ، [و] كان الملك
المعظم [تورانشاه] يصعد إليه فى بعض الأوقات . وأقام [الملك المعظم]
متراخياً عن قصد دمياط ، ولو أسرع إلى النزول عليها والدخول إليها ،
وطلب تسليمها من الملك ريدافرانس ، وهو فى قبضته ، لحصل له ذلك فى
أقرب الأوقات . لكن أبعدته عن ذلك سوء التدبير الذى اقتضاه ، بما سبق
له من التقدير .

قال ، وفى يوم الجمعة ، لخمس مضي من المحرم ، ورد أمر الملك المعظم
ابن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على
[الهذباني] ، نائب السلطنة [بالقاهرة] ، بالقدوم عليه [فى فارسكور] ،
واستتاب الملك المعظم [تورانشاه] بدله الأمير جمال الدين أقوش
التجيبى الصالحى .

(١) فى الأصل " لمهد " . انظر المقرئى ، المواعظ والاعتبار - بولاق ، ج ١ .

ص ٢٢٠ ، وكذلك أحمد بن بدي : من النقد والأدب ، ص ٣٦ .

قال ، فرحل حسام الدين من القاهرة ، متوجهاً إلى المعسكر بفارسكور ،
 فنزل به مُطَرَّح الجانب ؛ وحسام الدين الذى كان عمدة أبيه الملك الصالح
 نجم الدين أيوب ، وعدته . واطرح [الملك المعظم تورانشاه] أيضاً أمرَ
 أمراء أبيه الكبار ، من المماليك الذى أنشأهم الملك الصالح ؛ وكان [الملك
 الصالح] يعتمد عليهم فى جميع الأمور ، وكانوا معظم العسكر ، وهم البحرية
 الذين كسروا الفرنج ، وأبلوا بلاءً عظيماً . واطرح [الملك المعظم]
 الأمراء من الأكابر^(١) ، وغيرهم ؛ وكان بالمعسكر من الأمراء الأكراد جماعة ،
 منهم الأمير فخر الدين بن أبى ذكرى ، والأمير سيف الدين القيصرى ،
 والأمير عز الدين القيصرى - ، ولم يكن [هذا الأمير] من القيصرية
 بأنفسهم ، وإنما كان من أتباعهم ، فنسب إليهم - ، والأمير فخر الدين
 حسين ، والأمير مجير الدين بن خشرين ، وغيرهم . وكان فيه من
 غير الأكراد الأمير زين الدين أمير جندار ، والأمير شهاب الدين بن
 سعد الدين بن كهسا^(٢) ، وهؤلاء جماعة كبيرة .

فاطرح السلطان الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح [نجم الدين
 أيوب] هؤلاء الجميع ، وجفاهم ، وقدم أقواماً لا خلاق لهم ، جاءوا
 معه من الحصن ، منهم رجل يقال له الطورى . وقدم [الملك المعظم]
 الطواشى صبيح ، وجعل إليه أموره كلها ؛ واعتمد على وزيره ابن حشيش
 الذى أسلم على يديه ، ولقبه معين الدين ، ليفوض إليه ما كان مفوضاً إلى
 معين الدين بن شيخ الشيوخ ، وبقية مقامه .

وعزم [الملك المعظم تورانشاه] على عزل قاضى القضاة بدر الدين
 [يوسف بن الحسن السنجارى] ، وكان والده الملك الصالح نجم الدين
 أيوب يرجع إليه فى رأى والمشورة . وأراد [الملك المعظم] أن يولى عوضه

(١) كذا فى الأصل ، وامل المقصود " الأكراد " .

(٢) كذا فى الأصل .

قاضي حصن كيفا ، وكان قد ورد معه ؛ فنقرت بهذه الأفعال قلوب أكثر أهل المعسكر .

واطرح [الملك المعظم] المماليك البحرية الذين هم كانوا سيوف أبيه الملك الصالح ، وبهم كان يصول ، وبهيتهم يحول ، وكانوا بطانته ، والنازلين حول دهليزه ؛ وفارس الدين أقطايا الذي هو مقدم البحرية ، هو الذي كان توجه إليه إلى حصن كيفا ، وقاسى الشدائد والمشاق حتى وصل إليه ، ثم عاد به إلى الديار المصرية ؛ فلم ير^(١) فارس الدين أقطايا منه - لما ملك الديار (٣٧١) المصرية - ما كان يؤمله .

قال ، وعزم الملك المعظم - على ما ذكر - على إرسال فارس الدين أقطايا بالبشرى بالفتح إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وذكر أنه أراد من بدر الدين أن يقبض عليه ، ويقتله في بعض القلاع .

وكذلك قيل إنه عزم على أن يسير جماعة من^(٢) [المماليك البحرية] إلى جماعة من الملوك في هذا المعنى ، ففطنت المماليك والأمراء بذلك ، وعلموا أن مقصوده يفعل معهم ما كان أبوه الملك الصالح سلكه في الأشرفية ، نوبة الملك العادل [بن الملك الكامل] . فقتل أكثرهم وبدد شملهم . فاستوحش^(٣) البحرية وغيرهم منه . وإنما فعل أبوه الملك الصالح ما فعل ، وهو في قلعة دمشق محبوس^(٤) فيها ، والملك المعظم [تورانشاه] كان في الخيم بينهم .

ذكر مقتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه
ابن الملك الصالح [نجم الدين أيوب]
رحمه الله تعالى

قال ، ولما جرى ما ذكرنا من تغير قلوب العسكر منه ، خصوصاً ممالك أبيه البحرية ، اتفق جماعة من ممالك أبيه على قتله .

(١) في الأصل " يرى " .

(٢) في الأصل " منهم " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للتوضيح .

(٣) في الأصل " فاستوحشوا " .

(٤) في الأصل " مجبور " .

فلما كانت (١) بكرة الاثنين ، ليلة بقيت من المحرم من هذه السنة ،
 أعنى سنة ثمان وأربعين وستائة ، مدّ الملك المعظم [تورانشاه] السماط في
 دهليزه ، وجلس على طرّاحته ، وأكل الناس بين يديه ، وأكل معهم على
 ما جرت عادته . ثم فرغت الناس من الأكل ، وتفرقت الأهراء إلى وطاقتهم .
 وقام [الملك المعظم] من مجلسه ، وطلب الدخول إلى خيمة له صغيرة :
 فدخل عليه ركن الدين بيبرس ، وكان أحد جمدارية أبيه ، وكان يعرف
 بالبندقدارى ، وهو الذى ملك مصر بعد ذلك ، ولُقّب الملك الظاهر ، وهو
 الذى كسر التتر مع الملك المظفر قطز ، على عين جالوت ، وتبعهم إلى فامية (٢) ،
 ورجع . ولما ملك [بيبرس البندقدارى] فتح أكثر بلاد الإفرنج ، مثل صفد
 والشقيف وأنطاكية ، وغيرها (٣) من البلاد . وفتح بلاد الإسماعيلية ،
 وكسر التتر مراراً . فضرب [بيبرس البندقدارى] الملك المعظم [تورانشاه]
 بسيف ، فجرحه فى (٣٧١ ب) كتفه ؛ ورمى ركن الدين السيف من يده .

ورجع الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح إلى مجلسه ، واجتمع
 حوله الناس وأصحابه ، وبعض مماليك أبيه ، فقالوا له : ” أى شىء جرى ؟ “
 فقال : ” جرحنى أحد البحرية “ . وكان ركن الدين بيبرس البندقدارى
 واقفاً ، فقال : ” ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية “ . فقال [الملك المعظم
 تورانشاه] : ” ما فعل بى هذا إلا البحرية “ . فخافت البحرية حينئذ ،
 واستشعروا منه .

ثم قام [الملك المعظم] ، وصعد إلى البرج ، وأحضر الجراثنى ليداوى
 يده . فاجتمع مماليك أبيه ، وخافوا لما سمعوه ينسبهم إلى أنهم قتلوا قتله ،
 وانضمّ هذا إلى ما كان فى نفوسهم من اطراحه لهم ، واحتاطوا بالبرج ،

(١) فى الأصل ” كان “ .

(٢) فى الأصل ” فامه “ ، بغير نقط البتة .

(٣) فى الأصل ” وغيرهم “ .

ففتح [الملك المعظم] طاقاته ، واستغاث بالناس ، فلم يجبه أحد ، ولا أغاثه^(١) أحد . ولم يأت^(٢) إليه أحد من الأمراء المصرية ، لأن الجميع كانت قلوبهم نافرة منه . واحضرت نار ليُحرق بها البرج ، فنزل [الملك المعظم] من البرج . فحمل عليه [بيبرس] البندقدارى الذى كان جرحه ، فهرب [الملك المعظم] إلى جهة البحر ، فكانت فيه حراريق له ، فأراد أن يسبق إليها ويعتصم بها ، فأدركه فارس الدين أقطايا ، وضربه بالسيف ، فقتله ، رحمة الله عليه .

وكان [الملك المعظم تورانشاه] شاباً ما أظنه كان استكمل ثلاثين سنة ، ولم أحط علماً بتاريخ مولده ، وكانت^(٣) مدة ملكه لمصر شهرين وأياماً .

ذكر سيرته رحمه الله تعالى

كان [الملك المعظم تورانشاه] ، كما تقدم القول ، عنده مشاركة جيدة فى العلم وفضيلة ، إلا أنه كان فيه هوج واضطراب ، وعدم تأنٍّ فى الأمور . فلم تحسن سيرته فى ممالك أبيه وأمراء دولته ، لأنه قدم عليهم الأطراف والأرذال ، فجنى ذلك عليه ، كما جنى على عمه الملك العادل [بن الملك الكامل] .

ولما ورد كتابه على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذباني] ، يستدعيه من القاهرة ، وكان قد ولاه نيابة السلطنة^(٤) بها ، على ما كان الأمر عليه فى أيام (١٣٧٢) الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رحمه الله تعالى ، فلم يمهل الملك المعظم إلا شهراً واحداً . فقال لى حسام الدين عنه ذلك ، إنه بلغنى سيرة هذا الرجل ، يعنى الملك المعظم ، وما يعتمد من اطراحه

(١) فى الأصل " غاثه " .

(٢) فى الأصل " يأتى " .

(٣) فى الأصل " كان " .

(٤) فى الأصل " وكان قد ولاه النيابة بها فى الملك " .

للأكابر من الأمراء ، وما سلكه مع ممالك أبيه من سوء سيرته ، وإني أظن أنه يجرى له تقريباً نظير ما جرى لعمته الملك العادل بن الملك الكامل ؛ فكان والله كما قال حسام الدين ، فلم تمضِ إلا أيام يسيرة ، وجرى الأمر ، كما قال .

ولما توجه الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] إلى عند الملك المعظم [بفارسكور] ، عزمْتُ أنا ، بعد أيام ، على اتوجه إلى المعسكر [بفارسكور] . وأخذتُ معي للملك المعظم بن الملك الصالح هدية ، وثلاثة^(١) كتب قد ألّفَها : كتابان^(٢) منها في التاريخ ، وكتاب قد جمعته لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولم تتفق تقدمته له . قال صاحب التاريخ ، وكتاب قد ألّفته في تلك الأيام التي أقمت فيها بالقاهرة ، بعد دخولي مع حسام الدين ، في علم الهيئة^(٣) . فتوجهت من القاهرة نحو المعسكر ، وكان غرضي في ذلك حضوري فتح دمياط . ومشاهدة دخول المسلمين إليها . وكان سفري من القاهرة في يوم الاثنين ، ليلتين بقيتا من المحرم ، قبل قتل الملك المعظم بيوم واحد . فبتُ بقلبيوب . ثم رحلتُ منها إلى مرصفا ، وهي ضيعة من الضياع الجارية في حيز حسام الدين محمد ابن أبي علي [الهذباني] ، فبتُ بها ليلة الثلاثاء ، وسريتُ منها لطلب جهة المعسكر . فجاءني الخبر بقتل الملك المعظم ، فرجعتُ من وقتي ذلك إلى القاهرة .

(١) في الأصل " ثلاث " .

(٢) في الأصل " كتابين " .

(٣) في الأصل " الهه " ، بغير نقط البتة .

ذكر الاتفاق على تمليك الستر العالى والددة خليل شجر الدر ، وعز الدين التركمانى [يكون أتابك العسكر]

ولما جرى ما جرى من قتل الملك المعظم [تورانشاه] ، اجتمعت الأمراء والبحرية عند الدهليز السلطانى ، واتفقت كلمتهم على أن تكون شجر الدر والددة خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، هى القائمة (٣٧٢ ب) بأمر السلطنة والملك ، وأن التواقيع السلطانية تخرج بأمرها واسمها ، وعليها علامتها .

وكانوا^(١) عرضوا^(٢) التقدمة على حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، وقالوا له : ” أنت كان الملك الصالح نجم الدين يعتمد عليك ، فأنت أحق بهذا الأمر . فامتنع [حسام الدين] ، وأشار بأن يكون الطواشى شهاب الدين رشيد الكبير هو القائم بهذا الأمر ، فعرضوا ذلك عليه فامتنع ؛ فوقع الاتفاق على الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى ، وحلف الجماعة كلهم على ذلك .

وورد إلى القاهرة الأمير عز الدين أيبك [التركمانى] الصالحى ، وصعد إلى القلعة ، وأنهى ذلك إلى [شجر الدر] والددة خليل بن الملك الصالح نجم الدين أيوب . فصارت الأمور كلها معدوقة بها ، وصارت تبرز من جهتها علامة ما صورته : ” والددة خليل “ ؛ وخطب لها بالسلطنة بالقاهرة ومصر ، وسائر الديار المصرية .

وذلك الأمر لا يُعرف أنه جرى مثله فى بلاد من البلاد فى أيام الإسلام ، وأما الحكم والتصرف فقد جرى مثله ، فإن ضيفة^(٣) خاتون بنت السلطان

(١) فى الأصل ” وكان “ .

(٢) فى الأصل ” عرضوا هذه التقدمة “ ، وضمير الإشارة لا محل له هنا ؛ والمقصود بلفظ التقدمة وظيفة مقدم المسكر ، أى الأتابكية . انظر ما يلى ، ص ٣١٣ .

(٣) فى الأصل ” صفيه “ .

الملك العادل نظرت في أمر الملك بحلب وبلادها ، بعد موت ولدها الملك العزيز ، [وظلّ الحال على ذلك بحلب] إلى أن توفيت ؛ لكن الخطبة بالسلطنة كانت لابن ابنها الملك الناصر ، رحمه الله تعالى .

قال ، ولما قُتل الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح ، بقي مطروحاً على ساحل البحر ، لا يجسر أحد يتقدّم إليه . فعُدّي بعض الملاحين من الجانب الغربي ، ودفنه في برّ الغرب (١) .

ذكر فتح دمياط

ولما حلف الأمراء والأجناد ، واستقرّت القاعدة على ما ذكرناه ، وقع الحديث مع ملك الفرنج ريدافرنس ، على تسليم دمياط للمسلمين ؛ وجُعِل (١٣٧٣) المتحدّث في ذلك حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] ، لاتفاق الجماعة على الاقتداء برأيه ومشورته ، لما يعلمون من عقله ومعرفته ، واعتماد ملكهم الملك الصالح نجم الدين أيوب عليه . فجرت بينه وبين ريدافرنس الملك محاورات ومراجعات ، حتى وقع الاتفاق على (٢) تسليم دمياط ، وأن يذهب [ريدافرنس] بنفسه [عن الديار المصرية] سالماً .

قال القاضي جمال الدين بن واصل ، صاحب هذا التاريخ : حكى لي الأمير حسام الدين قال : ” كان ريدافرنس ملك الإفرنج عاقلاً فطناً إلى الغاية ، قلتُ له في بعض محاورتي ما معناه ، كيف خطر للملك ، مع ما أرى فيه من فضله وعقله ، وصحة ذهنه ، أن يتقدّم على خشب ، ويركب متن هذا البحر ، ويأتى إلى هذه البلاد المملوءة خلقاً من المسلمين والعساكر ، ويعتقد أنها تحصل له ويملكها ، وفيما فعّل غاية التغرير بنفسه ، وبأهل

(١) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يجد أثراً لهذا القبر ، بين النخيل والمزارع الممتدة على طول الشاطئ الغربي للنيل ، قبالة فارسكور الحالية .

(٢) في الأصل ” في ” .

مملكته ؟ قال [حسام الدين] ، فضحك [ريدافرنس] ، ولم يُردّ جواباً ، فقلت له : ” إنَّ من شريعتنا مَنْ ركب هذا البحر مرّة بعد أخرى مغرّراً (١) بنفسه وماله ، لا تقبل شهادته إذا شهد “ . فقال الملك : ولم ذلك ؟ . قال ، فقلت : ” إنا نستدلّ بذلك على نقصان عقله ، ومن كان ناقص العقل لا ينبغي قبول شهادته . قال فضحك [ريدافرنس] ، وقال : ” والله لقد صدق هذا القائل ، وما قصرَ فيما حكم به “ .

قال صاحب التاريخ ، وهذا الذى ذكره حسام الدين هو قول منقول عن بعض العلماء ، لكنه ليس بقوى ، لأنّ الغالب فى ركوب البحر السلامة . وأما هاهنا وجهان ، إذا لم يكن للإنسان وصول إلى مكة إلا بركوب البحر ، هل يجب عليه الحج ؟ . فأحد الوجهين لا يجب ، لما فى ركوب البحر من الخطر ، والتغريير بالنفس ، والثانى يجب لأنّ الغالب إنما هو السلامة .

ولما وقع الاتفاق بين ريدافرنس والمسلمين على تسليم دمياط ، أرسل (٣٧٣ ب) ريدافرنس إلى مَنْ بمدينة دمياط يأمرهم بتسليم البلد إلى المسلمين ؛ فأجابوا إلى ذلك ، بعد امتناع ومراجعات بينه وبينهم ؛ وسلموا دمياط إلى المسلمين .

ودخل العلم السلطاني [مدينة دمياط] ، فى يوم الجمعة لثلاث مضيّن من صفر ، من هذه السنة ، أعنى سنة ثمانٍ وأربعين وستمئة . ورُفِع العلم السلطاني على سورها ، وأُعلن فيها بكلمة الإسلام . وأُفرج عن ريدافرانس ، وانتقل هو ومَنْ بقى من أصحابه إلى البرّ الغربى . ثم ركب [ريدافرانس] البحر غدٍ هذا اليوم ، وهه يوم السبت ، هو ومَنْ معه ، وأقلعوا إلى عكا . وأقام [ريدافرنس] بالساحل مدّة ، ثم رجع إلى بلاده ، وطهر الله الديار المصرية منهم .

(١) فى الأصل ” مفر “ .

وكانت هذه النصره أعظم من الأولى ، بأضعاف مضاعفة ، لكثرة من قُتل منهم وأسْرُ ، وامتلاّت^(١) الحبوس بالقاهرة من الفرنج . ووردت البشرى بذلك إلى سائر الأقطار ، وأُعلن فيها بالفرح والسرور .

ولما رحل ريدافرنس ، رحلت العساكر [المنصورة] متوجهة إلى القاهرة ، فدخلوها وقد ضُربت البشائر بها أياماً متوالية ، لنصرة المسلمين على الفرنج ، واسترجاع ثغر دميّاط ، وهى عقيلة الإسلام ، وثغر الديار المصرية . وكانت هذه [المرّة] ثانية [مرّة] لأخذ الكفار لما ، واسترجاعها منهم ، وانصرفهم مكسورين مفلولين .

وكان دخول العساكر المنصورة إلى القاهرة يوم الخميس ، لتسع مضيّن من شهر صفر .

وتوجّه إلى دمشق الخطيب أصيل الدين . لاستحلاف نائب السلطنة بها ، [وهو] الأمير جمال الدين بن يغمور والأمراء^(٢) الذين معه بها . وكان بها جماعة من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وجماعة أمراء من غيرهم ، منهم ناصر الدين القيمرى ، وضياء الدين القيمرى ؛ وكان سيف الدين القيمرى بالديار المصرية .

ولما قدم أصيل الدين دمشق ، وطلّـبَ (١٤٧٤) اليمنى لوالدة خليل شجر الدرّ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولمعزّ الدين أيبك التركمانى بالأتابكية وتقدمه العساكر ، وطلّـبَ إقامة الخطبة لوالدة خليل شجر الدرّ ، فغلطه جمال الدين بن يغمور ولم يجبه^(٣) إلى ذلك . ونفذت المكاتبات من القيمرية وغيرهم إلى السلطان الملك الناصر بن الملك العزيز صاحب حلب ، يستدعونه للقدوم عليهم ، ليسلموا له دمشق .

(١) فى الأصل " وامتلت " .

(٢) فى الأصل " وللامرا " .

(٣) فى الأصل " يجيه " .

وفي يوم الاثنين ، لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر ، خُلِعَ على الأمراء
بالقاهرة ، وأعطوا الثقة .

قال ، وورد الخبر في هذا التاريخ أن الملك السعيد بن الملك العزيز
بن الملك العادل قد أخذ ما في مدينة غزة من المال ، وهرب . وكان الملك
السعيد قد أعطى قبل هذا قلعته المعروفة بالصبيية ، لابن عمه السلطان الملك
الصالح نجم الدين أيوب . وكانت قلعة الصبيية قبل ذلك في يده ، من حين
مات أخوه الملك الظاهر بن الملك العزيز ، كما قدّمنا ذكره . ولما سلم [الملك
السعيد قلعة] الصبيية ، بقي في خدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب
إلى هذا التاريخ ، وله خُبْرٌ في الديار المصرية . فلما قتل الملك المعظم
[تورانشاه] بن الملك الصالح بفارسكور ، هرب الملك السعيد إلى غزة ،
وفعل ما ذكرناه ؛ فاحتيط على داره بالقاهرة . ثم بعد ذلك سَلَّمَ البوّاب (١)
من جهة الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة إلى الملك السعيد ، ثم كان
من آخر أمره ما سنذكره ، إن شاء الله تعالى .

(١) في الأصل . " تسلّم البواب من وجهة الملك الصالح . . . " .

ملحق رقم ٢

أخبار معركة المنصورة ووقعة جديلة الكبرى ،
وهي مترجمة إلى اللغة العربية من كتاب جوانفيل
الذي عنوانه تاريخ القديس لويس^(١) . انظر :

(Joinville : Histoire de Saint Louis, texte original accompagné d'une traduction par Natais de Wailly, Paris, 1874).

وتعتمد الترجمة العربية هنا على هذه الطبعة الفرنسية المعتمدة في الأوساط العلمية ، وأرقام الصفحات الواردة بالمتن المترجم هي أرقام صفحات هذه الطبعة . وتوجد عدا هذه الطبعة طبعت فرنسية وإنجليزية أخرى ، وأحدثها طبعة إنجليزية مأخوذة من الطبعة الفرنسية المذكورة ، وعنوانها :

(Joinville : The History of St. Louis, Translated and Edited by Joan Evans, Oxford University Press, 1938).

(ص ١١٧) الفصل الخامس والأربعون

ولما رأى الملك لويس ذلك^(٢) استدعى جميع بارونات ، لعقد مجلس للمشورة ، وانتهى الرأي حينئذ فيما بينهم ، أنهم لن يقبلوا (ص ١١٩) على بناء قنطرة ، ليتمكن العبور عليها إلى حيث وقف المسلمون ، ما دام رجالنا

(١) هذا الجزء من كتاب تاريخ القديس لويس ، مترجم هنا بإذن خاص من الدكتور حسن حبشي ، وهو يقوم على نقل هذا الكتاب كله إلى اللغة العربية ، منذ سنين .

(٢) ضمير الإشارة عائد على ما قبله من المتن في جوانفيل ، وخلاصته استحالة تشييد قنطرة عبر بحر أشمون طناح ، ليعبر عليها الصليبيون إلى بلدة جديلة ، حيث وقف المسلمون لهم بالمرصاد ، كما هو واضح في السطور التالية .

لا يستطيعون أن يسدّوا من مجرى الماء في جانبهم ، بقدر ما استطاع عساكر المسلمين من توسيع المجرى في الجانب الآخر .

ثم قال السيد إيمير بوجيه ، كنداصطبل فرنسا ، للملك أن بدوياً جاء إليه ، وأخبره بأن في استطاعته أن يدلّتهم على مخاضة طيبة ، على شرط أن يدفعوا له خمسمائة بيزانتيّة . وقال الملك إنه يوافق على دفع هذا المبلغ ، على شرط أن يبرهن البدوى على صدق ما وعده به . وتكلم الكنداصطبل في ذلك مع البدوى ، فأجاب البدوى بأنه لن يدلّ على المخاضة إلا بعد أن يدفعوا له البيزانتيات المطلوبة . واستقر الرأي على تسليمها ، وتم فعلاً تسليمها .

ورتب الملك خطته على أن يظل دوق برجنديا ، وكبار الشخصيات المشتركة في الجيش من الصليبيين المحليين في أماكنهم ؛ لحراسة المعسكر ، حتى لا يصل إليه أحد بأذى ، وأن يعبر الملك وإخوته مجرى الماء عند المخاضة التي وعد البدوى بإرشادهم إليها ؛ واستقر الرأي على أن يكون تنفيذ هذه الخطة يوم الثلاثاء الرُّفّاع^(١) . وفي ذلك اليوم وصلنا مخاضة البدوى المذكور ؛ ففي مطلع الفجر اجتمعنا بعضنا إلى بعض ، من كل ناحية ، وعندما اكتملت صفوفنا تحركنا نحو حافة الماء ، وأعددنا خيولنا للوم في المجرى . وحينما صرنا في وسط المجرى أبصرنا أرضاً ، واستطاعت خيولنا أن تقف عليها ، كما أبصرنا على الشاطئ الآخر ثلاثمائة من المسلمين^(٢) ، وكلهم راكبون على ظهور الخيل .

عند ذلك خاطبتُ عساكرى قائلاً : ” سادتي ! انظروا إلى يساركم ، ولا تنظروا إلى يمينكم ، مهما كانت الأحوال ، حتى يستطيع كل واحد

(١) وافق هذا العيد الكاثوليكي السنوي تلك السنة يوم ٨ فبراير ، سنة ١٢٥٠ م . ويقع هذا العيد دائماً يوم الثلاثاء ، ويكون هو اليوم السابق للصيام الكاثوليكي الكبير .

(٢) يستعمل جوائفل لفظ (Sarrazins) الدلالة على المسلمين عامة ، ويقتصر لفظ (Turcs) على جند الممالك ، وكان معظمهم فعلاً من الأتراك .

منكم أن يصل إلى هناك ، لأن الشواطئ مبللة ، والخيول تسقط فوق للفرسان ، وتغرقهم في الماء “ . وكان حقيقياً أن فرساناً غرقوا أثناء العبور ، ومنهم ضمن آخرين السيد جون أورليان ، وهو الذي كانت ألوان راية رنكه مقسمة تقسيماً مدرجاً . وجعلنا صفوفنا بحيث أخذنا نتقدم في المجرى صعداً ضد التيار ، ووجدنا التقدم خالياً من أية عقبة . وعبرنا على هذه للصورة بفضل الرب ، ولم يسقط أحد منا في الماء ؛ وبعد عبورنا لم يلبث الأتراك أن ولّوا هاربين .

وكانت الأوامر التي صدرت إلينا ، أن نتقدم طائفة الفرسان الداوية في الطليعة ، وأن يكون كونت أرتوا على رأس الكتيبة الثانية ، وراء الفرسان الداوية (ص ١٢١) . غير أنه حدث بعد عبور كونت أرتوا ، أن هجم هو وكتيبته على الأتراك الذين فرّوا هاربين أمامه . فبعث إليه كبار الرسان الداوية بكلمة قالوا له فيها إنه عاملهم معاملة بخسة مهينة ، إذ المفروض أنه يزحف وراءهم لا أمامهم . ورجوه أن يدعهم يسرون أولاً ، وفقاً للترتيب الذي أقرّه الملك . لكنه حدث أن كونت أرتوا لم يستطع أن يستجيب إلى رجائهم ، خشيةً وخوفاً من السيد فوكولد لميرل ، وهو الذي كان ممسكاً بلجام فرسه ، لأن فوكولد لميرل هذا ، وهو فارس طيب قديم الخبرة بالحروب ، لم يسمع شيئاً مما قاله الداوية للكونت روبرت ، بسبب صمم في أذنيه ، بل نادى في العسكر : ” إلى الأمام ، والآن إلى الأمام “ .

ولما رأى الداوية ذلك أيقنوا أن عاراً سوف يلحق بهم ، إذا هم تركوا كونت أرتوا يسير أمامهم ، ولذا همزوا خيولهم ، وأطلقوا لها العنان ، وكلّ فارس على قدر طاقته ، وطاردوا الأتراك الذين ولّوا هاربين أمامهم ، محترقين مدينة المنصورة ، وما وراءها من الحقول ، صوب القاهرة . وعندما فكرت الداوية في العودة ، وجدوا أن الأتراك وضعوا كتلاً وألواحاً من الخشب عبر الشوارع ، وكانت شوارع ضيقة مستقيمة . وهناك لقي كونت

أرتوا حتفه ، وكذلك لورد قوصى واسمه راوول ، وكثير من الفرسان الذين بلغت عدتهم ثلاثمائة . وخسر الداوية مائتين وثمانين رجلا ، وكلهم من الخيالة ، حسبما أخبرني مقدمهم بذلك ، فيما بعد^(١) .

الفصل السادس والأربعون

واتفقتُ أنا وفرسانى ان نتحرك فى سرعة ، لنبلغت جماعة من الأتراك ، وهم واقفون بعدتهم وأسلحتهم ، فى الناحية اليسرى من معسكرهم ، وبغتناهم ، وبينما نحن نظاردهم داخل المعسكر ، وقعت عيناى على أمير مسلم يوشك أن يركب فرسه ، ولحام الفرس بيد أحد فرسانه ، وعندما وضع هذا الأمير يديه على السرج ليركب ، طعنته برمحى تحت إبطه ، وأرديته قتيلاً . ولما رأى الفارس المرافق لهذا الأمير ما حدث ، ترك سيده وفرسه ، واعترضنى بضربة سيف بين أكتافى ، وأنا ماراً عليه ، وأحنانى على رقبة فرسى ، ومال بجسمه على ، بحيث لم أستطع أن استل سيفى من غمد والمعلق فى منطقتى . ولذا اضطررت إلى استلال السيف المعلق فى قربوس السرج ، فلما رأى هذا الفارس سيفى مسلولاً سحب رمحه ، وتركنى وشأنى .

ولما خرجتُ أنا وفرسانى من معسكر المسلمين ، وجدنا ستمائة من الأتراك ، بحسب تقديرى ، وقد خرجوا من ثكناتهم ، وانتشروا فى الحقول . فلما أبصرونا اتجهوا نحونا ، وقتلوا السيد هيو تريشاتل ، وهو صاحب جهة كونفلان ، ورايته مثل رابتى . وهزمتُ أنا وفرسانى خيولنا ، وذهبنا لإنقاذ السيد راوول وانو وهو من فرقة ، وكان الأتراك أنزلوه عن فرسه ، وألقوه أرضاً .

(١) لم يذكر جوائقىل عن معركة المتصورة سوى هذه السطور العابرة ، لسببين اثنين : أولهما انه لم يشهد بنفسه شيئاً من حوادث هذه المعركة ، وثانيهما أنه تعمد ألا يقف طويلاً عند هذه الكارثة الصليبية ، مع العلم بأنه لا بدّ استمدّ كثيراً من أخبارها من رئيس الداوية سوناق ، أو من غيره من فئة المائدين القليلين من هذه المعركة الشهيرة .

وبينما أنا راجعٌ من هناك اجتمع الأتراك علىّ ، وأحاطوني برماحهم ، فوق حصاني على ركبتيه ، لثقل ما اجتمع حولي من الأتراك ، وانكفأتُ أنا على أذني حصاني ، ووقعتُ إلى الأرض ، رأساً على عقب . ثم نهضتُ واقفاً بأسرع ما استطعت ، وترسيتُ معلق من رقبتي ، وسيفي في يدي . وجاءني السيد إفيرار سيفيري (طيب الربّ ثراه) ، وكان معي ، وقال لي إنه ينبغي لنا أن نأوي إلى دار متخرّبة قريبة ، وأن ننتظر هناك حتى يصل الملك بكتية إلى الحقول . وبينما نحن ذاهبون إلى تلك الدار أبصرنا شرذمة كبيرة من الأتراك الخيالة والراجلة ، وهي قادمة للهجوم علينا ، ولم تلبث أن ألقت بي إلى الأرض ، وداستني بأقدامها ، ونزعت ترسيتُ من رقبتي .

وعند ما ذهب هؤلاء الأتراك إلى حال سبيلهم ، عاد إلى السيد إفيرار سيفيري ، وأخذ بيدي ، ومشينا سوياً حتى بلغنا حيطان الدار المتخرّبة . وهناك جاء إلينا السيد هيو إيكوه ، والسيد فردريك لوييه ، والسيد رينو منونكور . وعند ذلك هجم الأتراك علينا من كل ناحية ، ودخلتُ فئة منهم إلى الدار المتخرّبة ، ورشقنا بجرايحها من السطوح ، ثم طلب مني فرساني أن أمسك ببلجم خيولهم ، ففعلتُ ذلك حتى لا تشرذم الخيول ، وقاموا هم بالدفاع عن أنفسهم بقوة ، ضدّ هجوم الأتراك ، وحمد لهم ذلك جميع أصحاب المراتب في الجيش ، سواء ممن شهدوا ما حدث فعلاً ، أو ممن سمعوا به فحسب .

وهناك أصيب السيد هيو إيكوه ، بثلاث ضربات (ص ١٢٥) رمح في وجهه ، وكذلك السيد راوول ، والسيد فردريك لوييه ، كلّ منهما بضربة رمح بين الكتفين . وكان جرحُ السيد فردريك بالغاً عظيماً ، بحيث خرج منه الدم كأنما هو من ثقب برميل . وأصيب السيد إفيرار سيفيري بضربة سيف في وجهه ، بحيث سقطت أنفه على شفّتيه . وعند ذلك ذكرت أنا سيدي

وشفيعى القديس جيمس ، وقلتُ فى صلاتى له : ” أبها السيد الجميل القديس جيمس ! ساعدنى ، وأغثنى فى محتى هذه “ .

وبعد أن انتهيت من صلاتى ، قال لى السيد إفيرار سيفيرى : ” سيدى ! إذا أنت قلتَ إنى وأعقابى لن نكون ملومين ، لو تركتك أنا هنية على هذه الحال ، فإنى ذاهب لطلب الغوث لك من كونت آنجو ، وهأنا أراه فى الحقول “ . فقلتُ له أنا بدورى : ” إيه ! يا سيدى إفيرار ! ، يبدو لى أنك تجلب لنفسك شرفاً عظيماً ، إذا أنت ذهبتَ للبحث عن نجدة تنقذ حياتنا ، لأن حياتاك كذلك فى خطر “ ؛ ولعمرى أنى قلت صدقاً ، فإنه مات فيما بعد متأثراً من جرحه الذى أشرت إليه . وكان السيد إفيرار يسأل النصيحة من جميع فرساننا الذين كانوا هناك ، فنصحوه جميعاً بنصيحتى . فلما سمع ذلك سألتنى أن أترك لجام فرسه ، وكنت ممسكاً باللجام مع اللجم الأخرى ؛ وهكذا رضخت لأمره .

وجاء إفيرار إلى كونت آنجو ، وسأله أن يأتى لنجدتى وفرسانى . وكان مع كونت آنجو رجلٌ من كبار البارونات ، وهو يريد أن يثنيه عن ذلك . لكن كونت آنجو ردّ عليه بأنه سوف ينهض فوراً ، للقيام بما طلبه الفارس إفيرار ، وأدار فرسه ، وجاء إلى نجدتنا . وهمز كثير من جاويشيتة خيلهم ، وجاءوا معه ؛ وعند ما رآهم المسلمون تركونا . وفى طليعة أولئك الجاويشية كان السيد بطرس أوبريف ، وهو شاهرٌ سيفه ، فلما رأى أن المسلمين تركونا ، انقضّ هو من فوره على المسلمين الذين أمسكوا بالسيد رلوول وانو ، وخلصه منهم ، وعاد به مشخناً بجراحٍ كثيرة .

الفصل السابع والأربعون

وبينا أنا واقف وفرسانى على هذه الحال ، وكلتنا مشخنون بالجراح ، كما خلبتُ ، وصلى الملك على رأس كتيته كلها ، فامتلاً المكان بحركة عظيمة .

وضوضاء كبرى ، من الأبواق والطبول . ووقف الملك عند (ص ١٢٧) مكان مرتفع ، وَسَطَ الطريق الممتد بين القنوات ، وما أظننى رأيتُ فارساً مزداناً بهذا الجلال ، إذ بدا من كتفه إلى قمة رأسه فوق جميع المحيطين به ، وفوق هامته خوذة مذهب ، وفى يده سيف من بلاد الأليمانى .

وعند ما وقف الملك هناك ، هجم فرسانه الصناديد على الأتراك ، وهم فرسان كتيبته الخاصة الذين سميتهم لك أيها القارىء فيما تقدم ، واشترك معهم كثير من الفرسان الشجعان ، التابعين للكتائب الأخرى الزاجفة مع الملك . واعلم أن هذا الهجوم كان عملاً حريياً رائعاً ، ولم يستخدم فيه أحد قوساً عادياً أو مزدوجاً ، بل كانت المعركة بين الأتراك ورجالنا بالدبابيس الحربية والسيوف ؛ ولذا التحموا بعضهم ببعض جميعاً ، وعاد إلى أحد رجالى ، بعد فراره من المعركة برايتى ، وقدم إلى فارساً فلمنكيا من خيلى ، فركبته ؛ وذهبت إلى حيث وقف الملك ، ووقفت إلى جانبه .

وبينما نحن وقوف هكذا ، على هذه الحال ، جاء السيد جون فاليرى ، وهو فارس نبيل ، وقال إنه يرى أن يميل الملك فى زحفه إلى ناحية اليمين صعداً ، ضد اتجاه التيار ، على طول مجرى الماء ، ليكون على مقربة دائمة من نجدة دوق برجنديا ، وغيره من القادة القائمين على حراسة المعسكر الذى تركناه ، وليستطيع المشاة من عسكره أن يشربوا ، فإن الحرارة بلغت وقتذاك درجة كبيرة من الارتفاع .

وأمر الملك جاويشيت أنه يستدعوا إليه فرسانه الذين يعتمد عليهم فى مجلسه الحربى ، وسمّاهم جميعاً بأسمائهم . وذهب الجاويشية للبحث عنهم فى ميدان المعركة ، حيث كان النضال مستمراً بينهم وبين الأتراك . وجاء هؤلاء الفرنسان إلى الملك ، وسألهم رأيهم ، فأجابوه بأن السيد جون فاليرى قال قولاً نصوحاً . عند ذلك أمر الملك حملة راية القديس دنيس ، وأصحاب رايته الملكية الخاصة ، أن يتحولوا ذات اليمين صعداً ، ضد اتجاه التيار ،

على طول مجرى الماء . وعند ما تحرك جيش الملك إلى الأمام ، امتلأ الجو مرة أخرى بضوضاء عظيمة ، من الأبواق والطبول والكوسات الإسلامية . ولم يكد الملك يبدأ في الحركة حتى جاء إليه عدة نقباء (سعاة) ، من عند أخيه كونت بواتيه ، ومن عند كونت فلاندر ، ومن عند كثير من كبار البارونات الذين وقفوا هناك بكتائبهم ، وكلهم يتوسلون إليه ألا يتحرك ، لأنهم كانوا محوطين بالأتراك ، بحيث لم يستطيعوا أن يتبعوه . ولذا استدعى الملك فرسانه إلى مجلسه الحربى مرة أخرى ، فنصحوه جميعاً بالانتظار . وبعد ذلك بقليل رجع السيد جون فاليرى ، فألقى باللائمة على الملك ومجلسه الحربى (ص ١٢٩) ، بسبب ما حدث من الانتظار . وبناء على ذلك نصح جميع المشيرين على الملك أن يميل إلى اليمين صعداً ، ضد اتجاه التيار ، على طول مجرى الماء ، كما قال السيد جون فاليرى سابقاً .

وفي تلك الآونة جاء السيد الكند اصطبل إيمبر بوجيه إلى الملك ، وأخبره بأن أخاه كونت آرتوا يدافع عن نفسه دفاع المستميت ، وهو محاصر في دار بالمنصورة ، وأنه ينبغي للملك أن يذهب لإنقاذه . وقال له الملك : ” أيها الكنداصطبل ، اذهب أنت أولاً ، وسوف أتبعك “ . وقلت أنا للكنداصطبل ، بأنى استعداد أن أذهب برفقته ، وأكون فارساً له ؛ وشكرنى هو كثيراً . ثم أخذنا في السير معاً نحو المنصورة .

وجاء وقتذاك إلى الكند اصطبل جاويز من المعينين لحمل الصولجان الملكى ، وهو يرتعد خوفاً ، وأخبر بأن الملك سوف يظل في مكانه ، لأن الأتراك جعلوا أنفسهم بينه وبيننا . والتفتنا ، ورأينا أن الملك صار بينه وبيننا ألف من الأتراك وأكثر ، ونحن عصبة قليلة عدتها ستة من الفرسان . عند ذلك قلت أنا للكند اصطبل : ” سيدى ! ليس في استطاعتنا أن نصل إلى الملك “ ، باختراق صفوف هذه الفئة الكبيرة من الأتراك . لكن هلم بنا نسير صعداً على طول مجرى الماء ، حتى نجعل هذا الغدير الذى ترى أمامك فاصلاً بيننا

وبينهم ، أملاً في أن نصل إلى الملك بهذه الطريقة “ . وعمل الكنداصطبل بنصيحتي ، واعلم أنه إذا انتبه الأعداء إلينا ، لكان باستطاعتهم أن يقتلونا جميعاً ، ولكن انتباههم كان منصرفاً نحو الملك والكتائب الكبيرة الأخرى ، على حين ظنوا أننا من عساكرهم .

الفصل الثامن والأربعون

وبينما نحن في طريقنا راجعون ، منحدرين مع مجرى الماء ، بين الغدير والمجرى نفسه ، أبصرنا أن الملك وصل إلى حافة الماء ، وأن الأتراك يطاردون الكتائب الملكية الأخرى إلى هناك ، وهم يحاربون بالسيوف والدبابيس ، ويدفعون جميع الكتائب الأخرى ، فضلاً عن الكتيبة الملكية الخاصة ، إلى حافة الماء . وحينئذ بلغت هزيمتنا مبلغاً كبيراً من الهول ، بحيث فكّر كثير من فرساننا في العبور عوماً إلى الجانب الذي فيه دوق برجنديا . غير أنه لم يكن باستطاعتهم ذلك ، لأن الخيل أضناها التعب ، وكان اليوم شديد الحر ، بحيث رأينا — ونحن نسير منحدرين مع المجرى — أن الماء غداً عامراً بالحرايب والدروع والخيول ، فضلاً عن الرجال الذين غرقوا ، وهلكوا .

(١٣١) ووصلنا إلى قنطرة صغيرة فوق الغدير ، وقلت للكنداصطبل إنه جدير بنا أن نثبت هناك ، لنحرس تلك القنطرة ، لأننا إذا نحن تركناها بدون حراسة ، فلا يلبث الأتراك أن يعبروا منها للهجوم على الملك ، وإذا وقع الهجوم على عساكرنا من ناحيتين ، فلا مناص لنا من الهزيمة . وهكذا وقفنا ، وقيل لنا إنه لم يكن لنا من الموت مفرّ ذلك اليوم ، لو لم يكن الملك هناك بنفسه . ذلك أن السيد كورتنيه والسيد جون ساينيه أخبراني بأن ستة من الأتراك أمسكوا بسرج حصان الملك ،

وكادوا يأخذونه أسيراً ، وأنه خلّص نفسه منهم ، بفضل الضربات العظيمة التي كالهالهم بسيفه . فلما رأى رجال الملك أنه يدافع عن نفسه ، ثارت حميتهم ، وعدل كثير منهم عن عبور مجرى الماء ، واستداروا نحو الملك لتقديم المساعدة له . وجاء إلينا - نحن الواقفين لحراسة القنطرة - كونت بطرس بريتاني ، راكباً من المنصورة مباشرة ، وكان مصاباً بضربة سيف في وجهه ، حتى كان الدم يجري إلى فمه . وكان راكباً فرساً قوياً ، وقد رمى لجامه على قربوس برذعته ، وأمسك بالقربوس بكلتا يديه ، لكيلا يحاول اللاحقون به من عسكره أن يخرجوه عن الطريق . ويبدو أنه لم يحمل لهم أيّ احترام ، بدليل قوله لنا مراراً ، بعد أن بصق الدم من فمه : ” انظروا وحياة رأس الرب ، هل رأيتم أوغاداً مثل هؤلاء أبداً ؟ ” . وفي ذيل كتيفته جاء كونت سواسون ، والسيد بطرس نوفييل ، واسمه كايير ، وكان ممن تلقوا كثيراً من ضربات ذلك اليوم .

وعند ما عبروا ، ورأى الأتراك أننا نحرس القنطرة ، وأنا ولتينا وجوهنا نحوهم ، تركوهم وشأنهم . وذهبت أنا إلى كونت سواسون ، وهو الذي تزوجتُ أنا ابنة عمته سابقاً ، وقلت له : ” سيدى ! أظنك تحسن صنعاً إذا أنت مكثت لحراسة هذه القنطرة ، لأننا إذا تركناها بغير حراسة ، فإن هؤلاء الأتراك الذين ترى أمامك ، لا يلبثون أن يهجموا عليها فوراً ، وبذا يصبح الملك موضع هجوم ، من الأمام والخلف . وسألني كونت سواسون ، هل أنا كذلك راغب في المكث لحراسة القنطرة ، إذا هو مكث هناك ، فأجبتة : ” نعم ، وبكل تأكيد ” . فلما سمع (ص ١٣٣) ذلك طلب مني ألا أبرح المكان حتى يعود ، وقال لي إنه ذاهب للبحث عن نجدة لنا .

الفصل التاسع والأربعون

وهناك مكثتُ أنا على ظهر حصاني ، وظلّ كونت سواسون معي عن يميني ، والسيد بطرس نوفييل عن يساري . ثم لم ألبث أن رأيتُ جندياً

تركياً يأتي من ناحية كتيبة الملك ، وهي وراءنا ، وضرب السيد بطرس نوفييل من الخلف ضربةً شديدةً بدبوسه ، فسقط السيد بطرس على رقبة حصانه ، من شدة الضربة التي تلقاها من الخلف . ثم مرّ هذا الجندي على القنطرة ، وأسرع راكضاً إلى أصحابه من الأتراك . ولما رأى الأتراك أننا لن نترك القنطرة عبروا الغدير ، وجعلوا أنفسهم بين الغدير ومجرى الماء ، كما فعلنا نحن سابقاً ، عندما سرنا منحدرين مع المجرى . ولذا أدركنا خيولنا نحوهم ، بحيث غدونا مستعدين للهجوم عليهم ، سواء أرادوا السير نحو الملك ، أم أرادوا عبور القنطرة .

وكان أمامنا اثنان من جاویشية الملك ، واسم أحدهما ويليام بون ، والآخر حنا جاماش . فأرسل الأتراك الذين وصلوا إلى ما بين مجرى الماء والغدير عدداً من الفلاحين المشاة . وأخذ هؤلاء الفلاحون يرمون الجاویشية بحففات وقبضاتٍ من الطين ، لكنهم لم يستطيعوا أن يدفعوهم إلى ناحيتنا . وأخيراً جاء الأتراك بفلاح من الفلاحين ، فرمى هذا الفلاح على الجاویشية ثلاث مرّاتٍ بنارٍ إغريقية ، وفي إحدى هذه المرّات تلقى وليام بون علبة النار الإغريقية بترسه ، ولو مسّت النار شيئاً من ملابسه لمات حريقاً .

وانهالت علينا جميعاً أصناف القذائف التي أخطأت الجاویشية . وحدث أن وجدتُ أنا سترة من النوع الذي يلبسه العسكر المشاة من المسلمين ، وهي محشوة بالقطن ، ومبطّنة بنسالة الكتان ؛ فأدرتُ فتحتها إلى ناحيتي ، وجعلتُ منها ترساً ؛ وانتفعتُ بذلك انتفاعاً عظيماً ، ولذا لم تحدث قذائفهم بي جراحاً إلا في خمس مواضع ، وبحصاني في خمسة عشر موضعاً فقط . ثم حدث كذلك أن فارساً ، من أهل بلدي جوانفيل ، أحضر إلى راية من راياتي في رأس دبوس ، وبذا صرنا مستعدين للهجوم ، فكلما رأينا أنهم يريدون أن يتقدّموا نحو الجاویشية ، هجمنا عليهم حتى هربوا .

(ص ١٣٥) الفصل الخمسون

وفي ساعة الغروب ذلك المساء ، استدعى الكنداصطبلُ كتيبة الملك من رماة قوس الرّجل ، وكان ذلك بعد أن نزلوا عن خيولهم . فاصطفوا أمام مواقفنا . وعندما رآهم الأتراك ، وهم يضعون أرجلهم في الأقواس ، استعداداً للرمي ، أخذوا في الهرب وتركونا . عند ذلك قال لي الكنداصطبل : ” يا صنجيل ! هذا عمل حسن ، والآن اذهب إلى الملك ، ولا تتركه ذلك اليوم حتى يعود إلى خيمته “ . وساعة وصولي إلى الملك ، جاء إليه السيد حنا فاليري ، وقال له : ” مولاي ! يتوسّل إليك السيد شاتيون أن تتخلّى لي عن مؤخرة الجيش “ . فاستجاب الملك لذلك ، عن طيب خاطر ، ولم يلبث أن أخذ طريقه إلى خيمته . وعندما وصلنا نحن إلى هناك ، سألتُ أنا الملك أن يخضع خوذته ، وأعطيتُه بدلها طاقيتي الحديدية لوقاية رأسه ، وبذا استطاع أن يتنسم الهواء .

وعند ذلك جاء إليه الأخ هنري روناي ، وهو مدير طائفة الفرسان الاسبتارية ، وكان آتيا من ناحية النهر ، وقبل يد الملك المزودة . وسأله الملك إذا كان لديه أيّ أخبار عن أخيه كونت أرتوا ، فأجابه روناي إن عنده أخباراً بكل تأكيد ، وهي أن كونت أرتوا أخا الملك في الجنة ، ولا ريب في ذلك . ثم قال المدير : ” أي نعم يا مولاي ! . ينبغي أن يسرك ذلك ، لأن شرفاً عظيماً لم يتمّ لملك من ملوك فرنسا ، كما تمّ هكذا لك . ثم إنك - في سبيل محاربة أعدائك - عبرت نهراً عوماً في الماء ، وهزمت أعداءك ، وأجليتهم عن معسكرهم ، واستوليت على مجانيقهم الحربية ومساكنهم ، حيث تنام أنت هذه الليلة “ . وأجاب الملك أنه يحمد الرب على جميع ما أولاه من نعمة ، ثم اغرورقت عيناه بالدموع .

وعندما وصلنا إلى المعسكر ، وجدنا عدداً من مشاة المسلمين (ص ١٣٧) يجذبون إلى ناحيتهم حبال خيمة هدموها ، على حين كان جماعة من

رجالنا يجذبون من ناحية أخرى . فهجمنا عليهم ، وأقصدُ بذلك رئيس طائفة الفرسان الداوية وأنا ؛ فأخذوا في الهرب ، وبقيت الخيمة في أيدي رجالنا .

وفي أثناء هذه المعركة عمد إلى الهرب أشخاص كثيرون ، ومنهم رجال ذوو مقام عظيم ، واستطاعوا الفرار عن طريق القنطرة الصغيرة ، وهي التي أخبرتك بها ؛ وكان الخوف مبعث فرارهم ، ولم نحاول أن نستبق أحدا منهم معنا . وفي مقدوري أن أذكر منهم كثيرين ، ولكني أحجم عن ذلك ، لأنهم ماتوا جميعاً . لكني لا أحجم عن ذكر السيد جى موفوازان ، فإنه جاء من المنصورة مكللاً بغار الشرف . والواقع أنه بينما أنا والكنداصطبل سائرون صعداً على طول مجرى الماء ، كان هو سائراً منحدرًا مع المجرى . وعندما انقضّ الأتراك على كونت بريتاني وكتيبته ، انقضّوا كذلك على السيد جى موفوازان وكتيبته ؛ ولكنه أبلى فيهم بلاءً عظيماً ، واستحقّ لذلك ثناء كبيراً ذلك اليوم ، هو وعساكره . ولم يكن عجباً أنه أبلى ورجاله أحسن البلاء ذلك اليوم ، لأن العارفين بأفراد كتيبته جيّد المعرفة أخبروني بأن جميع رجاله ، أو ما يقرب من جميعهم ، فرسان من أهله ، أو فرسان تربطهم به يمين التبعية والولاء .

وعند ما انتصرنا على الأتراك ، وأخرجناهم من مساكنهم ، ولم يبق من رجالنا أحد في المعسكر ، هجم البدو على خيام المسلمين من أصحاب المراتب العالية ، ولم يتركوا شيئاً من المتاع في خيام المسلمين ، بل أخذوا كل شيء تركه المسلمون . وما سمعتُ أن أحداً من البدو ، وكلهم رعية المسلمين ، ناله أذى بسبب ما أخذوا أو سلبوا ، فهكذا كانت عادتهم ، وهي الهجوم على الجانب الأضعف ، دائماً وأبداً .

الفصل الحادى والخمسون

ونظراً لما لذلك من علاقة بقصتى ، فإنى أخبرك عن البدو ، وأى نوع هم من الناس . فالبدو يتشيعون (ص ١٣٩) لعلّى ، وهو [ابن] عمّ [النّبى] محمد ، وكذلك يتشيع شيوخ الجبل لعلّى ، وهم الذين يؤيدون طائفة الحشيشية . وهم جميعاً يستمسكون بالاعتقاد ، بأنه حين يموت الإنسان فى خدمة سيده ، أو فى سبيل أى غرض شريف ، فإن روحه تذهب إلى جسم أحسن ، وإلى حالٍ أحسن من ذى قبل . ولذا لا يخشى الحشيشيون كثيراً إذا هم ماتوا أو قتلوا ، وهم ينفذون أوامر شيخ الجبل ، كائنة ما تكون . وفيما يتعلق بشيخ الجبل نرى أن نمسك الآن عن الكلام فيه ، وأن نتكلم عن البدو .

والبدو لا يعيشون فى قرى ، أو مدنٍ أو حصونٍ ، بل ينامون دائماً فى العراء ، وهم يجعلون لأهلهم ونسائهم وأطفالهم فى الليل ، أو فى النهار حين يكون الجو رديئاً ، نوعاً من المأوى ، يصنعونه من حلقات البراميل ، بعد أن يربطوها إلى أعمدة خشبية ، فتصبح كأنها هودج للنساء . ويطرح البدو فوق هذه الحلقات جلوداً من جلود الأغنام ، وهذه يسمونها جلود دمشق ، وهى مدبوغة بالشبّ . والبدو أنفسهم يلبسون من هذه الجلود برانسٍ عظيمة ، بحيث تغطى أجسامهم وأرجلهم وأقدامهم .

وحينما تمطر السماء فى الليل ، ويمسى الجورديئاً ، يلتحف البدو برانسهم ، ويخلعون المقاود عن خيولهم ، ويتركونها ترعى على مقربة منهم . وعندما يصبح الصباح ، ينشرون برانسهم فى الشمس ، ويجففونها ويدقونها ؛ وهكذا لا يظهر بها أى شىء يدلّ على أنها كانت مبلّلة فى الليل .

أما عقيدتهم ، فهى أن الإنسان لا يدركه الموت قبل اليوم المكتوب له ، ولذا يرفضون أن يلبسوا دروعاً ، وإذا شتموا أولادهم قالوا للواحد منهم : ” عليك من الله لعنة ، كلعنة الفرنجى الذى يلبس الدرع حذر الموت “ .

وفي ميدان القتال ، لا يحمل البدو من أدوات الحروب سوى السيوف والدبابيس .

ويلبس معظم البدو بُردة فوقانية كالقميس ، ويلفون رؤوسهم بقماش يتلثمون به تحت ذقونهم ، ولذا فهم قوم قباح المنظر ، وليس في النظر إليهم ما يسر العين ، لأن شعر رؤوسهم أسود ، وكذلك شعر لحاهم . وهم يعيشون على ألبان ماشيتهم ، ويشترون حقوق الرعي في أراضي الأغنياء ؛ (ص ١٤١) ومن هذه الأراضي تأكل ماشيتهم . ولا يستطيع أحد أن يعرف عددهم ، وهم يوجدون في مملكة بيت المقدس ، وفي جميع أراضي المسلمين وغير المسلمين ؛ وهؤلاء وأولئك يدفعون ذم أموالا عظيمة سنوياً .

ورأيتُ في هذه البلاد^(١) ، بعد عودتي من وراء البحار ، جماعة من المسيحيين الخائنين لدينهم ، يعيشون حسب شرائع البدو ، ويقولون إن الإنسان لا يدركه الموت قبل اليوم المكتوب له . وتبلغ عقيدتهم من الفساد إلى درجة القول بأن الرب غير قادر على إغاثتنا . غير أننا نكون بلهاء ، نحن الذين نطيع الرب في كل شيء ، إذا نحن لم نعتقد بأنه سبحانه بيده إطالة أعمارنا ، فضلاً عن حفظنا من الشرّ والسوء ؛ ويجب علينا الإيمان به ، فهو على كل شيء قدير .

الفصل الثاني والخمسون

والآن نقول كيف رجعنا ليلاً ، نحن والملك ، من هذه المعركة الخطيرة التي أسلفنا شرحها ، وكيف بقنا في المكان الذي أخرجنا منه أعداءنا . وتفصيل ذلك أن رجال الدين ظلوا مع الجيش الذي اضطررنا أن نفصل عنه ، جاءوني وأحضروا معهم خيمة ، أعطانيها سابقاً فرسان الداوية ،

(١) ربما يقصد جوائيل بذلك فرنسا نفسها ، أو أنه يقصد بعض المدن الصليبية . وقتذاك بفلسطين .

ونصبوها لى أمام المجانيق التى استولينا عليها من المسلمين ، وأقام الملك حرساً من العسكر المشاة لحراسة المجانيق .

وعندما ذهبتُ إلى فراشى ، بعد أن صيرتُ فى حاجة شديدة إلى الراحة ، بسبب جراحى التى أصابتنى فى اليوم السابق ، لم تحدث لى أية راحة ، لأن نداءً انتشر فى معسكرنا ، قبل طلوع النهار : ” إلى السلاح ! إلى السلاح ! “ وأيقظتُ خادى النائم عند مؤخرة فراشى ، وأمرته أن يذهب لاستطلاع الخبر ، فجاء وقال لى ، وهو فى شدة الاضطراب : ” قم سيدى ! ! قم فإن المسلمين جاءوا مشاةً وركباناً ، ودهمونا ، وألحقوا الهزيمة بعساكر الملك القائمى على حراسة المجانيق ، بل طاردوهم حتى دفعوهم بين جبال الحيم “ . ونهضتُ ، ولبستُ سترة مبطنة ، ووضعتُ على رأسى طاقة من الحديد ، وصحتُ فى فرساننا : ” وحياء القديس نيقولا ، لن ندعهم يمحثون هنا “ . وجاء إلى فرسانى ، برغم ما بهم من جراح كثيرة ، وطاردنا المشاة المسلمين عن المجانيق ، حتى أوصلناهم إلى حيث وقفت كتيبة إسلامية كبيرة من الخيالة ، وكانوا على مسافة من المجانيق التى استولينا عليها . وأرسلتُ إلى الملك طالباً نجاته ، لأنى وفرسانى لم نكن قادرين على لبس ملابسنا المزودة ، بسبب الجروح التى أصابتنا ، فأرسل إلينا الملك السيد والتر شاتيون ، فاتخذ هذا السيد موقفه بيننا وبين الأتراك الواقفين أمامنا .

وعندما دفع السيد شاتيون المشاة المسلمين إلى الوراء ، تقهقر هؤلاء المشاة نحو كتيبة عظيمة من الخيالة الأتراك وكانت هذه الكتيبة مصطفة أمام معسكرنا ، لمراقبتنا ، حتى لا نقوم نحن بمباغطة الجيش الإسلامى المعسكر خلفهم . ومن هذه الكتيبة التركية ترجل ثمانية من أمرائهم ، فى سلاحٍ فاخر ، وأقاموا حاجزاً من أحجار البناء حتى لا يصيبهم رماة أقواس الرّجل من عساكرنا بقذائفهم . وأخذ أولئك الأمراء الثمانية يرمون على معسكرنا من غير تصويب ، وجرحوا عدة من خيالتنا وخيولنا .

وتشاورت أنا وفرسانى فى الأمر . واتفقنا أن نقوم عندما يخيم الظلام على إزالة الأحجار التى أقامها أولئك الأمراء الثمانية . لحماية أنفسهم من قذائفنا . وكان أحد قساوسة كتيبتى ، واسمه حنا فوازى ، حاضراً تلك المشاورة ، لكنه لم يقف بيننا طويلاً ، بل ذهب وحده من معسكرنا ، وسار نحو المسلمين مسلحاً بستره مبطنة حول وسطه . وعلى رأسه طاقيته من الحديد ، وتحت ذراعه حربته ، ورأسها إلى أسفل ، حتى لا يراها المسلمون .

وعند ما اقترب هذا القسيس من المسلمين لم يلتفتوا إليه ، لأنهم رأوا أنه بمفرده ، فاستل القسيس حربته من تحت ذراعه ، وهجم عليهم . ولم يحاول أحد من الأمراء الثمانية أن يقف فى وجهه ، بل استداروا وأخذوا فى الهرب . وعندما رأت الخيالة التركية أن قادتها يلوذون بالهرب ، همزت خيولها لإنقاذهم . وخرج من معسكرنا ما لا يقل عن خمسين من العسكر المشاة ، فركضت نحوهم الخيالة التركية . لكنها لم تجرأ على الهجوم على عساكرنا المشاة ، بل انحرفت عنهم .

(ص ١٤٥) وبعد أن قام الخيالة الأتراك بتلك الحركة مرتين أو ثلاث مرات ، أمسك أحد عساكرنا من المشاة رمحه من وسطه ، ورمى به أحد الخيالة الأتراك ، فأصابه الرمح بين أضلاعهم ، وظل ذلك الذى أصابه الرمح يركض بفرسه ، ونصل الرمح بين ضلعيه . وعندما رأى الأتراك ذلك لم يجرأوا على الهجوم ، بل تقهقروا إلى مسافة أبعد مما كانوا ، وأزال عساكرنا المشاة أحجار الحاجز . ومنذئذ صار هذا القسيس معروفاً فى المعسكر ، وأشار إليه الجند بعضهم إلى بعض ، قائلين " ها هو قسيس السيد جوانفيل ، وهو الذى هزم ثمانية من المسلمين " .

الفصل الثالث والخمسون

وهذه الحوادث وقعت أول يوم من الصيام الكبير ، وفي ذلك اليوم بالذات قام قائد مسلم مشهور^(١) بالشجاعة ، وهو الذى أقامه أعداؤنا مقام فخر الدين بن الشيخ ، بعد أن فقدوه ، فى وقعة يوم ثلاثاء الرفاع ، وأخذَ معطف كونت أرتوا الذى قُتل فى المعركة ، وعرضه على جميع الحاضرين من المسلمين ، وقال إنه معطف الملك الذى زعم أنه مات .

وقال هذا القائد ، على ملأ من الحاضرين : إني أرىكم هذه الأشياء ، لأن جسماً بلا رأس لا يستطيع بأى حال أن يخيف أحداً . وكذلك الناس بلا ملك . ولذا أرى - إذا أنتم وافقتم على رأيي - أن نقوم بالهجوم عليهم يوم الجمعة ، وينبغى عندي أن توافقوا على ذلك ، لأننا لن نفشل فى أخذهم جميعاً ، بعد أن فقدوا زعيمهم وملكهم ؛ وهكذا اتفقت كلمتهم على أن يأتوا ويهجموا علينا ، يوم الجمعة .

وجاء جواسيس الملك الذين كانوا فى جيش المسلمين ، ليخبروا الملك هذه الأخبار ، وعند ذلك أمر الملك جميع قادة الكتائب أن يستعدوا برجالهم ، قبل أن ينتصف الليل ، وأن يخرجوا بهم عن الخيام إلى حيث السور ، وهو سورٌ مصنوع من أعواد خشبية طويلة ، متقاربة بعضها إلى بعض ، حتى لا يستطيع المسلمون اقتحام المعسكر . والواقع أن الأعواد الخشبية كانت مدقوقة فى الأرض على مسافات قصيرة ، بحيث يستطيع الجندي أن يمرّ بينها سيراً على قدميه ، لا راكباً حصاناً ؛ وحسباً أمر الملك . كان التنفيذ .

(١) هذا القائد هو بيبرس البندقدارى ، وسماه جوانفيل باسمه هذا ، فى فصل تال-

من فصول كتابه .

(ص ١٤٧) وعند شروق الشمس قام القائد المسلم المذكور ، وهو الذى جعلوه قائداً عليهم ، وزحف نحونا بجيش عدته أربعة آلاف من الخيالة الأتراك ، وجعلهم حول جميع معسكرنا ، من عند مجرى النيل الآتى من القاهرة ، إلى القناة التى تجرى من معسكرنا إلى بلدة اسمها دراكسة ، كما جعل جماعة من هؤلاء الخيالة الأتراك حوله . وعند ما أتم الخيالة الأتراك ذلك ، أحضر القائد فى مواجهتنا عدداً من العساكر المشاة ، بحيث أحاطوا بمعسكرنا إحاطة تامة ، كما فعل الخيالة الأتراك بدورهم . ووراء هذين الجيشين اللذين ذكرت ، اصطفت جميع كتائب سلطان القاهرة ، لتقديم المساعدة اللازمة لهذين الجيشين ، إذا احتاج الأمر .

وعندما انتهى ترتيب ذلك ، جاء القائد بنفسه راكباً جواداً صغيراً ، ليرى جيشنا . وحيث رأى كتيبة من كتائبنا أكثر عدداً فى موضع من مواضعنا ، عنها فى موضع آخر ، رجع إلى الوراء ، وأرسل فى طلب عددٍ من جنده ، وجعل كتائبه قوية بالقياس إلى كتائبنا التى أمامها . ثم أمر البدو ، وكان لديه منهم ثلاثة آلاف على الأقل ، أن يعبروا مجرى الماء إلى المعسكر الذى قام على حراسته دوق برجنديا ، وهو واقع بين النيل والبحر الصغير . وفعل القائد ذلك ، لأنه اعتقد أن الملك سوف يبعث عدداً من عساكره إلى الدوق ، لنجدته ضد البدو ، وبذهاب ذلك العدد يغدو جيش الملك هو الجانب الضعيف .

الفصل الرابع والخمسون

واستغرق ترتيب كل هذه الصفوف حتى ساعات الظهر ، من ذلك اليوم . ثم أمر القائد بضرب الطبول التى تسمى النقارات ، وعند ذلك بدأ الهجوم علينا ، بالخيالة والمشاة فى آنٍ واحد . وأقص عليك أولاً ما حدث لملك صقلية ، وهو كونت آنجو وقتذاك ، فإن موضعه كان فى أول الجيش من

ناحية الطريق المؤدى إلى القاهرة . وجاءوا إليه فى حركة تشبه حركة الشطرنج ، إذ هجموا عليه أولاً بجند المشاة (كأنهم البيادق) ، ليستطيع أولئك الجند - وهم مشاة - أن يرموا عليه بالنار الإغريقية . ثم إنهم شدّوا عليه الهجوم بالخيالة والمشاة ، حتى إنهم تغلبوا على ملك صقلية نفسه ، لأنه لم يكن راكباً فرساً ، بل واقفاً على قدميه وسط فرسانه .

وجاء جماعة من الفرسان إلى الملك ، وأخبروه بالخرج الذى تردى فيه أخوه ، فلما سمع بذلك ركض بحصانه ، وشقّ طريقه وسط كتية أخيه (ص ١٤٩) ، وبيده السيف . وأوغل الملك إلى الأمام بين الأتراك ، على الرغم من أنهم أشعلوا ذيل حصانه بالنار الإغريقية . وبهذا الهجوم الذى قام به الملك ، أمكن إنقاذ ملك صقلية ورجاله ، كما أمكن دفع الأتراك عن مواضعهم .

وفى ما يلي جيش ملك صقلية ، وقفت كتية البارونات الصليبيين المحليين ، وزعمائهم السيد جى إبلين وأخوه السيد بالدوين . وفى ما يلي كتيتهم ، وقفت كتية السيد والتر شاتيون ، وكلها فرسان من أصحاب الفضل والفروسية الرفيعة . ودافعت هاتان الكتيتان عن مواضعهما دفاعاً مجيداً ، بحيث صار من المستحيل على الأتراك تفريقهم ، أو زحزحتهم إلى الوراء .

وفى ما يلي كتية السيد والتر ، وقفت كتية الأخ وليام سوناق ، مقدم الفرسان الداوية ، وهو فى فئة قليلة من أولئك الفرسان ، وهم الذين بقوا له بعد معركة يوم الثلاثاء . وكان الأخ سوناق واقفاً بكتيبته عند سور من الخشب ، وهو الذى أمر بإقامة هذا السور أمام المجانيق ، وأعنى بذلك المجانيق التى استولينا عليها سابقاً من المسلمين . فلما هجم المسلمون رموا بالنار الإغريقية على هذا السور الذى أقامه الفرسان الداوية ، واشتعلت النار فيه بسرعة ، لأن الداوية أحاطوه بألواح كثيرة من الخشب الرقيق . وليكن فى علمك أن الأتراك لم ينتظروا حتى تنتهى نار الحريق ، بل هجموا على الداوية من خلال اللهب المشتعل .

وفى هذه المعركة فقد الأخ وليام سوناق ، مقدّم الفرسان الداوية ، إحدى عينيه ، وهو الذى فقد عينه الأخرى يوم ثلاثاء الرفاع ؛ وهكذا مات السيد المذكور متأثراً بجراحه ، طيّبَ الربّ ثراه . وليكن فى علمك أنه كان وراء الداوية مسافة من الأرض ، تناثرت فيها السهام التى سدّدها المسلمون نحوهم ، حتى كادت الأرض لا تُرى من كثرة ما اجتمع فيها من السهام .

وفى وراء فرسان الداوية وقفتُ كتيبة السيد جى موفوازان ، وهى الكتيبة التى عجز الأتراك عن التغلب عليها . ومع هذا حدث أن الأتراك صوبوا من النار الإغريقية نحو السيد جى موفوازان ما تطلّب من رجاله جهداً كبيراً فى إطفاء لهبها .

الفصل الخامس والخمسون

ومن موضع كتيبة السيد جى موفوازان (ص ١٥١) امتدّ السور الذى أحاط بمعسكرنا نحو النهر ، مسافة رمية حصاة ، ومن هناك تقوّس السور أمام كتيبة كونت وليام فلاندر ، وامتدّ حتى وصل إلى حافة مجرى الماء نحو البحر^(١) . وعلى مقربة من السور الممتدّ من موضع السيد جى موفوازان ، وقفتُ كتيبتنا . ولما كانت كتيبة كونت وليام فلاندر أمام العدو وجهاً لوجه ، لم يجرأ العدو أن يقترب منا ، وهكذا أكرمنا الربّ أعظم إكرام ، لأنى وفرسانى لم يكن لدينا ملابس مزرّدة ولا تروساً ، بسبب ما أصابنا من جروح يوم ثلاثاء الرفاع .

وهجم الأتراك على كونت فلاندر ، بالخيالة والمشاة ، فى حماسة وشدة ، فلما رأيتُ ذلك أمرتُ رجالنا رماة أقواس الرّجل أن يرموا على الخيالة التركية ، وعندما رأى رجال الكونت ذلك ألقوا بأنفسهم من فوق السور : وهجموا

(١) يقصد جوائقيل بالبحر هنا بحيرة المنزلة ، وهى التى تصب فيها ترعة أشوم طناح ، أى البحر الصغير الحالى .

على المشاة من المسلمين ، وهزموهم . وهناك مات كثيرون ، واستولى المسلمون على تروسهم . وهناك أبلى والتر لاهورنى أحسن البلاء ، وهو حامل راية السيد أبريمون .

وفيما وراء كتيبة كونت فلاندر ، وقفت كتيبة كونت بواتيه ، وهو أخو الملك ، وكانت هذه الكتيبة مكوّنة من المشاة ، ولم يكن فيها راكب فرسه إلا الكونت وحده . وهزم الأتراك هذه الكتيبة ، وأخذوا كونت بواتيه أسيراً . ولما سمع القصابون والنسوة القائنات على بيع الأطعمة ، وغيرهم من أتباع المعسكر ، بنجر وقوع الكونت أسيراً في أيدي المسلمين ، ملأوا المعسكر بصياحهم ، وبفضل الربّ خلصوا الكونت ، وأخرجوا الأتراك من المعسكر .

ووراء كتيبة كونت بواتيه ، وقفت كتيبة السيد جوسيران برانسيون ، وهو الذى جاء مع الكونت بواتيه إلى الأراضى المصرية ، وكان من أحسن الفرسان فى الجيش كله . ورتب السيد جوسيران رجاله ، بحيث غدا جميع فرسانه مشاة فى ذلك اليوم ، وامتنطى هو فرساً ، كما امتطى ابنه السيد هنرى فرساً ، ومعه ابن السيد جوسيران مانتون كذلك راكباً فرساً . وتوخى السيد برانسيون أن يظلّ هذان الابنان على ظهور الخيل ، (ص ١٥٣) لأنهما كانا شابّين لا خبرة لهما بشئون القتال . غير أن الأتراك تغلبوا على رجاله مرّات متعدّدة ، فكان كلما رأى رجاله منهزمين ركض هو بمحصانه ، وهجم على الأتراك من ناحية مؤخرتهم ، بحيث تحوّل الأتراك عن رجاله مرة بعد أخرى ، ليلتفتوا إليه . لكن ذلك كلّهُ لم يُجدِ شيئاً فى منع الأتراك من التغلب عليهم فى ميدان القتال ، لولا ما قام به السيد هنرى كون ، وهو الذى كان واقفاً عبر مجرى الماء فى طرف جيش دوق برجنديا . وكان السيد هنرى كون فارساً عاقلاً ، كما كان شجاعاً حاذراً ، فكان كلما رأى الأتراك يهجمون على السيد برانسيون ، أصدر أمره إلى الفرقة الملكية من رماة قوس الرّجل ، للرمى على الأتراك عبر مجرى الماء . وهكذا تخلص السيد برانسيون من شرّ ذلك

اليوم العصيب ، حيث فقد اثني عشر من عشرين فارساً كانوا معه ، فضلاً عما فقد من العسكر . وأصابه من الجراح ما جعله عاجزاً عن الوقوف على قدميه ، ومات من تلك الجراح التي أصابته في خدمة الرب .

وأقص عليك من خبر السيد برانسيون هذا أنه شهد منذ بداية حياته حتى مماته ستاً وثلاثين معركة من المعارك الحربية والاشتباكات الفردية ؛ وكان له الفوز فيها كلها دائماً . ورأيتُه في فرنسا ذات مرة ، وهو يعمل في جيش كونت شالون ابن عمه ، حين جاء إلى ، وكان معي أخي ، ذات يوم جمعة حزينة ، وقال لنا : ” هلموا يا أبناء إخوتي وساعدوني بأنفسكم ورجالكم ، لأن الألمان يريدون اقتحام الكنيسة “ . وذهبنا معه ، وزحفنا ضدّهم ، وسيوفنا مسلولة في أيدينا ؛ وبعد جهد عظيم ، وصخب أعظم . أخرجناهم من الكنيسة . ولما انتهى ذلك اليوم ، جاء هذا الفارس النبيل ، وجثا على ركبتيه أمام المذبح ، وشكر الرب بصوت عالٍ ، وقال : ” يا ربّي ! أتوسّل إليك أن ترفق بي ، وأن تبعدني عن هذه الحروب التي تقع بين المسيحيين بعضهم بعضاً ، إذ صرفتُ فيها جزءاً كبيراً من حياتي . واجعلني أن أموت على الإيمان في خدمتك ، حتى أكون في مملكتك بالجنة “ . وإني أقصّ عليك هذه الأشياء ، لأنني أعتقد أن الربّ قبّل توسّله . كما رأيتَ فيما سبق هنا . وبعد معركة يوم الجمعة الأولى من الصيام الكبير ، أرسل الملك إلى جميع باروناته أن يحضروا إليه ، وخطب فيهم قائلاً : ” نحن مدينون بالشكر إلى ربّنا ، بعد أن منحنا التوفيق والمجد ، مرتين في أسبوعنا هذا . (ص ١٥٥) ففي يوم الثلاثاء ، وهو يوم ثلاثاء الرفاع ، أخرجناهم من معسكرهم ، وحلّلنا محلّهم ، حيث نحن الآن مقيمون ؛ وفي يوم الجمعة التالي ، وهو اليوم الذي مضى ، دافعنا عن أنفسنا ضدّهم ، حين كنا مشاةً وهم ركوبٌ “ . وخاطبهم الملك بغير ذلك من العبارات المنمّقة ، تطيباً لخواطرهم ، ومواساةً لهم .

مراجع عربية ومؤلفات أجنبية^(١)

مراجع عربية

بن أبيك (أبو بكر بن عبد الله) : كنز الدرر وجامع الغرر ، ٩ أجزاء .
صور شمسية بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٥٧٨ ، وهي مأخوذة من مخطوطة
فاتح كتبخانسي ، باستنبول .

ابن تغري بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة في أخبار
مصر والقاهرة ؛ طبع منه حتى الآن اثنا عشر جزءاً . (دار الكتب المصرية ،
القاهرة ، ١٩٣٠ - ١٩٥٦) .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء
الزمان ، ٦ أجزاء ، نشر محمد محي الدين عبد الحميد . (مكتبة النهضة
المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨) .

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني) : تذكرة بالأخبار عن
اتفاقات الأسفار ، وهو الكتاب المعروف باسم رحلة ابن جبير .
(Edit. Wright) ، في مطبوعات (Gibb Memorial Series. Vol V. 1907) .

ابن العبري (أبو الفرج بن هارون) : تاريخ مختصر الدول . (المطبعة
الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٩٠ م) .

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر) : البداية والنهاية في
التاريخ ، ١٤ جزءاً . (مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨ - ١٣٥٨ هـ) .

(١) تقتصر كل من القائمتين التاليتين على أسماء المراجع والمؤلفات العربية والأجنبية
التي ورد ذكرها ، في المتن والحواشي بهذا الكتاب .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) : مفرج الكروب في أخبار
بنى أيوب ، نشر الدكتور جمال الدين محمد الشيال ؛ طُبِعَ منه حتى الآن
جزءان . (المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٥٧) .

— : صور شمسية بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ ، مأخوذة من
نسخة خطية بالمكتبة الأهلية ، بباريس .

أبو شامة : (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل) كتاب
الروضتين في أخبار الدولتين ، جزءان . (المطبعة الأميرية - بولاق ،
١٢٨٨ هـ) .

— : الذيل على الروضتين ، نشر السيد عزت العطار الحسيني .
(القاهرة ، ١٩٤٧) .

أحمد أحمد بدوى : من النقد والأدب . (مطبعة البيان العربى ،
القاهرة ، ١٩٦١) .

أحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر . (مطبعة سكر ،
القاهرة ، ١٩٣٦) .

أسامة بن منقذ (أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر
الشيزرى) : كتاب الاعتبار ، نشر فيليب حتى (Princeton University
Press, 1956).

جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط . (مؤسسة
المطبوعات الحديثة ، القاهرة ، ١٩٥٩) .

حسن حبشى : الشرق الأوسط بين شقى الرحى . (مطبعة الاعتماد ،
القاهرة ، ١٩٣٨) .

زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، (دار الآثار العربية ، القاهرة ،
١٩٣٧ م) .

سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى) :
 مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، ج ٨ . (حيدر أباد ، الهند ، ١٩٥٢) :
 السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين . (وزارة التربية والتعليم ،
 القاهرة ، ١٩٥٩) .

على مبارك : الخطط التوفيقية ، ٢٠ جزءاً . (المطبعة الأميرية ،
 بولاق ، ١٣٠٦ هـ) .

العينى (بدر الدين محمود الحنفى) : عقد الجمان : (Recueil. Hist.
 Or. II 2)

فيشر (هـ . ا . ل) : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة زيادة
 والعرينى والعدوى . (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٠ - ١٩٥٤) :
 القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ،
 ١٤ جزءاً . (المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٨) .

المقرئزى (تقى الدين أحمد بن على) : كتاب السلوك لمعرفة دول
 الملوك ، نشر زيادة ، طبع منه حتى الآن ستة أقسام ، وهما الجزءان
 الأول والثانى من هذا الكتاب : (لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
 القاهرة ، ١٩٣٤) .

— : المواعظ والاعتبار ، جزءان ، (المطبعة الأميرية ، بولاق ،
 ١٢٩٠ هـ) .

— : البيان والإعراب ، نشر إبراهيم رمزى . (مطبعة التأليف ،
 القاهرة ، ١٩١٢) .

مراجع أجنبية

Barker (Sir Ernest) :

The Crusades. (Oxford University Press, 1925).

Camb. Med. History. 8 - Vols. :

(Cambridge University Press, 1924 - 1936).

Davis (Rev. E. J.) :

The Invasion of Egypt by Louis IX of France. (Sampson Low, London. 1897).

Grousset (R.) :

Histoire des Croissades, 3 Vols. (Plon, Paris, 1934 - 1936).

Joinville (Jean Sire de) :

Oeuvres. edit. Natalis de Wailly. (Adriens Le Clere, Paris, 1867).

— : **Histoire de Saint Louis, edit. Natalis De Wailly, (Firmin Didot, Paris, 1874).**

— : **The History of St. Louis, Transl. Joan Evans. (Oxford University Press, 1938).**

Michaud (J.F.) :

Histoire des Croissades, 5 Vols. (Paris, 1817 - 22)

Minorsky (V) :

Studies in Caucasian History. (Taylor's Foreign Press, London, 1953).

Moore (George) :

Peter Abelard; A Novel, (Gollancz, London 1928).

Muir (Daphne) :

The Lost Crusade, A Novel. (Chatto & Windus, London),

Omañ (Sir Charles) :

A History of the Art of War in Middle Ages, 2Vols. (Methuen, London, 1924).

Recueil des Historiens des Croisades :

Publ. Acad. des Inscriptions et Belles Lettres. 14 Vols. (Paris, 1842 - 1906).

Roncaglia (M) :

St. Francis and the Middle East, 3rd Edition, (Franciscan Center of Oriental Studies, Cairo, 1957).

Rothelin Ms. :

(Rec Hist. des Crois Occ. II.).

Runciman (S) :

A History of the Crusades. 3 Vols, (Cambridge University Press. 1951 - 54).

Stevenson (R.) :

Crusaders In The East. (Cambridge University Press 1907).

Throop (P.A.) :

Criticism of the Crusades. (Swets, Amsterdam, 1940).

William of Tyre :

History ed. Emily A. Babcock, 2 Vols. (Columbia University Press, 1943).

فهرسٲ ائبجدى عامر

أشوم طناح : ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
٥٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٤٥ - ١٤٨ ،
١٦٠ - ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،
١٧٤ - ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،
١٨٨

الأشونين : ٢١٨

الأكراد : ٨

أرسوف : ٤ ، ٣٥

إطفيح : ١٦

افتخار الدولة : ٤

أفضل الدين الخونجى : ٢٩٨

إفيرار سيفيرى : ٣١٩ ، ٣٢٠

أقطاى الحمدار : ٢٣٥

الكرك (حصن) : ٣٠ ، ٦٦ ، ٢٧٠ ،

٢٧٢

ألكسيوس الأول كومنين : ٢

الأفضل شاهنشاه : ٢ ، ٣ ، ٧ ، ١٠ ،

٢٧

ألفونسو (كونت پواتيه) : ١٤٦ ،

١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٨٥ ،

١٩٩ - ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،

٢٤٣ ، ٢٥٧

ألمانيا : ٤٢ ، ٨٤

الإمام الشافعى : ٢٣ ، ٣٠

الأمراء القيمرية : ١٦٦ ، ١٧٧

أمورى الأول : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ،

١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ،

٢٩ ،

(١)

ابن الأهدل : ٦٦

ابن تغرى بردى : ٨١ ، ٨٨

ابن جبير : ٣١ ، ٣٢

ابن الجوزى : ٧٦

ابن خلدون : ٨٨

ابن خلكان : ٨٧

ابن رزىك : ١٣

ابن العبرى : ٨١ ، ٨٧

ابن واصل الحموى : ٨٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ،

٢٨٣

أبو تمام : ٢٩٧

أبو شامة : ٧٦ ، ٨٧

الأتراك : ٨٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ،

٢٣١ ، ٢٣٥

الأرمن : ٤ ، ٢٤

أرناط (رينالد شاتيون) : ٣٠ ، ٣٢ ،

٣٣

أريدافرانس (انظر ريدافرانس)

أسامة بن منقذ الشيرى : ١٠

أسد الدين شيركوه : ٨ ، ١١ ، ١٢

الإسكندرية : ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٨

٢٩ ، ٣١ ، ٤٢ ، ٤٤

أسكلين المباردى : ٨٥ ، ٧٦

إسماعيل بن نور الدين : ٢٩

الإسماعيلية : ٣٠٧

آسيا الصغرى : ٢ ، ٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ،

٧٩

باريس : ٩٠ ، ٤٢
 الباستوروه : ٢٥٨ ، ٢٥٧
 الباطنية : ٢٥٤
 البحر الأبيض المتوسط : ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٩
 البحر الأحمر : ٣٠
 بحر أشموم : ٥٦
 البحر الصغير : ٨١ ، ٥٤ ، ٥٣
 بحر القلزم : ٣١
 البحر الميت : ٣٠ ، ٥
 بحر اليمن : ٣١
 بحيرة المنزلة : ٥٦ ، ٢٠ ، ٦
 بجاية : ٤٢
 بدر الدين بن يغمور : ٢٩٢
 بدر الدين الصواني : ٢٧٢
 بدر الدين لؤلؤ : ٣٠٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٠
 بدر الدين يوسف الحسن السنجاري :
 (قاضي القضاة) : ١٨٤ ، ١٧٦
 ٢٩٦ ، ٢٩٠ ، ٣٠٥
 بطرس أو بيروف : ٣٢٠
 البندقية : ٤٥ ، ٤٠ ، ٣٩
 برج الإمام : ٨٢
 برج الحداد : ٨٢
 برجنديا : ٦٨
 برزخ السويس : ١٧ ، ١٢
 البردويل : ٧
 برقه : ٢٩
 البرلس : ٥٥
 برنديزي : ٦٢ ، ٤٢
 بريتاني : ٦٨
 بستان بورة : ٤٩ ، ٤٨
 بطرس (كونيت بريتاني) : ٢٠٢ ،
 ٢٢٩ ، ٢١٩ ، ٢١٦
 بطرس (الحاجب) : ٢٤٣

أموري الثاني : ٤٣ ، ٤٠
 الأناضول : ٦٦
 أندرو لونجيموه : ٢٥٥
 الأنبرور : ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣
 إنجلترا : ٩٠ ، ٧١ ، ٦٧ ، ٣٥ ، ٣٤
 أنطاكية : ٧٥ ، ٤١ ، ٣٧ ، ٤ ، ٣ ، ٨٠
 أنوسنت الثالث : ٦١ ، ٤٣ ، ٣٩
 أنوسنت الرابع : ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٢٥٧ ، ٨٩
 أوربا : ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٤ ، ٩ ، ١ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٨٥ ، ٧٣ ، ٧٠
 أودو (أسقف توسكولوم) : ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩
 أودو فراسكاتي : ٨٩
 أوغول قايميش : ٢٥٥
 أومان (المؤرخ الإنجليزي) : ٢٦٠
 أليك التركاني : ١٧٧ ، ٨٨ ، ٨٦ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٣٥ ، ٢١٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٧٥
 أيجمور : ٦٨
 إيطاليا : ٦٢ ، ٤٤ ، ٤٢
 أيلة : ٣٠ ، ٢٧ ، ٥
 إيمير بوجيه : ٣٢٢ ، ٣١٦
 أيوب : ٩ ، ٨
 الأيوبيين : ٦٦ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٣٩ ، ٨ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٨٥ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩
 (ب)
 باب اللوق : ٢٢
 بارتوليو الكريموني : ٢٥٦

البيارية : ٢١١
بيت لحم ٦٣
بيروت : ٣ ، ٥
بيسان : ٧ ، ٧٧
بيغو : ٨٦
بيلاجيوس : ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ،
١٦٤

(ت)

تبريز : ٨٦
التار : ٨٤ ، ٢٧١ ، ٣٠٧
تكريت : ٨
تل قوطة : ٨٩٤ ، ١٩٨
تلبانة : ٢٩٧
تنيس : ٦ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٥٣
تورانشاه : ٦٧ ، ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
١٦٧ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ،
١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،
٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٣٤ ، ٢٤٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ،
— ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
تيبالد الشمباني ملك نافار : ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
٨٢ ، ٧١
تيما : ٣٢

(ج)

جامع أبي المعاطي : ٤٥ ، ٥٥
جاي لوزنيان . ٣٣
جبل الطور : ٨٠
جبل موسى : ٥
جدة : ٣١
جديلة : ١٤٥ — ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ،
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

بطرس نوفييل : ٣٢٤ ، ٣٢٥
بعلبك : ٩ ، ١١ ، ٧٨ ، ٧٩
بغداد : ٢ ، ١٤ ، ٢٧ ، ٤٢ ،
٨٥ ، ٤٩
بلانش القشتالية : ٩٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،
٢٥٨
بليس : ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٢ ،
٢٤ ، ٢٦
بلدوين الأول : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧
بلدوين الثالث : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،
بلوزيوم (الفرما) : ٦ ، ١٢ ، ١٣ ،
٢٤ ، ٢٦
بنها : ٥٧
بهاء الدين بن الحميري ٢٩٧
بهاء الدين زهير : ٢٨٢ ، ٢٨٣
بور فزاد : ٦ ،
بورة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩
بوهيمند (الخامس) : ٢٤١
بولندا : ٨٤
بيبرس البندقداري : ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
٨٠ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ،
١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
١٧١ ، ١٧٤ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
٢١٧ ، ٢٣٥ ، ٢٧٤ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨
بيت المقدس : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ،
٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ،
١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٤ ،
٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ،
٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
٥١ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٦ ،
٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٥٩ ، ١٨٥ ،
٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٣٦
بيزا : ٤٢

حران : ٧٣
 حسام الدين محمد بن أبي علي الهذلي : ٧٦
 ٨٧ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٨٨ ، ٢١٥
 ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣
 ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
 ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٦
 حسام الدين بركة خان : ٧٤
 حسام الدين لؤلؤ : ٣٠
 الحشيشية : ٢٨ ، ٣٢٨
 حطين : ٣٣ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦
 حلب : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٢٢ ، ٢٧
 ٢٩ : ٦٦ ، ٦٧ ، ٩٩ ، ٧٨ ، ٨٩
 ٨١ ، ١٦٦
 حمام الزاجل : ١٥٠
 حماة : ٩ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣
 ٧٦ ، ٨١
 حصص : ٩ ، ١١ ، ٢٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٣
 ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣
 حنا الأحران : ٢٢٢ ، ٢٤٣
 حنا برين : ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦
 ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١
 ٩٠ ، ١٦٤ ، ٢٣٢
 حنا (كونت ياقا) : ٢٣٨ ، ٢٣٩
 حنا جاماش : ٣٢٥
 حنا الكركسرفي : ٢٥٥
 حنا فلانسين : ٢٤٧ ، ١٤٨
 الحوراء : ٣٠
 حوران : ٧٨
 حيريا : ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٤
 حيفا : ٤

(خ)

خان بردى : ٧٤
 الخليج الأزرق : ٤٨
 خليج العقبة : ٢٧ ، ٣٠

١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨١
 ١٨٢ ، ٣٣٨ ، ٣١٥ ، ٢٩٤
 الجربي : ٤٥
 جروسية (المؤرخ) : ٢٦٠
 الجزائر : ٤٢
 الجزيرة : ٢٩ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٦٢
 جزيرة الذهب : ٢١٧
 جزيرة الطين : ٢١٧
 جعبر : ٩
 الجليل : ٧٤
 جمال الدين الصالحى : ١٩٩
 جمال الدين محسن (الطواشى) : ٢٨١ ، ٢٨٥
 جمال الدين يحيى بن مطروح : ٨٣ ، ٣٠٣
 الجنوية : ٢١١
 الجواد : ٦٦
 جوانا الصقلية : ٣٥
 جوافيل : ٨٨ ، ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠
 ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧
 ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨
 ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٩
 ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣١٥ ، ٣٣١
 جوجر : ٥٣ ، ٥٧ ، ٢٦٨
 جودفرى دى بوبون : ٧٤٥ ، ٤
 جودفرى سارجين : ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٣
 ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٩
 جورديك : ٢٣
 چون فاليرى : ٣٢١ ، ٣٢٢
 جويوك خان : ٨٥
 جى موفوزان : ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٣٢٧
 ٣٣٥
 الجيزة : ١٦ ، ١٧

(ح)

جبرون : ٧٢ ، ٧٧

خوارزمشاه : ٧٣٠٦٦

الخوارزمية : ٦٧٠٦٦ ، ٧٣٠٧٤ ، ٧٥٠٧٤

٧٦٠٧٧ ، ٨٠٠٨٣ ، ٢٦٩

(د)

دار ابن لقمان : ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩

الداوية : ١٦ - ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٤٥

١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٧٣

١٧٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٧ ، ٣٢٩

٣٣٤

دجلة : ٨ ، ٢٩

دكرنس : ٤٨

دلكاربينو : ٨٥

دمشق : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨

٢٧ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٦٥

٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣

٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ١٦٦

١١٤ ، ٢٤٥

دمياط : ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨

٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥

٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٨٢

٨٧ ، ٨٨ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٧٩ ، ١٨٠

١٨١ ، ١٨٥ - ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠

١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٦

٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥

٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥

٢٦٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٣١٢

دوج داندولو : ٣٩

دير سان كاترين : ٥

ديوان الصحبة : ١٥٠

(ر)

درايغ : ٣٠

راؤول : ٢٢٨ ، ٣١٨

رانسيان (المؤرخ الإنجليزي) : ٢٦١

رشيد : ٤٤ ، ٤٥

ركن الدين بيبرس : انظر بيبرس البندقداري

رفع : ٦

الرملة : ٣٥ ، ٣٦

الرها : ٤٤ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ١٠٠ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠

٧٣ ، ٦٦

روبرت (كونت أرتوا) : ١٤٥ ، ١٤٧

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ - ١٦٤

١٦٩ ، ١٧٢ ، ٣١٧

روتلان : ٨٨

روسيا الجنوبية : ٨٤

الروم : ٣١ ، ٦٦ ، ٦٧

روما : ٨٥ ، ٨٦

ريتشارد قلب الأسد : ٣٤ ، ٩٠ ، ٢٠٥

٢١٠

ريشارد كورفول : ٧١ ، ٧٢

ريدافرنس : ٨٢ ، ٦٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٤

٣٠٣ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣

رينالد شاتيون : ٣٠

(ز)

زنكي : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١

زين الدين جاندر : ١٨٤ ، ٣٠٥

(س)

سابريشي : ٢٢٤

سارتاك بن باطو : ٢٥٦

سانت باتوس : ٨٨

سبط بن الجوزي : ٦٥ ، ٨٧

ستيفي : ٤٢

ستيفن أوتويكور : ٢٣٠

سردينيا : ٤٢

٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ،

٣١٠ ، ٣١٣

شمايل الشامى : ٥٣

شمس الدين الأرموى : ٦٣ ، ٦٤

الشوبك : ٥٠

شيخ الجبل : ٢٥٥

شيركوه : ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ،

١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ،

٢٣ ، ٨٢

(ص)

الصليبيون : ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ،

٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ،

٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،

٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ،

٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٤ ،

٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ،

١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،

١٧٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ،

٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ،

٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٥٢ ،

٢٦١

صاروخان : ٢٧٤

الصالح إسماعيل : ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩

الصالح أيوب (نجم الدين أيوب) : ٨ ،

٩ ، ١١ ، ٢٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ،

٧١ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،

٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٤٩ ،

١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ،

٢٣١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،

٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ،

صركيس : ٨٦

خروج : ٩

السلجقة : ٢ ، ٣ ، ٧ ، ٨ ، ٦٧ ،

السلجوقية : ٦٦

سلمون : ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ،

١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٣

سنود : ٥٤

سويسرى : ٤٢

سيرا أوردا : ٨٥

سيف الدين الطورى : ٢١٠

سيف الدين القيمرى : ١٩٩ ، ٣٠٥

سينا : ٥ ، ٥٤

(ش)

شارل (كونت آنجو) : ١٤٦ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ،

١٨٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،

٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،

٢٤٣ ، ٢٥٧

شارمساح : ٥٦ ، ٥٧ ، ١٩٨

الشام : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٨ ، ٩ ، ١٣ ،

١٤ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٥ ،

٤٩ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ،

٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ،

٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٨٤

شاور : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ،

١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣

شربين : ١٧٩

الشرق الأوسط : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ،

٤٢ ، ٤٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

٧١ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ،

٨٩ ، ٩٠

شجر الدر : ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ،

٢١٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ،

٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠١
 ٣٠٨ ، ٣١١
 الصالحية : ٨١ ، ٨٢ ، ١٦٧ ، ٢١٤
 ٢٩٦ ، ٢٩٨
 صفد : ٢٧٠
 صفورية : ٧٠
 صقلية : ٢٨
 صلاح الدين يوسف بن أيوب : ٨ ، ٩
 ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨
 ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨
 ٣٩ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٢
 ٨٤ ، ٢١٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣
 صور : ٥ ، ٣٤ ، ٧٥

(ض)

ضرغام : ١٢ ، ١٣
 ضياء الدين القيصرى : ٣١٣
 ضيفة خاتون : ٣١٠

(ع)

العادل الثاني : ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠
 العادل محمد : ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨
 ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥
 ٤٦
 العادلية : ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩
 العاصى : ٣
 العاضد : ١٢ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤
 ٢٧
 عانة : ١٦٦ ، ٢٢٢
 العباسيين : ٨ ، ١٤
 عبد الكريم : ٦٤
 عزبة البرج : ٤٥ ، ٢٢٧

المريش : ٢٧ ، ٦ ، ٥
 حسقلا : ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ٣٥
 ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥
 ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٤
 العقبة : ٥
 عكا : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠
 ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦
 ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٢
 ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠
 ٩٠ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢٢٠
 ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣
 ٢٤٤ ، ٢٥٤
 على بن السلا : ١٠
 عماد الدين زنكى : ٧
 عمرو بن العاص : ٢٧
 العياط : ١٦
 عيذاب : ٣٠ ، ٣١
 عيسى : ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٦ ، ٥٥
 العيني : ٨٨

(غ)

غزة : ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦
 ٧٧ ، ٨٢ ، ١٦٧

(ط)

طبرية : ٣٣ ، ٧٤ ، ٨٠
 طرابلس : ٣٧ ، ٤١ ، ٦٩ ، ٧٠
 ٧٥ ، ٨٠
 طفتكين : ٧
 طلخا : ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠٧
 طور سيناء : ٥٤
 طي بن شاور : ٢٠

الفرما انظر (بلوزيوم)

فرنسا : ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٣ ،

٥٩ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٩

فوكولد ميرل : ٣١٧

فرنسيس الاسيسى (القديس) : ٨٤ ،

فرنسيس : ٥٩ ، ٥١ ، ٥٠

فريزيا : ٤٤

القساط : ١٦ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٠ ،

فلسطين : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ،

١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٢٩ ،

٣٣ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ،

٥٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ،

٧٢ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ،

فوة : ٤٠ ، ٤٤

فيليب أغسطس : ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٩

فيليب (كوث فلاندر) : ٢٣٧ ، ٢٤٠

فيليب (كونت مونتفرت) : ٢٣٣

فيليب (كونت نامور) : ٢٣١

الفيوم : ١٧

(ق)

القاهرة : ٢ ، ٣ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ،

١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ،

٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ،

٣١ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ،

٤٥ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ،

٥٨ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ،

٧١ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ،

١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ،

١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،

٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٤ ،

٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٧٢ ،

٢٧٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٩

قبة الصخرة : ٦٤ ، ٧٣

(ف)

فارس الدين أقطايا : ٣٠٦ ، ٣٠٨

فارسكور : ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ١٨٧ ، ٢٠٧ ،

٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦ ،

٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٤

الفاطميون (الدولة الفاطمية) : ٢ ،

٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ،

١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ،

١٨ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٧ ،

فاقوس : ١٤ ، ١٦

فتح الدين بن أبي الحوافر (الحكيم) :

٢٨١ ، ٢٨٢

فخر الدين إبراهيم بن لقمان : ٢٠١

فخر الدين بن أبي ذكرى : ٣٠٥

فخر الدين يوسف بن حمويه : ٦٢ ، ٦٣ ،

٨٠ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،

٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣

فخر الدين يوسف بن النعمان : ٢٠١ ،

٣٠٣

الفرات : ٢ ، ٤ ، ٩ ، ٧٤ ، ٧٩ ،

فردريك الثاني هوهنشتاوفن : ٥٥ ،

٥٦ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ،

٧٢ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩١ ،

٢٠٢ ، ٢٠٥

الفرس : ٨٤

الفرنجة : ١٥٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،

٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ،

٣٠٥ ، ٣١٢

قبة فاتح الأسمر : ٤٥

قبرص : ٣٧ ، ٤١ ، ٨٠ ، ٢٥٥

القدس : ٦٤ ، ٦٥

قراقوم : ٨٥

القسطنطينية : ١ ، ٢ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٤٠

٤٠

قطر : ٣٠٧

القلعة : ٣٠

قليوب : ٣٠٩

قوص : ٣١

قيصرية : ١٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥

(ك)

كامل بن شاور : ١٨ ، ٢٠

الكامل محمد : ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨

٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥

٦٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤

الكرك : ٥ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٠ ، ٦٧

٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧

٨١ ، ٧٩ ، ٧٧

كشلاوخان : ٧٤

كال الدين : ٦٣

كنيسة القيامة : ٦٣

كوكب الهواء : ٨٠

كونت سواسون : ١٥٧ ، ٢٢٩ ، ٣٢٤

٣٢٤

كونت شاتيون : ١٩٤ ، ١٩٨

كوند كبير : ٢٩١ ، ٢٩٢

كوفراد هونشتافن : ٦٢ ، ٩٠ ، ٢٥٧

٢٥٧

كولونيا : ٤٢

كيفاحصن : ٦٧ ، ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٠٤

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٨٨

(ل)

لافوربي : ٧٥

لوزنيان : ٣٧

لويس التاسع : ٦٠ ، ٧١ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٤٥

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢

١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٨

١٧٢ - ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٩٠

١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦

١٩٧ - ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩

٢١١ - ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥

٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ - ٢٥٤

٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥

٣١٥ ، ٢٦٥

لويس بن لويس : (لويس التاسع) ٨١

لويس دوق بافاريا : ٥٦ ، ٥٩

لويس السابع : ٩

لؤلؤ ٣٢

ليون : ٨٤ ، ٨٩

(م)

ماثيو الباريسي : ٨٨

ماريا ابنة أموري الثاني : ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦

مافويل كومنين : ١٤ ، ١٨ ، ٢٤

مديرية الشرقية : ١٦ ، ٨١

المدينة المنورة : ٣٠ ، ٣٢

مرجريت البروفنسالية : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٤٣

٢٢٢ ، ٢٤٣

مرسيليا : ٤٢ ، ٦٨

الهلة الكبرى : ٥٧

منية سمود ١٨٧
ميث الحولى عبدالله : ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩
٢١٠
ميث الفرقا : ١٥٧

(ن)

نابلس : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٧
نابليون بونابرت : ٣٦
النار الإغريقية : ١٤٦ ، ١٧٣ ، ١٧٣
الناصر داود : ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤
الناصر يوسف : ٦٧
نجم الدين بن شيخ الإسلام : ٢٢٦
النحاصيين : ٨٢
النقب : ٢٥
نهر الأردن : ٧٢ ، ٧٧
نهر بردى : ٧٧
النوبة : ٢٩
النوبيين : ٣٤
نور الدين محمود : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ :
١٣ ، ١٤ ، ١٥ : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ : ٢١ :
٢٢ ، ٢٧ ، ٢٨ : ٢٩ : ٣٦
النويرى : ٨٨
نقر : ٦٨
نيقولا : ٤٢
النيل : ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٤٥ ، ٤٦ :
٤٨ : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ : ٣٨ : ٨١ :
٨٢

(هـ)

هنرى تورون : ٣٣
هنرى الثالث : ٨١ ، ٧٢ ، ٩٠ ، ٩٧ :
هنرى روناي : ٣٢٦

اهجر : ٨٤
المستمصم (الخليفة) : ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥١ :
المسجد الأقصى : ٦٣ ، ٧٣
مسجد النصر : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٩٠ :
٣٠٠
المسيحية : ٨٣
المسيحيين : ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٥
معين الدين حسن : ٧٧ ، ٧٨
المطرية : ٢٠
المظفر صاحب مياقارتين : ٦٧
المغول : ٦٦ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٥
المقریزی : ٣٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٤ :
٧٩ ، ٨١ ، ٨٧
مكة : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢
المنزلة : ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧
المنصورة : ٣٧ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ :
٦٠ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٥ -
١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ - ١٥٨ :
١٦٠ - ١٦٧ ، ١٦٥ - ١٧٢ :
١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٩ :
١٨٠ - ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٨ ، ١٩٩ :
٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ :
٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ :
٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ :
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ :
٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ :
المنصور إبراهيم : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ :
٧٩ ، ٨٣
منكوخان : ٢٥٦ ، ٢٥٧
موسى : ٥٥
الموصل : ٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٦ :
٣٠١
موفق الدين الحموى (الحكيم) : ٢٧٣
ميث الحولى : ١٩٨ ، ٢١٠
النيا : ١٧

هواندا : ۴۴

هونوریوس : ۴۴

هیو : ۱۶۲، ۱۴۵، ۲۶

(و)

وادی الراين : ۴۲

والتر شاتیون : ۳۳۰

والتر لاهورنی : ۳۳۶

وليام (کونت فلاندر) : ۲۱۶

وليام الثانی : ۲۸

وليام الروبریکی : ۲۵۶

وليام سالسبری : ۱۵۲ ، ۱۵۳ ، ۱۵۶ ، ۱۵۷

وليام سوناق : ۱۴۷ ، ۱۵۲ ، ۱۵۶ ، ۱۵۷

۱۵۷ ، ۱۵۳ ، ۳۳۴ ، ۳۳۵

وليام الصوری : ۱۸ ، ۱۹

وليام لونجیموه : ۲۳۵

وليام نانجی : ۸۸

(ی)

یافا : ۱۰ ، ۳۵ ، ۶۵ ، ۶۹ ، ۷۰ ، ۷۲

۷۴ ، ۷۶ ، ۷۷

یوحنا بیان دلکاربینو : ۸۴

ایمن : ۲۹ ، ۳۱

ینیع ، ۳۰

یوسف الایوبی (الناصر صاحب حلب) :

۲۴۴ ، ۲۴۵ ، ۲۴۷ ، ۲۴۸ ، ۲۵۰

۲۵۱ ، ۲۵۳

یوسف الدین بن عدلان : ۲۸۵

یوسف الطوری : ۲۱۵ ، ۳۰۵

یولاندا : ۴۶ ، ۶۱ ، ۶۲ ، ۹۰

الجمعية هـؤرت شبة العربى المتبحر

مطبوعات

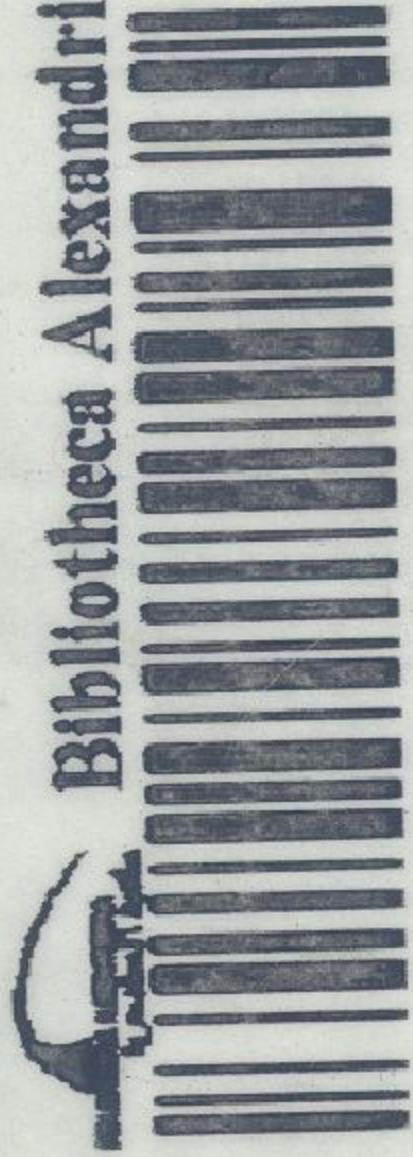
المجلس الأعلى لى الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

— ٢٧ —

القاهرة

١٣٨١ هجرية — ١٩٦١ ميلادية

Bibliotheca Alexandrina



0458449